

تَارِيخُ اِسْتِبْأَانِ تِلْكَ اِسْلَامِيَّةٍ

او

كِتَابُ اَعْمَالِ الْاَعْلَامِ
فِي مَنْ بُويعَ قَبْلَ الْاِحْتِلَامِ مِنْ مُلُوكِ الْاِسْلَامِ

لِلْهَيْزَلِيِّ الْوَزَرَئِينَ لِسُلْطَانِ الْوَلَدِيَّةِ الْخَطِيبِ السُّلْطَانِيِّ

تَحْقِيقُهُ وَتَعْلِيلُهُ

ا. لِيْفِي بْرُوفَنْسِيَال

اَسْتَاذُ اَلْمَحَضَّرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمُسْتَرْبُونِ
مُذِيرُ مَعْهَدِ الدِّرَاسَاتِ الْاِسْلَامِيَّةِ بِجَامِعَةِ بَارِيسِ

دَارُ الْمَكْشُوفِ 2

محتويات الكتاب

ز	مقدمة المحقق
٤	فصل في الإلمام بشيء من إطرء الأندلس
٧	دولة عبد الرحمن بن معاوية أوّل من ملك الأندلس من بني أميّة
١١	دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
١٤	دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
١٨	دولة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
٢٠	دولة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
٢٣	دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
٢٦	دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
٢٨	دولة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله
٣١	إيجاز خبر عمر بن حفصون
٣٤	ذكر شيء من أخبار بني حجاج
٤١	دولة المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر
٤٣	دولة هشام المؤيد بالله بن الحكم
٥٩	أيام المنصور محمد بن أبي عامر
٨٣	دولة المطفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر
٨٩	دولة عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر
١٠٩	دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر
١١٤	أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر
١١٥	أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية
١١٦	أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في المرة الثانية

١٧٢	دولة المستعين أحمد بن محمد بن سليمان بن هود
١٧٥	أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود عماد الدولة
١٧٥	أيام أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود
١٧٦	دولة بني دنون بطليطة وما إليها
١٧٧	أيام إسماعيل بن دنون بطليطة وما إليها
١٧٧	أيام يحيى بن إسماعيل بن دنون بطليطة وما إليها
١٧٩	أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن دنون
١٨٠	أيام المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس بطليطة
١٨١	عودة يحيى بن دنون إلى طليطة
١٨٢	ذكر مدّة بني مَسْلَمَة المعروفين ببني الأفطس
١٨٣	دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس
١٨٣	دولة مظفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مَسْلَمَة بن الأفطس
١٨٥	دولة المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس
١٨٦	أيام المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس بحصن شانجش
١٨٩	ذكر مدّة بني صَاحِد الأُمراء بالمرية
١٩٠	أيام معن بن صَاحِد
١٩٠	أيام محمد بن صَاحِد المعتصم بالله
١٩٢	أيام معز الدولة بن المعتصم بالله أبي يحيى بن صَاحِد
١٩٣	ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر
١٩٣	دولة محمد بن مظفر عبد الملك بن محمد المنصور الملقب بالمُعْتَصِم
	أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور
١٩٤	ابن أبي عامر
١٩٥	أيام عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر
١٩٦	ذكر أيام الدولة المنذرية
٢٠١	ذكر شيء من حديث بني طاهر بترسية

١١٩	أيام سليمان بن الحكم بن سليمان في المرة الثانية
١٢٨	دولة علي بن حمود بقرطبة
١٣٠	دولة القاسم بن حمود بقرطبة
١٣٠	بيعة المرتضى من بني أمية
١٣٢	دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني بقرطبة
١٣٣	دولة القاسم بن حمود الحسني بقرطبة في كرّته الثانية
١٣٤	دولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
١٣٥	بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن
١٣٦	دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة كرّته الثانية
١٣٨	دولة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر
١٤٠	ذكر تلخيص الكلام في الأمراء من بني حمود
١٤٤	ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الحلائف
١٤٥	ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها
١٤٨	أيام أبي الوليد محمد بن جهور
١٤٩	أيام عبد الملك بن محمد بن جهور
١٥٢	ذكر أيام بني عباد بإشبيلية وغيرها
١٥٣	ذكر أيام القاضي محمد بن عباد أوّل ملوكهم بإشبيلية
١٥٥	أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد
١٥٧	دولة المعتمد على الله محمد بن عباد
١٥٩	خبر المعتمد بن عباد مع ابن عمار
١٦٣	بقية أخبار المعتمد بن عباد
١٧٠	ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما إليها
١٧٠	أيام سليمان بن هود
١٧١	أيام المقتر بالله أحمد بن سليمان بن هود
١٧٢	أيام المؤمن محمد بن المقتر أحمد بن سليمان بن هود

ذكر شيء من حديث ابن عبد العزيز ببلنسية
 أيام القاضي أبي أحمد بن جحاف رئيس بلنسية
 ذكر شيء من أخبار بني رزين
 ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البنت
 ذكر بعض صغار الرؤساء بالأندلس
 ذكر من تيسر من ملوك الموالي الأمويين والعمريين
 أيام الفتى خيران العمري
 أيام الفتى زهير العمري
 أيام أبي الجيش مجاهد العمري
 أيام علي بن مجاهد إقبال الدولة
 أيام الأميرين مبارك ومظفر العمريين وخبر خيرة الصيقل العمري
 ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية
 دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي
 أيام زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي
 دولة حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد
 دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها
 دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس
 أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس
 أيام شيخ زنادة محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي
 أيام إسحاق بن محمد بن عبد الله بقرمونة
 خبر سائر رؤساء الطائفة البربرية
 ذكر تصيير أمر الأندلس إلى ملوك لمتونة المدعوبين المرابطين
 دولة الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس
 دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بالأندلس
 دولة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بالأندلس

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين اللتونيين من الملوك

والرؤساء والثوار
 أيام أبي القاسم بن قسي مدعي الهداية
 أيام أحمد بن حمدين الأمير القاضي بقرطبة
 أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بمالقة
 أيام أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية
 أيام عبد الرحمن بن رشيقي بمرسية وما إليها
 أيام الأمير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر بمرسية
 أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الأمير القاضي بأربونة
 أيام القاضي المتأمر يوسف بن عبد الرحمن بن جزي
 أيام الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي ابن مردنيش
 أمير شرق الأندلس
 أيام يوسف بن هلال صهر ابن مردنيش
 أيام المتأمر إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن هميشك
 أيام أحمد بن ملحان برادي آش
 ذكر تصيير أمر الأندلس إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعوبين
 بالموحد بن
 دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس
 دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالأندلس
 دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس
 دولة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس
 ذكر الثوار والطوائف والمتملكين من بعد دولة الملوك آل
 عبد المؤمن بالأندلس
 بقية أخبار بني مردنيش بشرق الأندلس
 أيام الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وبنيه

مقدمة المحقق

نُتِبَ في هذا السفر قسماً كبيراً من كتاب «أعمال الأعلام في من بوبع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»، وهو القسم المتعلق بتاريخ إسبانيا في العهد الإسلامي.

وكتاب «أعمال الأعلام» من آخر التآليف العديدة التي صنفها — طيلة حياة مقعمة بالحوادث — رجل الدولة والأديب الغرناطي الشهير الذي عاش في القرن الرابع عشر المسيحي، أعني لسان الدين محمد بن الخطيب. وقد وصف هذا الكتاب أو نشر منه نبذة عدة مستشرقين وهم: ف. كودرا F. Codera، وفانيان E. Fagnan، وح. ح. عبد الوهاب، وأخيراً م. م. أنتونيا M. M. Antuna، فذكر كل بدوره الظروف التي ألفت فيها. ولنكتف — مع إحالة القاريء على دراساتهم — بتذكير موجز لتلك الظروف:

فبعد أن مثل ابن الخطيب — طوال سنين عديدة — دوراً هاماً في البلاط الناصري بغرناطة كوزير للسلطان محمد الخامس، اضطرتته وشايات أعدائه إلى الهجرة من إسبانيا إلى المغرب حيث حلّ بتلمسان لا ئذاً بالسلطان المريني أبي فارس عبد العزيز. فأحسن ذلك الملك ضيافته وأبى تسليمه إلى حكومة غرناطة التي كانت تلح في طلبه. ولكن أبافارس مات في السنة التالية (٧٧٤ هـ — ١٣٧٢ م) وبوبع مكانه ابنه أبو زيّان محمد السعيد ولم يبلغ الرابعة من عمره. واجتهد بن الخطيب في كسب عطف الوصي على العرش المريني الوزير أبي بكر بن غازي. وفعلاً تمتع ابن الخطيب في ولاية الملك الطفل القصيرة بالأمن التام. ولكن لم تطل المدة حتى خلع أبو زيّان وولي مكانه أبو العباس المستنصر (٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م) فاشتد خوف المهاجر المسكين، وحق له الخوف إذ انتهى به الأمر إلى أن سجن بفاس، ثم خنقه بسجنه، في بعض الليالي،

٢٧٤	أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب بمرسية
٢٧٥	أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي بمنورة
٢٧٦	أيام أبي عمر حكم بن سعد بن حكم الأموي بمنورة
٢٧٧	دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي
٢٨٦	دولة الأمير محمد بن نصر الغالب بالله (مبتور)
٢٨٧	ذكر الخلاف بين ابن نصر وبين بني اسقيلولة
٢٩١	حديث امتسك بني الحكم برندة
٢٩٢	خبر انتراء الرئيس أبي الحجاج بن نصر بوادي آش
٢٩٤	دولة الأمير أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر
٢٩٥	دولة محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٤	دولة يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر
٣٠٦	دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٧	دولة إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٨	دولة محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر
٣٠٩	دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر
	ذكر التعريف بما أمكن من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار
٣٢٢	الفهرس الأول في أسماء الرجال والنساء
٣٣٩	الفهرس الثاني في أسماء الأماكن
٣٦١	الفهرس الثالث في أسماء القبائل والعشائر والأجناس
٣٦٨	الفهرس الرابع في أسماء الكتب الواقعة في هذا الجزء
٣٧٠	

رسل' أحد أعدائه الحريصين على هلاكه .

وقد كان تأليف كتاب « أعمال الأعلام » في الفترة القصيرة التي مرت بين تقليد السلطان المريني الطفل أبي زيان وبين خلعه ، أي بين سنتي ٧٧٤ و ٧٧٦ (١٣٦٢ - ١٣٧٤ م) . وعنوان الكتاب نفسه يدل على الغاية التي رمى إليها ابن الخطيب بتأليفه . فقد أراد أن يهديه إلى حاميه ، السلطان ووزيره الوصي . فأحب أن يخصص كتاباً لذكر ولاية جميع ملوك المسلمين الذين بويعوا قبل سن الاحتلال . ولم يكن ذلك ، طبعاً ، إلا مناسبة . فقد تجاوز ابن الخطيب ، من أول وهلة ، ذلك الإطار التاريخي الضيق وأخذ يجمع المواد لتاريخ عام كبير يشمل دول الإسلام ويمكن أن يكون شبه مقابل لتاريخ معاصره ابن خلدون ويحل فيه المغرب وإسبانيا المحل الأهم .

يمكن القاري أن يجد في « مشاركة » السيد ح . ح . عبد الوهاب في « ذكرى مرور مائة سنة على ميلاد ميشال أماري Centenario de Michele Amari » تفصيل عناوين الأبواب التي اشتمل عليها القسم الأول من كتاب « أعمال الأعلام » وهو المتعلق بالشرق ، والقسم الثالث المتعلق بشمال أفريقية وبصلية . وهذا القسم الأخير يبدو أنه بقي غير تام : فالدولة الموحدية لم تحل فيه بالمكان اللائق بها ولم يُعرض فيه إلى تاريخ بني مرين وبني عبد الوادي وبني حفص . وكل ذلك يدل - كما لاحظ السيد ح . ح . عبد الوهاب - على عجلة المؤلف الذي - إن صدقنا ما جاء في بعض المخطوطات - يكون قد ألف قسماً من كتابه ، إن لم يكن جميعه ، في أربعين يوماً .

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى القسم الثاني الخاص بتاريخ إسبانيا المسلمة ، وهو أهم أقسام الكتاب ، وذلك يتجلى من أول نظرة تلقى على الكتاب . وإذا كان ابن الخطيب يمر سريعاً بما حدث في إسبانيا قبل القرن العاشر المسيحي متبعاً دون كبير اختلاف « كتاب البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ،

فهو يعالج تاريخ ما يلي ذلك باطناب ودقة لا نجد لها عادة في التواريخ المنشورة إلى يومنا هذا .

وقد أشير منذ زمن إلى أهمية القسم « الأندلسي » من كتاب « أعمال الأعلام » . فبند سنة ١٨٩٢ نبه إليها المستشرق ف . كودرا F. Codera وعبر عن رجائه في أن ينشر نص ذلك القسم . وذلك الرجاء هو الذي حرصنا على تحقيقه يوم أمكننا أن نعتد المخطوط الموجود بمكتبة جامع القرويين بفاس وهو ، بلا منازع ، أحسن المخطوطات التي يمكننا أن نتصرف فيها اليوم . وقد تيسر لنا أن نتحقق أن المخطوطات المعروفة لتاريخ ابن الخطيب (أي مخطوطات القرويين والجزائر وتونس ومجريط) تنتمي كلها إلى أسرة واحدة وإن النقص الموجود فيها لا يختلف بما فيه الانقطاع الفجائي لسياق التاريخ ، ذلك الانقطاع المشار إليه هنا في الصفحة ٢٨٦ . ولذلك السبب لم يسهل لنا تعدد النسخ اثبات النص ، وهو نص يتصف في أكثر الأحيان بإيجاز كبير وبنزعة أدبية ليست نزعاً غالب المؤرخين المنتسبين إلى المغرب .

ولقد نفذت منذ مدة نسخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب . ولذلك قبلت بسرور طلب الشيخ فؤاد حبش مدير دار المكشوف في بيروت عندما رغب الي أن أضع طبعة جديدة لهذا الكتاب تحت تصرف من يهتمون بتاريخ الأندلس . وتمتاز هذه الطبعة الجديدة بأن أكثر الكلمات فيها مشكول . وقد بذلت عناية خاصة بضبط حركات الأعلام التي كثيراً ما لا يحسن قراءتها المشتغلون بالتاريخ في الشرق .

وهذا المؤلف الأخير نفسه في :

Catalogue des Manuscrits Arabes de la Bibliothèque - Musée d'Alger,
Paris, 1893. p. 449.

— وعن مخطوط مكتبة مجمع التاريخ بجربيط انظر كودرا F. Codera
المرجع نفسه المذكور سابقاً .

— وعن مخطوطي مكتبة جامع الزيتونة بتونس انظر :

M. Roy, Extrait du Catalogue des manuscrits de la Grande
Mosquée de Tunis, Vol. I, Tunis, 1900, No 4936 et No 4937.

ج — الأقسام المنشورة والمترجمة :

١ (الأبواب المتعلقة بجاهد أمير دانيه وابنه اقبال الدولة) في هذه الطبعة
من ص ٢١٧ إلى ص ٢٢٢) انظر :

F. Codera, Mochéhid, conquistador de Cerdana (Centenario Michele
Amari, Palerme, 1910, vol. II, pp. 130 - 133).

٢ (قائمة الأبواب : نص الأبواب المتعلقة بالعبيدين وبني زيري من ملوك
أفريقية ؛ والأبواب المتعلقة بتاريخ أفريقية في :

حسن حسني عبد الوهاب :
H. H. Abdul - Wahab,
Contribution à l'Histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile (Ibid.,
vol. II, pp. 427 - 482).

٣ (الأبواب المتعلقة بثوار المريدن في آخر أيام دولة المرابطين) في هذه
الطبعة ص ٢٤٨ - ٢٥٢) في :

David Lopes, Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano,
Lisbonne, 1911, pp. 130 - 137.

٤ (الباب الخاص بملوك اسبانيا المسيحيين) في هذه الطبعة ص ٣٢٢ -
٣٣٨) في :

M. M. Antuna, Una version arabe compendiada de la « Estoria de
España » de Alfonso el Sabio (Al-Andalus, vol. I, 1933, Madrid -
Grenade, pp. 105 - 154).

انظر استمراضي لذلك المقال في :
Hespéris, t. XVIII, 1934, p. 102.

ك

ثبت المراجع

أ — ذكر « كتاب أعمال الأعلام » المؤلفون المغاربة الآتية أسماؤهم :

— المقرري في « نفح الطيب » ط . القاهرة ١٣٠٢ - ١٣٠٤ هـ . الجزء
الرابع ، ص ٢٤٤ .

— والمقرري أيضاً في « أزهار الرياض » ط . تونس ١٣٢٢ هـ . الجزء
الأول ، ص ١٧٧ .

— والافرائي في « نزهة الحادي » ط . هوداس Houdas باريس ١٨٨٨ ،
ص ٢٥٩ .

— والكتّاني في « سلوة الأنفاس » ط . فاس ١٣١٠ هـ . الجزء
الثالث ، ص ١٨٩ .

— والناصري في « كتاب الاستقصاء » ط . القاهرة ١٣١٢ هـ . الجزء
الثاني ، ص ١٣٣ .

ب — وصف المخطوطات :

— عن مخطوط مكتبة جامع القرويين أنظر :

أ . بل وعبد الحي الكتّاني ،
A. Bel et Abdal-Haiy al-Kattānī ,
Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de la Mosquée d'El -
Qaraouiyyine à Fès, Fès 1918, p. 101 (No 1286).

— وعن مخطوط المكتبة القومية بالجزائر (عدد ١٦١٧) والنسخة التي
نسخت لكودرا Codera أنظر :

F. Codera, Mision Historica en Argelia y Tunez, Madrid 1892,
p. 155 sqq, 177 - 178.

E. Fagnan, dans Revue Africaine, 1890, XXXIV, p. 259 - 262.

ي

د - انظر كذلك : Brockelmann G. AL. II, p. 262 (4).

A. Prieto Vives, Los Reups de taifas, Madrid, 1926.

إن كتاب أعمال الأعلام لم يذكر في المقال المخصص لابن الخطيب بقلم

C. F. Seybold في دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢١ .

كتاب أعمال الأعلام
فيمَن بُويع قبل الاحتِلام
مِن ملوك الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال لسان الدين بن الخطيب

(مفتتحاً القسم الثاني من كتابه المسمى بأعمال الأعلام)

(فينبى بوبع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام)

(وهو قسم يتعلق بأخبار الجزيرة الأندلسية)

ويتضمن بالإشارة إلى من دال بالأندلس من جهة المغربية ، واقتطاعها عن الممالك الشرقية ، والدول العباسية ، والشيعية العلوية ؛ وفيهم ملوك بني أمية ، وملوك بني حمود الأدارسة ومن بعدهم من ملوك الطوائف ، والثوار أولي البهرج الزائف .

نقول بعد استعانة الله : قد كان الأولى بنا أن نذكر بعد دول الملوك بالشرق من يتصل بهم من حدود البلاد الغربية ، من الجهات الإفريقية ، وما وراءها غرباً إلى البحر المحيط ؛ وبعد ذلك ، نذكر على الأندلس بالذكر ، ونصرف القول ، بعد الفراغ من متصل البر ، إلى ذكر ما وراء البحر ؛ لكننا راعينا في ذلك غرضين : أحدهما المناسبة في الأموية ، فإن ملوك الأندلس منهم إنما هم بقايا الدولة بالشرق ، وفروع عن أصولها ، وقل من جمهورها ، ومقتطع من جرثومتها ؛ فقد كان ملك الأموية فتحها ، وأمرؤهم ملوكها ، ثم استقر بها ذريتهم ، فأقاموا رسماً غير خامل القدر ، ولا مغفل الذكر . والثاني ما بنينا عليه من الختم بالدولة المرينية ، لنبدأ الكتاب بذكر السلف الواجب الحق ، ونختمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحق ؛ فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك ، وعقبتنا بالملك ، ونختمنا منهم بختام المسك . وولينا المعينة ما اعتذرنا عنه من الترتيب ، انبرأ من

التثريب ، وشأننا في هذا القسم قريب ، مما بئتنا عليه من الاختصار والتثريب ، إلا ما كان المستظهر والغريب ، أو المتأخر القريب ، فقلنا خلوتنا من الإسهاب ، وتزيين الكتاب بالآداب ؛ وحسبنا الله ميسر الآراب ! لا إله إلا هو !

فصل في الإمام بشيء من إطرء الأندلس

ليعلم أن وطن الأندلس حظ من المعمور كبير ، وإنما سمي جزيرة بحكم المجاز لاعتراض البحر الشامي الخارج من دائرة البحر المحيط من قبل الزقاق بطنجة قاطعاً بين هذه الأرض الأندلسية ، وبين ما يجاورها من البر المتصل قبله ، إلى أن يتصل إلى الخليج بأحواز القسطنطينية . وقد اختلف طباع هذه الأرض لسعة خطتها ، وأخذها من الأقاليم بمحظوظ ؛ فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل مائلاً إلى البرد . وقد خصها الله من الري ، وعقد السقيا ، ولذاذة الآفات ، وفراة الحيوان ، ودرور المياه ، وكثرة الفواكه^١ ، ونبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وبيضاض ألوان الإنسان ، ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفاذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتار ، بما حرمة الكثير من الأقطار بما سواها^٢ . حدثني بعض من كنت أردده إلى ملوك النصارى بأعماق أرضها ؛ فقال : مررت في مرحلة واحدة بأزيد من ثلاثمائة بلد في نهاية الإحكام ، وحسن الوضع ، وتشييد البناء ، كأنها سوسان الرياض ، يومض برقها في مدهام الغياض ، لعدم الصحاري والمفاوز بذلك الوطن . وقيل إن ذرعه ستة أشهر . وقال لي بعض الفضلاء من أصحابنا ، الذين جلبوا الأشتار ، وخبرها الأقطار ، وصحبوا الحداة والقطار ، وهو حجة في الأخبار ، ومدرك الأنظار : اعلم أن الأندلس ، بالنسبة إلى ما وراء

١ ق وج : « ودرور الفواكه وكثرة المياه » .

٢ ذكر المقري هذا الوصف في « نفع الطيب » و « أزهار الرياض » (ج ١ ، ص ٦١) .

البحر كله ، تل وحضارة ؛ والجميع صحراء متفاضلة الأحوال في البداوة . وإن قدرت أن قطرنا من الأقطار التي تقع عليها عينك بعده ، يوازنها أو يشبها في ظرف أو حسن أو زينة أو إحكام صناعة أو فلاحه ، فاعتقد أنك غلظت في الأمر ، وأن الخبر غير الخبر .

قلت : وهذا أيضاً غلط ؛ فإن استحسان الأوطان لا يملك فيه زمام الهوى . وممن فتن بالأندلس فتنة هذا أبو إسحق بن خفاجة في قوله^١ : [البسيط]

ما جنة الخلد إلا في دياركم وهذه كنت لو خيرت أختار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

ولما فاض سيل الإسلام ، وبلغ ملك الأمة المحمدية ما زوى لنبيها (صلى الله عليه وسلم) من الأرض ، وعبرت سيوف الدعوة العربية البحر إلى الأندلس ، ونظروا إلى ما وراء البحر في خطتها من بلاد طيبة ، وبركات صيبة ، اغتبطوا ، وارتبطوا ، وتمهدوا ، واستقرؤوا ، وتوالدوا ، ونسوا أوطانهم ، وألقوا أعطانهم . واستقام للإسلام بها ملك كبير ، وساطان شهير ، قد انفرد بعموم خيره ، عن غيره ، وغني بما حواه ، عن سواه ؛ ولذلك ما نقل عن منصور بني العباس أو مثله ، أنه قال ، وقد جرى ذكر بعض أصداده من ملوكها : « وما الذي يقال في رجل يركب من نتاجه ، ويلبس من ديباجه ، وينفق من خواجه ؟ » قلت : ولو شاء لزاد : ويأكل من علاجه ، ويتقرب إلى الله بجهد أعلاجه ، إلا أنها اليوم لم يبق لها إلا علالة لا تروي غلة ، ونفاضة مزاد لا يحسن بها قلته ، لم تحفظ دماءها إلا فتن شعلت العدو ، وشرعت الهدو ، لظنف الله مير بها مر النسيم بقدرته !

وحديث الفتش ، وما فتح الله على الإسلام من المنع ، وأخبار ما أفاء

١ راجع مق (ط بولاق) ج ٤ ، ص ٦٧٤ ؛ « شعر ابن خفاجة » تحقيق كرم البستاني

ص ٨٦ . والبيتان هما الآخران من قطعة ثلاثة أبيات . ونص الأول :

يا أهل أندلس بالله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار

الله من خير ، على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ،
تملؤل قصاص وأوراق ، وحديث أفلول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ،
وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في حانوت قشاش . والقصد أنه دخلها
من الأمراء ، من لدن افتتاحها على عهد ولد عبد الملك بن مروان ، إلى لحاق
عبد الرحمن بن معاوية بجدد الدولة الأموية بها ، نحو من عشرين رجلاً ،
منهم طارق بن زياد ، الذي تولى افتتاحها ، وإليه ينسب جبل الفتح
المدعو بجبل طارق ، وخبره بها شهر ، مولى موسى بن نصير ، فكانت
إمارته فيها سنة ؛ ثم موسى بن نصير البكري ، وإليه ينسب الفتح ، إذ
كان طارق من قبله ؛ وهو الذي تم ما بدأه بها ، فملك هو وابنه عبد العزيز
ثلاث سنين ، ثم قتل بالغنائم ، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان سلطانه
الذي ولأه مريضاً يجود بنفسه ؛ وولي الأمر بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ؛
فأشار على موسى بن نصير بالتربص ليكون دخوله في أيامه إذا قضى الوليد
نحبه ؛ فأبى عليه لصلابة موسى ، ودينه مشهور وفائه ؛ فلما ولي ، آسفه ،
ونكبه ، وقتل ولده بما هو معلوم . ثم ولي أيوب بن حبيب اللخمي ابن
أخت موسى بن نصير ؛ فملك ستة أشهر ؛ ثم دخلها الحر بن عبد الرحمن
الثقفي ؛ فملك سنة وسبعة أشهر ؛ ثم دخلها السمح بن مالك الخولاني ؛
فملك سنتين وسبعة أشهر ؛ ثم دخلها عنبسة بن سعيتم الكلبي ؛ فملك
أربع سنين وخمسة أشهر ؛ ثم دخل يحيى بن سلامة الكلبي ؛ فملك سنة
وسنة أشهر ؛ ثم دخل حذيفة بن الأحوص القنسي ؛ فملك ستة أشهر ؛
ثم ولي عثمان بن أبي نسعة الحثعمي ؛ فملك ستة أشهر ؛ ثم ملك الهيثم
ابن عبيد الكلبي ؛ فملك أربعة أشهر ؛ ثم ولي عبد الرحمن بن عبيد الله
الغافقي ؛ فملك سنتين وسبعة أشهر ؛ ثم ولي عبد الملك بن قطن الفهري ؛
فملك ثلاث سنين وشهرين ؛ ثم دخل عقبة بن الحجاج السلولي ؛ فملك

١ راجع هذا الكلام منسوبة إلى ابن الخطيب في «الفتح» و«أزهار الرياض» (ج ١، ص ٦١)
للمقري .

خمس سنين وشهرين ؛ ثم دخل الفهر بن قطن مرة ثانية ؛
فملك سنة وشهراً ؛ ثم دخل بلنج بن يشر القشيري صاحب الطالعة
البلجيّة من أهل الشام ، مفلولاً قد كسره البربر في خبر مشهور ؛ فملك
سنة أشهر ؛ ثم تولى ثعلبة بن سلامة العاملي خمسة أشهر ؛ ثم ولي أبو
الخطار حسام بن خرار الكلبي ؛ فملك سنتين وثمانية أشهر ؛ وكانت في
أيامه حروب شهيرة ؛ ثم ولي ثوابة بن سلمة الجذامي ؛ فملك سنتين
وشهرين ؛ ثم ولي الأمر يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ فملك تسع
سنين وأحد عشر شهراً ؛ واستقر له ملك الأندلس لمصاهرة الصمّل بن
حاتم ، إلى أن طرده من قدوم صقر بني أمية عبد الرحمن بن معاوية ما
كدر شربه ، وروّع سربه ، عادة الأيام ، والبقاء لمن انقرد بالدوام -
سبحانه لا إله إلا هو !

دولة عبد الرحمن بن معاوية

أول من ملك الأندلس من بني أمية

قالوا : لما أتيح للعباسية الظفر بمروان بن محمد الجعدي بأحواز مصر ،
وانقرضت دولة بني أمية ، وصاحت بهم الأيام ، ووقع الطلب عمّن أفلت
منهم ، كاث عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك هذا بمن شرده
الخوف ، واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب .

وقال ابن أبي الفياض ، مخبراً عنه عن نفسه ، قال : « سمعت مسلكة
ابن هشام بن عبد الملك بن مروان (عمّي) يقول يوماً لجدّي هشام بن
عبد الملك ، وهو خليفة ، وقد نظر إليّ : « هذا هو الذي يحيي ملك بني
مروان بالمغرب بعد ذهاب ملكنا بالشرق ! » فكان جدّي يفضّلني من
حينئذ ؛ وما زالت تلك الكلمة تعمل في قلبي إلى أن انخرم ملكنا بالشرق ؛

فخرجت 'أريد' المغرب ؛ فملك 'الأندلس' .

قالوا : واجتاز عبد الرحمن ، وقد لحق به بدر مولاة بشيء من الذهب وجوهر بعثت به أخته إليه ليعيش به . ونذر به أمير إفريقية عبد الرحمن بن حبيب ؛ فأفله . واستقر بمغيلة ، وكتب من ساحلها إلى من بالأندلس من موالي بني أمية وصنائع دولتها ؛ فاستجابوا له ، واشتري له بساحل مدمير مركب عاد إليه فيه بدر مولاة ، في طائفة من الصنائع ؛ فركب فيه البحر ، واحتل بمصرى المنكب غرة ربيع الأول من سنة ١٣٨ . ثم تحرك إلى الشيرة ، واستجاب الناس إلى دعوته . ولما كملت لديه الجيوش ، عقد اللواء ، ونهض نحو قرطبة . وكان الأمير يوسف الفهري يومئذ غالباً عنها ، محاصراً مدينة سرقسطة ؛ فلما بلغه الخبر ، قفل إلى قرطبة ، فنزلها . وأقبل عبد الرحمن ، فنزل بصفة النهر منها . ودارت بين الفريقين محاورة أجلت عن اللقاء يوم الجمعة ، وهو يوم الأضحى من السنة . واستدعى عبد الرحمن من أبي الصباح حي بن يحيى اليحصبي بغلاً أشهب ، يسمى الكوكب ، كان له ؛ فتحول إليه وقال : « إن فرسي قلق ، لا يتمكن معه الرمي ! » فقدمه إليه ؛ فركبه ، واطمأن الناس . وتمت الهزيمة على يوسف الفهري ؛ وتمت البيعة لعبد الرحمن يومه ؛ ودخل قصر الإمارة بقرطبة ، فاستقر به .

وتماذى يوسف الفهري في فراره ، إلى أن استقر بغرناطة . وتحرك عبد الرحمن في أثره ؛ فنازله وحصره ، والتمس من عبد الرحمن الأمان ؛ فبذله له . وحانته بعد ، وفر عن حضرته ؛ ووقع عنه الطيب ؛ فأتي إليه برأسه . وخلاله الجوه منه .

وانثال بنو أمية من المشرق محتالين محتفين ؛ فلحق به عدد منهم تجددت بهم الدولة .

وماج على عبد الرحمن بن معاوية بحر الخلاف والمنازعة ؛ وقارع الكثير

من الثوار ولأه ؛ كالعلاء بن مغيث الجذامي الداعي إلى نفسه بناحية باجة من عكل حنص ؛ وذكر أن المنصور صاحب الدولة العباسية أرسل إليه بولاية الأندلس ؛ فاتبعته الأجناد ، وتطلع إليه العباد ، إلى أن كادت دولة عبد الرحمن أن تنصرم ؛ فخرج إلى قرمونة ، محاذياً له بجاضته ؛ وعاجله العلاء بن مغيث ؛ فحاصره بها أياماً عديدة ؛ فلما طال بالعلاء الأمر ، وسر عبد الرحمن باختلال محلته ، أمر بنار ، فوقدت ؛ ثم أمر بأجفان السيف ، فطرحتها بها ، وقال لأصحابه : « اخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع ! » وكانوا سبعمائة ؛ فخرجوا إلى عدد لا يحصى ؛ فزقهم الله النصر ، وزلزل أقدام عدوهم ، لما قضاه الله من إقبال الدولة وتمهيد الأمر ؛ فانهزم القوم ، وقتل العلاء ؛ فطيف للحين برأسه ؛ وأمر به عبد الرحمن ؛ فعولج بما يحفظه ، وجعله مع اللواء المعقود له في سبط ، وأمر قوماً من الحج أن يوصلوه إلى مكة ؛ واتفق أن حج المنصور عامئذ ؛ فجعل القوم السفط بإزاء باب سرادقه ؛ فلما نظر إليه قال : « عرضنا هذا المسكين للقتل ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا (يعني عبد الرحمن بن معاوية) بحراً ! » واستنزل الثوار ، وقهر الأعداء ، وجاهد في سبيل الله بما هو معروف في دولته من كتب التاريخ .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قریش من الملوك ؟ » قالوا : « ذلك أمير المؤمنين الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء ! » قال : « ما قلنتم شيئاً ! » قالوا : « فمعاوية ؟ » قال : « لا . » قالوا : « فبعد الملك بن مروان ؟ » قال : « ما قلنتم شيئاً ! » قالوا : « فمن ؟ يا أمير المؤمنين ! » قال : « صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلاد أعجمياً ، منفرداً بنفسه ؛ ففصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، ونال ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ،

وشدة إشكيتته. إن معاوية نهض بمركب حبله عُمَرَ وعثمان عليه ، وذلك لا له صعبه ؛ وعبد الملك ببيعة أبرمه عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عتوته ، واجتماع شيعته . وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد بأمره ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين ! »

وكان عبد الرحمن من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل . ومن قوله ٢ :

أَيُّهَا الرَّائِكِبُ الْمُتَمِّمُ أَرْضِي إِقْرَ بَعْضَ السَّلَامِ عَنِّي لِبَعْضِ
إِنْ جَسَنِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضِ وَفَوَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ
قُدَّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وَطَوَى الْبَيْنُ عَنْ جَفَوِي عَمَضِي
قَدْ قَضَى اللَّهُ بِالْفِرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي

وله من الشعر كثير ، وهو معلوم . وكان عبد الرحمن بن معاوية فصيحاً بليغاً ، حسن التوقيع ، مليح الفصول ، مطبوع الشعر ، معدوداً من أهل العلم ، وعلى سيرة حسنة من العدل . ذكروا أنه ، لما نزل بمُنيّة الرُصافة من قرطبة ، نظر فيها إلى نخلة هاجت شجته ، وتذكر بها وطنه ؛ فقال بديهة :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ عَنْ بَلَدِ التَّخْلِ
فَقُلْتُ : سَيْهِي فِي التَّعَرُّبِ وَالنَّوَى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا غَرِيبٌ فَمِثْلُكَ فِي الْإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَى مِثْلِي

وتوفي عبد الرحمن بن معاوية يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر

١ - القصة في « الاخبار المجموعة » و « المقد » لابن عبد ربه و « البيان المغرب » النج ...

٢ - راجع « نفح الطيب » ج ٢ ، ص ٢٥ (طبعة ايدن) .

سنة ١٧٢ ؛ ودُفن بالقصر من قرطبة . وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة ، وأربعة أشهر ؛ وكان عمره يوم دخل الأندلس خمساً وعشرين سنة . وكان قد عقد الخلافة لابنته هشام وسليان ؛ فاستحقها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه ، إذ كانا غائبين . ولما حضرته الوفاة ، وابنه هشام بماردة ، وابنه الآخر سليان بطليطلة ، وكل ابنه عبد الملك المعروف بالبلكنسي ، وقال له : « من سبق إليك من إخوتك ، فأبرأ إليه بالخاتم والأمر . فإن سبق إليك هشام ، فله فضل دينه ، وعفافه ، واجتماع الكلمة عليه ؛ وإن سبق إليك سليان ، فله فضل سنه ، ونجدته ، وحب الناس له . » فقدم هشام قبل سليان ؛ فلقبه الأخ عبد الملك ، وسلم إليه امرته ، وأدخله القصر .

دولة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

ابن هشام بن عبد الملك بن مروان

كنيته : أبو الوليد . بويح مستهل جمادى الأولى من سنة ١٧٢ . ولما اتصل بأخيه الحبر ، وهو بطليطلة ، حشد الجنود وقصد قرطبة . وبرز إليه هشام . وكان اللقاء بجهة جيان ؛ فانهزم سليان ، وعادوا للاحتشاد ؛ فتكررت المزية . ثم نازعه أخوه عبد الله متخلف أبيه ، الذي دفع إليه أمانته ، لسبعة أشهر من ولايته ، ولحق بأخيها سليان بطليطلة . وتحرك هشام إلى منازلها ؛ فأجلت الحال عن لحاق عبد الله بهشام من غير عهد ولا أمان ؛ وتقبله ، وأجرى مجرى أبيه في الأمن . وصالح سليان بستين ألفاً ، على الخروج بأهله وولده عن الأندلس إلى عدوة المغرب . ونازل هشام بعد ذلك مرقسطة ؛ وبها مطرئوح بن سليان الأعرابي ؛ فأمكنه الله منه ، وخلا له الجو ؛ فغزا بلاد الروم بنفسه وقواده ؛ فكان أثره عظيماً : فتح

بها مدائن أربونة وحاصر إفرنجة .

وفي سنة ١٧٩ ، أغزى عبد الكريم بن مُغيث بالصائفة التي انتهى بها أسيرة داخل جليقية ، فهزم طاغية الروم ، وقد احتشد له البشكنش ؛ ثم اتبعه في الجبال ، ينسف كل ما مر به ، ويتركه قاعاً صَفْصَفاً . وكانت مقدمة جيش عبد الكريم الحاجب التي قدّمها بين يديه لمانجة إذ فوّنش ، وصاحبها فرّج بن كنانة عشرة آلاف ؛ فكانت غزاة شهيرة .

وكان هشام الرضّى من أئمة العدل ، وبمؤلة عُمر بن عبد العزيز في قومه بالأندلس . تولّى بناء القنطرة العظمى بقرطبة بنفسه ، وأنفق فيها أموالاً عظيمة . وحكى ابن وُضّاح أنه ذكّر له أن الناس يقولون إنّما بناها لتصيدته ونزهته ؛ فحلف ، لما بلغه ذلك ، أن لا يجوز عليها إلا لغزو في سبيل الله أو مصلحة .

قلت : هكذا شأنُ الناس مع أرباب الدول : إن بنى القنطرة ، ولازمها على كرسيه بفعه الله واختار ما نالها من طيبه ، قيل : بناها للهو وصيده . ولو كان ذلك ، فلنيت شعري أي شيء كان يعوزهم من منفعتهم بها وهلاً دعوا له أن يهنيه الله نزهته وصيده إذ كانا شافعين في بنائها لهم . ولو لم يبنها ، لم يسلم من حملهم لأجل تركها . فانا لله من الناس ! وما أشبه حال صاحب الدولة بمجال الابن والأب والحمار لا فارق : ذكروا أن رجلاً خرج هو وابنه ، ولهما حمار يركبه الرجل [وابنه] خلفه ؛ فسمع الناس يقولون : « ما أعظم جفاء هذا الشيخ وأقلّ حياءه ! ركب هو وابنه حماراً ضعيفاً ؛ فهلاً نزل وخفّف عنه ! » فنزل عن الحمار وترك عليه الولد ؛ فسمع الناس يقولون : « أركب ابنه القادر على المشي ، وترك نفسه مع الضعف ! والشيخ يطارح الولد سوء الأدب وسوء المعاملة ! » فأنزل الولد وركب ؛ فسمع الناس يقولون : « ولد صغير أثر نفسه عليه ، وتركه يتعب دونه ، ولم يرحمه ! » فنزل وترك الحمار خالياً ظهره ؛ فسمعهم يقولون : « حمارٌ يسير بطالاً ،

وشيوخٌ وصغيرٌ خلفه ! قد حرم هذا الشيخ نفسه وابنه حرصاً وصوناً للحمار ! فعل الله به وضع ! » فقال : « يا ولدي ، حرنا مع هؤلاء ! لم يخلصنا معهم شيء . والحق أن نعمل ما يظهر لنا ولا نلتفت إليهم ! »

وفي مثل هذا الحال ، قلتُ من قصيدة طويلة شرحت فيها حالي فيما بليت به بالأندلس من مكابدة الصمّ البكم الذين لا يعقلون : [الخفيف]

إن تورعت أصبحت حوز المثلد لك ضياعاً لجرأة الفجار
أو طردت العفا : خفت من الله إذا ما سئلت عن أوزاري
أو تقاعدت : أصبح الأمر فوضى تلعب الشاة فيه بالجزاري
أو تعرّضت وانتدبت سمعت الله قد حال الإيراد والإصدار
لا يزال الملام عتي بمجال حالة الشيخ وابنه والحمار
قدنهم للجهد فاشتكووا الضعف فاضجوا لكثرة الأسفار
ملت للصلح سئوا الصلح شرّاً عكس قول المهين الجبار
سستهم لست أبغني غير حق الله أو قومي بحق الجار
فجزوني جزاء من يخدم السد طان فيما مضى من الأعصار
من ممالك كالسباع ووُصفان وغزّ وذيّل وتصار
لم نجد مسلماً يقوم بحقي ناظراً لي بقلّة استعمار
أو ولياً يعطي لطوري حقاً ويرى فضله على الأطوار
غير أعمى يظلل يعلق في رحا لي علوق الكروم في الأشجار
طالباً كل ما اقتضاه هواه هبه بالريح عاد أو بالحسار

نستغفر الله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نَعْفِرْ لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) والله كد الصوفية إذ يلزمون من جني عليه

الاستغفار والإنصاف من نفسه ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ إِنَّمَا أُوتِيَ مِنْ قَبْلِهِ .

(رجع) . وكانت أيام هشام خير أيام عافية وهدوء . وعدّه أبو محمد بن حَزْمُ ثَلَاثَ ثَلَاثَةِ مِنَ الْعُدُولِ فِي بَنِي أُمِيَّةٍ خَاصَّةً . وتوفي لسبع خلون من صفر سنة ١٨٠ . وذكروا أَنَّهُ سَأَلَ مُنْجَمَ زَمَانِهِ ، وَأَظْهَرَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ فِرْنَاسٍ ، عَنْ مَقْدَارِ أَيَّامِ دَوْلَتِهِ ؛ فَاسْتَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَلَمْ يَفْعَلْ وَعَزَمَ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ بَعْدَ نَظَرٍ : « إِنْ صَحَّ دَعْوَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، فَإِنَّكَ تَبْقَى فِي الْوَلَايَةِ سَبْعَ سِنِينَ وَكَذَا . » فَأَطْرَقَ وَبَكَى ، وَقَالَ : « حَسْبِيَ اللَّهُ ! فَوَاللَّهِ ! لَوْ كَانَتْ فِي سَجْدَةِ اللَّهِ ، لَكَانَتْ قَلِيلَةً قَصِيرَةً ! » وَصَرَفَ وَجْهَهُ إِلَى الْجَهَادِ وَالْجِهَادِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرِضْوَانِهِ - . وَكَانَتْ مُدَّتُهُ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا .

دولة الحكم بن هشام

ابن عبد الرحمن بن معاوية

كُنِيَ : أَبُو الْعَاصِي . وَكَانَ مَلِكًا كَبِيرًا ، شَدِيدَ الْحَزْمِ ، مَاضِي الْعَزِيمَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ ، حَسَنَ التَّدْبِيرِ . وَكَانَ يُسَلِّطُ قُضَاتِهِ وَحُكَّامَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَضَّلًا عَنْ وَلَدِهِ وَخُدَمِهِ . وَكَانَتْ لَهُ أَلْفُ فَرَسٍ مَرْتَبُطَةٌ بِجَانِبِ الْقَصْرِ ؛ فَكَلَّمَا أَفْنَى إِلَيْهِ الْبَرِيدُ خَبْرًا بِأَمْرٍ أَوْ خَارِجِيٍّ ، عَاجَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، فَلَا يَشْعُرُ إِلَّا وَقَدْ أُحِيطَ بِهِ .

وَفِي سَنَةِ ١٨١ مِنْ أَيَّامِهِ ، كَانَ الْإِيقَاعُ بِأَهْلِ طَلَيْطَلَةَ ، وَقَدْ اتَّخَذَ قَصْرًا احْتَفَرَتْ تَرَابُ بِنَاءُ جِدْرَانِهِ مِنْ صَحْنِهِ . فَلَمَّا كَمَلَ إِلَّا مَا يُخَصُّهُ الصَّحْنُ ، أَعْمَلَ الْخُطُورَ عَلَى طَلَيْطَلَةَ ، وَعَرَضَ وَالِيَهَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَى ابْنِهِ حُضُورَ صَنِيعِهِ بِالْقَصْرِ الْجَدِيدِ ؛ وَاسْتَدْعَى لَهُ وَجُوهَ الْبَلَدِ ؛ وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُمْ ،

١ فِي الْأَصْلِ : احْتَفَرَتْ بِنَاءُ تَرَابِ جِدْرَانِهِ .

إِذَا طَعِمَ مِنْهُمْ قَوْمٌ ، انصرفوا عن بابٍ غَيْرِ الَّذِي دَخَلُوا مِنْهُ ، وَجَعَلُوا كُلُّمَا دَخَلُوا قَتَلُوا ، حَتَّى فَطَنَ بَعْضُ شِيُوخِهِمْ إِلَى الْبَخَارِ الْمُرْتَفِعِ مِنَ الدَّهْرِ ؛ فَقَالَ : « هَذَا وَاتَّهَ بَخَارُ الدَّمَاءِ ، لَا بَخَارُ الطَّعَامِ ! » وَقَدْ خَدَمَ النَّاسَ . فَذَكَرُوا أَنَّ عَدَدَ الْقَتْلِ يَوْمَئِذٍ مِنْ وَجُوهِ طَلَيْطَلَةَ وَأَعْيَانِهَا خَمْسَةُ آلَافٍ وَثَلَاثَاةٍ وَجِل . فَلَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ صَوْلَةُ طَلَيْطَلَةَ .

وَفِي أَيَّامِهِ ، قَتَلَ عُمَهُ أَبُو أَيُّوبَ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَطَلَبَ الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ . وَكَانَتْ حَرْبٌ عَظِيمَةٌ بَيْنَهُمَا ، أَجَلَتْ عَنْ هَزِيمَةِ أَبِي أَيُّوبَ وَقَتْلِهِ . وَكَانَتْ لِلْحَكَمِ غَزَوَاتٌ شَهِيرَةٌ . وَأَنْكَرَ النَّاسُ عَلَيْهِ أُمُورًا ، مِنْهَا : إِطْلَاقُ يَدِ رَبِيعِ الْقُومِيسِ مَتَوَلِّيِ الْمُعَاهِدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ النَّصَارَى ، وَكَانَ حَظِيًّا فِي رَجَالِهِ ، سَوَّغَهُ اقْتِرَاضَ الْمَعَاوِنِ وَالْمَغَارِمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . فَتَارَ بِهِ أَهْلُ الرَّبِضِ بِقَرْطَبَةِ سَنَةِ ٢٠٢ الثَّوْرَةِ الشَّهِيرَةِ ، وَنَابَذُوهُ ، وَجَاهَرُوا بِخُلْعِهِ ، وَرَجَعُوا إِلَى بَابِ قَصْرِهِ فِي السَّلَاحِ وَأَحَاطُوا بِهِ فِي أُمَمٍ لَا يَحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ ، وَفِيهِمُ الْفُقَهَاءُ الْجُلَّةُ وَأَهْلُ الْفِتْيَانِ مِثْلُ طَالُوتِ الْفَقِيهِ ، وَبُحَيْبِ بْنِ بَحِيٍّ الرَّائِيَةِ عَنْ مَالِكٍ ، وَأَخِيهِ ، وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَانَ مِنْ جِلَّتِهِمْ جَدُّ لَنَا يَعْرِفُ بَابَ وَزِيرٍ ، بِمَنْ طَرَحَتْ النُّوَى بِرَكَابِهِ ، وَاسْتَقَرَّ بِطَلَيْطَلَةَ ، وَمِنْهَا تَحَوَّلَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا يَلُوسَةً ؛ فَكَانَ خَطِيئًا بِهَا ؛ وَلَهُ يَنْتَسِبُ بَيْنُنَا مِنْ بَعْدِ النَّسَبَةِ الْأُولَى .

وَذُعِرَ الْحَكَمُ لِمَوْلٍ مَا رَأَاهُ ، وَأَمَرَ بَعْضَ خُدَّامِهِ الصَّقَالِيَّةِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِوَعَاءٍ الْغَالِيَةِ ؛ فَاسْتَوَابَ الْفَقِي ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : « وَأَيُّ وَقْتٍ غَالِيَةٍ هَذَا ! » فَصَاحَ بِهِ ، وَقَالَ : « أَنْتَ بِهِ وَبِحَاك ! وَإِلَّا ، فَمَنْ أَيْنَ يُعْرِفُ رَأْسَ الْحَكَمِ ؟ » وَجَاءَ بِهَا ؛ فَعَلَفَ بِهَا رَأْسَهُ وَلَحِيَّتَهُ ، وَاسْتَبَسَلَ لِلْمَوْتِ . وَتَوَافَى إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ خُدَمَتِهِ ، وَاسْتَرْكَبَ عَبِيدَهُ وَحُجَّابَهُ ، وَأَخَذُوا أَعْقَابَ النَّاسِ ؛ فَدَهَشُوا إِذْ عَدَمُوا مَنْ يَلْتَفُّ عَلَيْهِ جَمْعُهُمْ . فَقَدْ كَانَ مِنْ نَوَادِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، الْمَأْثُورَةُ مَثَلًا فِي هَيْجِ الرُّعَاعِ ، أَنَّ حَدَادًا كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَبِيٌّ يَسُوقُ الْكَبِيرَ ، وَأَبْصَرَ اجْتِمَاعَ النَّاسِ وَحُضُورَهُمْ فِي الْأَسْلَحَةِ ؛ فَقَالَ : « وَمَنْ »

رئيسهم؟ « قليل : « ليس لهم رئيس . « فقال للصبي : « يا صبي ، حرك الكبر واعمل عملك ؛ فإن هؤلاء لا يكون منهم شيء ! « فأعمل السيف يومئذ في أهل الربض ؛ فقتل منهم أزيد من عشرة آلاف رجل . وجلى عن قرطبة أضعاف ذلك . وما استقر منهم طائفة ببلد من البلدان إلا وثاروا ، حتى لقد حكي أن آلافاً منهم استقرت بالإسكندرية ، وأن رجلاً منهم تكلم مع جزّار ؛ فرمى الجزّار بوجهه بكرش كانت في يده ؛ فبطش به وقتله ؛ ونادى مُناديهم في المدينة ؛ فتألبوا ، وثاروا ، وتغلبوا على المدينة ، حتى صرفوا عنها صلحاً إلى جزيرة إقريطش . وأقسم الحكم بحرّجات الإيمان أن لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكاً ؛ فصوره على عظمه وهوله وأصاله بنائه مزروعة .

قلت : ولقد باشرتُ بالأندلس أخاً ونظيراً لهذا الموقف الحكمي النكد : أعظم الله به الأجر ، وجعله آخر المواقف الكريمة في الدنيا ! إلا أن الناس اجتمعوا على هذا العبد الذي شهدناه ، والتفؤا على رجل من قرابة السلطان ، ولم يكونوا هبلًا ؛ فكان الشقاء بهم أسدً لولا لطف الله . وذلك أن السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر ، لما عاد إلى الأندلس ، ثمره خدامه إلى طلب الناس بالذنوب ، وكلّهم جانٍ بيده ولسانه ؛ واتّفت الكلمة الواحدة على الثورة به ، ولحقت ببابه ، والأمر قد كمل استعدادُهُ للشر ، وأبومت عقدته ؛ وأخيف الدليل البركي ؛ فشايع هو وطائفة من مثله الرئيس علي بن علي بن نصر من القرابة ، وأنا ذاهلٌ عن الأمر ، إلى أن شئخ التكلف والفتنة والاستغال بما لا يعني من أمر الدنيا والآخرة ، علي بن كُماشة ، عتبي ، مُشفقاً ، في القدوم على الأندلس يومئذ ، وقال لي : « احتل في الانصراف ! فإنما السلطان كالبیضة فوق النار ؛ كأنني بها قد فُرقتُ ، واشتقتُ فسالت ! « وتهاوتتُ بقوله ؛ وما راعني من الغد وأنا بين يدي السلطان ، وقد جلس للناس في قبة الجنان

المحصّل بالقصر ، وأبطأ المبكرون على بابه إلا والنذير العربي يقول : « قد ثار البلدُ والتداء فيه بدعوة فلان ! « وكثر ذلك . والتفتنا من طيقان القبة ؛ فإذا البلد يموج بأهله خيلاً ورجلاً . فقال لي السلطان : « ما ترى؟ » فقلت : « الصبر والتوكُّل على الله تعالى ! « وأشرتُ عليه بالانصراف إلى منزله وسد أبواب القلعة إلا واحداً يُسدُّ بالرجال ؛ وأشرتُ عليه بالدخول إلى منزله ولبس سلاحه ؛ وفُتحتُ خزائن العدة ، وصعد السلطان في موقفٍ مطلٍّ على البلد ونشرت رايته فوق رأسه ، وأسمع النفير ، ونودي على الجند بالعطاء ؛ والحق قد ناصبونا الحرب ، والسياح قد سدّ الآفاق ، والسهام تراشق نحونا ، وصاحب القوم واقفٌ في ربة تجاه القلعة ، ومن انحاز إلينا لا تعرف فينا مذهبهم : وألهم الله الصبر ، وسدّ القول والعمل ؛ فلم يستحكم الزوال إلا وظهر اختلاف مصاف القوم ، ورسائي تُنفذ إلى وجوه الناس . فخذل المكائدون ، وسقط في أيديهم ، وفرّوا على وجوههم ؛ وقُبض على الشيخ ، وسكن الله الإرجاف ، وأخمد النائرة ؛ وقد كانت الآزقة التي ليس لها من دون الله كاشفة ، وعظم خوف الناس من السلطان ، واستحكمت صبغة الشر ، وكثر المستريب ؛ فبادرت من الغد يوم الجمعة المسجد الجامع ، وعلوت ذروة المنبر بكتاب أشهدت فيه على السلطان بتوكّ قديم المؤاخذات وحديثها ، ورَفَع الخوف عن الناس ، وبَدَل الأمن لجميعهم ؛ وارتنت في ضمان ذلك ربة قرنت به العافية إلى ما بعد . والحمد لله !

(رجع الحديث) وكان الحكم على فظاظته شاعراً مطبوعاً بما يؤثر من شعره قوله في جوارٍ كان مغرمًا بهن : [الخفيف]

ظَلَّ مِنْ فَرَطٍ حُبِّهِ مَمْلُوكًا وَلَقَدْ كَانَ قَبْرَ ذَاكَ مَلِكًا
إِنْ بَكَى أَوْ سَكَاهُوى زَيْدٌ ظَلَمًا وَبِعَادًا يُدْنِي حِمَامًا وَشَيْكًا
تَوَكَّاهُ جَاذِرُ الْقَصْرِ صَبًا مُسْتَهَامًا عَلَى الصَّعِيدِ تَرِيكًا

يَجْعَلُ الْحَمْدَ وَاضِعاً فَوْقَ تَرْبِ لِلَّذِي يَجْعَلُ الْحَرِيرَ أَرِيكَ
هَكَذَا يَحْسُنُ التَّدَكُّلُ بِالْحَرْبِ إِذَا كَانَ فِي الْمَوَى مَمْلُوكاً
وتوفيَّ - رحمه الله - يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٢٠٦ .
وولي الأمر بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم .

دولة عبد الرحمن بن الحكم

ابن هشام بن عبد الرحمن معاوية

كنيته : أبو المطرّف ، وكان ملكاً كبيراً ، فارَعَ الثَّوَارَ ، وهزم
الكُفَّارَ ، وأبعد الآثَارَ . ولما صُلِّيَ على والده وواراه ، جلس متطأطأً ،
ليس تحته وطاء ، وفعل من معه كذلك ؛ فافتتح القول فقال : « الحمد
لله الذي جعل الموت حتماً من حكمه ، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور
على مشيئته ، واستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذلَّ خلقه بالفناء ! تبارك اسمه
وتعالى جدّه ! وصلّى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً ! وقد كان
مصاب الإمام - رحمه الله - ما جلّت به المصيبة وعظمت به الرزية ؛ فعند
الله نختسه وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب في إكمال الأجر والذخر !
وعهد إلينا بما فيه صلاح أحوالكم . ولستنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لديّنا
مزيدٌ إن شاء الله ! » ثم قام ، وخرجت الكساوي والأموال على أقدارهم .

وفي أيامه ، انتقض المعاهدة بمجزرة ميّورة ؛ فغزاهم في ثلاثمائة مركب ؛
فافتتحها ثانية . وغزا بنفسه جليقية ؛ فافتتح حصونها ، وسبى حرمها ، وقتل
مقاتلها ، وذلك سنة ٢٢٥ ؛ وطالت غيبته في غزاته هذه ؛ وفي ذلك يقول
شاعره عبد الله بن الشَّير على لسانه ، وقد وصف له أرقاً عراه وتذكراً
لن حنّ إلى لقائه :

[المتقارب]

عَدَانِي عَتَكَ مَزَارُ الْعِدَى وَقَوَدِي إِلَيْهِمْ لِهَاماً مُهَيَّباً
فَكَمْ قَدْ تَعَسَّفْتُ عَنْ سَبَسَبٍ وَلَا قَيْتُ بَعْدَ دُؤُوبٍ دُؤُوباً
أَلَا قِي بُوْجْهِي سُؤْمَ الْهَجِي رَ وَقَدْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَدُوبَا
أَنَا ابْنُ الْهَشَامَيْنِ مَنْ غَالِبٍ أَشْبُ حُرُوباً وَأُطْفِي حُرُوبَا
وَادْرِعُ النَّقْعَ حَتَّى لَيْسَ تَنْ بَعْدَ نَضْرَةٍ وَجْهِي سُحُوبَا
سَمَوْتُ إِلَى الشَّرَكِ فِي جَحْفَلٍ مَلَأْتُ الْحُرُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

وكان ذا حظٍّ في البلاغة : تردّد عليه بعض مواليه ، يسأله استخدامهم
بلطائف الرغبة وترقيق الملاطفة ؛ فقال له : « لم يتقدّم لك عندنا خبرةٌ نرؤيك
بها ، ولا تجربةٌ نقدّمك بسببها ، غير ما رأينا من بلاغتك وحسن خطابك
فيما يردّ علينا من كتبك . فإن كنت كاتبها ، فقد جودت وأحسنّت ؛
وإن كنت تطلبت بعنايتك ، وتخيّرت بفضل همتك من حسن ذلك عنك ،
فقد أحسنّت في العناية ، وفضلت في المهمة ، [فأنت] بكليّ الحالين متقدّم !
وقد رجونا باستلطافك لعلمك وتهذيبك لخدمتك ، وقد وليناك على الرجاء
فيك ؛ فصدق ما خيّل الظنُّ بك . فإنك إن حافظت على أدنى حظّك ،
أدركت أقصاه ؛ وإن احسنّت في بدئه ، نكلت أحسن عقابه ! » وكتب
إليه بعض عمّاله يسأله عملاً رفيعاً ، ليس من شاكلته ؛ فوقع له في أسفل
كتابه : « من لم يصب وجهه مطلبه ، كان الحرمان أولى به . »
ومن شعره :

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يحور النهى بتجارب فشباب رأي القوم عند شبابها
وفي سنة ٢٠٨ ، كانت الغزاة التي عقدها عبد الرحمن على وزيره عبد
الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة المعروفة بغزوة آلبسة والقلاع ؛
دخل فيها أرض العدو ، وأمعن بما لا عهد به من الفج المعروف بفج جرننيو ؛

فأخرب كل ما مر به ، ونازل مدائن ، وفتح معاقل ، وهزم جموعاً كثيرة ، حسباً هو مذكور في كتاب عريب وغيره .

وفي أيامه ، خرجت مراكب المجوس ؛ فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وشذونة وأشبونة ؛ ثم انهزموا ؛ والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة بالأنقليش ، وأهل المشرق بالفرننج وبالأنكثير ، ومستقر ملكهم مجزيرتين عظيمتين ذرع إحداهما سبعمائة ميل ؛ وهم أهل قوة وبأس وشدة . وقد ذكرنا شيئاً من حديثهم عند ذكر أيام صلاح الدين ؛ ونجلب شيئاً منه فيما يأتي بحملته ، إن أعان الله على ذلك وأنسا الأجل إليه .

وفي أيامه ، احتفلت دولة بني أمية بالأندلس ، وعظمت الألقاب ، وشيدت القصور ، وجلبت إليها المياه . وجلبت إليه من المشرق ، بعد أن عاثت الفتنة في قصور الأمير وخزائن بغداد ، الذخيرة الرفيعة كعقد الشفاء ومثله أعلاق زبيدة بنت جعفر ، وفي أيامه ، اتخذ الطراز ، الذي كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق .

وكانت وفاته يوم الخميس ثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . وتخلّف من الولد أزيد من ثمانين ، بين ذكر وأنثى ، شطرم ذكور . وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن .

دولة محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

بيع للأمير محمد بن عبد الرحمن لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٣ . واستعصت عليه طليطلة ؛ فبرز إليها بنفسه ؛ واستجاش أهلها . فملك النصارى بحليقة أردون بن إذفونش ؛ فوجه إليهم أخاه . وكادّه

الأمير محمد ؛ فبث الكُمناء وقصد المدينة في جمع غير كثير ؛ فاستبشر الطاغية ، وأيقن أنه يظفر به . فلما خالطه ، برزت الكُمناء من الجهات ؛ فهزمه الله شراً هزيمة ، وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس . ثم وصل الغزو إلى أرض آلبه والقلاع ؛ فعظم أثره .

وفي سنة ٢٦٢ ، عظم أمر عبد الرحمن بن مروان من المنتوين على الأمير ببطلينوس وماردة ؛ وكان من المستأمنين المستنزلين على الخلاف ، المستقرين بقرطبة ؛ فعصى أنه ، ولحق بحيث ذكر ؛ وأعضل دأوه . وكان سبب انتقاضه أن الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الأثير لدى الخليفة محمد ، القريب للصوق به ، بجّه ابن مروان من بين الوزراء لحدة كانت في هاشم ، لم يملك معها نفسه أن قال له : « الكلب خير منك ! » وأمر به ؛ فصنع قتاه واستبلغ به ؛ ففر في خبر طويل ، واستكن بسعدون السُرُنْبَاق وقومه ، وهم فرسان العرب بالثغر . وبادر هاشم بن عبد العزيز ؛ فطلب فرصة ينتهزها فيهم ، وأفعض بغرته ، وجاوز الوعر ، وأبعد عن العسكر ؛ فأخذت المضايق عليه ، وناسبوه القتال ، وواقعه الجراح ، وقتل جملة من جماعته ، وأسر . واستقر بيد عدوه الذي صفعه وأهانته ؛ فبرّه وأحسن إليه وحلم عنه عند قدرته . وبلغ ذلك الأمير محمداً ؛ فأخفى على هاشم وقال : « هذا أمر جناه على نفسه بعجلته وطيشه ! »

وفي سنة ٢٦٤ ، تم انطلاقه ، بعد أن كان الأمير محمد أقعد ابنه عوضاً عنه بمرتبة الوزارة في حال الصغر ، وحفظ عليه جاهه ونعمه ، إلى أن قرئت بذلك عينه عند خلافة نكبة أسره .

ولقد أذكرني قضية هاشم ، وأنا قاعد مع الوزير الندب المهام أبي بكر بن غازی ، المقيّد هذا الكتاب بأمره ، ما حدث من مثلها في شأن الشيخ عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق العسكري المتميّز بنصيحته ، وهو صاحب العلم لبني عسكر ؛ وقد بلغه الخبر بأسره وتحصيله بيد عدوه ، لتجلده عند

نكبه ، واستدعائه ولده ، وإجلالته بمكانه على صغر سنه ، وعقد الراية فوق رأسه ، وضمّ خدام أبيه إليه ، وانصرافه رافلاً في الخلع السلطانية وراكباً في الخلة الرفيعة إشادة لعزّه . ونسبت على ذلك من قرب متي من خواصه تفاؤلاً بخلصه ؛ فكان كذلك لأقرب مدة ، من غير يد ولا فدية . والحمد لله مبسر السعادة ومبلغ الإرادة !

وفي أيام الأمير محمد ، كان ابتداء أمر ابن حفصون كبير الثوار بالأندلس على عهد الدولة الأموية ، المنفسح الأمد ، المنليس الدولة لباس الكمد ، متصل العناء به أزيد من سبعين سنة ، حسباً يأتي عند ذكر الثوار .

وكان الأمير محمد أوحده قومه في البلاغة والرجاحة ، متنزهاً عن الخي والقبیح وعن القبول على السعایات . قال وزيره هاشم بن عبد العزيز (وكان هاشم من رجال الكمال ، قل أن تأتي الدنيا بمثله من اجتماع خصاله) : كان الأمير محمد - رحمه الله - فصيحاً بليغاً ، عظيم الأناة ، متنزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ، لا يسمع من ساعٍ ، ولا يلتفت إلى قول رامٍ ؛ وكان عاقلاً ، على أخلاق حميدة ومكارم جميلة ، ذا بديهة وروية ، يرى كل من خدمه وباشره أن له الفضل المستبين في إدراكه وفهمه ، ودقة ذهنه ، ولطف فطنته ، وجزالة رأيه . وكان متى أعطل منها شيء ، رجع إليه فيه ، وإذا أخل أحد من خزانته وأهل خدمته الحساب شيئاً من ذلك ، لم يجز عليه باللحظة والنظرة . ولقد استدرك على بعض خزانته في صك يشتمل على مائة ألف دينار كدراهم خمسة عشر درهماً ؛ فرد الصك ، وأمر بتصحيحه ؛ فجمع الخدّمة والكتّاب إليه ؛ فلم يقموا على ذلك التقصان لقلته وخفائه ؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير ، وأعلبوا الرسول ؛ فرد الصك وأعلمه باعتوافهم ؛ فعلم على موضع الخطأ ؛ فإذا هو خمسة عشر درهماً .

وخدمته ملوك البلاد المغربية ؛ واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة .

١ ق وج : لهم .

وكان على عهده من ملوك إفريقية أعظمها وأفضها فترة ذلت فيها يديه ويتأخفه على تراميه بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومه . فهذا الملك هو الذي اتخذ مثلاً زنته ثلاثاً رطل من ذهب خالص وحفه من الياقوت والزبرجد بما لا يدخل تحت القيمة ، واتخذ له كرسيّاً بأعظم من ذلك كله ، وحشد جميع الأمم الفرنجية لرائته ؛ ثم دفعه إلى صاحب كنيسة الذهب .

وكان الأمير محمد يستنفر لغزوه في الصوائف المجردة إلى جليقية مع ولده من كورة النيرة وجيان وقبرة وإسججة وسندونة وموزور خمسة عشر ألف فارس ، ليس فيهم من أهل الأندلس غير من ذكر ؛ وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر . وذكروا أنه خرج متنزهاً يوماً لبعض متنزهاته ، ومعه هاشم بن عبد العزيز ؛ فكان بها صدر نهاره على راحته ؛ فلما أمسى واختلط الظلام ، انصرف إلى القصر ؛ فأخبر من سمع هاشماً يقول : « يا ابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا الموت ! » فقال له : « يا ابن اللخناء ، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا الموت ! ولولا الموت ما كنا نراه أبداً ! »

وكانت وفاته يوم الخميس ليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٧٣ ، وهو ابن خمس وستين سنة . وكانت مدته نحواً من خمس وثلاثين سنة - رحمه الله .

دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو الحكم . وتقدم بعهد أبيه ؛ وكان بعيد الهمة ، قوي الشكيمة ، يكرم إخوانه ، ويحبهم ، ويدني مجالسهم ، ويصليهم ، ويحضرهم يجالس أنسه . وكان يجزل العطاء للشعراء ، وينشدونه غزياً وراجعاً . وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربّه ، والعكّي ، وغيرهما من شعراء العرب .

ولم يكن أحدٌ من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه ؛ ولقد بلغ ذلك في سنة ما لم يبلغه غيره في الدهر. ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنَةِ يُذْعِنُونَ إليه دون مِحنة ، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها ؛ وإنَّ الحَبْرَ المستفيضَ عن الشيوخ الذين أدركوا ذلك الزمان، وعن أهل التمييز بالحروب ، أنه، لو عاش المُنْذِرُ حياً واحداً زائداً، لم يَبْقَ بين يديه مُناقٍ . وأخباره تدلُّ على ذلك . وأول أخباره الدالة على ذلك أنه ، لما أتاه خبر موت أبيه، لم يمنعه ذلك من التعرّيج عن القصد ، واختصار الطريق ، ولا شغله أمرٌ منهم ولا أمرٌ جليل عن آخر ؛ فجعل طريقه على ربه ؛ فهذبُ أمورها ، ونظر في أسبابها ، وولّى عليها سليمان بن عبد الملك ابن أخطل وعبد الرحمن بن حُرَيْش ، وأدخل معها أهلَ المعاقِد من العرب والحشم . ثمّ جمع في يوم واحد مُبايعيه ، وأعطى عطائين للجند ، وأعمل النظر فيما أسقطَ من الأزمّة عن الرعيّة ؛ وما فعله من الاستعداد إلى أهل قرطبة بإسقاط العُشور عنهم، والنظر في التدبُّ ، وإخراج الفائد ؛ - وهكذا [كان] فعُله في جميع أسبابه .

وبادَرَ لأوّل أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز الوزير ؛ وسبب ذلك أن هاشماً كان يُحسد لمكانه من الأمير محمد ؛ وكان حُسّاده يسمعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس . فلما مات الأمير محمد ، أراد المنذر أن يتّبع به فعلَ أبيه ؛ فولّاه الحِجَابَة ؛ ثمّ قالاً عليه حُسّاده ، وكثروا ، وحرّفوا كلامه ، حتى نفذ قضاء الله ؛ وكان مفخر دولتهم وزينة مُلكهم . ونُمي عنه أنه قال عند مواراة الأمير محمد في قبره :

أُعزّي يا محمدُ عنك نفسي معاذ الله والمِنَن الجسام

فهل مات قومٌ لم يموتوا ودُفِعَ عنك لي كأسُ الحِمام

فأغروا المنذر بكونه قصده . وصدرت عنه في نكته أشعارٌ وملاحظات لم تغن عنه . ومن شعره في ذلك ، ما كتب به لجارية له تسمى عَاج :

[الطويل]

وإنّي عداني أن أزوركِ مطبّقٌ وبابٌ مَنيعٌ بالحديدِ مُضَبَّبٌ
فلنْ تَعَجِي يا عَاجُ بما أصابني ففي ريبٍ هذا الدهر ما يُتَعَجَّبُ
تَرَكَتْ رِشَادَ الأمرِ إذ كنتِ قادراً عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرهبُ
وكم قائلٌ قال : أنجُ ويحكِ سالماً ففي الأرض عنهم مُستَوادٌ ومذهَبُ
فقلتُ له : إنَّ الفِرَارَ مَذَلَّةٌ ونفسي على الأسواء أحلى وأطيبُ
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للعبدِ مهزَبُ
فمن يَكُ أُمسَى شامتاً بي فإنه سينهل في كأسٍ وشيكاً ويشربُ
إلى أن قتله - رحمه الله .

ثمّ انصرف إلى محاربة عُمر بن حفصون الثائر بمدينة بُبَشْتَرُ ومُنازلته ؛ فلم تسع أيامه لما وراء ذلك ، بعد أن أحفظه وأضاق صدره وظهر على قوّاده ؛ فتحرّك إليه ، وقد أقسم القسم الغليظ ألا يبرح من حصره حتى يتمكن منه ، أو يموت بكونه . وعظم ذلك على الناس ، وشقّ عليهم الثواء بعسكرهم ظاهرٌ يُبَشِّرُ . وعيّن القدر الحتم ليسينه أحد الطرفين المقتضى الإملاء لابن حفصون ؛ فزعموا أن المنذر اعتلّ لأربعين يوماً من مُنازلته ابن حفصون والأخذ بمخنقه ، وبعث إلى قرطبة في إمارة أخيه عبد الله بن الأمير محمد لينوب عنه إن اتّصل مرضه . فلما وصله ، مات المنذر . وتفرّق العسكر ، فلم يَلِمْ أحدٌ على أحد ؛ وظهر ابن حفصون ، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه ؛ فلم يسعه إلا أن رفع المنذر فوق جَمَلٍ وانصرف إلى قرطبة . وعظم أمرُ ابن حفصون ؛ فاستولى على معظم البلاد ، ولم يَبْقَ بينه وبين دار المُلكِ إلا مقدار مرحلة قصيرة . فتحصّن بحصن بُلاي من الكُتُبانيّة .

وكانت وفاة المنذر يوم السبت من منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ .

دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كتبته : أبو محمد . كان - رحمه الله - مُقْتَصِدًا في أموره من مطعم وملبس ، شديد التواضع ، متظاهراً بالبرِّ والخشوع .

وذكره الإمام أبو محمد بن حزم ؛ فصرَّح بالحلل عليه ، وقال : كان قتالاً ، نهون عليه الدماء ، مع ما كان يظهره من عفته ؛ فإنه احتال على أخيه المنذر لما قصده بالسكر ، وواطأ عليه حجاماً سمَّ المِبْضَع الذي قصده به . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد ، وقتل أخاه القاسم ثالثهم ، إلى من قُتِل من غيرهم . قلت : والإمام أبو محمد في التجريح والتعديل حجةٌ على قومه ؛ وسوق الملك لا ينكر فيها أمثال هذه البضائع ؛ ومن عوفي ، فليحمد الله !

وكان الأمير عبد الله ذا حظٍّ من الشعر وحسن التوقيع : اعتذر إليه بعض مماليكه يوماً ؛ فوقع على عذره : « وَإِنْ مَخَايِلَ الْأُمُور لَتَدُلُّ عَلَى خِلَافِ قَوْلِكَ ، وَتُثْبِتُهُ عَنْ بَاطِلِ تَصَلُّكَ ؛ وَلَوْ بُوَّتْ بِذَنْبِكَ ، وَاسْتَغْفَرْتَ لِحُرْمَتِكَ ، لَكَانَ أَحَبَّ لَكَ وَأَسَدَلَ لِسِتْرِ الْعَفْوِ عَلَيْكَ ! » فكتب إليه : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَمَا يَقُومُ لِي عَذْرٌ . » فقال : « مَهْلًا عَلَيْكَ وَرُوَيْدًا بِكَ ! تَقْدَرُ مَتَّ لَكَ خِدْمَةٌ ، وَتَأَخَّرَتْ لَكَ تَوْبَةٌ ؛ وَمَا لِلذَّنْبِ بِحَالٍ بَيْنَهُمَا . وَقد وَسَّعَكَ الْعُفْرَانُ ! »

ومن شعره :

[السرير]

يَا مُهْجَةَ الْعِشَاقِ مَا أَوْجَعَكَ وَيَا أَسِيرَ الْحُبِّ مَا أَخْضَعَكَ !
وَيَا رَسُولَ الْعَيْنِ مِنْ لَحْظِهَا بِالرَّدِّ وَالتَّبْلِغِ مَا أَسْرَعَكَ

تَفْهَبُ بِالسَّرِّ فَتَأْتِي بِهِ فِي مَجْلَسٍ يَخْفَى عَلَى مَنْ مَعَكَ
كَمْ حَاجَةٌ أَنْجَزَتْ إِبْرَازَهَا تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَا أَطْوَعَكَ

ومن قوله في الزُّهْدِ :

[الكامل]

يَا مَنْ يَرَاوِغُهُ الْأَجَلُ حَتَّى مَ يُلْهِيكَ الْأَمَلُ
حَتَّى مَ لَا تَخْشَى الرَّدَى وَكَأَنَّكَ بِكَ قَدْ نَزَلَ
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ

وتصيرت إليه الخلافة ، وقد تحيَّف النكتُ أطرافها واقتسمها الثوار ، وكلب عليها الأشرار ؛ ولم يَبْقَ منها إلا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها ؛ وساءت الظنون . ولم يَذَرِ عبد الله إلى أين يصرف وجهه : إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على أعظم البلاد مثل البشيرة وريته وما إلى ذلك ، أم لابن حجاج ، وقد استقل باشبيلية وقرمونة وما إلى ذلك ، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس ، أم لعبد الملك بن أبي الجواد ببيجة العرب ، أم لابن السليم بشذونة ، أم لابن إلياس بالقلعة المنسوبة إليه ، أم لحثير بن شاكر بشوذر ، أم لعمر بن مضمٍ الهثري ، أم لسعيد بن هذيل ببحص المنيون ، أم لسعيد بن مسننة بباغو ، أم لبني هابيل ببحص جيان ، أم لإسحاق بن عطف ببحص منتاشة ، أم لسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة ، أم لمحمد بن أضحى كبير العرب بالبشيرة ، أم لأبي بكر بن يحيى بشنت مريّة ، أم لسليمان بن محمد الشذوني بشريش ، أم لعبد الوهاب بمورين ، أم ليحيى التيجي الأنقر بسر قسطة .

ولمّا أُلْمِعْنَا بِذِكْرِ أَسْمَائِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ ، وَهَمَّ بَعْضُ مَنْ كَلَّ وَقَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، لِعَرَضَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّأْسِي والتعزّي ، حَتَّى لَا يَنْكَرَ مَلِكٌ أَنْ يَنَازِعَ أَوْ يَخْرُجَ عَلَيْهِ أَوْ تَفْتَقَ ثَعُورُهُ وَتُنْكُثَ عَهْدُهُ ؛ وَإِذَا تَعَيَّنَ الْمُسْتَحَقُّ

لأمر المسلمين ، أين يوجد مثل من خرج عليه هؤلاء نسباً ومذهباً وشروطاً مستوفاه ؟ وقد ساعدتهم رعاياهم وفقهاؤهم وعلمائهم قسراً وطواعية ، وأقطارهم عظيمة ، ومعاصروهم جلّة ، حتى اقتضوا الأيام التي حدّها الله لهم ، منطلقة أيديهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غيٍّ أو رشدٍ . والثاني : الاستراحة إلى حسن العتبي وما أعدّه الله من كفاية من استكفاه .

فخرج بنفسه محتسباً إليها في سبيل الله ، وقصد بُيُوتهم ، وانتسف معاشها ، وقفل . فعقبه ابن حفصون ، واستولى على إسطنبول وإسطنبول . وأخرج إليه الجيش ، وألحّ عليه حتى اتقاه ابن حفصون بطلب الأمان . ثم ضيق على قرطبة ، حتى خرج بنفسه إلى حصن بلّاي ، وكان أخذاً بمخنفها ، فدخله وملكه . واحتشد ابن حفصون ، وأقبل في ثلاثين ألفاً ، فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة ؛ وصرف وجهه إلى ابن حجاج بإشبيلية ؛ فهادته وعاقده . وتقاضى العمر مع ابن حفصون حرباً وسلياً ومعاقدةً ونكثاً ، إلى أن عاد روثق الحِلَافَة ، وانتشع كثير من الظلماء .

ونقص عبد الله الدهر بما جرى به القدر من قتل ولديّه حسباً . يتقرّر في محلّه ؛ ولا أوحش الله من دنيا تطيب بعد قتل ولده ، ولو أن صحبته إلى غير أمد . كانت وفاته في مستهل شهر ربيع الأول سنة ٣٠٠ ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً .

دولة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله

ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام
ابن عبد الرحمن بن معاوية

كنيته : أبو المطرف ، ولقبه : الناصر لدين الله . وولي بعد جدّه ، إذ كان أبوه محمد خاف من أبيه ، وأغراه به المطرف أخوه ، حتى سجنه الأب ،

ثم قتله أخوه في السجن ؛ وقتل عبد الله أبوهما المطرف قاتله . وألقى الله على عبد الرحمن هذا الحفيد محبةً من جدّه ، وشفقةً كنفه لها في حجره ، وأسكنه في مسكنه ؛ وكان يحظيه من دون بنيه ، ويومي إليه ، ويرشعه لأمره ، ويقعده في الأعياد والمواسم مقعد نفسه ، ويأمر بالسلام عليه . فتعلقت آمال الدولة به ، ولم يشكوا بصير الأمر إليه . فلما مات الجدّ ، أقعد على سريره دون ولده وإخوته ، ونهياً له ذلك من دون منازع لسكناء بقصره . وقيل إنه برىء إليه بخاتمه إمارة على استخلافه ؛ فكان أوّل من بايعه أعمامه أبان ، والعاصي ، وعبد الرحمن ، ومحمد ؛ وتلاهم أخوة جدّه ، ثم من سواهم . والله يؤتي ملكه من يشاء . [الحفيد]

لا يضر الصغير حدثان سنّ . إنما الشأن في سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير

والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بني أمية . طال عمره ، واتسع سعده ، واشهرت أيامه ، وبعد حبه ، وانتشرت بالعدوة الغربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته . وهو أوّل من تسمّى منهم بأمير المؤمنين ؛ ثم اقتفاه من جاء بعده ؛ وذلك عندما ضعفت الدولة العباسية ، وظهرت الدوّل التركية والديلمية ، وكثرت الألقاب ؛ وخطب بذلك خطيبه أحمد بن بَقِيّ بن تحلّد يوم الجمعة سنة ٣١٦ .

قالوا : وولي الناصر لدين الله الأمر ، والأندلس جمرّة تحتدم ، ونار تظلم ؛ وقد عظم الشقاق والنفاق ، وارتجفت الآفاق ؛ فسكنها الله بسعده ، وعزّ ثقيته . وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل . وهو الذي استنزل الثور ، وشيّد القصور ، وغرس الغروس ، وخلّد الآثار ، وأعظم في الكفر النكابة . فلم يبقَ عيه في الأندلس مخالف ، ولا نازعه منازع . ودخل الناس أفواجا في طاعته ، ورغبوا في مسالته . وفي ذلك يقول شاعره ابن عبد ربّه :

[البيسط]

قد أوضح الله للاسلام منهاجا والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنيها كأنما لبست وشياً وديباجاً

وتجرك إلى كورة البيرة ، واستنزل الثوار . ثم كرك على ببشتور ،
وهي الدار العليا والداية العظمى ، وأقام البناء ، وشرع في السكنى ؛ فأذن
حفص بن عمر بن حفصون المتصير إليه أمرها بعد أبيه وأخيه ، وألقى بيده ؛
فملكها رجاله يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة . وكانت مدة
بني حفصون أزيد من سبعين سنة .

وخطب الناصر البلاد عندما أراحه الله من الغم القديم الزيم المتعاقب ثم
ابن حفصون واستغلق قلعة ببشتور عليه ؛ فعين المخاطبة بأمير المؤمنين
واللقب بناصر الدين ، بما نصه : « أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ،
وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا
به ، وأظهر اثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، وبشر على ايدينا إدراكه ، وسهل
بنا وبدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن
من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا ؛
والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .
وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها
كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما
لا يستحقه . وعلينا أن التادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق ضيعناه ،
واسم ثابت أسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطباتك
لنا عليه ، إن شاء الله . »

إيجاز خبر عمر بن حفصون

وعلى عهد الناصر لدين الله ، كان انقراض أمر عمر بن حفصون وولده .
وكانت مدة خلافه وفتلته اثنتين وخمسين سنة وستة أشهر . وكان عمر كبير
الثوار بالأندلس ، وغصص الخلفاء بها . وهو عمر بن حفص بن جعفر الإسلامي ،
ظهر بنفسه ونجدته وحدان تلقاه في أمره . ونحصن بمدينة ببشتور من كورة
ريه ، وأطاعه أكثر بلاد المتوسط بين ريه والحضراء والبيرة وأحواز
قرطبة . وأخرج الأمير محمد إليه الجيش لنظر وزيره هاشم بن عبد العزيز ؛
فأمنه وأوصله إلى قرطبة مرفهاً عليه ؛ ثم استراب وفر إلى الجبل المذكور
من المخالفة إلى شأنه سنة ٢٧٢ . وخرج المنذر ابن الأمير محمد إليه بالجيش ،
وضيق به ؛ واتصل بالمنذر وفاة أبيه ؛ فعبل الرجوع إلى قرطبة . ولما قرر
أمره ، خرج بنفسه إلى منازلة ابن حفصون ؛ فنازله بقامرة من عمل ريه ، وضيق
حصاره . فلما اشتد عليه الأمر ، طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده
إلى قرطبة ، وشرط أن يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله وأهله إلى قرطبة ،
وأن يفرج له ؛ فأسعف في ذلك ؛ فقتل العرفاء الناظرين على البغال ، وأخذها ؛
وقد انحل العسكر . وانصرف إلى ببشتور ، وقفل المنذر إلى قرطبة ، وشرع
في الحركة إليه ، وأقسم ألا يفارقه أو يستأصل أثره ، ونازله بببشتور ، كما
تقدم ذكره . فكانت وفاة المنذر محاصرة إياها .

وولي بعده الأمير عبد الله أخوه ؛ فعظم أمر ابن حفصون . وتغلب
عامل عبد الله على كورة ريه ، واشتدت شوكته ، وظهرت على سوار ؛
وأمر سعيد بن جودي أمير البيرة ، ووقعت المهادنة بينه وبين الأمير عبد
الله . ثم انتقض ، وتملك حصن بلاني ، وجيش ثلاثين ألفاً من أهل الكور .
وبرز له إليه الأمير عبد الله بنفسه في نحو شطر ذلك العدد ؛ ففر عنه ابن

حفصون . وفتح عبد الله حصن بلادي في سنة ٢٧٧ ، ونازل مدينة إسججة ؛ فاستنزل منها رجال عمر . ثم انتقل ؛ فنزل بظاهر بيشتر ؛ ولم يأت له في ابن حفصون غرض ؛ ففقل إلى قرطبة عن يحن كثيرة .

وجرت على ابن حفصون بأحوال السيورة هزيمة أنحن بها جراحاً ، ولحق مفلولاً بيشتر ، ثم قوي أمره بخلاف بني حجاج بإشبيلية ، واتصلت يده بهم ؛ فعظمت غاراته وسراياه إلى مورور وسندونة وقرمونة وغيرها .

ثم كبر أولاد عمر بن حفصون أيوب وجعفر وعبد الرحمن وحفص ؛ واعتل عمر علة شديدة ، اتهم فيها أيوب ولده بالفتك به ؛ فعاجله وقتله . والجيوش في كل حين تتوالى عليه ؛ فتارة يستأمن ، وتارة ينكت ؛ وأهلكت الأندلس فتنه . وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية أصدقاء الأموية ، وجبها إليه رجلين ممن يعتقد مذهبهم بخلعات ، وخاطبوه بالخص على التزام طاعتهم وإقامة دعوتهم ؛ وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه ، وصرهما ؛ ووجه معهما هدية انتخبها إلى صاحبهما . ولما توطد لهذا العهد أمره ، أحضر أصحابه ، وعقد لولده جعفر العهد بعده ؛ وكتب عليهم عقداً استحلفهم فيه . واتصل به مرض الأمير عبد الله ؛ فغلب لذلك على الحصن الذي ابتناه على مدينة بيشتر ، وقتل من به . وبلغ ذلك الأمير عبد الله ؛ فأغراه ابنه أباناً سنة ٢٨٥ ؛ فاشتد الأمر عليه ، واستراب بأصحابه ، فحذرهم ، وعول على النصارى ، وتقلد (زعموا) دينهم دين آبائه .

ثم ولي الأمر عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، وصرفه إلى استنزال الثوار ؛ فرأى ابن حفصون من إقبال دولته وسعادته حركتها لطلب أمانه ؛ فأسعفه الناصر ، وكتب له عهداً ، أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا ، وارتحن عنده ولده عبد الرحمن بن عمر . وغزا قواد الناصر بلاد النصارى غزوات حضرها ابن حفصون .

ثم توفي عمر في سنة ٣٠٦ ، وولي أمره ولده جعفر بن عمر ؛ وزعموا أنه

شهر دين النصارى ، وانفرد بمواراة أبيه مع التيسين حتى دفنوه على سنة دينهم .

وذهب جعفر مذهب أبيه في العناد ، ودس الشرار للقطع بالطرقات ؛ فأغزى إليه الزامر ، ثم غزاه بنفسه ؛ فافتتح حصن بلدة عنوة ، وقتل مقدم جعفر ، واستباح أهل الحصن قتلاً وأسراراً . وخالف على جعفر أخواته عبد الرحمن وحفص ، وضاق أمره ، واختلت حاله ؛ وقام عليه طائفة من خاصته ؛ فقتل . فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر . واستدعى قتلته أخواته سليمان وحفصاً ؛ فسبق سليمان إلى بيشتر ، واستولى على أمر والده ، واستأمن إلى الناصر ، وخطب طاعته ؛ فسأله إلى أن تمكّن وعلا قدره ؛ فنكت ، وشن الغارات ؛ فأخرج الناصر القواد إلى مضايقته ، وبني على طرث من حصونه قصبات حصينة ؛ فلاذ بالصلح ؛ فقبل منه ، وأخذ رهائنه ، وهدم حصن طرث من حصونه . ولم تطل مدة سلمه إلى أن نكت ودخل مدينة المنكب عنوة ؛ فقتل جميع أهلها ، وسبى نساءهم ؛ فخرج الناصر إلى منازلته ، وضيق به ، وفتح الكثير من جهاته ؛ ثم قفل ، وقد اختلفت كلمة أصحاب سليمان بن عمر بن حفصون ؛ فرصدوه حتى إذا خرج يوماً إلى مطالعة بعض حصونه ، أعلنوا بخلعه ، وخاطبوا القوميس كبير النصارى المهادين عامل الناصر بتلك الجهة ؛ فالحق بهم فيبنا هو يروض الجملة في استدعاء قائد الناصر ، إذ لحق سليمان مستتبلاً ، وقد أضعوا الحزم في ضبط المدينة ؛ فدخلها متكرراً متلبساً بحملة حطب ؛ وتلاحق به أصحابه ؛ ففر الأسقف وجعل سليمان السيف على من اتهمه . ثم ضافت حاله ؛ فكتب إلى عبد الرحمن الناصر بطلب الأمان والسلام ؛ فأجابه إلى ذلك ، وكتب له عهده . فلما تأشّن ، نكت وعادو الغدر ؛ فوالى عليه عبد الرحمن الجيوش والحشم ، وأردف القواد حتى نالت عليه الوقائع ، وتبين إداره ؛ فأطاع جملة من معاقله ، وقطعت عن بيشتر الميرة والمرافق ، إلى أن وقعت على سليمان الهزيمة

بأحواز سُنْتُ بِحَنْتْ ؛ وكبا به فرسه ؛ فقتل .

وولي بعده أخوه حفص : ملكه أهل القلعة مُرَّحَم . وخرج إليه الناصر سنة ٣١٥ ؛ فافتتح مدينة أنجش من طاعة حفص ، ونازلته ببشتر ، وابنتى بجوارها حصن مُخَلَّدة ، وتخلَّف فيه الوزير ابن المُشَدِّر ؛ فأذعن إلى السلم ؛ فلم يجب إلا على الخروج . فتم ذلك بعد عنا كبير سنة ٣١٦ . ووصلوا بجمعهم إلى قُرْطُبَة . ونوسع إلى حفص في إنزال واسع ، وإلحاق شريف . وغزا مع عبد الرحمن الناصر إلى جَلِيقَة ، وأغنى بين يديه إلى أن مات بوادي الحجارة سنة كذا وعشرين وثلاثمائة .

وانقضى أمر بني حفصون إلى هذا الحد . ولا بد لكل أول من آخر ؛ فسبحان من له البقاء !

ذكر شيء من أخبار بني حجاج

وكان هذا البيت من بني حجاج بِنْت رِياسة وظهور بإشبيلية ، وآخر بيوتات النباهة الأربعة : بيت بني حجاج هذا ، وبيت بني عبَّاد ، وبيت بني خلدون ، وبيت بني الحكيم المستقر عقبهم الآن برُنْدَة ، حسباً ذكر لي أبو بكر بن الوزير أبي عبد الله منهم . وأدركت من بيوتات بني حجاج بالقة أمين العطارين بها يخبر بشرف عن هذا البيت ، وأنهم استبدوا بحضرة إشبيلية عن بني أمية ، بحيث كانوا يقدمون قاضي الجماعة من مدينتهم ، ولا يرجعون في شيء من أمرها إلى صاحب الدعوة المروانية .

وكان إبراهيم كبير هذا البيت ، لما كشف الوجه في الخلاف ، هادن الأمير عبد الله بن محمد على أن يولِّيه ببلده ، ولا يعرض له ؛ فرضي منه بذلك ، وفعل . فجنى الأموال ، واصطنع الرجال ، وارتقى في درج الجلال ؛ وكان رئيساً ضخماً ، بعيد الهمة ، حسن الآثار ، جميل الذكر ؛

ولم يزل يتبسط على الأمير عبد الله حتى ساء ما بينهما ؛ فظهر الخلاف ، ومالاً بجاره ابن حفصون ؛ وعظمت نكايتهما إلى أن هلك إبراهيم ، وحالته حال الملوك مصافاً وإنعاماً . وكان يُضاهي الملوك ، ويقصده الشعراء ، وتؤمُّله الأشراف . وفيه يقول ابن عبد ربَّه قصيدته التي أوتها : [الواثر]

كِتَابُ الشوقِ يَطْوِيهِ الْفُؤَادُ وَمِنْ فَيْضِ الدَّمْعِ لَهُ مِدَادُ

وكان مهلكه فجأة في عام ٢٨٨ .

وولي بعده ولده عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ فطالت مدته إلى سنة ٣٠١ . وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج بمدينة قرْمُوتَة ، قد أقام أيضاً رسماً كبيراً من الفضل ، زاد به على شهرة أبيه وجلالته . ولما توفي عبد الرحمن جعل أهل إشبيلية الأمر لأحمد بن مَسْلَمَة من بني حجاج ، وصرفوه عن محمد صاحب قرْمُوتَة ؛ فناصرهم الحرب ، وأعطى الناصر الطاعة ، وقد صار إليه الأمر ، وأمدّه بالجيش ؛ فضيق على إشبيلية ، وأقام بإقليم الشرف منها . ولما رأى ابن مَسْلَمَة ما لا يطيقه ، داخل الناصر لدين الله في سرٍّ من الأمر ، ومكّن الناصر من إشبيلية . ولما علم محمد ذلك ، أنكر كتم الأمر عنه ؛ فخالف الناصر ، وأغار على الأحواز القُرْطُبيَّة . وما زال الناصر يؤنس ، ويتأنى له ، إلى أن أجابه إلى سكّني قُرْطُبَة حضرته ، على أن يترك بقرْمُوتَة بَلَدَه نائباً عنه ؛ فكان ذلك في رمضان من عام ٣٠١ . ووصل قرطبة في رجاله وقومه ؛ فأجرى الناصر عليه ، وقربه من نفسه ، وولاه الوزارة منوّهاً به رفيع القدر ؛ وخرج للغزاة ؛ فأغزاه معه وزيراً . ثم امتنع عليه قرْمُوتَة ؛ فحاصرها مع السلطان إلى أن طرقت في أمورها التهمة ؛ فعزل عن الوزارة وحُبس . ثم أعتبه . ولم تطل مدته أن هلك في شوال سنة ٣٠٢ . وأنقضت أيام بني حجاج .

والثوار في دُول بني أمية متعدّدون : شقيت بهم الملوك ، وتنغصت

بهم الخلفاء ؛ واضطروا إلى مُسالمتهم تارةً ، ومُحاربتهم أخرى . وجعلوا رسم الوفاء لمن عاهدوه منهم سياسةً ، لولاها لجلُّ الحُطْبُ ، ولم يخلص الملكُ .

والسببُ في كثرة الثوار بالأندلس يومئذٍ ثلاثة وجوه : الأول : منعةُ البلاد وحصانةُ المعقل ، وبأسُ أهلها بمُقاربتهم عدوَّ الدين ؛ فهمُ شوكةٌ وحدٌ بخلاف سِوَاهُمْ ؛ والثاني علوُّ الهِمَمِ ، وشموخُ الأنوفِ ، وقلةُ الاحتمالِ لثقلِ الطاعة ، إذ كان من يحصلُ بالأندلس من العَرَبِ والبرابرةِ أشرفاً يَأْتِفُ بعضهم من الإذعانِ لِبَعْضٍ ؛ والثالث : الاستناد ، عند الضيقة والاضطرار ، إلى الجبَلِ الأَشَمِّ والمُعْقِلِ الأعظمِ من مَلِكِ النصارى الحريصِ على ضَرْبِ المسلمين بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . فكان الأمراءُ من بني أُمَيَّةَ يرون أنَّ البجاج في أمورهم يؤدي إلى الأضلولة ، وفيها فسادُ الأموال ، وتعذرُ الجباية ، وتعريضُ الجيوشِ إلى الانتكابِ وأولياءِ الدولة إلى القتل . ولا يقومُ السرورُ بغلبةِ الثائر بما يوازنه من ترحمةِ هذه الأمور . وسياسةُ الثوار والناجين قد أَكْثَرَ أربابُ السياسةِ القولَ فيها من الفُرسِ واليونانِ والنُزْكَ وغيرهم ، حسبما يَتَبَيَّنُ في « كتاب رسالةِ الفُلكِ في سياسةِ المُلُكِ » إن شاء الله . فلا يزالون يسيغون في حسنِ التأنِّي لهم المرءُ ، ويتعمَلون المشاقَّ .

وكان الأمير عبد الرحمن مبرزاً في ذلك مع معين البخت والإقبال ؛ فهادنَ طائفةً ، وارتعنَ أخرى ، واستنزل إلى حضرته أخرى ، وغلب بالسيفَ أخرى ؛ فاستأثر من بين قومه بالهدوءِ وخلوِ الجهاتِ من الهرج ، وتنهأ بحول الملكِ .

وهذا الكتابُ كتابُ 'لمعٍ وإشاراتٍ' ، إن أَطْلَقْنَا فيها العِنانَ ، خَرَجْنَا عن الغَرَضِ .

ثمَّ إنَّ الله ابتلاه ومحصه بالوقعة الشهيرة التي أوقَعَهُ بها عدوُّ الله رُذَمِيرُ ابنُ أَرْدُون ، يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خَلَّتْ من شوال سنة ٣٢٧ ، على باب مدينة سَنَاتٍ مَا نَكَشَ من بلاد الرُّومِ ، بعد قتالِ أَيَّامِ جَالَتْ .

فيه المُعَالِبةُ بين الفريقين بأشدَّ ما يكون وأصْعَبِهِ . وكانت للعدوِّ الكرَّةُ ؛ فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله . وجرتِ الهزيمةُ على المسلمين طائفةً من جُنْدِ الناصر لدين الله حَسَدَتْهُ ما هَيَّأَ اللهُ له من الصنع ، ولم تُنَاصِحْهُ في الحربِ حقَّ النصحِ ؛ فجالت ثانيةً للأَعِنَّةِ ، واختلَّ مصافُّ القتالِ . وألجأ العدوُّ المسلمين إلى حَزَنَدَقٍ بعيدِ المهوى ، إليه تُنْسَبُ الواقعة ؛ فتساقط فيه الناسُ حتى سَاوَوْا بين حافَتَيْهِ . وانكشف الناصِرُ ، وأسلم محلاته ؛ فاستولى عليها العدوُّ بما فيها من عُدَّةٍ وغير ذلك ؛ وضع فيها مُصَنِّعَهُ ودِرْعَهُ ، وكان لا قيمةَ لهما ، إلى أن استردَّ ذلك فيما يَأْتِي .

ولما خلاص من المعركة ، وجَّه طائفةً من أنجاد خَدَمَتِهِ سبقت الناس إلى قرطبة ؛ فبشَّرت بسلامته ، وأُنْقِذت أُمُرُهُ باتِّخَاذِ الحَشَبِ والمصَالِبِ على صَفَةِ نهرها ؛ ولحين وصوله ، تَقَبَّضَ على ما يناهزُ ثلاثمائة من الفُرسِ ؛ فصلبهم ، وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاءُ من عَشَّ الإسلامَ ، وكاد أهله ، وأَحَلَّ بمصافِّ الجهادِ ! » فرُفِعُوا بها ، وبَادَرَتْهُمْ الرماحُ برأى من الناس ؛ ودخل إلى قصره . ومن لدن هذه الغزاة ، لم يُبَاشِرِ الغزوَ بنفسه . وضع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساحِ بلادهم ما لم يصنعه لأحدٍ مِمَّنْ قَبْلَهُ .

وتوالَتْ عليه بعد ذلك المنوح ، وأذعنت الأعداءُ ، وقدمت عليه رُسُلُ الملوك بالعدوةِ الغَرِيْبَةِ من رَنَاتِهِ والأَدَارِسَةِ والقَيْرَوَانِ وَجَزَائِرِ بني مَرْعَنَّا . ووصل إليه رسولُ مَلِكِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ العُظْمَى ، راغباً منه في إيقاعِ المِوَالَفَةِ . فتَعَدَّ له المَقْعَدَ الشهير ، الذي لم يَتَّيَّأْ مِنْهُ لِمَلِكٍ قَبْلَهُ ؛ فدخل الرسولُ عليه ، وقد بهت لهول ما عَايَنَهُ ، ودفع إليه رسالته مُودَعَةً في دَرَجِ ذهبٍ كثيرٍ التصاوير ؛ وكان الكتابُ في رَقٍّ سماويٍّ اللون مكتوباً بالذهب ، وعليه طابَعُ ذهبٍ ، في أحدِ وَجْهَيْهِ صورةُ المسيح ، وعلى الآخر صورة الملكِ 'قُسْطَنْطِينِ' .

وتعهد 'ملك' الناصر ، وعظم أمره ، وبلغت الغاية مبادئه ؛ فزاد في المسجد الأعظم الزيادة الهائلة ، وبنى المنار الأعظم بقرطبة ، وجعل في أعلى ذروته ثلاث رُمّانات تحطف الأبصار بالتساعيا : أنثتان منها ذهب ، وواحدة فضة ، طوق كل رُمّانة فيها قطار من الذهب ، ودور إحداها ثلاثة أذرع ونصف .

وهو الذي ابنتي الزهراء : ابتدأ بناءها في أوّل سنة ٣٢٥ . وكان يضرب فيها من الصخر المنجور العريض الضخم كل يوم ستة آلاف صخرة ، سوى صخر التبليط والتأسيس . وجلب إليها الرُخام حتى من تونس وقَرطاجنة إفريقية ؛ وجلب إليها من سوارى الرُخام أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وأربعاً وعشرين سارية ؛ وجلب إليها من بلاد الروم على يد ربيع الأسقف حوضاً منقوشاً بالذهب ، يُنقل هويئناً من مكان إلى مكان ، حتى وصل إلى البحر ، ورفّع منه إلى بلده : فكان عبدةً مُتأمله ؛ وجلب إليه أحمد ابن سزّم حوضاً ثانياً منقوشاً ، فيه تماثيل لا قيمة له ، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام ؛ فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدرّ النفيس الغالي . وذكر المخبر أن قوت الحيتان في بركات قصوره بلغ في كل يوم اثني عشر ألف خبزة . وكانت هيئته في البناء طامحةً فوق همم الملوك .

وكانت جبايته مقسومة ثلاثة أقسام : قسم للجند ، وقسم للبناء ، وقسم مدّخر للضائر .

وحكى صاحب « طبقات القضاة » أن الناصر لدين الله اتخذ بسطح القبة المائلة على الصرح الممرّد المشهور شأنه بالزهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضةً ، أنفق عليها مالاً جسيماً ؛ وقرمّد سقفاً بها فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعّعة . وجلس فيها ، إثر إتمامها ، لأهل

ملكته ؛ فقال لوزرائه وخاصته ، مفتخراً بما صنعه ، وبما يتصل به من البدائع : « هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي فعل مثل فعلى هذا أو قدر عليه ؟ » فقالوا : « لا ، والله ، يا أمير المؤمنين ! وإنك لأوحد في شأنك كلاً ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأينا ولا انتهى إلينا خبره ! » فأبهجه قولهم وسره جدّاً . وبينما هو كذلك ، تضحك أسارى وجهه ، إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجياً ناكساً ؛ فلما أخذ مجلسه ، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه . قال : فاقبلت دموع القاضي تنحدر على لحته ، وقال له : « والله يا أمير المؤمنين ! ما ظننت أن الشيطان - لعنه الله - يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أنك تمكته من قيادك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! » قال : فاقشعرّ عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وقال : « انظر ما تقول ! كيف أنزلتني منازلهم ؟ » فقال : « نعم ! أليس الله تعالى يقول : « وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً » الآية . قال : فوجم الناصر لدين الله ، ونكس رأسه ملياً ، ودموعه تنحدر على لحته خشوعاً لله تعالى ، وتذمّناً بما أجري إليه . ثم أقبل على منذر بن سعيد ، فقال : « جزاك الله عناً وعن نفسك خيراً ، وعن المسلمين والاسلام خيراً جزائيه ، وكثر في الناس أمثالك ! فالذي قُلت هو الحق ! » وقام من مجلسه ذلك ، يستغفر الله ؛ وأمر بنقض سقف القبة ، وإعادة قراميدها ثراباً على غير تلك الصفة .

ثم طرّق الناصر ما طرّق جدّه ؛ فأنفذ قتل ولده عبد الله ، وقد بلغه أن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ؛ وكان أهلاً لذلك فضلاً وعِلماً وبَصَراً بالفنون ؛ وذلك سنة ٣٣٨ . وكان الناصر شديد الجراءة على الدماء ، مرهوب السطوة ، ثقیل العقاب والسخطة . حدث مُرْطِيُهُ أنه استدعى للقصر ليلاً ؛ فأمره بضرب عنق جارية لا نظير لها في الدنيا ، وهي تسترحمه ، فلا يرحمها . قال : وسمعت السيف في عنقها صوتاً لم أعلم ما هو . فلما صممت

عليها النطع ، وخرجتُ بها إلى الحفرة ، أُلْفَيْتُ عُقْدًا قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا ؛ ورجعتُ فَأَعْلَمْتُهُ ؛ فقال : « اذهب به فهو لك ! »

ومن آثاره التي ضُربت بها الأمثال ، وقضيت منها العجائب ، حال الطَّرَازِ ببابه لِنَسْج ما يحتاج إليه من الخلع والكسَى وملابس الحَرَم وغير ذلك ؛ فقد كان على عَهْدِه مدينةٌ تشتمل على آلاف من الخلق ، قد اتَّخِذَتْ فيها المرافقُ والمساجِدُ والحمامُ والسوقُ . ولو تتبعنا أَصْنَافَهُمْ ، وما كانوا يجاورونه من صناعاتهم ، وبنّاغون به المشرق من بضائعهم ، ومقدّار جراياتهم ونفقاتهم ، لضاقَ عنه الكتابُ .

وتوفي - رحمه الله - يوم الأربعاء لإثنتين خَلَّتَا من رمضان سنة ٣٥٠ . فكانت أيامُ ولايته خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، وعمره ثلاث وسبعون سنة . وقال ابن الفَرَضِيِّ : « وَجِدَ في تَأْرِخِهِ بخط يده : أيامُ السرور التي صَفَتْ لي من غير تكدير يومٌ كذا من شهر كذا من سنة كذا ، وكُرِّرَ التواريخ ؛ فعُدَّتْ ؛ فكلُّ ما وَجِدَ منها أربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف سنة . وكذا حال الدنيا لمن اعتبرها ، وموازينها لمن اختبرها .

ومن شعر كاتبه جعفر بن عثمان المصْخَفِيِّ في نديته : [الطويل]

أَلَا إِنَّ أَيْامًا هَفَّتْ بِإِمَامِهَا لَجَاثِرَةً مُشْتَطَّةً فِي احْتِكَاكِهَا
فَلَمْ يُؤْلِمِ الدُّنْيَا عِظَامُهَا مَخْطُوبِهَا وَأَحْدَاثِهَا إِلَّا قُلُوبَ عِظَامِهَا
تَأْمَلُ فَهَلْ مِنْ طَالِعٍ غَيْرِ آفَلٍ لَهَا وَهَلْ مِنْ قَاعِدٍ لِقِيَامِهَا
وَعَايِنَ فَهَلْ مِنْ عَائِشٍ يَوْضَاعِهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَيِّتٌ بِفِطَامِهَا
كَأَنَّ نَفُوسَ النَّاسِ كَانَتْ بِنَفْسِهِ فَلَمَّا تَوَارَى أَيْقَنْتُ بِجَمَامِهَا
فَطَارَ بِهَا يَأْسُ الْأَمَى وَتَقَاصَرَتْ يَدُ الصَّبْرِ عَنْ أَعْوَالِهَا وَاحْتِدَامِهَا

وكان عددُ القَتبانِ الصَّقَالِبَةِ بمدينة الزَّهْرَاءِ لِحِين وفاته ٣٧٥٠ ؛ وعددُ

النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، يجري على الجميع اللحم والخبز والطيور والحيتان وغير ذلك من ضروب المؤنرات وضُرُوريات الديار الجارية .

وقد عهد بالأمر بعده لولده الحَكَم ، وهو طفلٌ صغيرٌ من ثماني سنين أو نحوها ، بحيث لو هلك لَنُصِبَ بعده بمكانه ، حسبما اقتضاه ما أخذَه على الناس من العَهْدِ بذلك ، واقتضاه من الأيْمَانِ الغليظة المَحْرُجَةِ شَأْنٌ من يأخُذُ العَهْدَ لولده من الملوك ، إلا أن عمره امتدَّ إلى أن كان يومَ تصيير الأمر إليه بعده في سنِّ الكهولة . فالحَكَمُ - رحمه الله - بهذا الاعتبار مُمَنَّ استَرَطْنَا ذِكْرَهُ مِمَّنْ بُويعَ قبل الاحتِلَامِ من ملوك الإسلام . وكفى بذلك وبجَالِ ابنه المؤيَّد هشام بعْدَه الايتساء لمن أراد الايتساء بذلك ، واختارَ الاقتداءَ به - رحمه الله عليهم اجمعين !

دولة المستنصر بالله الحَكَم

ابن عبد الرحمن المستنصر لدين الله

بُويِعَ الحَكَمُ بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بعد موت أبيه ، تجديداً لعَهْدِه ، لثلاثِ خَلَوْنٍ من شهر رمضان سنة ٣٥٠ . وكان - رحمه الله - عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميّزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كلِّ مضر وأوان ، تجرّد لذلك وتهمّم به ؛ فكأنَّ فيه حُجَّةً وقُدُوةً وأصلاً يوقف عنده .

وفي أَيْامِه ، سكنت الفتنة لتَوَطُّيدِ أبيه الدَّوْلَةَ ، واستظهاره على الثَّوَارِ بحسن السيرة وطول العُمر ومُساعدة الأيَّام . وفي أَيْامِه ، ظهرت المَجُوسُ المُجَلَّبَةُ على المسلمين من بحر الجوف ؛ فتحرّك إلى المَرِيَّة ، وقد

حصروا حصن القبيطة من حصونها ؛ فأوقع بهم ، وأنشأ الأسطول لغزوهم ؛ فكان عدده ستمائة جفن بين غزوي وغيره . وفي سنة ٣٥٢ ، غزا الروم ؛ ففتح مدناً جيلة .

وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم ، وزينه بالفسيفساء المجتلبة من قبر ملك القسطنطينية مع الصنائع المحكمين لذلك ، محاذياً بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق ؛ ففاق خدمته وممالكه في تعلم ذلك ، وبرعوا فيه ، إلى أن كمل ما أراد . وورد عليه إرسال ملوك البلاد ، وجبايرة العباد . وألقت الاقطار إليه بالمقاليد ، ونجحت بالطاعة . وورد عليه جعفر بن علي وأخوه يحيى ملك الزاب ، الذي مدحه محمد بن هاني الشاعر بالقصيدة الشهيرة التي أولها :

أَلَيْلَتَنَا إِذْ أُرْسِلَتْ وَارِدًا وَحَفَا وَبَيْتُنَا نَرَى الْجَوَازِعَ فِي أَذْنِهَا شَفَا

فاحتل لتلقيه ، وكان يوماً مشهوراً بالأندلس .

وفي سنة ٣٦٣ ، افتتح غالب بملوكه مدينة البصرة من أحواز آصلا ، وقفل إلى الحضر ، وقد استنزل ملوك الأدارسة الحسنيين .

وأخبار الحكم - رحمه الله - شهيرة ؛ وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية .

وولد له هشام ابنه في من الكبر ؛ فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه . حدث عبادة بن عبد الله فيه قال : بُشِّرَ الخليفة الحكم يوماً في خلوته بأشمال جاريته صبح على حمل ؛ وكان جعفر بن عثمان المصحفي بين يديه ؛ فأنشده بديهة :

هنيئاً للإمام وللأنام كريم يستفيد على كرام
مرجى للخلافة وهو ماء ومأمول لأمال كرام

أضاء على كريمته ضياءً فلم تعلم بغاشية الظلام
ولم لا يستضاء بجانبها وبين ضلوعها بدور التمام .

قال : فولدت صبح من هذا الحمل هشام بن الحكم . واتفق أن حضر جعفر عند الخليفة ساعة أتاه البشير بولادته ؛ فقال في ذلك : [خلع البسيط]

أطلع البدر من رعايه واطرد سيف من قرايه
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه
فلو منحت البشير عمري لكان نورا لمن أتى به

وتوفي الحكم ليلة الأحد لأربع خلون من صفر سنة ٣٦٦ ، وعمره نحو من ثلاث وستين سنة وسبعة أشهر .

دولة هشام المؤيد بن الحكم

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

ولما توفي الحكم المستنصر بالله ، بويع ولي عهده هشام الملقب بالمؤيد بالله ، بالخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ؛ فكانت كرامة ، ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بيئة ، ثم فاكهة شهية . وكان بكرسي العارضة مجلاها ؛ ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الخطوط من أعلاها ؛ فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمته مزايده ومزايته ، والملوك تعوذ بالله أن لا يصيبه عاثته الذي يعاينه ، والمباني قد بلغت الساء سوءاً ، وزاحمت الكواكب علوً ؛ والبلاد قد بلغ فيها إلى قاصي الاهتمام ، وفترعت بناتها من لبنات التمام ؛ والآثار

الصالحه قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت ؛ ورسمُ الخلاف قد أضحى ، والدولة المروانية قد بركتْ وَسَطَ المَرْعَى ، والدعوة قد انتشرتْ في المغرب الأقصى ؛ والمِصْرُ قد خرج في العِمارة عن المعتاد ، وظهور الرِّي والرهاد ، متزاحماً بجيوش الجهاد ، والصنائع تجلّى ، والفتوحات من فوق المناير تُثلى ، والقراية تضيق عن أعدادهم مجالسُ الملوك ، ويقصر عن انتظام لآلئهم الثمينة ذرع ذلك السلك .

ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول ، وبني الأعمام الفحول ، أسود الهياج وغيوث المحول ؛ وهشام يومئذٍ صبي صغير يناهز عشر سنين ، مع ضعف في الأصل ، وعدو في الحقل ، والكل على علم ، من أنه لم يبلغ الحُلُم .

حكى القاضي أبو الفضل عياض - رحمه الله - أن الحَكَمَ أباه ، لما وُضِعَ سريره للصلاة عليه ، قيلَ لجَعْفَر بن عثمان : « مَنْ يُصَلِّي على أمير المؤمنين ؟ » فقال : « ومن يُصَلِّي عليه إلا أمير المؤمنين ولده ؟ » فتقدم هشام ، وتقدم خلفه بارزاً عن صف الناس القاضي أبو العباس بن ذكوان ، ناوياً الإمامة لصغر هشام عن هذه الوظائف ؛ وخلفه يومئذٍ ، من أعلام مشيخة العلم والدين والشهرة والصلاح في الحق ، أمة لم يشتمل العراق عليها أيام احتفاله ، ووفور رجاله ، ما منهم إلا عالمٌ بسنه ومولده ، ومحله من الاضطلاع بأموالهم والاستقلال بأعباء ما نخلوه . وأعطوه صفقات أيمانهم من بيعته ؛ والقوم القوم لا يؤتون من جهل ، ولا يهدون إلى سلوك سبل . فتم ما أريد من ذلك . وأخذ على الناس العقود به أياماً تبعاً حتى كمل الغرض ، وتم ذلك الواجب المفترض .

وكان الدس يومئذٍ لا بل وفي كل زمان - أربعة :

فصنف همّة الدنيا التي ينالها بسبب الولد همّة بالغاً أو . امتأ
طفلاً في المنهد أو جيباً في المشيمة . وهم صنائع الحكم وخدائمه

وعُباله وفتيانه ورجالته ؛ وكل في علاقة به ، بمن يحسب نفسه أجنبيّاً عن خليفة غيره ، إن لم يعدّ عدواً ، تطرق الظن إلى ماله ونفسه . وهذا الصنف تجرّ زانجر ، وللحصى والقطر مكاثِر ؛ وينضاف إليه كل ذي علاقة قديمة سالفة أو حديثة ناشئة ، تنتسب إلى النائب عنه ، وهو مستكثر من الأولياء لضرورة ما تحمله والاستظهار على ما أدخل فيه ؛ وهم أيضاً تجرّ ثانٍ ، وهول لا يثنيه ثانٍ .

وصنف مُرتَق من الديوان ، مشهور العاية والمكان ، أو مجهول الشأن ، راضٍ بحظّه من الزمان ، لا يتشوّف إلى المزيد ولا يجذر من النقصان ، قد تساوت في الدّول أحواله ، وسكنت إلى الرزق والمفروض آماله ، فإن تعيّن الطّفل أو الكهل ، لم تلحقه يازاء هذا مزيّة ، ولا فقد لأجل هذا حالة سنيّة ؛ فهو هادئ ساكن ، وإلى فئة العافية راكِن .

وصنف يؤمّل أمراً ، ويشبّ إن قدّر جُمرًا ، ويرجو من القرابة الراجحة زَيْداً وعَمراً ، ومُسْتَحَقُّ بَأْسَف لما خرج عن يده ، أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى تحلّ ولده ، مُسْتَوْحِشٌ ببخس حقه ، وجحد سبّقه ، ولا يعلم حال الدنيا فيمن ادّعى الاستحقاق ، وفرض الرِّفاق . وإن هذا قياس فضح الأول والآخِر ، والغائب والحاضر ، وقطع الأعناق ، وسحت الأرزاق ، وأكسب النار ، وأعقب الحسار ؛ وما تلبّست الأيدي بشيء ، ولا حصلت إلا على ظِلّ وفي ؛ وقد جرّت بذلك الأمثال المضروبة والأقوال المشهورة ، كما قال قيس بن الملوّح ، وقد خسر على لَيْلى حتى عَقَلَهُ ومَسْكَنَهُ ، وذهب بها إلى رحله ، وتمتع بها بما حرّم : [الطويل]

قَضَاها لَعْنَةً . ابْتَلَا بِبُيَا . شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ ابْتِلَانِيَا

وقال الآخر :

رَبِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ وَأَسْمِي أُمَّ خَالِدٍ

لا بل ، سبحان الله الذي يقول : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ لِنُفْسِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . » ولا يعلم أن الحظوظ قد كُتِبَتْ ، والأمور قد أُبْرِمَتْ ، والفلك قد سُحِرَ ، والقدر قد قُدِّرَ ، والنجوم قد أُمِرَتْ ، والأحوال قد قُرِّرَتْ ، والمواليد قد اتَّسِمَتْ ، والغيوب قد أُهْمِتْ .

وهذا الصنفُ المنازعُ المنافسُ بينَ أن يَصُنْتَ فيسوتَ بدائه ، أو يَجْهَرَ بالمنازعة فينتهي إلى قَدَرِ الله وقضائه . وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف ، لاستحكام الصنفة الحَكَمِيَّة التي لا تُبالي بِن تقادم . ولا تظن غيرَ الحَكَمِ أو الناصِرِ كان آدَم ؛ فلم تَسْعَهم يومئذٍ إلا المُجَامَلَة ، وجَرَّتْ على الرضى المعاملة ، واسْمَعَ الدعاء والإطراء ، واعمل السكون والإراء !

وصنّف من أهل الدنيا والآخرة ، قلّدوا أهلَ الحِلِّ والعقد ، والقبول والردّ اجتهادهم ؛ وسألوا الله توفيقهم وسدادهم ، واستكفوه الشرور التي تنالُ النفوس والأفوات ، وتُسيءُ المجيا والممات ؛ واعتبروا بمن رَأَسَ الأُمَّةَ المُسْلِمَةَ في أمّهات البلدان ، من الفُتَيَّان والعِلَمَان ، والطَّوَّاسِيَةِ والحَصِيَّان ، والأعجام التي تُخاطَبُ بالثُرَجْمَان ، والصبيّة والنِّسْوَان . وهم أشرفُ أوطاننا ، وأعظمُ سُلْطَاننا ، وأوفرُ أعلامنا ، وأعزُّ إسلامنا . ورأوا أن الله قد سدَّ ثلهم بمن يُحْكِمُ التلْفِيق ، وينتمس التوفيق ، وحسُنَ المآب ، ويحكمُ السُّنَّةَ والكِتَاب . وأنه رَأْبُ الصَّدْعِ يَرَجُلُ من أنْفُسِهِم بِؤْثِرِ الثَّقْوَى ، ويدفع عن الجَوْرَةِ بالذراع الأقوى ،

١ سورة آل عمران : ٢٥ - ٢٦ .

إلى أن يستقلَّ هِشَامُ بِأَمْرِ الحَكَمِ ، وتفضي المذاهبُ إلى النهج الأمم . فحمدوا الله على حُسْنِ الكفاية واصطناعِ المنّة ، وإقامة رَسْمِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ ؛ فاعتبطوا ، وارتبطوا ، ونشطوا ، وانبسطوا ؛ وكلّما زادت الأحوال صلاحاً ، شكروا ، واعتبروا ، وذكروا ، واستبصروا . وهم جُمُهورُ الناس من الفقهاء والعلماء ، والخاصّة والدهماء . فم تَسْمَعُ عن أحدٍ منهم هِجْرَةً أَعْمَلها ، ولا فِتْنياً سوَّغَتْ الخِلافَ لِمَنْ سَأَلها ؛ ولم يستجيزوا ذريعةً تؤدّي إلى سفك الدماء ، وتغيير النعماء ، وشيات الأعداء ؛ فصانوا أديانهم ، وعرفوا زمانهم ، واقتصروا على رسول الله في الإرشاد ، وإلهام السداد .

وصنّف غارِمٌ ، لا همّ له إلا فيمن يُخَفِّفُ أَصْرَهُ ، أو يديل باليسر عُسْرَهُ . وأمّا هؤلاء ، فأوْبَاشُ أسواق ، وحَمَقَى ما لهم من أخلاق ؛ ففتح الله على الجميع في هذه الأيام الهِشَامِيَّة العامريّة أبوابَ النعم والمنوح ، وجلا صُورَ الفتوح ، والنصر المتشوح ، شملت لإحكام التسيّد ، وكنت الخلق واقيةً كواقية الوليد ؛ وتملأوا العافية التي غبَطَهم فيها أهلُ الأرض بما رحبتْ خمساً وثلاثين سنة ، مدّة الكفالة العامريّة ؛ وتغلّب على الأمر رجال ، زعبوا أن لهم في السداد تجال ، يَوْوَنُ مروان بن الحَكَمِ عجوزاً من عجائز البَيْتِ ، وعبدَ الملك ابنه في حَلَبَتَهم بمنزلة السكّيت ؛ فسام الناسُ دهرهم سَوْمَ العَذَاب ، وأخذتْهم الرجفات من كلِّ باب ، وتقطّعت بالإسلام الأسباب ، وزهبت الأموال ، وتغيّرت الأحوال ، وسفّكت الدماء ، وكتب الجلاء ، وطوّت عمارة الإسلام الأعداء ، ليعلموا أن الخير والخيرة إنما هي لمن بيده مَلَكُوتُ الأرض والسماء ، ومقاليد السراء والضراء ؛ وصاروا يعلّون باستخلاف خِصِيٍّ من فِتَيَّان آل عامر ملازماً للسكر ، محبوباً للأثني والذّكر ؛ فيقنعون به إماماً ، ويجهرون جمّاً في طريقه سلاماً ، ويقفُ أعلامهم ببابه خُذْأماً ؛ وهذا يقرُّرُ دِمَاماً ، وهذا يستمطر سُحُباً جَهَاماً ، من كلِّ منكوس الجِدِّ ، مجهول الأب والجَدِّ ،

أَشْوَسَ اللَّحْظَ ، أَعْجَبِي اللَّحْظَ ؛ لاذوا منهم بأذيال لَبِيبٍ وَزُهَيْرٍ وَفائقٍ
وَوَاضِحٍ ، يَشْمُونُ عَلَيْهِمُ رَاحَةُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَسْتَظِلُّونَ أَيَّامَ
النَّصْرِ ، وَإِقَامَةَ رَسُومِ الْقَصْرِ ، وَأَوْقَاتِ الْعَافِيَةِ الَّتِي سَسَتْ عَنْ الْحَصْرِ .
اللَّهُمَّ ! لَا تَوَاضِعْنَا بِيَطَرِ الْعَافِيَةِ الَّتِي مَدَّتْ ظِلَالُهَا ، وَسَوَّغَتْ زِلَالُهَا !
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ !

وَصِنْفٌ هُمُ الْآخِرَةُ ، بَعِيدٌ مِنْ تَعْرِيجٍ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ، لَا
يَتَكَلَّمُ فِي مِثْلِ هَذَا ، وَلَا يُتَكَلَّمُ مَعَهُ ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهِ بَابًا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ
مَشْغُولٌ بِرَبِّهِ خَاصَّةً . وَهَذَا جِيلٌ قَلِيلٌ ؛ وَإِنَّمَا ذِكْرُ مُرَاعَاةٍ لِلتَّقْسِيمِ .
وَلَا تَخْلُو الْأَفْطَارُ مِنْهُمْ ؛ فَهُمْ بَرَكَاتُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَوَلِيَاؤُهُ مِنْهُمْ .

كَانَ ابْنُ حَيَّانَ فِي تَسْوِئَةِ الْعَامِرِيَّةِ . زُيِّنَ لَهُ بِأَبْنَاءِ الْأَسَمِ بِصَرَفِهِ
صَبِيحَةُ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ بَعْدَهُ ، لثَلَاثَ خَلَوْنَ مِنْ جَفَرٍ سَنَةَ ٣٦٦ . وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
الْبَيْعَةِ ؛ فَاسْتَوْسَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ فِيهَا مِنْهُمْ إِثْنَانٌ . وَاتَّصَلَ أَخْذُهَا عَلَى
النَّاسِ أَيَّامًا ، وَكُتِبَ بِهَا إِلَى الْأَفْطَارِ ؛ فَلَمْ يَرُدَّهَا أَحَدٌ .

وَكَانَ عَلَى عَهْدِ بَيْعَةِ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ مِنَ الْأَعْلَامِ هَضَابٌ رَاسِيَةٌ ،
وَبَحَارٌ فِي الْعِلْمِ زَاخِرَةٌ ، وَأَعْلَامٌ قَوْلُهُمْ مَسْمُوعٌ ، وَبِرُّهُمْ مَشْرُوعٌ ، وَأَثَرُهُمْ
مَتَّبَعٌ ، مِثْلُ قَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبِي بَكْرٍ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زَرْبٍ ، وَحَسْبُكَ بِهِ
شَهْرَةٌ وَجَلَالَةٌ ؛

وَالْقَاضِي أَبِي الْمُطَرِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَيْسَى بْنِ فُطَيْسٍ ، قَاضِي
الْقَضَا بِقَرْطَبَةٍ ؛

وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ السَّلِيمِ ، قَاضِي الْقَضَا عَلَى عَهْدِ الْحَكَمِ
وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ وَلَدِهِ ؛

وَالْقَاضِي أَبِي عَلِيٍّ حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ ذَكْوَانَ ؛

وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ يَبْقَى بْنِ زَرْبٍ ، قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةٍ ؛
وَالْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي يَحْيَى زَكْرِيَاءُ بْنُ بُرْطَالٍ ؛

وَقَاضِي الْجَمَاعَةِ سِرَاجُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِرَاجٍ ؛

وَقَاضِي الْقَضَا الرَّئِيسُ الْجَلِيلُ الْمُتَقَدِّمُ عَلَى الْوُزَرَاءِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ هَرُثَمَةَ بْنِ ذَكْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ دُوسٍ بْنِ ذَكْوَانَ الْأَمْوِيِّ ،
وَكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْهَوَادَةِ : ذَكَرُوا أَنَّ الْمَنْصُورَ لَمَّا اتَّخَذَ مَسْجِدَ الْحِطْبَةِ
بِالزَّاهِرَةِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الصَّلَاةِ فِيهِ ، لَمْ يُصَلِّ مَعَهُ ابْنُ ذَكْوَانَ فِيهِ مَدَّةً
أَيَّامَهُ مُرَاعَاةً لِلْخِلَافِ ؛

وَقَاضِي الْقَضَا أَبِي بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَافِدٍ . قَالَ ابْنُ حَيَّانَ :
كَانَ أَحَدَ كِمَالِ الْقَضَا بِالْأَنْدَلُسِ هَدِيًّا وَعِلْمًا وَرَجَاحَةً ؛

وَأَبِي حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذَكْوَانَ ؛

وَأَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيِّ الْمَعْرُوفُ بِالْقَلَالِيِّ ، لَهُ تَوَالِيفٌ
جَلِيلَةٌ ، سَمِعَ قِرَاءَةَ ابْنِ مُحَمَّدٍ وَحِبَّاسِ بْنِ مَرْوَانَ وَالْعَافِيَّ ، وَلَهُ كِتَابُ
جَبِيلٍ فِي الْإِمَامَةِ ، وَلَهُ بَلَاغَةٌ وَشَعْرٌ وَفُصُولٌ وَنَوَازِدُ ؛

وَقَاضِي الْجَمَاعَةِ أَبِي بَكْرُ بْنُ السَّلِيمِ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ عِيَّاضُ : نَالَ
رِيَاسَةَ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ؛

وَأَخِيهِ مُنْذِرُ بْنُ إِسْحَاقَ أَبِي الْحَكَمِ ، قَدَّمَ لِلشُّورَى بِقَرْطَبَةٍ ؛

وَعُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ يَوْسُفَ أَبِي مَرْوَانَ الْمُعَيْطِيَّ ،
سَمِعَ مِنْ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغٍ ، وَالْحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ ، وَأَحْمَدَ بْنِ عُبَادَةَ ؛

وَسُلَيْمَانَ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ بَلْكَاشِ الْقَوْطِيَّ أَبِي أَيُّوبَ ، سَمِعَ
مِنْ ابْنِ لُبَابَةَ وَغَيْرِهِ ؛

وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ هُذَيْلِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ التَّمِيمِيِّ أَبِي مَرْوَانَ ، سَمِعَ مِنْ
أَحْمَدَ بْنِ خَالِدٍ ، وَابْنِ أَصْبَغٍ . قَالَ ابْنُ عَفِيْفٍ : كَانَ وَاحِدَ عَصَرِهِ ؛

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحَّالِ ، مِنْ بَيْتِ النَّبَاهَةِ

والوزارة بقرطبة ؛

وأبي بكر بن القوطية الإمام المصنف ؛

وإسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم القيسي المضري بن الطحان ، اختصر
« المدونة » وكان من كبار العلماء ؛

وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن القيسي ، سمع وهباً وأبا علي النابلي
وأفتى بجامع الزهراء ؛

وعبد الله بن محمد بن عبد البر التميمي ، والد أبي عمر بن عبد البر ،
من أصحاب ابن بجاجة الإلبيري ؛

وعبد الله بن محمد الصائوني المعروف بابن بركة ، ولي الشورى بقرطبة ؛
ومحمد بن عبد العزيز بن يحيى . قال : كان من أفضل أهل زمانه ، وله
تأليف حسن ؛

وأبي عمر أحمد بن عيسى بن المكرم العافقي ، وأخيه أبي عثمان سعيد بن
عيسى ، سمع قاسم بن أصبغ ؛ وكان من أصحاب الرأي والتصرف والحفظ ؛
وأحمد بن محمد بن زكرياء بن الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن زيد
ابن ميكايل ، مولى عبد العزيز بن مروان ، الرضاقي القرطبي ؛

وأحمد بن قرقثمان أبو عمر من العبّاد المتبتلين ؛

والقاضي محمد بن يحيى بن زكرياء التميمي ، سمع بقرطبة من ابن خالد
وقاسم بن أصبغ وابن رفاعة وابن دحيم ؛

وإبراهيم بن أحمد بن فتح ، المعروف بابن الحداد القرطبي ، روى عن ابن
أبي عمير وابن مسعود ؛

ومحمد بن الحاج بن عبد الرحمن بن علقمة ؛

وأحمد بن محمد بن يوسف المعافري القيشطي ، سمع أبا عيسى
والدينوري ؛

وسعيد بن حمدون بن محمد القيسي أبي عثمان ، سمع ابن أصبغ وابن

الشامة وابن حزم وابن مطرف ؛

وخطّاب بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بشر بن الإبادي ، سمع ابن لبابة
وابن أصبغ ، وحج ، فلقني ابن الأعرابي والنحاس ؛

ومسلمة بن محمد بن مسلمة أبي محمد الزاهد ، سمع بمكة من الأجرى
وغيره ؛

وعتاب بن هارون بن عتاب بن بشر بن عبد الرحيم بن بشر بن الحارث
ابن سهل بن أيوب ، سمع بمكة من ابن الأناطلي والطوسي والحزاعي ؛
وسعيد بن مرشد العكبي أبي عثمان الشذوني ، سمع وهب بن مسرة ،
وشوور مع أصحابه ؛

وعثمان بن سعيد بن البشير بن غالب اللخمي الشذوني ، سمع ابن لبابة
وابن خالد وعمر بن محمد بن إبراهيم بن الرافعي الأبهري ، وروى
« الإشراف » عن مؤلفه ابن المنذر ؛ وكان من أهل العلم والعمل ؛

وأحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف بن موسى بن فهد بن الإمام أبي بكر ؛
وعبد الله بن محمد بن أزهر بن حريث بن قيس بن أيوب بن جبير
الإسجعي ؛

وأحمد بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم الإسجعي ؛

ومحمد بن عبد الله بن القاسم الإسجعي ، سمع ابن لبابة وابن خالد
وابن أصبغ ؛

وعبد الله بن عبد الوارث بن منبيل الطليطلي ؛

وأبي تمام غالب بن عبد الله بن تمام بن غالب المعافري الطليطلي ؛

وعبد الله بن فتح بن فرج بن معروف الحير الطليطلي ، سمع من
ابن الوردة والسكري وابن أبي الموت ؛

وعبد الله بن محمد بن علي بن مريعة بن رفاعة المعروف بالباقي ؛

ومحمد بن عبد الله بن سئبة الإشبيلي ؛

ومحمد بن حسن بن عبد الله بن مَدْحَج الزَّيْنَدِي أَبِي بَكْر . قال ابن
حيَّان : لم يكن له نظيرٌ بالأندلس ؛
ومحمد بن شَرَّاحِيل أَبِي زَكْرِيَاءَ الْبَلَنْسِي ، له كتاب في تَوْجِيهِ حَدِيثِ
« المَوْطَأ » ؛

وإدريس بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد ،
كان حافظاً زاهداً ؛

وعيسى بن العلاء أَبِي الْأَصْبَغِ الشُّدْمِيرِي ، من أهل الفِثْيَا بِمَحَلَّةِ ؛

ومحمد بن عيسى بن حُسَيْن بن أَبِي أَسْعَد بن سَيِّد الدار ؛

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر أَبِي مُحَمَّد الْأَمِينِي ،
انتهت إليه الرياسة ببلّده ؛

وَأَصْبَغُ بن الفَرَج بن الفَارِس الطَّائِي أَبِي الْقَاسِم ، أَحَدُ أَكْبَرِ الْمُفْتِينَ
بِقَرْطَبَة ؛

وعبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن صَاعِد أَبِي الْمُطَرِّف ، سمع الحريري
وابن جَهْظَم وابن رَشِيق وَقَدَّمَ للشورى ؛

وَأَبِي العَاصِي أُمَيَّة بن أحمد بن حمزة ، ولي الشرطة والأحكام وأفتى ؛

ومحمد بن أحمد بن محمد بن قَادِم بن زيد القرطبي ، سمع من قاسم بن
أَصْبَغ وابن حمدان والصَّوَّاف وغيرهم ببغداد ؛

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن هَانِيء العَطَّار ، عُرِفَ بِابْن اللَّيْثَاب أَبِي
عمر ، سمع قاسم بن أَصْبَغ ؛

وَأَبِي إِسْمَاعِيلَ مُحَمَّد بن محمد القرطبي ، سمع القاضي المرواني بالمدينة
والخزاعي بِمَكَّة ؛

وَأَبِي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أَبِي زَمَنِين المُرِّي ، سمع
من وَهْب بن مَسْرُوء وابن المشَّاط وابن عيسى وابن فحلون وابن حَزْم ؛

وَأَبِي عمر محمد بن يحيى بن سعيد بن الحَدِيدِي الطُّلَيْطُلِي ؛

وَأَبِي موسى بن أَبِي الحَزْم بن جَهْوَر المَرْشَانِي ؛
وَأَبِي بكر محمد بن وهب التَّجِيبي الحِصَّار المعروف بِابْن القَبْرِيّ القرطبي ،
أخذ عن ثابت وابن قَطَن وأحمد بن هلال والباجي ، وصحب أبا محمد بن
أبي زيد ؛

وَأَبِي عثمان سعيد بن مُحْسِن ، تقلَّد الشورى بقربة ؛

وَأَبِي إِسْحَاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحَضْرَمِي المعروف بِابْن الشَّرْقِي
من الأئمة في الرواية ، ولي الصلاة والخطبة بجامع قرطبة ، وسع ابن حَزْم
وابن مُطَرِّف ؛

وأحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الكَلَاعِي أَبِي عمرو ، سمع من ابن
عيسى وَمَسْلَمَة بن محمد ؛

وأحمد بن سعيد بن محمد بن يَشْر بن الحِصَّار القرطبي أَبِي العباس ؛

وأحمد بن عبد الله بن الحسن أَبِي عمر القرطبي ، سمع قاسم بن أَصْبَغ وغيره ؛
وَوَهْب بن محمد بن محمود بن إِسْمَاعِيل بن عبد الله بن يحيى الأموي أَبِي
الحَزْم ، سمع من قاسم بن أَصْبَغ وَهْب بن مَسْرُوء وغيرهما ؛ وكان من
أهل الرأي والشورى ؛

وَأَبِي الْمُطَرِّف عبد الرحمن الرُّعَيْنِي ابن المشَّاط القرطبي ، ولي الشورى ؛
وأحمد بن علي بن أحمد المُقَرِّي أَبِي العَبَّاس البَاغَانِي . قال ابن حيَّان :
كان ربَّانِيّاً في علوم الإسلام ، لم يخلف بعده أحد يعرفه في علوم القرآن ؛
وعبد الرحمن بن أحمد بن سعيد البَكْرِي المعروف بِابْن عَجَب ؛

وَأَبِي عبد الله الحسن بن حيّ بن عبد الملك بن حيّ التَّجِيبي ، سمع الأَجْرِي
وَتَقَدَّمَ للشورى ؛

وعبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله التُّرْجَالِي ؛

وَأَبِي عبد الله محمد الصَّابُونِي بن بَرَكَة من أهل الشورى ؛

وعيسى بن العلاء الشُّدْمِيرِي ؛

وأبي عبد الله محمد بن قاسم بن الجالطي ، من القراء ، ولي الصلاة
والخطبة بقرطبة ؛
ويوسف بن محمد بن عمر بن يوسف ، سمع من أصبغ ومحمد بن أبي
دلهم وابن الأحمر ؛
وأبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي أبي محمد الإشبيلي ؛
وسعيد بن عبد الملك الجندامي الإشبيلي أبي عثمان المعروف بابن الملاح ؛
وسعيد بن موسى بن مهزب الغساني ، لقي الأبهري ؛
وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني الطليطي ،
سمع ابن الورّاد وابن السكن ؛
وأبي عبد الله محمد بن عيسى المرتلي الطليطي ، الرجل ذي الشجاعة
والعلم والعفة ؛
وأبي حفص عمر بن عباد الرُعيني ؛
وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عروس الموزوري الحضرمي ، ولي
الوزارة ؛
ومحمد بن يعيش بن منذر الأسدي ، صدر بلده على عهده ؛
وأبي الحزم خلف بن عيسى بن سعد الخير بن أبي درهم الوستقي الفقيه ؛
وأبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار الحافظ إمام المالكية
بقرطبة ؛
وأبي بكر عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التّجّبي ابن حربيل القرطبي ،
سمع مطرفاً وابن الأحمر وابن السّليم وابن حارث ؛
وأبي المطرف عبد الرحمن بن هارون المعروف بابن التّنازعي ، سمع
ابن بيشر وابن القوطيّة ، وتفقه بابن المكنوي والأصبلي ؛
وأحمد بن يحيى بن حكيم العاملي ابن اللّباقي القرطبي ، قاضي طليطلة ؛
وأبي سعيد عمر بن عبد ربه المّعافري القرطبي مختصر « الدلائل » ؛

وأبي محمد بن الشاق ؛
وعبد الله بن سعيد بن محمد القرطبي ، شيخ المفتين في وقته ؛
وأبي محمد عبد الله بن يحيى بن دحّون ، أحد جدّة شيوخ المفتين بقرطبة ؛
وأبي محمد حمّاد بن عمّار الزاهد ؛
وأبي القاسم يحيى بن عمر بن حسين بن تكييل القرطبي ، آخر من حل
عن أصبغ ؛
وأبي عبد الله بن يحيى بن محمد ابن الحذاء ، سمع من أبي دلهم
والأنطاكي وغيرهما ، وألف شرحاً على « الموطأ » ؛
وأبي عامر أحمد بن عفيف القرطبي ، سمع من ابن زَرْب وابن السّليم
والقاضي ابن المطرف بن الحصار ؛
وأبي عبد الله محمد بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري الحمودي
حاكم قرطبة ؛
والليث بن حرّيش أبي الوليد المفتي ؛
وأبي محمد مكّي بن أبي طالب ، نزيل قرطبة ، إمام القرآن في وقته ؛
وأبي أيّوب بن ربيع الكلّني ؛
وقاضي القضاة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصّغار ؛
وأبي المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن جُرج ، من أهل الشورى ؛
وأبي القاسم بن مختار ؛
وأبي محمد مروان بن عبد الملك بن الأصبغ ، وابنه عبد المهّمين ؛
وأبي عمرو أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان العافقي ؛
وعبد الرحمن بن أحمد بن نصر بن خالد أبي المطرف من أهل الشورى
بقرطبة ؛
وأبي القاسم خلف بن البناء الأسي ؛
وحمام بن أحمد بن عبد الله بن حمام ؛

وخلف بن مروان الصخري ؛

وأبي محمد بن فيد القرطي ؛

وعبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي ، من بيوتات الشرف والعلم
بقرطبة ؛

وأحمد بن عمر بن عبد الله بن منظر الحضرمي المعروف بابن خفيف ؛

وأحمد بن محمد بن عبد الله أبي عمر الطلمنكي ؛

والقاضي أبي الوليد إسماعيل بن عبّاد اللخمي ؛

وأبي بكر زهر الإيادي ؛

وأبي الوليد بن مقبل ؛

وهاشم بن يحيى بن حجاج . قال ابن الحذاء : ما رأيت أتمّ ورعاً منه ؛

وأبي القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة التميمي ؛

وأبي محمد بن أبان الأموي جاور بمكة بضعا وثلاثين سنة وسمع الشجري

وابن فراس وغيرهما ؛

وأبي العباس أحمد بن أيوب بن أبي الربيع ، من أهل النيرة وسكن

قرطبة ، ومن شيوخه ابن أبي زمن وأبو الحسن القايسي ؛

وأبي بكر يعش بن محمد بن يعش بن منذر الأسدي الطليطلي ؛

وأبي عمرو صعود بن داود بن كلثبات ، لقي ابن عباد وغيره ؛

وأبي عمر أحمد بن حسين القاضي الداني ؛

وسعيد بن سهل الشرنفي ؛

وأبي بكر عبد الله القرشي التميمي القرطي ؛

وأبي بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله الناجي الإشبلي ؛

وخلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزدي ؛

وأبي بكر محمد بن مغيرة بن عبد الملك بن مغيرة بن معاوية الإشبلي ؛

وأبي بكر محمد بن قاضي القضاة أبي العباس بن دكوان ؛

وأبي المطرف عبد الرحمن بن مختار القرطي ؛

وأبي الحسن مختار بن عبد الرحمن القرطي ؛

وأبي عمر بن عبد الرحمن القرطاجي ؛

والقاضي الشهير أبي الوليد الباجي صاحب « التمهيد والاستذكار » وغير ذلك ،

وأبي عبد الله بن عتاب الفقيه المشهور ؛

والقاضي أبي زيد بن الحشاء ؛

وأبي عيسى يحيى بن عبد الله اللثمي ، سمع ابن عم أبيه ، وابن لبابة ،

وأسلم بن عبد العزيز ؛

ومحمد بن عبدون بن محمد بن فهد ، روى عن ابن وضاح جده .

وهذه نبذةٌ بسيرة بمن كان على عهد أخذ البيعة لهشام في حياة أبيه ، ثم
بعدها ، وهو إذ ذاك صبي صغير ، بإجماع من المؤرخين ؛ وأكثرهم من
أهل قرطبة ، وبعض أعلام بمن شأنه الوفاة بعهد بلده ؛ وكثهم من أصحاب
إمام دار الهجرة مالك بن أنس - رضي الله عنه . ذكرهم أبو الفضل عياض
في « مداركه » واستوفى أوصافهم . وجلبتنا ذكرهم ليجد فيهم أسوة
من باشر مثل ما باشره في زماننا ، إن احتاج إلى ذلك ، واختاره ، وأراد ،
كما عدّنا جملة من بويغ قبل الاحتلال ، ليتأسي بها من جنح إلى مثل
ذلك ، مع أن ذكر هؤلاء الفضلاء في هذا المحلّ بما أشار به الآخر
بتنبيده - أعزّه الله بعز طاعته ، وتولّى توفيقه بقضله !

ولقد رجح الظن باستبصارهم في صحة هذه البيعة ما كان من انعقاد
اقتضا في قضية عبد الملك بن منذر صاحب الرد من خدام الخلافة وطائفة
من أصحابه ، وقد ذكر عنهم الشروع في خلع هشام وعقد البيعة
لعبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر ، لما أجروه بحري المحاربين ، وجعلوا
لهشام خليفتهم التخيير فيه ، حسبما تقرر ذلك في موضعه . فاستقر الأمر

مُلْتَقَاةً من أيدي المخابث .

وجب أن نُلِمَّ بأحوال الدولة منسوبةً إلى المنصور ملك الأندلس
وأكثر العِدوة على الحقيقة ، السالك من الحَزْم على أقْوَم الطريقة .

أيام المنصور محمد بن أبي عامر

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن
عبد الملك المَعافري ؛ دخل جَدُّهُ عبدُ الملك مع طارق بن زياد مولى
موسى بن نصير ، ونزل بالجزيرة ؛ فساد أهلها ؛ وخدم منهم محمدُ أبو عامر
ابن الوليد ، وابنه عامرُ في دَوْلِ الأُمَوِيَّة . وكان أبو الحاجب المنصور من
أهل الفضل والإقباض ، حجَّ وقفل إلى المغرب ؛ فتوفي بإطربابلس المغرب .
ونشأ محمد ابنه ظاهر النجابة ، مُعَبَّأً مُخَوَّلاً في الفضل والنباهة ،
تَقَرَّس فيه مخايلُ الرياسة ، ولا يزال يُخْبِر بذلك عن نفسه ، حسباً هو
مشهور . ثم اتَّصل بالحكم ، وولي له أعبالاً من قضاء وأمانة ، نُقِلَ عن
طَوَرَيْهَا (وقد بَهَرَهُ مَضَاؤُهُ) إلى طَوَرِ الحِدْمَةِ والمباشرة والإنتظام
في أصحاب السلطان .

وما يتقل عنه من « الذخيرة » قوله : وقد نُقِلَ عن نَمَطِ الفقهاء والقضاة
إلى نُحُوصِ الدولة ؛ ووجوهُ الحِدْمَةِ قد قَطَعَتِ الزُّنُتَار ونَبَذَتِ
الرَّهْبَانِيَّة ؛ وترشَّح إلى وكالة وليِّ العَهْد هشام لسنة ٣٥٩ ؛ ثم أضاف
الحكم له الحزاة ؛ ثم قدَّمه إلى خُطَّةِ المواريث ؛ ثم استقضاه على كُور
إشبيلية ؛ ثم رَقَّاهُ إلى الشَّرْطَةِ الوَسْطَى ؛ ثم قدَّمه إلى الأمانات بالعدوة ؛
ثم أضاف إليه النظر في الحِسْمِ آخِرَ أَيَّامِهِ . وتَنَفَّقَ لِلسَّيِّدَةِ أُمِّ هِشَامِ بما
استهواها به من الحِدْمَةِ والإتحاف والمهاداة ؛ بلغ في ذلك ما لا يُهْتَدَى
إليه من قصور الفِضَّة والابتهااء . وصحب لذلك الوقت خواصُّ العسكر ،

لهشام ، يَكْتَفُهُ الحاجبُ المنصور أسعدُ أهل الأندلس مَوْلَدًا ، وأسْهَرُهُمْ
بُاسًا وَتَدًا ، وأَبْعَدُهُمْ في حسن الذكر مَدًا ، الحازمُ العازمُ ، العظيمُ
السياسة ، الشديدُ الصَّلابة ، القويُّ المِنَّة ، الثَّابِتُ المَوْكِيف ، مُعَوِّذُ الإقبال
ومُبَلِّغُ الآمال ، الذي صَحِيحَتُهُ أَلطافُ الله الخَفِيَّة في الأَزْمَات ، واطْرِدَ
له النصرُ العزيرُ في نحو سبع وخمسين من الغزوات ؛ ولم تُفَارِقْهُ السعادةُ
حالتِي المحيا والممات . وكان هو وبنوه سِتْرًا على هشام ورعيته ؛ فلما زال ،
لم تُسْتَرَّ لَهُمْ عَوْرَةٌ ، ولا عُدِمَتْ ثَوْرَةٌ ، ولا فُقِدَتِ للكَرُوب ولا
للحُرُوب فَتَوْرَةٌ . فَأَنْشَبَتْ كُلُّ يَدٍ مِمَّنْكَتْ ، وفُتِنَتْ الرعايا
وهلَكَتْ . وانتشَتِ العصا ، وضَرَبَ طاغيةُ الرُّومِ بن أطاع وَجْهَ مَنْ
عَصَا ؛ وصار كَعَلَمِ الصبيان في المَكاتِبِ ، إذ قعدوا فوق المراتبِ ،
يُعَرِّضُ الحَرَجَ ، ويُصَوِّبُ الفَرَجَ ، وَيُكَلِّفُ الصَّعْبَ ، وَيُنْشِئُ الرُّعْبَ ،
وَيُنْفِذُ المَوَلَّ ، وَيُصْصِتُ القَوْلَ ، وَيُسْمِعُ الوعيدَ المسبوع ، وَيُطْلِقُ
الجُمُوعَ . ويضمُّ الأقطار بكَلْسِي يَدَيْهِ ؛ فلا مَنْ يدفعه ، ولا مَنْ يعترض
عليه . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بالله !

ولما كان هشام مُنْدَرِجًا في طَيِّ كَافِلِهِ الحاجب المنصور - رحمه الله -
بحيث لا يُنْسَبُ إليه تدبير ، ولا يُرْجَعُ إليه من الأمور قليلٌ ولا كثير ،
إذ كان في نفسه وأصلِ تركيبه مُضْعَفًا مَهِينًا مشغولاً بالنزهات ، ولَعِبِ
الصبيان والبنات ، وفي الكِبَرِ مُجَالِسَةَ النساء ، ومُحَادَاةَ الإماء ، يُخْرِصُ
بِرْزَعِهِ على اكتساب البِرِّ كَات ، والآلات المنسوبات : فكم ألفي بجزائته
من ألواح منسوبة إلى سفينة نُوح ، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق ،
ومن حوافِر منسوبة إلى حمار عَزِيز ، ومن خِفاف منسوبة إلى ناقة صالح ،
لم يَسْتَرِب في تَعَدُّدِهَا ، ولا فكر في مقدار ما يحتاجه الحيوانُ منها ، إلى
مُصَلِّيَّات منسوبة لعباد ، وأواني وضوء متوارثة عن زُهَّاد : بذل في ذلك
من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها ، وهي مجتلبَةٌ من المجازِر والمعاطي ،

واصطنع أهل الخصوصية، فما من يومٍ إلا ويرتقي منزلةً أو يستزيد أثرةً .
ولما توفي الخليفة، تقلد حجابة هشام بعده جعفر بن عثمان المصحفي؛
وأنهض في اليوم بعينه أبو عامر للوزارة، وتعيين بسبب الدالة على السيدة
أم هشام رسولاً فيا بين ولدها وبين الحاجب المذكور؛ فتأكدت المداخلة.
ولم يكن إلا أن شاع خبر مهلك الحكم، فانتفض الطاغية، وشاع
كلبه على البلاد؛ فاضطرب الأمر، واستغاث أهل الثغور؛ وكبر
الأمر على جعفر، وندب الوزراء للذب على الثغور؛ فقصروا عن ذلك،
وانقبضوا منه. وأشار بعضهم بإزالة الجسر المتخذ على وادي بين
العدو وجنهور البلاد؛ فأنف لذلك محمد بن أبي عامر، وانتدب للقيام
بالجهاد، وتبرع به، وكفى السلطان مهيبه، وشرع في الحركة، واختار
الرجال والعدو؛ وخرج أول رجب سنة ٣٦٦؛ فآزال حصن الحامة من
عمل جليقية وحاصره، وفتح ربضه، وقفل غانماً إلى قرطبة عن خمسين
يوماً. فعظم السرور والنيش بمجرته. ونال الجند من سعة دَرعِهِ
وكرم لقائه وحسن عشيته وبدخ مائدته ما أحبوه له، واغتبطوا به من
أجله؛ ولما وشجت عروقه، ناصب جعفرًا، وابتز عزه؛ فما زال يدفعه
عن مرتبة، ويستأثر بها دونته، إلى أن أسقطه سقطة لم يستقلها عمره.

واستظهر محمد على المصحفي بشت نظام العبيد سنية المير
بما خلف حجاب النصر؛ وكانوا ينفون الألف، فيهم الأكابر المستمنون
بالخلفاء زهاء عشرين فتى، يجرون دنيا الملوك العظام؛ يتقدم الجماعة
فاتق وجوذر؛ وتبع هؤلاء طوائف من الجبرية والفحول. وكان
غرض رؤساء الصقالبة العدول عن الولد هشام إلى من يضطلع بالأمر من
القراية ولهم الحكم في ذلك. وجرت معهم فيه محاوره ألقت في نفس
الحاجب المصحفي بئًا؛ فجاءه ابن أبي عامر باب هواه في حسن دائم؛
فألقاه شديد الانحطاط في ذلك الشعب؛ فأشير على جملة من معتبريهم

المنافسين لغلبتهم بالرَّفْع على أكابرهم، وإعلان الشكوى بهم. فلما اتصل
ذلك على يد جعفر المصحفي، رأى هشام والسيدة أمه بدسيس المنصور أن
إصلاح مواطنهم أكد في السياسة برفع حكم دينيك الكبيرين عنهم.
فصدر الأمر به، وضاق ذرعهما عن حمله، نعمة وتعرُّزاً، وعرضا
بالانصراف عن القصر، فكانت حاجة في النفوس قضيت. فاستعفا
بالانصراف عن القصر إلى دورهما بالمدينة؛ ولهما أتباع وصنائع يطوقون
الحاجب المصحفي الموجد.

ثم عرض على جمهور المستبقيين بالقصر اختيارهم من يرجعون إليه؛
وقد تقدم لهم في ذلك بتدبير وإطماع كبير؛ فاختاروا كنف ابن أبي
عامر. فحصل له بهم جناح كثيف، مباشر للنصر، شديد الثغور عن
جهة ضده.

ثم سما في المظاهرة عليه إلى أن أجلى من ذلك بمصاهرة كبير ممالك
الحكم، غالب، ذي السيفين، صاحب الثغر الأعلى، وسيف الدولة
الحكيمة والناصرة، وأنف عزيمتها. وقد كانت بينه وبين الحاجب جعفر
وحشة جرتئها الحساد، وألقحتها الكواشح؛ فمكث المنصور، وعلت
يده، وصح بالملك انفراد، وعليه اشتاله، وبغالب وشيعته استظهاره.
وسبب الترتيب بينه وثقاته ضبطاً أنسى به من سلف من
الكفلة وأولي السياسة. ثم غزا غزواته الثانية، واجتمع بصهره غالب،
وأظهر من موافقته والسعي في مرضاته ما استخلص به ضميره، وملك
به قيادته.

ولما تم له الغرض من نكب جعفر المصحفي، واستخاطر جهة السلطان
عليه، وغرس صنائعه ورجاله عوضاً عن صنائع جعفر وشيعه، وقدم
أولياءه لمكراتب الوزارة، ورمى إلى الغرض البعيد من ضبط السلطان،
والجبر عليه، والاستبداد، وامثال رسم المتغلبين على ملوك المشرق،

وسمى ما سُميت الملوك إليه من الاختصاص بقصر ينزله ويبسده بسكنه ،
خوفاً مما تجرّه عليه الحيل في الدخول إلى قصر السلطان ؛ فابتنى مدينته
الزهرة ، وانتقل إليها ، واتخذ فيها الدواوين للأعمال ، والحجر للعلمان ،
والسقايف لبحرأس . والقصور للولد والحاشية ، والإصطبلات للظهور
والكرراع ؛ وعمل داخلها الأهرام الواسعة والخزائن الوثيقة ، وانتقل إليها ،
ورتب فيها مقاعد الوزراء وسقايف العيال ، وكتب بأن تجلب إليها
وظائف الجبايات والأموال . وعطل قصر الخلافة ، وسد بابها ، ونصب
رسم الشرطة ليلقاه ، وأدار عليه السور الحريز الوثيق ؛ وأشاع أن
السلطان فوض إليه النظر في أمر الملك ، وتخلص بعبادة ربه .

وبث ذلك في الرعية ، وأثبت في النفوس مع قوة ضبطه وسرعة بطشه .
فنافسه غالب ، لما رآه يطوي الدولة طياً ، وينشأ خلقاً جديداً ،
منسوباً إليه ، معروفاً باصطناعه ؛ فأضر له الخديعة ، ورجا منه الإراحة ،
وصانعه ، ومال في هواه ، ودعاه في إحدى غزواته ، وقد حل بظاهر
مدينته المدعوة بآنتيسة من الثغر إلى وليمه أعدّها . فلما صعد القلعة في
خيف من أصحابه ، وانقرب به ، شرع في عتابه ؛ ثم كر عليه بسيفه ؛ فأصابه
بجراح أبانت بعض أنامله ، وأثرت أثراً كبيراً بصدره ؛ وفر أمامه ؛
فأقبح فرسه مهذاً من أعلى القلعة ، أصاب عند استغاره ساباط بناء نشب
فيه ؛ وتخلص جريحاً ، ونجا من ورطة كانت النجاة منها غريبة من
آيات سَعْدِهِ .

وامتنع غالب بمقله ؛ وبادر المنصور إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب
وولده ؛ فسبق إليها الحبر ، وقد ضمن له كاتب غالب أمرها ؛ فاستولى
عليها وعلى جميع ما كان له بها من مال ونعمة ؛ ففرق ذلك كله في الجيش ،
ولم يستأثر به ؛ وقفل إلى الحضرة . واستعاش غالب من ملوك النصارى
ومن يرى رأيه في الخلاف على ابن أبي عامر . وكان غالب فارس الأندلس

من غير مدافع ، وأبا الأبطال ، ومخرج الفرسان والشجعان ، ودبر
الحروب . وبرز المنصور ؛ فأتى غالب الظفر عليه ؛ وكسر جيشه ،
وأسر وزرائه ؛ وتكرر ذلك حتى ظن ابن أبي عامر الإدبار ، وهو مع ذلك
جاد في مطالبة غالب ومعاودته ، إلى أن أراه الله ما لم يكن يحتسبه من
آيات نصره .

قال المؤرخ : نهض ابن أبي عامر في جموعه إلى مدينة سالم للقاء غالب .
وقد كان غرسية دخل إلى بلده عند حركة ابن أبي عامر ، ليدبّه عنه ،
وهو يرى أنه قاصد لغاراته ؛ فلما استبان قصده لغالِب ، خرج إليه في
جمع من النصارى ، فيهم طائفة من البشكنش مع ابن ملكهم رزمير
ابن شانبه المعروف بربي قرجه . فهد إليهم ابن أبي عامر إلى أنتييسة ،
حتى نزل حصن شنت يجنت بالقرب من أنتييسة يوم الخميس لليلتين
خلتا من المحرم سنة ٣٧١ .

وبرز له غالب ، وقد عبأ ابن أبي عامر عسكره أحسن تعبئة ؛ فصار
في القلب مع العلمان وطرائف جند الحضرة ، وصير الوزير جعفر بن علي
مع البرابر في الميمنة ، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز الثجبي وحسن
ابن أحمد بن عبد الودود في معظم أهل الثغور في الميسرة ؛ فأطلقوا عقال
الحرب يوم الخميس المذكور ويوم الجمعة ، وتواعدوا الصديق في غده يوم
السبت ؛ وأفتروا على حاجزة ؛ فأصبحوا يوم السبت لأربع خلون من
المحرم على تعبئة ؛ ووقعت الحرب في كل جهة ، فاشتدت وحيت ؛
وأقبل غالب لما متع الضحى من هذا اليوم على فرس له مذكور ، عليه
درع السابعة ، وعلى رأسه طشتان مذهب مرتفع السمك ، قد عصبه بعصابة
حمراء أعلم بها ، وسد جبينه بعصابة أخرى ؛ وقد قارب في وقته الثمانين سنة ؛
وحوله كبكة من أنجاد غلمانة وحماة رجاله ؛ فوقف ينظر في صفوف ابن
أبي عامر مضعداً أو مضروباً ؛ ثم مال لمن حوله من هؤلاء ، وأشار إلى

المَيِّمَةِ ؛ فقيل : « ابن الأندلسي والبربرة ! » فقال : « الأعداد وراء القابلة ! شدوا عليهم بسم الله ! » فحمل عليهم حملةً فضَّهم فيها ، ولم يثبت قُدَّامُه أحدٌ ؛ وانتقضتْ لجولتهم المَيِّمَةُ . ثمَّ عاد غَالِبٌ إلى موقفه ؛ فقال : « مَنْ أولئك ؟ » وأشار إلى المَيِّسَةِ ؛ فقيل له : « مَعَن وصَنيعتُك ابنُ عبد الوُدود ، مع الجيران والصحابه ! » فقال : « الغادرُونَ أولو القطيعة ! خَصُّوهم على اسم الله بجملة ! » وشدَّ عليهم ثانيةً كاللَّيْثِ العادي ؛ فانقلعوا قُدَّامَه طائرين ، لا يلوي أحدٌ منهم على صاحبه . فاستوى له فضُّ الجهتين في وقتٍ ، والقلب قائمٌ مكاته . فضبطه ابنُ أبي عامر بِسَيْبَتِهِ ، وهو على أحرَّ من الجَسَر ، يصفق بيده دهشاً ، ورجلاه تضطربان في ركبانه ، ينظر من أبْنٍ يحاط به ، ولا يشكُّ في حَتْفِهِ ؛ وهو مع ذلك يطامنُ نَفْسَه ، ويودُّها على مكروها ، فيسكِّن جأشَه .

وخرج غَالِبٌ من غمرة الشدة الأخرى ؛ فخرج إلى مَوْفِقِهِ ، وقال لأصحابه : « كيف تَوَوَّن عاقبة الصَّبْر ؛ قد كسرنا جَنَاحِي القوم ؛ وبقي القلبُ ؛ وإنما ثبت مَنْ فيه حياةٌ من هذا الأَحْدَبِ الملعون (يعني ابن أبي عامر) ! وليسوا ذوي حِفَافٍ فما أخَلَقَهُم بإسلامه ! فاصدقوا الحيلة عسى الله أن يَمَكِّنَ منهم بقدرته ! » ثمَّ رفع يَدَيْهِ وقال : « اللَّهُمَّ ! إن كنتَ تَعْلَمُ أَنَّ بَقَايَ أَصْلَحَ للمسلمين وأَعْوَدُ عليهم من نَقَاءِ مُحَمَّدٍ بنِ أَبِي عَامِرٍ ، فَأَهْلِكْهُ وانصُرْني عليه ! وإن كان هو أَوْلَى بذلك مِنِّي ، فانتصِرْهُ عليَّ وأَرَحْني ! » فكانت مُبَاهَلَةٌ حَكِيمٌ اللهُ فيها لمحمد . وحمل غَالِبٌ على إثَرِ ذلك ، وخوض القلب ، وخلط بين صفوفه ؛ وثار نَقْعٌ عظيمٌ فُقِدَ فيه شَخْصُهُ ، وسقط في مجالِ الحِيل ؛ فعار قَرَسُهُ ، وأصيب مُجْدَلًا لَجَنَّتِيهِ ، مَيْتًا ، لا أثرَ لشيءٍ من السِّلاح في جسده . فقيل إن قُرْبُوسَ سَرَجِه الأندلسيَّ وكان شديدَ الإشراف عند تجافيه عنه بقوة ضَرْبِهِ أَصَابَ جَانِبَ قَلْبِهِ . وقالوا غيرَ ذلك ؛ فلم يَتَّفِقُوا في سَبَبِ حَتْفِهِ إلى اليوم .

وقد زعم قومٌ من غِلْمَانِهِ أَنَّهُ عدل عنهم في أوَّل هذه الصدمة عقبَ المُبَاهَلَةِ ؛ فَأَمْسَكُوا عنه ، ورأوا أَنَّهُ يُريد الحاجة ، وتَوَارَى عنهم في وَهْدَةٍ ؛ فَأَبْطَأَ ؛ فاستشرَفوا حالَه ؛ فوجدوه ساقِطًا مَيْتًا ، لا حراكَ به وفَرَسُهُ يملك اللِّجَامَ بِقُرْبِهِ . فسَقِطَ في أيديهم ، وانحرفوا على وجوههم .

وسبق إلى ابن أبي عامر رَجُلٌ من أصحاب غَالِبٍ يَشْتَرُهُ بهلاكه ؛ فلم يكن يصدِّقُه حتى جيءَ بِيَدِهِ ، وفيها خاتمه ؛ ثمَّ جيءَ برأسه . فخرَّ ساجِدًا ؛ وكبَّرَ المسلمون تكبيراً خلع قلوب المُشْرِكِينَ ، وولَّوا على وجوههم طائرين بكلِّ سبيلٍ ؛ ولم يكن لهم معرجٌ على أنْتِيَسَةِ . وركب المسلمون أذبارهم ؛ فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، فيهم رِيٌّ قَرَجُهُ ؛ ونجى غَرْسِيَّةٌ ، ولم يكرَّ إلى بلاده . واستضافَ ابنُ أبي عامر جيشه وبلاده وأمواله ليعلم أَنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير .

فلما استوسق له الأمرُ ، وتقرَّرتْ له فوق المنابر الألقاب ، وخضعت الرقاب ، أعمل الحيلة على جَعْفَرِ بنِ عَلِيٍّ بَأَن نَادَمَهُ ليلةً ، وأغصَّ في هواه ، وتنازَلَ إلى ما لم يُعْهَدَ منه ، وسقاه ، وأغرى السُّقَاةَ به ؛ ثُمَّ أَرَصَدَ له في طريقه إلى منزله من ثار به وقتله ؛ ونادى بترات سالفة منسوبة إلى أيامه بإفريقية . ولم يَغِيبْ ذلك عن أخيه ؛ فصرَّح به بما أوجب إسكاته وإزعاجَه عن الأندلس إلى المشرق .

وكرر من بعد ذلك على ابن عمِّ نفسه ابنُ أبي عامر . ولم يُبْقِرْ يداً مجذِرَ بَطْشَتِهَا إِلَّا سَلَّهَا ، ولا عَيْنًا بريئةَ نَظَرِهَا إِلَّا فَقَّاهُ . ولما هَوَّجَ عن أمر القصر ، سدَّ لأَقْفَالِهِ ، واستَظْلَعَا مع الأنفاس جُزَيْتَ حركاته ، وبإذكاءَ الْعَيْنِونَ على مَنْ به ، واستناداً بِسَقَائِفِهِ إلى ثِقَاتِهِ ، مع يَرٍ مَنْ به ، وإِحْجَابِ حَقِّهِ ، وإِسْناءِ رِزْقِهِ ، والغيرة على حرَمِهِ ، والصَّوْبِ لِحِشَّتِهِ ، وحِفْظِ رُسُومِهِ ، ومواصلة تَفَقُّدِهِ ومُطَالَعَتِهِ ؛ فلم تفقد الحاصَّةُ ولا العامَّةُ ولا الأعلامُ ولا العُمَالُ في نِيَابَتِهِ شيئاً من وظائف مُلُوكِهِم

وأبائهم ، بل عرفت الزيادة والتوسع ، والاضطلاع بأمر الدين والدنيا ،
صَرَفَ سَعْيَهُ إِلَى الجهاد ، وتمهيد البلاد ؛ فاستظهر بفُرسَانَ الهَيْجَاءِ ،
وأبطال الكَرِيمَةِ ، وأعلام السُّمُورَةِ من فُرسَانَ الغَرْبِ وَزَنَانَةَ الوَارِدِينَ
عَمِي بَابِهِ فِي سَبِيلِ الحَسَانِثِ والدماءِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَفْسِهِمْ ؛ فارتأى
منهم بَأَجْنَحَةٍ وَافِرَةٍ ، لم يستظهر قَبْلَهُ مِنْكَ بِمِثْلِهِ ، ومَعْرَاوَةٍ
وَأَزْدَاجَةٍ وَزَنَانَةٍ وَصِيْهَاجَةٍ . وانتفى الرجل ؛ فكان لَا يَلْجِئُ فِي
دِيَوَانِهِ إِلَّا مَنْ تَقَرَّرَ غَدَاؤُهُ ، وَتَحَقَّقَ نَفْعُهُ وَكَرُمُ مَوْقِفِهِ . ودرت
الفتوح ؛ فتعددت مَمَالِكُهُ وَحَسَنَتِ . واستكفى أَمْرَ الْعِدْوَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ
بِابْنِ أَخِيهِ وَوَلَدِهِ رِكْبَارِ مَمَالِكِهِ . فاستنزل حَسَنَ بْنَ الْقَاسِمِ ، وَجِيءَ بِهِ
إِلَى بَابِهِ ، واستدَّ بِهَا سُلْطَانَهُ . وآثَرَهُ الْيَوْمَ بَعْدُودَ مَدِينَةِ فَاسٍ وَمَدِينَةِ
سَبْتَةِ شَاهِدَةٍ وَبِإِذْنِ الْأَيَّامِ نَاطِقَةٍ . واللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ! واللهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ !

وَأَلَحَّ عَلَى مُلُوكِ قَشْتَالَةِ بِالْغَزْوِ وَالْإِضَاقَةِ ، يُؤَالِي عَلَيْهِمُ الصَّوَانِفَ
وَالشَّوَانِي ، حَتَّى أَذْعَنُوا مِنْ خُطَطِ الْحُسْرِ لَمَّا لَمْ يَدْعُوا لَهُ قَبْلَهُ ، وَلَا عَرَفُوهُ
فِي زَمَنِ تَقَدُّمِهِ ، حَتَّى لَقِيَ تَقَرُّبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِإِهْدَاءِ ابْنَتِهِ ؛ فَقَبِلَهَا الْمَنْصُورُ
أَحْسَنَ قَبُولٍ ، وَتَزَوَّجَهَا ، وَحَسَّنَ إِسْلَافَهَا ؛ وَكَانَتْ مِنْ خَيْرَاتِ نِسَائِهِ دِينًا
مَتِينًا وَحَسَبًا أَصِيلًا . وَأَوْلَدَتْ مِنْهَا وَلَدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمَلْقَبَ مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ سَنْجُولَ (تَصْغِيرُ سَاجُو) مِنْ أَسَاءِ خَوْوَلَتِهِ . وَلَمْ تَزَلِ الْأَيَّامُ حَتَّى وَرَدَ
أَبُوهَا الْمَلِكُ عَلَى بَابِهِ زَائِرًا وَمُسْتَصْرِخًا ؛ فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْمَنْصُورِ
حَفِيدُ الْمَلِكِ الْوَارِدِ ، ابْنُ ابْنَتِهِ ، إِلَى لِقَائِهِ بِالْجِيُوشِ وَالْأَهْلِ الْمُفْخَمَةِ ، طِفْلًا
يَرْقُدُ فِي السَّرْجِ ؛ فَتَزَلَّ جَدُّهُ إِلَيْهِ ، وَقَبَّلَ رِجْلَهُ وَيَدَهُ ، حَسَبًا بِأَنِّي إِنْ شَاءَ
اللَّهُ ، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَنْتَحِدُّ بِهِ فِي فَنُونِ السُّعْدِ وَمُؤَاةِ الْأَيَّامِ .

وَأَخْبَارُ غَزَوَاتِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَذِكْرُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً مِمَّا يَطُولُ
الْكِتَابُ إِنْ اسْتَوْفِينَاهُ ، وَيُخْرِجُ عَنِ الْغَرَضِ فِيهِ إِنْ اتَّبَعْنَاهُ . وَحَسْبُهُ أَنْ

دَخَلَ سَمُورَةَ سَنَةَ ٣٧١ فِي غَزْوَتِهِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، وَاسْتَبَاحَ وَهَدَمَهَا ، وَهِيَ
دَارُ الْمُتَدَنَّكِ وَمَحَلُّ السُّلْطَانِ ؛ وَسَبَى فِي غَزْوَةِ سَنَتِ مَنَكَشَ بَضْعَةَ عَشَرَ
أَلْفًا مِنْ مُخْتَارِ السَّبْيِ ؛ وَمَا سَمَا إِلَيْهِ مِنْ غَزْوِ مَدِينَةِ سَنَتِ بِأَقْبَ قَاصِيَةِ
بِلَادِ عَلِيْسِيَّةٍ وَأَعْظَمَ مَشَاهِدِ النَّصَارَى الْكَائِنَةِ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَمَا يَنْصِلُ
بِهِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ .

وَكُنْتُ عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ مَكَانَ عِزِّهِمْ ، وَمَحَلِّ جَمْعِهِمْ وَحَجَّتِهِمْ ، وَمَزَارِهِمْ ،
قَدْ سَالَتْهَا الْأَيَّامُ مِنْذُ أَلْفِ عَامٍ لَحْجَ الرُّومِ إِلَى كَنِيسَتِهَا مِنْ أَقْصَى بِلَادِ
رُومَةَ لِأَجْلِ الْقُدَيْسِ لِقَبْرِ يَاقُوبَ (وَهُوَ تَغْيِيرُ اسْمِهِ يَعْقُوبُ) أَحَدِ
الْحَوَارِيِّينَ الْإِثْنِي عَشَرَ ؛ وَكَانَ هَذَا الْحَوَارِيُّ أَحْصَى النَّاسَ بِالْمَسِيحِ - صَلَوَاتُ
اللَّهِ عَلَيْهِ - وَالنَّصَارَى يَسْمُونَهُ أَخَاهُ لِلزُّومِ إِلَيْهِ وَلِصُوفِهِ . وَزَعَمَ أَهْلُ
التَّأْرِيخِ الرُّومِيِّ أَنَّهُ أَسْقَفَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، وَسَاحَ فِي الْأَرْضِ دَاعِيًا لِمَنْ
فِيهَا ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْقَاصِيَةِ . وَلَمْ يَطْبَعْ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ فِي
الْوُصُولِ إِلَيْهَا لَصُعُوبَةِ مَدَنِيَّتِهَا ، وَبُعْدِ شَقَّتِهَا ، وَخَشَنِ طَرُقِهَا ؛ فَخَرَجَ
إِلَيْهَا الْمَنْصُورُ فِي صَائِفَةِ ٣٨٧ ، وَهِيَ غَزْوَتُهُ الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ ؛ وَأَخْرَجَ
الْأَسْطُولَ يَوَاجِهُهُ فِي غَرَضِهِ مِنْ بَحْرِ الْمَغْرِبِ ، وَسَبَقَهُ صَاعِدًا إِلَيْهِ فِي نَهْرِ
دُورِيَرِهِ مِنْ بُرْطُغَالٍ ؛ فَعَبْرَهُ بِهِ ، وَعَقَدَ مِنْهُ الْجِسْرَ عَلَيْهِ لِلْمَحَلَّةِ ؛ ثُمَّ قَطَعَ
أَرْضَيْنِ مُتَبَاعِدَةِ الْأَقْطَارِ ، وَعَبْرَ جَمَلَةً مِنْ عِظَامِ الْأَنْهَارِ ، وَوُطِئَ بِالْحَدِيدِ
وَالْفَعْلَةِ مَسَالِكَ جِبَالٍ شَاحِخَةٍ ارْتَقَاهَا ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الْبَحْرَ الْمُحِيطَ ، وَأَقْفَى
إِلَى كَبِيرِ إِبَارِيَا ، وَهُوَ آخِرُ مَشْهَدِ يَاقُوبَ فِي الشَّهْرَةِ . وَكَانَ نَزُولُهُ بِشَنْتِ
يَاقُوبَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْيَلَّتَيْنِ خَلَّتَا مِنْ شُعْبَانٍ ؛ وَقَدَّرُ مِنْ بَهَا ، وَهِيَ خَالِيَةٌ ؛
فَغَمَّ مَا بِهَا ، وَهَدَمَ مَبَانِيهَا ، وَعَفَى آثَارَهَا . وَكَانَتْ مَصَانِعُهَا آيَةً مِنْ آيَاتِ
اللَّهِ فِي الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ ؛ فَتَرَكْتُ كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ . وَأَمْرُ بَصَوْنِ
الْقَبْرِ وَدَفْنِهِ الْأَذَى عَنْهُ . وَلَمْ يَجِدْ بِالْكَنِيسَةِ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ شِيُوخِ
الرُّهْبَانِ جَالِسًا عِنْدَ الْقَبْرِ ؛ فَسَأَلَهُ عَنْ مَقَامِهِ ؛ فَقَالَ : « أَرَنْتَ يَاقُوبَ ! »

فَأَمَرَ بِحِفْظِهِ وَالْكَفِّ عَنْهُ .

وقفل إلى قرطبة ، وقد استصحب جملةً من الملوك وأبنائها ، وبرز الناس إلى لقائه في عالمٍ لا يحصيهم إلا مُقَدَّرُ أَرْزَاقِهِمْ وَأَجَالِهِمْ . وفي أوَّلِ شَوَّالٍ من السنة ، عقد لهم مجالِسَ جَمَّةً لإحكام ما وصلوا إليه من السِّلْمِ على حُكْمِهِ . ثُمَّ أُنْفِذَ الْمَنْصُورُ قَاضِيَهُ مُحَمَّدَ بْنَ عُمَرَ الْبَكْرِيَّ مَعَ الْقَوْمِ لاسْتِحْلَافِ الْمَلِكِ غَرْسِيَّةَ عَلَى مَا التَّزَمَهُ مِنْ شُرُوطٍ ؛ وَشَهِدَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِلَّتِهِ وَبَطَانَتِهِ بِإِطْلَاقِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَتَفَقَّدَ لَذَلِكَ وَاقْتَضَى مَا تُؤْجِبُهُ إِلَيْهِ . وَبَلَغَتْ كِسَى الْمَنْصُورِ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ إِلَى أَلْفَيْ كِسْوَةٍ ؛ وَهَذَا شَيْءٌ

يَضِيقُ عَنْهُ سَاحَةُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ دُونَ مَلُوكِ بَنِي مَرْينَ - أَغْزَاهُمُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ ! فَقَدْ كَانَتْ الْكِسَى لِأَوَّلِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ، الَّتِي رَفَعَ الْوَزِيرُ الْمُعَظَّمُ ، مُعْتَمِدُنَا بِهَذَا الْكِتَابِ ، لِيَوَاءِ الْوَفَاءِ لَهَا وَالذَّبِّ عَنْهَا مَذَكِرَةً بِهَذِهِ الْعُهُودِ وَمَجْدُودَةً لِشَأْنِهَا ، بِحَيْثُ تَتَّهَمُ الْحَكَايَةُ وَيَقْصُرُ الْوَصْفُ : يَفَاضُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ مَا يُنَاسِبُهَا عُرُوضاً ثَمِينَةً وَأَصْنَافاً غَالِيَةً ، وَتُلْزَمُ الْكَثِيرُ مِنْهَا الْمَرَآكِبُ الْعَتِيقَةُ وَالْخَلَى الثَّقِيلَةُ وَالْأَمْوَالُ الْمُتَعَدَّدَةُ ، حَتَّى لَمْ يَشُدَّ مِنْ أَجْنَاسِهَا فَرْدٌ ، وَلَا خَلَا مِنْ صِلَاتِهَا بَيْتٌ -- حَفِظَ اللَّهُ رِسْمَ الْمُجَدِّدِ بِحِفْظِهَا ، وَلَا أَخْلَى صَحَائِفَ الْفَخْرِ مِنْ آثَارِهَا ، بِمَنْتِهِ !

وَمِنْ لَدُنْ سَنَةِ ٣٨٨ ، صَدَرَ الْأَمْرُ مِنَ الْمَنْصُورِ بِإِعْقَادِ النَّاسِ مِنْ إِجْبَارِهِمْ عَلَى الْغَزْوِ ، اسْتِغْنَاءً بَعْدَ الْجَيْشِ ، وَاسْتَظْهَاراً بِأَصِيلِ الْعِزِّ . وَأَسْمِعَهُمُ الْخُطْبَاءُ ذَلِكَ بِإِثْرِ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْفَتْحِ ، وَعَرَّفَهُمْ بِأَنَّ مِنْ تَطَوُّعٍ خَيْرٌ ، فَهُوَ خَيْرٌ ، وَمِنْ خَفٍّ إِلَيْهِ ، فَمَبْرُورٌ وَمَأْجُورٌ ، وَمِنْ تَثَاقُلٍ ، فَمَعْدُورٌ . فَتَمَّتْ عَلَى النَّاسِ التَّعْنَةُ .

وَمِنْ غَرَائِبِ سَعْدِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ أَنَّ صَاعِدَ بْنَ الْحَسَنِ ، نَدِيمَ الْمَنْصُورِ ، أَهْدَى إِلَيْهِ أَيْلًا سَمَّيْتُهُ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، وَسَمَّاهُ غَرْسِيَّةَ بِاسْمِ الْعِلْجِ مَلِكِ الرُّومِ ، وَأَنْفَذَهُ إِلَى الْقَصْرِ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُتَتَفِّعِ مِنْ رَبِيعِ

الْآخِرِ سَنَةِ ٣٨٥ ؛ وَكُتِبَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَيَّاتُ مُتَفَائِلًا : [الْكَامِلُ]

يَا حِرْزَ كُلِّ مَخُوفٍ وَأَمَانَ كُلِّ مُشْرِدٍ وَمُعْزٍ كُلِّ مُذْكَلٍ
يَا سِلْكَ كُلِّ فُضِيحَةٍ وَنِظَامَ كُلِّ جَزِيلَةٍ وَثَرَاءَ كُلِّ مُعَيَّلٍ
عَبْدٌ جَذِبَتْ بِضَبْعِهِ وَرَفَعَتْ مِنْ مِقْدَارِهِ أَهْدَى إِلَيْكَ بِأَيْلٍ
سَمَّيْتُهُ غَرْسِيَّةَ وَبَعَثْتُهُ فِي حَبْلِهِ كَيْمَا يَتَاحَ تَفَاوُلِي
فَلَنْ قَبْلَتْ فَتِلْكَ أَنْفَسُ مِنْتِ أَسْدَى بِهَا ذُو مَنْحَةٍ وَتَطَوُّلٍ
فَاتَّفَقَ أَنَّ خَيْلَ الْمَنْصُورِ لَقِيَتِ النَّصْرَانِيَّ جُزْأً ، وَهُوَ بِتَصِيدٍ ؛ فَأَسْرَتَهُ ، وَجَعَتْ بِهِ ؛ فَكَانَ مِنَ الْإِتِّفَاقِ الَّذِي عَظُمَ مِنْهُ الْعُجْبُ .

وَلَمْ يُبَاشِرِ الْمَنْصُورُ حَرْباً أَسَدَّ عَلَيْهِ ، وَلَا أَصْعَبَ مَقَاماً وَأَغْلَظَ كَرِيَةً مِنْ حَرْبِهِ فِي غَزَاتِهِ صَائِفَةَ سَنَةِ ٣٩٠ ؛ وَقَدْ كَانَتْ الْمَدِينَةُ امْتَدَّتْ وَفُتِرَتْ خَلْقُ الشَّهَامَةِ ؛ وَأَنَسَ النَّاسُ بِالْجَمَامِ . وَتَعَاقَدَتْ مَلُوكُ النَّصَارَى ، وَاسْتَجْمَعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ . وَاسْتَقْبَلَهُمُ الْمَنْصُورُ كِفَاحاً لَغَزْوَتِهِ هَذِهِ الصَّائِفَةَ الْمَعْرُوفَةَ بِغَزْوَةِ جَرْبِيَّةٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَنْصُورَ اقْتَحَمَ قَشْتَالَةَ مِنْ نَاحِيَةِ مَدِينَةِ سَالِمٍ ؛ فَوَجَدَ شَانِجَهُ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ ، يَبْعُدُ عَنِ الظَّنِّ ، فِيهِ سَائِرُ مَلُوكِ الْجَلَالِيقَةِ وَقَادَتُهُمْ مِنْ حَيْزٍ بَنَنْبَلُونَةَ إِلَى أَسْتُرْقَةَ . ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِمْ شَانِجَهُ حَتَّى أَنْزَلَهُمْ جَبَلُ جَرْبِيَّةِ بِمَوْسِطَةِ بِلَادِهِ ؛ فَاتَّخَذَهُ مُعَسَّكراً ؛ وَكَانَ نَعْمَ الْمَرَادُ لَامْتِنَاءَهُ وَحَصَانَتُهُ ، وَلِمَا وَرَاءَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي لَا تَبْعُدُ مِنْ قِبَلِهَا الْمِيرَةُ . وَقَدْ فَوَّضَ الْجَمِيعُ تَدْيِيرَ الْأَمْرِ إِلَى شَانِجِهِ ، وَتَعَاطَوْا عَلَى حُسْنِ الثَّبَاتِ ، وَتَحْرِيمِ الْفِرَارِ ، أَغْلَظَ الْعُهُودَ الْمُؤَكَّدَةَ . فَأَثْرَفَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ مِنْ عَظِيمِ عَسَاكِرِهِمْ ، وَوُفُورِ أَعْدَادِهِمْ ، وَحَصَانَةِ مَكَانِهِمْ ، وَإِشْرَافِهِ عَلَى مَنْ نَازَلَ بِأَرْزَائِهِمْ ، وَقُوَّةِ انْحِدَارِهِمْ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْ كِفَاحِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ الْمَجَالِ عَلَى فُرْسَانِهِمْ ، وَضَيْقِهِ عَلَى مَنْ بِأَرْزَائِهِمْ ، عَلَى مَا هَالَهُ وَأَهَمَّهُ فِيهِ رَأْيُهُ ؛ وَفَزَعَ إِلَى مَشَاوِرَةِ وَزَرَائِهِ الْقَوَّادِ : فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ .

وكدة المسلمين شأخه بتسارعه إلى الحرب قبل استيعاب النزول وإحكام التدبير ؛ فاشتبكت الحرب بكل جهة ، واشتعلت بكل ناحية ؛ وجمع عداة الله مراكبهم ؛ فدفعوا على الميمنة والميسرة دفعة واحدة ففُضُوا به تعبتهم جميعاً ؛ ثم تدار حمة المسلمين ؛ فأحسنوا الثبات والكرّة . ودارت الحرب ملكياً ؛ فصعبت الورطة . ونظر من خاف هؤلاء المحامين من المسلمين إلى ضحك النقاد ؛ فدهشوا ، وأخلت قلوبهم ، وقصر أكثرهم ، وعمل على الهروب معظمهم . ووقعت جولات بسائر جهاتهم ، كادت الفضيحة تقع معها ، والهزيمة تستمر بعدها ، لولا دفاع الله ، وكرم صبر المنصور ، وجودة ثباته ، مع قوة رعبه ، وفراط دهشه ، وتقلب كفيته كالخنثى ، وشدة استرجاعه ، وتأوّه كالمتموت ، إلا أن الله أمدّهم بنصره وبرجال أحسنوا الثبات ، وصلوا أوار الحرب حتى ردّوا من بإزائهم . وأنس من خلتهم من المتجولين بفعلهم ؛ فكروا بعد الفرّ ؛ ومنح الله النصر . وكان أظهر تلك العصابة الحامية عن الملك عبد الملك ابن المنصور إجماعاً غير تخلية ، وإنصافاً لا محاباة ؛ ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيين والعديوتين ، عامتهم فرسان البرابرة ، على أن الاسم منهم في هذا اليوم ذهب إلى كيدير الدّمري الأبرص من كبار القواد وأحد ملوك بني كمر بالعدوة ، وكان له إقدام عظيم قتل في احتدامه ذلك أحد قواميس بني غوميس ، وجاء برأسه . فاستمرت الهزيمة على أثره . وما قصر عبد الرحمن بن المنصور في شدة الإقدام وثبت المقام . وكانت حرباً عظيمة تعاص على الصفة .

حدث حيّان بن خلف بن حسين عن أبيه كاتب المنصور قال : لما اشتد الأمر ذلك اليوم ، برز المنصور على فرسه بأهل موكبته إلى ثل يقرب من موضع المجاورة ويُسَمَّى على مكان الملحمة ، قائماً يده أهل النواحي من حوله ، إلى أن اضطربت الميمنة ، فانكسرت ، وعظمت

الحيرة واستفحلت ، إلى أن انفض الناس عنه ، ولم ينظروا أمره ؛ وارتأى كل واحد منهم برأيه ، واستعد للإجفال وراءه ، حتى جعل كاتب المنصور عبد الملك بن إدريس الجزيري يقول لسعيد بن يوسف المعروف بابن القليلة : « هلم إلى التوديع يا شهيد ! » قطعاً على حلول النية ؛ فكان مأثوراً بعد انقضاء اليوم .

قال خلف بن حسين : فنظر المنصور إلى جملة من معه فقال لي : « اعترض لي من بقي من أهل موكبتي ! » قلت : « أسيهم لك : فلان وفلان ! » وعددت قوماً من خاصته نحو العشرين ؛ فرفع يده إلى السماء وقال : « اللهم إنهم تخلّوني ! فأنصّرهم ! وأفردوني ! فاصحبهم ! » ودعا عبد الملك ولده ، وكان قائماً إلى جنبه ، يتلفت إلى الحرب ؛ فلا يأذن له أبوه ؛ فاستدناه ، ودّعه ، وجعل يقبل وجهه ، ونحيبه عالي ، وأرسله نحو الميمنة موطناً على فقده . ثم أرسل أخاه عبد الرحمن خلفه في جهة أخرى ، وتحوّل عن الفرس إلى العمارية عند اشتداد الميحة ؛ فركبها ، ولا يكاد يملك أطرافه زمناً ورعشة ؛ وإنما ركبها توطيناً لمن حوله عن ثبوت مقامه . وكان إلى جنبه جملة من جنائبه ؛ فقال لي : « لا ترد عنها يدأ ؛ فإنهم أولى بها من العدو ! » وظل قائماً في جنبه يستغيث الله ويناسده عنده ، والحرب تقوى ، والأمر يصعب ، إلى أن عن له مع اشتداد الزوال رأي كان من أقوى أسباب الفتح .

وذلك أنه أتر برقع محلته عن الوهدة التي أعجله العدو عن الظهور منها إلى الربوة التي كان قائماً عليها ؛ فصاح بمن حوله في إنفاذ الثقل ، وأوعدهم على تأخيرهم ، وأحضر خدمة مضر به ، وجعل لهم على السبب به إلى ذلك الثقل جعلاً وإفراً . فوافوا به لوقتهم حملاً على الأعناق ، واستوى مضروباً لحينه . فلما عاين العدو شخصه ، سقط في أيديهم ، وعلموا أن المسلمين قوة ووراءهم مدد ؛ فكنصوا عقب ذلك . واستمرت الهزيمة بهم ،

وركب المسمون أكتافهم ، يقتلونهم كيف شاؤوا . ووجدت الجبال بأيدي أكثرهم ، قد أعدوها ليقروا أسرى المسلمين . فأخذ جميع ما في تحلّتهم من الكراع والسلاح والآنية . واتبعت الحيل مُنْهَزِمَتَهُمْ فَراسِخَ ؛ فَأَصِيبَ كَثِيرٌ مِنْ فَرَسَانِهِمْ . ونصر الله المسلمين عليهم نصرًا ما سُبِعَ بأعظم منه . واستشهد في هذه الواقعة من صنوف المدوّنة وغيرهم أزيد من سبعمائة رجل . وذلك يوم الإثنين لستّ بقين من شعبان سنة ٣٩٠ .

ولم يَخِمْ المنصورُ عن وجهته ؛ فأوغل في أرض قَشْنِيلَةَ . فدمر ، ولم يَبْقَ ولا وَذَر . ثمّ خرج إلى سَرَقُوسْطَةَ ، وعقب منها إلى قَشْنِيلَةَ ؛ فاقتصمها يوم الفِطْرِ من هذه السنة ، وصل منها إلى بَنْبَلُونَةَ ؛ فَأَثَرُ هَناكَ آثاراً عظيمةً . ولم يظهر إليه بالبلدين أحدٌ . ثمّ قفل إلى قرطبة ؛ فوصل إلى مائة وتسعة أيام . وعتب المنصورُ على كافّة جنده بما ظهر من تكوصهم ؛ وأمر كاتبه على الرسائل عَبْدَ الملك بن إدريس بإنشاء كلام انتسخه القواد ليقرؤوه على كافّتهم . منه فَصْلٌ :

« وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتالَ المعاقِلِ والحصون ، وتشاقون ملاقاتَ الرجال الفحول ! فحين جاءكم سانحُه بالأمنية وفانلكم بالشريطة ، أنكرتُم ما عرفتُم ، ونافرتُم ما ألفتُم ، حتى فررتُم فرارَ اليَعاييرِ من آسادِ الغيل ، وأجفلتُم إجمالَ الرّئالِ عن المُفتَنين ! ولولا رجالُ منكم رخصوا عنكم العار ، وحرّروا رقابكم من الذلّ ، لانت من جماعتكم ، وسبب بالموّجِدِ كافتكم ، وخرجتُ للإمام والأُمّة عن عهدتكم ، ونصحتُ المسلمين في الاستبدال بكم ! ولم أعدم من الله تعالى عاجلَ نصرٍ وحسنَ عقبي ! فلا بُدَّ أن ينصر دينه بمن شاء ! »

وفي ذلك ، يقول صاعِدٌ يَهْتيءُ بهذا الفتح ؛ وهي من أفخر شعره :

[الكامل]

جدّدت شكري للهوى المتجدّد وعهدتُ عندك منه ما لم يعهد

اليوم عاش الدينُ وابتدأ الهدى غَضّاً وعاد الملكُ عذب المورِدِ
ووقفتُ في ثاني حنين وقفةً فرأيتُ صنع الله يؤخذ باليدِ
من فاته بدرٌ وأدرك عمره جَرَبِيرَ فَهُوَ مِنَ الرّحيلِ الأسْعَدِ
فوددتُ لو حتم القضاء بأنّي في القوم أوّل طالع مُسْتَشْهَدِ
ما استكينُ لروعةٍ ومحمدُ وبنوه أنصارُ النبي مُحَمَّدِ
عهدي به والله ينظر صبره والموتُ بين مُصَوَّبٍ ومُصْعَدِ
غطى عليه المشركون فلم يكن في القوم إلّا صخرةٌ في فدَقَدِ
حتى تحصن باللائكة التي حقّته بين معفّرٍ ومردّدِ
حملت ميامينهم عليك نسيجة كالسيل يحطم جليداً عن جلَمَدِ
ورأوك فارتدّوا على أعقابهم مثل ارتداد تنفّس المتهدّدِ
وركبت فكلّهم بكلّ مُهْتَدٍ يفضي به في الرّوع كل مُهْتَدِ
ما ناجزوك وفي الجوانح موضعٌ لتصبر ومكانة لتجلّدِ
طال الشقاء عليهم وتبرّموا بالجلش في الدلّ المقيم المقعدِ
فتحالفوا لمُحَنّثٍ وتجمّعوا لمُفَرِّقٍ وتألّفوا لمُبَدّدِ
ثمّ واصل المنصورُ الغزو بنفسه وولّده ورجاله على سانحِه مَلِكِ
النصارى ، حتى أذعن لائذاً بعفوه ؛ واستأذنه في القدوم عليه بنفسه ؛ فأدبته ، وسرّ بجيشه سروراً ما سرّ قط بمثله . فتقدّم في الاستعداد له واستحضر طبقات الأولياء ؛ فوصل لثلاث خلّون من رجب سنة ٣٨٢ .
وأرّكب المنصورُ الجيوش والمطوّعة لتلقّيه في دخوله إلى قصر الزاهرة ؛ فكان يومه أحدَ أيّام الدنيا الشهيرة ، حتى بهت الذي كفر ، ورأى من وفور المسلمين ، ونباهة أسلحتهم ، وجمال زيّهم ، وكثرة عدّدهم ، ما لم يكن ظانّاً أن الدنيا تجمعهم ، ولا الأيّام تحشده ، ولا الحزائن تكفه .
ولقّيه ولّدُ المنصور عَبْدُ الرحمن حَفِيدُه من بنته ، كما قدّمنا

ذكره ؛ وقد حمّ به وزراء السلطان ووجوه القواد وأكابر أهل الخدمة والممالك ، في أحسن زيّ وكمل تعبيّة . فلما وقعت عينه على الصبيّ ، تجلّ ، وباس رجله ؛ فأمر بالركوب ، وأقبل معه إلى أبيه . وصار بين صفيّ حديد حفاقي الطريق أميالاً : ما ثمّ إلا الدروع السابريّة ، والجواشين المذهبة ، والأبضال قد لبسوا السوق والسواعيد ، وأسبغوا الخلق ، وعلقوا الدّرّق ، وخلفهم صفوف الرّماة ، مشدوداً عليها المناطق المذهبة . والمليك الروميّ يتلّب الطرف ، قد غشى قلبه ذعر ، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور في الساعة السابعة من النهار ؛ وقد قعد له أفخم قعود ، وأعلى مرتبة ، مكتنفاً سريره بالوزراء وأعاضهم رجال الدولة ؛ وامتدّ الوصفاء والصقالبة صفين من باب المجلس إلى باب القصر . فحين وقعت عينه على المنصور بن أبي عامر ، أهوى إلى الأرض مقبلاً يُعيد ذلك مرّات ، وهو يستدنيه ، حتى قبّل رجلينه ويديه . وأمر ؛ فألقي له كرميّ مذهب قعد عليه ؛ وأشار ؛ فخرج الناس ، وخلا به قاضياً وطّره من عدّله ، والعليج يقابله بالاعتراف . ثمّ خرج وتبعه بالخلع السلطانيّة ؛ ومشت بين يديه المراكب والبروز . وما انقضّ المجلس إلا تحت جناح الليل .

ولما خضع ابن أبي عامر شوكة النصارى بقشتالة وليون وما إلى ذلك الصقع ، صرف الوجه إلى غزو الفرنجة المتصلة بأرض إفرائسة ورومة ، وهي الأمّة التي لا يطاق قتالها صبراً وسلاحاً وجفوة وكثرة . فدوّنّها ، ودخل برجلونه ؛ وكان ممّا اتخذ لقتالهم القراميد التي تُعشى بها السواعد من الهند لتلقى بها الفرسان سيوف الفرنج من فوق رؤوسها ووجوهها ، وتقتسم بها الشدائد مفرجة بها .

وإن أطلّقنا في أخبار ابن أبي عامر القول ، لم ننفّ عند غاية ؛ فقد أجمع المشيخة أنه نهض مجديّ لا كفاء له ، وأصبح سعداً لا نخس بخالطه ،

وأعطى إقبالاً لا يدبار معه ؛ قد وثق بذلك ؛ فلم يلتفت إلى غيره . وامتدّ حذر يوماً من رجل يُنبز بالشؤم تعلق به ، وقصّت عليه أخبار من شؤمه ؛ فقال المنصور : « لا مَرَحَباً بسعدي إن كان لا يعفني على شؤم هذا ومثله ! » فرعوا أن حال ذلك الرجل انتقلت بمعرفته إليه . وكان الناس يعجبون من نجاح رأيه كلّما ارتكب في الشورى مخالفة أو سلك مضاضة . وكان مهيباً وقوراً ؛ فإذا خلا ، كان أحسن الناس بحسب ، وأبرهم بن يحضر منادماً ومؤانساً . وكان شديد القلق من التبسط عليه والدالة والامتنان ، لا يغفرها زلّة ، ولا يحلم عنها جريرة ؛ ولم يكن يسمع في نقصان الهيبة وحفظ الطاعة أحداً من أولاد ولا ذوي خاصّة ؛ دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف . وحكاياته في هذا الباب شهيرة .

وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخافه إلى أن وصل إلى ربّه ، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، لا يُفضل لذة على لذة تديره وحلاوة نهيه وأمره ؛ فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور . زعموا أنه أكثر في ذلك ليلة على كاتبه الأخصّ عيسى بن سعيد ، وكان أوّل كاتب كتب له قبل ملكه ؛ فكان ينسبط عليه لسالف خدمته وقديم صحبته . فلما باعد بينه وبين شهرته ، وقطع به عن . . . ، قال : « اللهم غفراً ! إماماً شراباً ولذة » ، وإما خدمة ومشقة ! فإذا عزم على صلة النهار بالليل ، فأسكت المسعة ولتخضر الخريطة ! ثمّ مرّ بما شئت نغم به على الحقيقة ! فخلط الجِدّ بالهزل مُفسدّه . وإنما نستجم بهذه الساعة الضيقة لقطع الأوقات الطويلة ! فضحك المنصور وقال : « احبّر يا عيسى ! وليس منّا في شيء ؛ ومن عدل بالأمر والنهي لذة » ، فقد انتفى من الذكورة ! « ثمّ

توفّر ببقية الليل على المنادمة .

وحدث فتاه شعلة ملازمه ، قال : غلب عليّ السحر عند مولاي ، وقد اختلف ما بينه وبين الخليفة ؛ فكان يفرّ على الحرم ، ويصعد إلى قبته المسماة بلؤلؤة وغيرها من مستشرقاته ، يرمى النجوم ، وينفرد بنفسه ، ويكبّ على الفكرة ، والشعلة بين يديه ، والدراج ملقّى على الدواة إلى جانبه ؛ فإذا تاب له رأي ، أثبتته ؛ ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر ؛ فيستلقي على مهادٍ يجيده في كلّ وجه من أماكن خلوته ؛ فلا يتحصل لأهله على الحقيقة مكان مرقدّه ، ولا يزال قائماً على القدم حتى تذهب منه سواكه ووضوءه ، ويؤذنه المؤذن بالصلاة ، فيقضيها ، ويربط الدراج في منديل كتمه ، ويرفع الستر عنه ؛ فيدخل من رسته البكور من الخاصة والوزراء والصحابة ؛ فيناظرهم فيما رسمه ليله ، ويأمر بتقييد ما شاء منه ، إلى أن يرتفع النهار ويجتمع الناس ؛ فيأخذ في النظر العام ، ويناولني الدراج ، فأقطع صغارا وأغرقه في ماء وردٍ بحضرته حتى تخفى أجزاؤه . ولقد قلت له ليلة : « قد أفرط مولانا في السهر ؛ وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ! وهو يعلم ما يحرك عليه السهر من علة العصب ! » فقال : « يا شعله ! حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية ! لو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة ! ولو كنت من صاحب القصر ، وأسأر إلى ناحية الخليفة (على مثل مسافة بسطة ، لأخربت النوم ! فكيف وإنما بيننا مدى صيحة ! »

وأما آثاره في بناء القصور ، وزيادة المسجد الجامع ، والجباب السقي الناس ، وبنيان القناطر بتهري قرطبة وإسجة ، فأثار عظيمة ، ولولم يكن من آثاره غير الزاهرة ذات القصور الفخمة ، والمنزهات المخترعة . وكان ، لشدة حذره من الحادث الواقع بعد دولته ، وتقية المكروه من جهة أهل بيت سلطانه ، قد اتخذ رجلاً ثباتاً أميناً جعله عيناً على من

بالمدينة من ولد الخلفاء ؛ وأمر المروانيين مع ذلك بلزوم منازلهم في المدينة ، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلا لضرورة ، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحكيميين على دواوين متعاقبة ، يطالعون ما ينكرونه من أحوالهم ؛ وأخذهم بتفريق من حوّلهم إلا لمن يأذن فيه من غلام أو وكيل أو معلّم أو طبيب ، وحذرهم صحة سواهم من الناس ، وألزمهم القصد في أمورهم والإقبال على ما يعينهم . وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات ، حتى خشعوا ، واقتصروا على بيوتهم ، وأهملتهم أنفسهم . وكان له كاتب يدور في الدواوين يتوصّد ما يجري من قصة أو يحدث بين ولائها من منازعة ؛ فيثبت ذلك ، ويطلع به . وكان شأنه في الأخذ على المكشوف والمنجّمين ومن يندر بذكر قاطع على الدولة أو اقتراب من المدة ؛ فكان يمتنع لذلك ، ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم . وكان أحرص الناس على التمييز والاعتبار ، والمشاحة للعمال .

وعلى الجملة ، فكان نسيج وحده في صقعه ؛ وقلّ أن يسمع بمثله في غيره . قال بعض من تعنى بأخباره : كان آية من آيات الله فطرة دهاء ومكر وسياسة ، عدداً بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم ؛ ثم عدداً بغالب على المصاحفة حتى قتلهم ؛ ثم عدداً بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه ؛ ثم عدداً بنفسه على جعفر حتى أهلكه . ثم انفرد بنفسه ، ينادي صروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده ، حمل الدهر على حكمه ؛ فأنقاده وساعده ، واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره .

ومن أعجب أحواله أنه كان على بصيرة من أمره ، هائلاً ؛ فذخرت له الأيام في حادثة سنة ؛ فكان ينكلم في ذلك بين أصحابه ولدايه ، وليستير بما خبا لله له من غيبه . فحدث ابن أبي الفياض في كتابه قال : أخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد ، قال : أخبرني محمد بن موسى بن عزرون ،

أي بيت الحاجب جعفر المصحفي .

قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ : « اجْتَمَعْنَا يَوْمًا فِي مُتَكُونِهِ لَنَا بِجَهَةِ النَّاعُورَةِ بِقَرْطَبَةِ ، وَمَعَنَا ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ، وَهُوَ فِي حَدَاتِهِ ، وَابْنُ عُمَرَ رَ عَسَقَرَجَاةً . وَالكَاتِبُ ابْنُ الْمَارِ عَزَّى وَرَجُلٌ يَعْرِفُ ابْنَ الْحَسَنِ مِنْ جِهَةِ هَذِهِ . كَانَتْ مَعَهُ سَفَرَةٌ فِيهَا طَعَامٌ . فَقَالَ الْمَنْصُورُ ، مِنْ ذَلِكَ كَلَامٌ رَئِي كَرِهَ يَنْكُرُهُ : « لَا بَدْءَ لِي أَنْ أُمْلِكَ الْأَنْدَلُسَ ، وَاقُودُ الْعَسَاكِرِ ، وَبِنَفَقَةِ حُكْمِي فِيهَا ! » وَنَحْنُ نَضْحَكُ مِنْهُ ، وَهَذَا بِهِ . وَقَالَ : « تَتَنَبَّأُونَ عَلِيَّ ! » فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : « نَتَمَنَّى أَنْ نَتَوَلَّى الْمَدِينَةَ ! » وَقَالَ ابْنُ الْمَارِ عَزَّى : « نَتَمَنَّى أَنْ نَتَوَلَّى السُّوقَ ! » وَقَالَ ابْنُ الْحَسَنِ : « أَتَمَنَّى أَنْ تَوَلِّيَنِي الْقَضَاءَ بِجَهَتِي ! فَإِنِّي أَحِبُّ التِّينَ ، حَتَّى أَتَشَقَّى مِنْ أَكْلِ التِّينِ ! » قَالَ مُوسَى بْنُ عَزْرُونَ : وَقَالَ : « تَمَنَّى أَنْتَ ! » فَاسْتَمَعْتُهُ كَلَامًا قَبِيحًا . فَلَمْ يَكُنْ ، لِأَنْ صَارَ الْمُلُوكُ إِلَيْهِ ، فَوَلَّى ابْنُ عُمَرَ الْمَدِينَةَ ، وَبَلَّغَهُ أَمَلُهُ مِنْ ضَرْبِ الْأَبْشَارِ ؛ وَوَلَّى ابْنُ الْمَارِ عَزَّى السُّوقَ ؛ وَكَتَبَ لابْنَ الْحَسَنِ بِالْقَضَاءِ عَسَاهُ يَشْعُ مِنَ التِّينِ . » قَالَ : « وَأَعْرَمَنِي أَنَا مَالًا عَظِيمًا ، أَجْجَحَفَنِي وَأَفْقَرَنِي لِتَبِيحِ مَا كُنْتُ جُسْتُهُ بِهِ . »

قُلْتُ : وَالشَّيْءُ يُذَكَّرُ بِالشَّيْءِ . وَقَفَّ عِنْدِي عَلَى هَذِهِ الْحِكَايَةِ الشَّيْخُ الْقَاضِي الْيَوْمَ بَغْرَاطَةُ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الْمَلَقَبُ بِجُعْسُوسٍ ، أَطْرُوفَةُ الدُّنْيَا وَأَضْحَوْكُنْهَا سَكَلًا وَعِلْمًا وَخَلْقًا ؛ فَجَسِبَهَا فُرْصَةً تَغْتَمُّ بِضَعْفِ عَقْلِهِ ، وَظَهَرَ لَهُ بِسَبَبِ اسْتِرَاكِ اسْمِهِ مَعَ ابْنِ الْحَسَنِ الْمَذْكُورِ أَنْ يَنْتَسِخَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِدَّةٌ نُسَخٍ أَنْتَقَى عَلَيْهَا مَا تَضِيقُ عَنْهُ حَالُهُ الضَّعِيفَةِ . وَجَعَلَ كُلَّمَا فَرَّغَ مِنَ الْكِتَابِ ، بَاعَهُ أَوْ هَدَاهُ ، لَا يَقِفُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ حَدٍّ وَلَا غَايَةٍ . فَقُلْتُ لِلْكَاتِبِ ابْنِ زَمْرُوكَ الْمَوْلَعِ بِالْعَبَثِ بِهِ وَحِفْظِ نَوَادِرِهِ : « مَا تَوَكَّى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْحَسَنِ مِنْ اقْتِصَارِهِ عَلَى نُسَخِ هَذَا الْكِتَابِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِهِ عَنْ ضَرُورِيَّاتِهِ ؟ » فَقَالَ لِي : « إِنَّهُ سَمِعَ الْحَدِيثَ

١ راجع « تاريخ قضاة الأندلس » لابن الحسن النباهي ، ص ٨١ .

« تَوَكَّأُوا فِي مَكَاتِرٍ بِكَ الْأَمَمِ » ؛ فَقَدَّرَ ، جَارِيًا عَلَى أَفْيَسَتِهِ الْفَقِيهَةِ . أَنَّ كُلَّ مُكَاتِرٍ لَشَيْءٍ مَا فَهُوَ مُأْجُورٌ . » فَقُلْتُ لَهُ : « أَجْرٌ فِي الْحَدِيثِ بِحَضْرَتِهِ إِذَا جَاءَ إِلَيْنَا لِلطَّعَامِ ! » ففعل ، فقال : « يَا سَيِّدِي ! هُوَ ذِكْرٌ جَمِيلٌ ، وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْوَلَدِ ! » فَقُلْتُ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَعَلَى فَخْرٍ أَنْ يَكْتُبَ بِظَهْرِ كُلِّ مُنْتَسَخٍ عَقْدُ بَأْتِكَ ابْنَ الْحَسَنِ ، وَأَنْ هَذَا جَدُّكَ ! وَأَيُّ فَخْرٍ فِيمَنْ تَبَيَّنَ أَنْ سَبَبَ طَلَبِهِ الْقَضَاءَ الَّذِي يَسْتَعْنِي عَنْهُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْوَرَعِ هُوَ حُبُّ التِّينِ وَالشَّعْبِ مِنْ أَرْهَاطِهِ ! وَهِيَ شَهْوَةٌ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا فِي سَاحِلِكُمْ بَيْتُضَةً كَدَاجَاةٍ وَكِسْرَةً خُبْزٍ ، لَا بَلْ بغير تَمَنٍّ ! وَهَلَّا ، إِذَا ظَهَرَ لَهُ أَنْ يَذْكَرُ السَّبَبَ ، قَالَ : لَنَجْرِيَ الْأَحْكَامَ بِالْحَقِّ وَأَنْ نَتَّخِذَ الشُّهُودَ وَنَنْتَظِرَ فِي الْأَحْبَاسِ الضَّائِعَةِ ، أَوْ سَكَتَ وَطَلَبَ الْقَضَاءَ فَقَطْ ! وَأَمَّا جَعَلُ مِثْلِ هَذَا الْوُظُفِ الدِّينِيِّ ذَرِيعَةً وَوَسِيلَةً إِلَى الشَّعْبِ مِنَ التِّينِ ، فَلَا يَقُومُ مَدْحُ صَاحِبِهِ بِالْقَضَاءِ ، وَتَعَرُّفُهُ بِابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي وَقْتِ الْحُمُولِ بِمَدْمَتِهِ النَّهْمِ وَالْحَسَةِ ! إِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ يَقْرُبُ لَوْ قَالَ الْمُوَرِّخُ : رَغِبَ أَهْلُ مَالَةٍ فِي تَقْدِيمِهِ أَوْ اسْتِخَارَةِ الْخَلِيفَةِ اللَّهِ ، فَهَدَاهُ إِلَيْهِ ! وَلَوْ أَدْرَكْتُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَوَغَّبَ فِي الْخِلَاصِ إِلَيْهِ ، لَلْقَبْتُهُ بِطَيْرِ الْعَصِيرِ ! » (وَهُوَ عِنْدَنَا طَائِرٌ مَعْرُوفٌ بِأَكْلِ التِّينِ) ؛ فَقَالَ : « يَا سَيِّدِي ، وَمَتَى يَنْظُرُ أَحَدٌ بِنَظَرِكَ أَوْ يَعْطِي هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَا تُعْطِيهَا مِنْ اعْتِبَارِكَ ؟ مَا تَمَّ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَصِلُ بِفِكْرِهِ إِلَى مِثْلِ هَذَا ! » فَقَالَ ابْنُ زَمْرُوكَ : « حَضَرَنِي آيَاتُ أَخَاطِبِهَا سَيِّدِي الْفَقِيهِ ! » فَقُلْتُ : « أَفْعَلْ ! » فَأَنْشَدَهُ ، وَهُوَ مِنَ الْمُسْتَظَرَفِ فِي مَعْنَاهُ :

أَحَافِدَ عَبْدِ التِّينِ يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنْ التِّينِ وَالْمَسْوَا (?) لَهُمْ مِنْ غَيْرِ لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ فَيْكٌ حَيْرًا إِلَى أَنْ هَدَيْتُ الْفِكْرَ مِثْنِي لِلسَّيْرِ فَقَدْ طَبْتُ مِنْ طَيْرِ الْعَصِيرِ بِنَسْبَةٍ فَخَرْتُ بِهَا بَيْنَ الْقَضَاةِ عَلَى الْغَيْرِ

١ التصحيف ظاهر في الأصل .

فَأَنْتَ إِذَا مِنْ دَرَقٍ جَدَّكَ نَابِتٌ كَمَا تَنْبِتُ الْأَشْجَارُ مِنْ دَرَقِ الطَّيْرِ
وَذَهَبَتْ فِي الدَّعَابَةِ كُلُّ مَذْهَبٍ ؛ وَحَرَدَ ، وَأَرَادَ أَنْ يُجِيبَهُ ؛ فَأَرْجَحَ
عَلَيْهِ . وَالنَّوَادِرُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِذِكْرِ ابْنِ الْحَسَنِ هَذَا الْمَتَأَخَّرُ غَرِيبَةٌ جَدًّا ، قَدْ
تَضَمَّنَتْ كِتَابًا يُسَمَّى : « بَخْلَعُ الرَّسَنِ فِي التَّعْرِيفِ بِأَحْوَالِ ابْنِ الْحَسَنِ » ،
بِمَا دُوِّنَ لِلْمَوْلَى السُّلْطَانِ الْمُقَدَّسِ أَبِي فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَا
شَيْءَ فَوْقَهُ فِي الطَّرَفِ وَالِاسْتِطْرَافِ ، بِسَلِي التَّكَالِي . وَنَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى !

رَجَعَ الْحَدِيثُ . وَكَذَلِكَ كَانَ الْمَنْصُورُ أَيْضًا عَلَى عِلْمٍ مِنْ مُدَّتِهِ ؛ فَجَدَّتْ
أَبُو مَرْوَانَ [ابْنُ حَيَّانَ] عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدَ بْنِ حَزْنَمٍ وَزِيرِ ابْنِ
أَبِي عَامِرٍ ، الْأَخْصَصُ بِهِ ، قَالَ : كُنَّا مَعَهُ يَوْمًا بِالزَّوْ (وَهُوَ مَرَّكَبٌ
الزَّهْرَةُ) فِي النَّهْرِ بَيْنَ يَدَيْ قَصْرِ الزَّاهِرَةِ ، فِي نَقْرِ مِنْ خَاصَّتِهِ ، مِنْهُمْ أَبُو
عُمَرَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حُدَيْرٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ يُصْعَدُ بَيْصَرَهُ وَيَصُوبُ
فِي قُصُورِهِ بِالزَّاهِرَةِ ، وَمَصَانِعِهِ الْمُطْلِقَةِ ، وَمَبَانِيهِ الْمُشْرِفَةِ ، وَقَدْ قِيدَتْ
الْأَحْظَاطُ حُسْنًا وَبَهْجَةً . فَقَالَ مُحَمَّدٌ : « وَاهَا لَكَ يَا زَاهِرَةُ الْحُسْنِ ! لَقَدْ
جَمَلَ مَرَّكَ ، وَرَاقَ مَنَظَرُكَ ! فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُدِيرُ الْمَشْهُومُ
الَّذِي يَهْدِمُكَ ! » قَالَ : فَاسْتَغْظَمْنَا مَا كَانَ مِنْهُ ، وَحَسِبْنَا أَنَّ التَّيْذِيعَ عَمَلٌ
فِيهِ . وَأَفْرَطَ أَبُو عَمَرَ فِي اسْتِنْكَارِ مَا جَاءَ بِهِ ، حَتَّى تَحَدَّاهُ بِالْقَوْلِ ، وَقَالَ لَهُ :
« كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِهَذَا ، يَا أَبَا عَمَرَ ! وَهُوَ عِنْدَكَ وَعِنْدَ سَلَفِكَ عَنْ صَاحِبِكُمْ
الْحَكَمِ كَالْحَمِ الْمُنْتَظَرِ ! وَلَكِنْ تَتَجَاهَلُ ! سَيُظْهِرُ عَلَيْهَا عَدُوُّنَا ، فَيَهْدِمُهَا ،
وَيُلْقِي حِجَارَتَهَا فِي هَذَا النَّهْرِ ! » فَآخَذْنَا فِي التَّعْلِيلِ لِهَذِهِ الْآثَارِ . وَقَالَ :
كَانَ الْمَنْصُورُ يَعْلَمُ الَّذِي يَزُولُ أَمْرُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصِفَتِهِ ؛ أَطَّلَعَهُ مِنْ تِلْكَ
الْآثَارِ ، وَجَلَبَ أَحَادِيثَ . اخْتَصَرْنَا .

وَوَفِي الْمَنْصُورِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُنْصَرَفًا عَنْ غَزْوَيْهِ إِلَى بَلَدِ ابْنِ عُثْمَانَ
صَاحِبِ قَسْتَلَالَةَ ، بِمَدِينَةِ سَالِمٍ ، الَّتِي بَنَاهَا بَوَادِي الْحِجْرَةِ مِنَ الثُّغَرِ ،
وَشَيْدَهَا ، وَأَقَامَهَا فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ . مَحْمُولًا ، لَيْسَ مِنْ بَلَدِ الْحَرْبِ عَلَى

الرُّؤُوسِ ، عَزِيزًا ، عَلَى فِرَاشِ التَّجِلَّةِ وَالتَّكْرِمَةِ ، وَحِجَابِ الْمُلْكِ وَالْعَمَلِ
الْمَخْتُومِ بِالْجِهَادِ ، لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٣٩٢ . وَدُفِنَ بِصَحْنِ
قَصْرِهَا . وَقَبْرُهُ هُنَاكَ مَعْرُوفٌ ؛ أَخْبَرَنِي بِهِ بَعْضُ الطُّلُبَةِ مِمَّنْ وَجَّهَتْهُ
لِلتَّأْكِيدِ عَقْدِ الصُّلْحِ مَعَ صَاحِبِ قَسْتَلَالَةَ ؛ فَدَخَلَ مَدِينَةَ سَالِمٍ فِي طَرِيقِهِ ،
وَقَدْ أَوْصِيَهُ بِذَلِكَ ، « لَا أَنْ » رُسُومَهُ مِنْ شِعْرِ مَنْقُوشٍ وَتَأْرِيبِ مَكْتُوبٍ
وَأَمْرٍ مُنَوَّهٍ بِهِ مَفْقُودَةٌ .

وَحَدَّثَ مَنْ سَمِعَهُ يُوصِي ابْنَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ؛
فَقَالَ لَهُ : « يَا بُنَيَّ ! لَسْتُ تَجِدُ أَنْصَحَ لَكَ وَلَا أَسْتَفْقَ عَلَيْكَ مِنِّي فَلَا تُعَدِّتْ
وَصِيَّتِي ؛ فَقَدْ جَرَّدْتُ لَكَ رَأْيِي وَرَوَيْتِي عَلَى حِينِ اجْتِمَاعٍ مِنْ ذَهْنِي . فَاجْعَلْهَا
مِثْلًا بَيْنَ عَيْنَيْكَ . وَقَدْ وَطَّأْتُ لَكَ مِهَادَ الدَّوْلَةِ ، وَعَدَّلْتُ لَكَ طَبَقَاتِ
أَوْلِيَائِهَا ، وَنَمَائِرُتُ لَكَ بَيْنَ دَخْلِ الْمَمْلَكَةِ وَخَرَجِهَا ، وَاسْتَكْثَرْتُ لَكَ مِنْ
أَطْعِمَتِهَا وَعَدَدِهَا ، وَخَلَقْتُ لَكَ جَبَابَةً تَرِيدُ عَلَى مَا يَقُولُكَ بِجِيشِكَ
وَبِنَفَقَتِكَ . فَلَا تُطْلِقْ بَدَكَ فِي الْإِنْفَاقِ ، وَلَا تُقَيِّضْ لظَلَمَةِ الْعُمَّالِ ؛
فَيَحْتَلَّ أَمْرُكَ سَرِيعًا ؛ فَكُلُّ سَرَفٍ رَاجِعٌ إِلَى اخْتِلَالٍ لَا تَحَالُ ! فَاقْصِدْ
فِي أَمْرِكَ جَهْدَكَ ، وَاسْتَنْبِطْ فِيمَا يَرْفَعُ إِلَيْكَ أَهْلُ الْبَطَالَةِ . وَالرَّعِيَّةُ ،
فَقَدْ اسْتَقْصَيْتُ لَكَ تَقْوِيمَهَا ؛ وَأَعْظَمْتُ مِنْهَا أَنْ تَأْمَنَ الْبَادِرَةُ ، وَتَسْكُنَ
إِلَى لَيْلِ الْجَنَّةِ . وَصَاحِبُ الْقَصْرِ قَدْ عَلِمْتَ مَذْهَبَهُ وَأَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنْ
قَبْلِهِ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ ، وَالْآفَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاهُ وَيَتَلَمَّسُ الْوُثْبَ دَاسِيَهُ ؛ فَلَا تَنْمُ
عَنْ هَذِهِ الصَّائِفَةِ جَمَلَةً ، وَلَا تَرْفَعُ عَنْهَا سُوءَ الظَّنِّ وَالتَّهْمَةِ ؛ وَعَاجِلُهَا
مِنْ خِفَتِهِ عَلَى أَقْلٍ بِدَرَةٍ ، مَعَ قِيَامِكَ بِحَقِّ صَاحِبِ الْقَصْرِ عَلَى أَمْرٍ وَجْهِ .
فَلَيْسَ لَكَ وَلَا لِأَوْلِيَائِكَ شَيْءٌ يَفِيكُمُ الْحِنْثَ فِي بَيْنِ بَيْنَعَتِهِ إِلَّا مَا تَقْبِيهِ لَوْلِيَّيْهَا
مِنْ هَذِهِ اللَّفْقَةِ . وَأَمَّا الْإِنْفِرَادُ بِالتَّيْدِيرِ دُونَهُ ، مَعَ مَا بَدَّوْهُ مِنْ جَهْلِهِ
وَعَجْزِهِ عَنْهُ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنَّي وَإِدْكَ مِنْهُ فِي سَعَةِ مَا تَسْكُنُنَا بِالْكِتَابِ

والسنة . والمال المخزون عند والدك هو ذخيرة تملكك ، وعدة حاجة تنزل بك . فأقبه مقدم الجارية من جوارحك التي لا تبدلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . وأخوك عبد الرحمن ، قد صيرت له في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجدد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فليسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفقرة إلى دولتي . وقد كفيك الحيرة فيه ؛ فاكفني الحيف منك عليه . وكذلك سائر أهلِكَ فيما صنعت فيهم بحسب ما قررت به خلاصي من مال الله الذي بيدك . وخلافك بعدي أجدي عليهم مما صرفته إليهم ؛ فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظنهم بعيني ؛ فإنك أبوهم بعدي . فخرّج ذكورهم باستخدامك ، وألف إنائهم جناحك ، جبر الله جماعتهم ، وأحسن الخلافة عليهم . وإن انقادت إليك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل ؛ وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة ، فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وشيعتهم بقرطبة ؛ فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الخزم فيهم ؛ وإن خفت الضعف ، فانتبه بجاستك وغلمانك إلى بعض المعاقيل التي حصنتها لك . واختبر عندك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طوعتك بتناك ؛ فإني أعرف ذنبي إليهم ! »

قال : وسبعته يقول لغلمانه عند هذه الوصية : « تنبّهوا لأمركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعة عبد الملك أخيك ومولاكم ، ولا تغرؤنكم بوارق بني أمية ، ومواعيد من يطلب منهم شئناكم . وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم من الحق عليكم ؛ فليس برأسكم بعدي أشق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكونوا كرجل واحد ؛ فإنه لا يفل فيكم ! »

وانصرف المظفر لشأنه ، وضبط سلطانه ؛ وتخلّف المنصور ، ينازع من أجله ، وانفراجه بعليه ، قد قطع الدهر به عن أمّله ، فسبحان أخي الباقي لا إله إلا هو !

قلت : ولم سطر القول فيما اختص بدولة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، وكفالة المنصور ابن أبي عامر إياه ، إلا لكونه أشبه الأحوال بما نحن فيه من جهة اتقاء الخواص على مبايعة حي لم يبلغ الحلم ، وفي قطر يقتدي الناس بأعلامه وأحكامه ، والتعويل في ذلك الرسم الإمامي على من يتولى وزارة التفويض ، وشأنها معروف ، إذ تعدد وجود جميع الشروط المعتبرة ، ووجب مراعاة حال المصلحة المقدرة ، لا سيما ومن هذه النيابة فقد عدم المطعن فيه عدالة وكفاية ، وتمشت أمور المسلمين بذلك أحسن ما مشت فيما سلف من الأزمان ، وكونه عند من اقتصر عليه وأعطى صفة يمينه فيه بما اقتضاه الاجتهاد الوقفي ، وغير ذلك من المناسبات ؛ فلذلك مددنا القول فيه لكي يعتضد الشكل بشكله ، ويأنس صاحب هذه الوظيفة الشرعية بذكر سير مثله ؛ فيجتهد ليراعي في فضله وعدله ، وينكب عما أنكر عليه من قبله فيجيد عن سبله ، بمقدار نبه . والله يجعلنا ممن قصد الخير في أمره كله ، بقدرته وعونه وحوله ! وفي آخر الكتاب عند الوزن ، والكلام في الزمان والمكان ، وفضل الدولة الميرانية بالبرهان ، نستوفي ما نريده من هذا الشأن ، بمشيئة الله .

دولة المظفر عبد الملك

ابن المنصور محمد بن أبي عامر

وصار الأمر بعد محمد بن أبي عامر لوالده عبد الملك ، الملقب بالمظفر سيف الدولة ، يوم الإثنين لثلاث خلوات من شهر رمضان سنة ٣٩٢ .

وخطب الأقطار بالمغرب والأندلس ، يعرف الناس بوفاء أبيه ، وربما قصير له من أمره ؛ فاستوسق له الأمر ، ولم يخالفه أحد . واجتمع الناس على حبه . كان مع كلفه بالنبذ ، واستغراقه فيه ، مراقباً لله ، محباً للصالحين ، يظهر العدل ، ويحيي الشرع ، وينصر المظلوم ، ويوفي بالبيعة ، ويقمع عدو الدين . وبالمثل شعري إلى أين يذهب الناس بعد هذا وما الذي يريدونه ! وكان مما تقرب به إلى قلوب الناس إسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد . وابتدأ من الحد الذي وقف فيه أبوه ، تامياً بهيته العالية وآماله الشريفة .

قالوا : كان عبد الملك أسعد مولود ولد بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما ؛ فجدد الألقاب ، واقتنى الرسوم . فلقد ذكر أن المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجّمين ؛ فلم يكونوا أوفر عدداً ولا أسنى أزوافاً منهم في أبنائه ، مع عدم التلبس بشيء من أمرهم ، إذ كان مقتصرًا على شأنه من التجنّد والعسل بالسلاح ، حفظاً للرسوم ، والتامساً لجليل الذكّر ، وحرصاً على التزيّد والشفوف على غيره . وكان مثلاً في الحياء والشجاعة ، إذ ما كان عند الحياء والحشمة بكراً عزيزة ، وفي مواقف الكريمة أسداً ورّداً ، لا يقوم له شيء إلا حطه .

قال أبو موان في « الكتاب المتين » ، فقال يصف مدته : انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباً ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عقاف ، ونزاهة ، ونقي سريرة ، ووثوق في بعد همته ، أطمانوا بها إلى جنبه في السر والعلانية ؛ فباحوا بالتعم ، واستأثروا الكنوز ، وتناهبوا في الأحوال ، وتناغوا في المكاسب ، وتحاسدوا في اقتناء الأصول وابتناء القصور ، وغالوا في الفرش والأمتعة ، واستفروا المراكب والعلمان ، وغالوا في الجوّاري والقيان ؛ فسنت أمان ذلك في تلك

المدّة . وبغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ؛ فهدت تلك الدولة في احتشاد التعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ، نذراً لerman قضاء ، وأسبوعاً بعرضه ثلثاً في كنف ملك مقتبيل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسروراً بتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا في طاعته . ورضي بالعاية مهم ؛ وآتوه إياها . فصفا عبثه ، وانشرح قلبه ، وخلّصه الله من الفتنة .

وقال في إطراره دينه : كان في مر أمره عفيفاً متواضعاً على رفعة حاله ، يبكي على ذنبه ، ويحب الصالحين ، ويستهدي أذعيتهم . وذكر لقاءه لولي الله على عهده أبي أيوب الفريسي - نفع الله به - ؛ ثم قال : وحكى الأستاذ أبو القاسم المغربي ، فقال : طرقة عبد الملك ليلاً ؛ وأحسننا بذلك لقربنا من منزل الشيخ ؛ فامتلت المقبرة بحيل المظفر ، وقصد باب الشيخ في خيف من غلمانته ، والقاضي أبو العباس بن ذكوان معه ؛ ففرع الباب عليه ، وهو قائم يصلي ؛ فأدنته زوجته بكانه ؛ وكانت فاضلة ؛ وقالت : « يا أبا أيوب أوجز في صلاتك ! فهذا صاحب البلد واقف على بابك ، ينبغي الدخول عليك ! فانظر ما جناه عليك ابن .. » فانصرف ، وقال لها : « يا هذه بلوى حلت تستدفع بالصبر ! انذني له ! وقانا الله فتنته ! » فدخل وكلّمه ؛ فوعظه ؛ ثم تناول كفه مصافحاً ، فقال له : « يا مظفر ! إن لك كفاً ناعمة رخصة . فاتق الله عليها من لفتح الجحيم ! » فأقبل عبد الملك على البكاء والنحيب ؛ ثم دعا له ويده في يده ؛ فقال : « بسطها الله في الجهاد وأطالها بالصدقة ! ما يبلغني عنك بنعمة الله عليك إلا ما يسر ! وقد وجب عليّ نصحك : فاتق الله ربك فيمن استرعيت أمرهم ، وتذكر من بعد عنك وعجز عن قصدك ! فاكشف عن مظالمهم جهنمك ، وتوق سوء دعايمهم ما استطعت ، واحترس من

بطانتك أشد من عدوك ! فإنهم أقرب إلى خربك ، يُزَيِّنون لك شهواتك لينالوا رضاك ، ولا يغنون عنك من الله شيئاً . والله الله في الجهاد ! فيه أعز الله أباك رحمة الله عليه وعليك - بإصلاح السبيل ؛ فهي أهم ما ترك إليك . وتقوى الله أول وأخير ما أوصيك به ؛ فاشعرها قلبك ؛ فإنك تأتي إليه وحدك ، ولا يعني عنك أحد شيئاً ! » في كلام نحو هذا .

وذكر أن المظفر أرسل إليه بدرة من خمسمائة دينار وقال : « إنها من أطيب ثواني ! وأريد أن تضعها بمكان ينفع ! » فقال : « ما أعلم إلا إمام المسجد هذا ليست له دار . فإن شاء أن يشتري بها داراً يوقفها على أئمة المسجد ، فنعماً هي ؛ وإلا فهو أعلم بصدقته ! » فأمر عبد الملك بذلك ؛ فالدار تُعرف بهذا من يومئذ .

قال : وكان ممّا سلك فيه عبد الملك مسلك والده من الأعمال الزكية نظره في السجون وكشفه عن طال منهم سجنه وتعدّر خلاصه ؛ فيطلق من يؤمن بضارته بالمسلمين ويرجى سيواهم .

قال : وكان عبد الملك لصحة عقده ، مع قلّة عقله ، لا يحلف بالله البتة ، ولا يحلف به تعظيماً لله . كتب عنه الكاتب يوماً شيئاً من ذلك في وعيد ؛ فلما مرّ بسمعه ، أنكره ، وأمر بمحوه ؛ وقال للكاتب : « ومهما عهدتني خلافاً ؟ » قلت : وقد ذكر الناس ذلك في مناقب أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه .

وذكر أن عبد الملك كان أبر خلق الله بوالديه . وحكى عنه في ذلك خلقاً شريفاً ألحقه الله رضوانه . وذكر حياته وعفته ؛ فقال : كان لا يكاد يرفع طرفه إلى سائل ولا معذور حياة ورقته . وكان أعف خلق الله إزاراً ، وأستورهم لعورتهم ، وأبعدهم عن جميع ما يتدنس في الملوك من وهنة وعثر خلوة . وأجرى شجاعته ؛ فقال : وهذه خلّة كانت أغلب خلل الظفر عليه ؛ فحكى عن الوزير حكيم بن بدر أنه أجرى لمحمد بن

علي بن محمد بن خنّز المَعْرَوي ، عظيم زناته ، مفتخراً به للعصية الأندلسية بعد موته بزمان ؛ فقال : « لا تشك ، يا أبا العاصي ، في أنه لم يكن في عسكره فارس يعدله البتة . »

قال ابن حبان : وكان من أحسن الغرائز في الناس ما جمع الله فيه من الحياء والشجاعة . فلقد استحق وصف القائل :

فتى هو أحيى من فتاة حية وأشجع من ليث بخفان خادر
ثم تكلم في سعده ويمن سلطانه ، وتملكه ، ورفاهية ، ومبانيه وآثاره ؛ فجاء بمبدعات تحسدها الرمم البالية والدول الخالية . فيا ما أحسن الذكر الجميل في بطون الأوراق ، والمحاسن تنشأ بالأندلس ، ثم تطير إلى الشام والعراق ؛ وسبحان الذي يقول ، حكاية عن نبيه (واجعل لي لسان صديق في الآخرين واجعلني من ورثة جنّة النعيم . ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .)

وله في الرّوم وسبيل الجهاد آثار كريمة : غزا سبع غزوات ، منها إلى برجلونة وبلاد الفريجة ، ومنها إلى بنبلونة ، ومنها إلى غليسية ؛ ومنها غزوة الحريقة ؛ ومنها غزوة قلونية ؛ وآخرها التي مات قافلاً عنها . وفي سنة ٣٩٤هـ ، تناهى ملكه ، واحتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم . وما رية في أمراء الجيوش أبسط يد في الحركات الجهادية ، ولا أرغد معونة من المظفر . ولقد كان يفيض العطاء في المطوعة التي تعبر البحر للجهاد معه من أرض العدو وجبال البرابرة . وعهد في غزواته التي فتح فيها حصن منقش من ثغر برجلونة إلى الخزان بتوزيع خمسة آلاف درع وخمسة آلاف بيضة وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدارين .

سورة الشعراء : ٨٣ - ٨٤ ، ٨٦ - ٨٨ .

وفي سنة ٣٩٨ ، استدعى الخليفة إلى قصره بالزاهرة لتزهة أنشأها هنالك في قصوره ؛ فركب إليها من قصر الخلافة على سبيل المعهودة من الاستخفاء عن أعين الناس وطردهم عن طريقه بكل جهة ؛ والحاجب المظفر بين يديه في الجيش على العادة . وفاوض عبد الملك فيما أراده وتمتع من لقائه ؛ فلما انصرف من عنده ، أتبعه رُقعة بخطه ؛ وهي بعد بسم الله :
« من الخليفة هشام المؤيد بالله .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أتم الله عليك نعمته ، وهناك قيسه ، وألبسك عفوّه وعافيته ، لما رأيناك - سلمك الله - من صنع الله الجسم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شئنا الصدور وأقر العيون ، استخرنا الله تعالى في أن سميناك المظفر . فنسأل الله سؤال إلحاف وضراعة وابتهاال إليه أن يعرّفنا وإياك بركة هذا الامم ، ويحليّك معناه ، ويعطينا وإياك وكافّة المسلمين فضل ما حملت منه ، وأن يخيّر لنا ولهم في أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته بمنه وخفيّ صنعه . وكذلك أجنّاك التكنّي في مجالسنا ومحافلنا ، وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائر ما يجري فيه اسمك معنا ودوننا ، إفاقة بحلّك لدينا ، ودلالة على مكانك مِنّا . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر ثلاثاً أسعدنا الله بالإيحاء إلى خُطة الزوّارَين ، وجمّعناهُ بها في التكنّي على المشيخة والترتيب . إترك في الدولة . وأنت الحقيق مِنّا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، ووليّ دَعْوَتنا ، ونشء نِعْمَتنا ، وخريج أدبنا . فأظهر ما جدّدناه لك في الموالى وأهل الخدمة ، واكتب به إلى أقطار المملكة ، وتصدّق به بشكر النعمة ! أحسن الله توفيقك ، ومتعنا طويلاً بعباداتك ، وآنسنا مكيّاً بدوام سلامتك ! إنّه وليّ قادر ، عزيز قاهر ، إن شاء الله تعالى !

وعنوان ما كتّب به عبد الملك : « من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور . »

وكان عبد الملك قد أجحف بالمال لانطلاق يديه في حاضيه ، والتوسعة على الناس بسدسه ، وكثرة حركاته ، والتجاوز في نفقاته . ثمّ تاب في أخريات أيامه ؛ فهجر اللهو والراحة ، وأستيقظ من العفة ، وعكف على مباشرة أمره ، والإشراف على سلطانه ، وإحياء رسمه والديه . فانتقل إلى طرف من حاله ، حسم به أطباع العُبال ووآلى الجلوس للكشف عليهم ؛ فتضافرت رغبته وحرصه ، وتراحت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور . وبلغ من ذلك في المدة القصيرة ما رُجيّت بعده الثروة ، وحسنت العاقبة . وقضى الله باحترامه عند ترقّيه في ذلك أسد ما كان في رأيه وأضبط ما كان لشأنه ؛ فمضى حميداً .

وكان قد اعتلّ في مُنصرِفِه من غزوته بالصائفة سنة ٣٩٨ عن بلاد سنجّه ابن عرسية ؛ ووصل الحضرة مُنتصف المحرم في عقابيل عِلّته مُتحدّثاً بالانكفاء إلى أرضه ؛ فلم يستقرّ بقرطبة إلّا ريثما تراجعت قوّته إلى أن صحّ عزمه على مفاجأة العدو بالثانية ؛ فخرج من قرطبة للنصف من صفر سنة ٣٩٩ ؛ فزاد به مَرَضُ الذُبْحَة . ووقع العمل على إعادته إلى قصره في العبّارية . فكانت وفاته بها في الطريق قبالة دير أرملاط من أحوار قرطبة - رحمة الله عليه - يوم الجمعة لإثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٣٩٩ . وولي الأمر بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور .

دولة عبد الرحمن بن المنصور

عمد بن أبي عامر

ولما دخل المظفر قصر الزاهرة ميّناً ، وقد كان أخوه ضبّطه مستخلفاً

عنه ، فقام بالأمر ، وأنفق الأموال ، وثقف المدينة ، وجلس تجلس أخيه . ودخل الناس عليه منهته . ثم ركب إلى قصر الخليفة ؛ فعزاه بأخيه ؛ وانصرف ، وقد خلع عليه خدعاً سلطانيةً ، وقلّده الحجابة ، وأصدّر له محطته تسبيته بئامون . فنلقب بالناصر ، ثم بئامون . فكان يدعى بالخجيب الأعلى المأمون ناصر الدولة . وساء تصرفه ؛ وانتهى إليه مثل الدس : وإذا أراد أنه أمرأ هياً أسبابه ؛ وسلك خلاف مسلك أبيه وأخيه في مداخلة الخليفة والوقوف في أمره عند ضرورة السياسة ؛ فتنفق إليه ، وفتح الباب إلى تيسير أغراضه ، واستماله ، وخسّطه بنفسه ، وطرّد العمل في استدعائه إلى التزّهة على رُسْبه من الحجة عن الرعيّة . وكان رُسْبه أن يكسّى بُرُتساً في جملة الجوّاري ؛ فلا يُعرَفَ منهم . وأوعز بالاحتفال له .

وسوّلت لعبد الرحمن نفسه أن يلتبس ولاية عهد هشام ، والقيام بأمر المسلمين من بعده ، إذ كان هشام قد عدم الولد ضعفاً ومهانةً ؛ فأسغفه بذلك ، مثيراً على نفسه الفاقرة ؛ فإنّ المروانيين من أهل بيته كانوا يرتقبون عادة الدهر بالكرّة التي تُعبدُ الأمر إليهم منسليخاً عن العامريّة ؛ فهم يتعلّلون بالأحلام ، وأضغاث المنام ، ويزجرون ساعات الأيّام . فلما رأوا انصراف العهد إلى بني أبي عامر ، وخروجه عن بني مروان ، بلكوا ما لا يسعه ذرع التحمل . وشرع رجالهم في مبادرة الأمر واستماله من دونه ؛ وقد جبّل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بدوي أثرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة تؤثر عنهم في العامريين نوادر حارة واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ثمهم بإنهاء وعيده ، ويشافهم بإنكاره ؛ ولا يزال حكّامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألْسنة . فلمّا ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الحرّق ، كثر الحمل ، وشهرت البغضة .

قال أبو مروان بن حيّان : وقد تقدّم القول في سبب تعلق هـ الجاهل بدعوى الخلافة عجرفيّة من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيدُ الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكّر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة . ولم يهن الخليفة بعد مُصرفهم من نزّهتهم التي أوقعوا فيها هذه الوهلة ، حتى غداً عليه اليوم الرابع في جيوشه المتكاثفة وعدده المتظاهرة ؛ فأخذ عليه أنقاب قصر الخلافة ، بعد أن أحضر من شاء من طبقات أهل الحضرة ؛ فأجلس لهم هناك ، وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية . وأخرج كتاباً قريء بحضرته من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن بُرد - رحمه الله .

وهذه نسخة العهد بالبيعة :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه إلى الناس عامّةً ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصّةً ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامّة ، بعد أن أمتعّن النظر ، وأطال الاستخارة ، وأهمّه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصّه به من إمرة المؤمنين ، واتقّى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرّف ، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه ، ولم يوردها ملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلقي الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عن ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يُسند الأمر إليه ، ويعوّل في القيام به عليه ، ممن يستوجهه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطّراح الهوادة والتبرّي من الهوى ، والتحرّي للحق ، والتزلف إلى الله ، عز وجل بما يرضيه ، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعه عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ؛ فلم يجحد أحداً هو أجدر أن يُقلّده الخلافة ، ويُفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، في فضل نفسه

وكرم خيمه وشرف هيمته وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر - وفقه الله - إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ؛ فرآه مسارعاً الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة ، وينسج بعينيه إلى أعلى درج النصيحة ، أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويجوي من حلل المجد بما حواه ، مع أن أمير المؤمنين - أكرمه الله - لما اطلعه من مكنون العلم ، ورعا من مخزون الأثر ، أملاً أن يكون ولي عهد القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ولا على غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد تملكه ، طامعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ولا مائل له بهوادة ، ولا متترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختبار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى بقاء ذلك في أمير المؤمنين - أعزه الله . وأمضى أمير المؤمنين - أعزه الله - عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبثله ، لم يشترط فيه مننوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره .

وَذِمَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آلِهِ وَأَبَائِهِ ، وَذِمَّةُ نَفْسِهِ ، بَأَنَّهُ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ وَلَا يُجَوَّلُ وَلَا يُتَأَوَّلُ . وَأَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً . وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مَنْ أَوْقَعَ اسْمَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَهُوَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -

جائز الأمر ، ماضي القول والفعل ، بحضرة من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله لما قلده ، والتزامه ما أقرمه . وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ .

وهذا الكتاب نسختان ؛ أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن كذوان ؛ يليه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً ؛ يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكماء والقضاة والفقهاء المشاورين ، وغيرهم .

قال ابن عون الله : وصدر عبد الرحمن في أهل المملكة إلى قصره بالزاهرة ، يخال في ثوب الخلافة ، ويحسب أنها له نحلة . فلما استقر به مجلسه ، أذن لخاصته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه ؛ فأفاضوا في ذكر تهنئته بما أكرمه الله به ، والدعاء له ، والمعونة عليه ، ويمدونه في غيّه ، وقلوبهم منكرة عليه ، وهو يؤلبهم قبولاً ، ويوسعهم تكريماً . وأمر بإتخاذ الكتب عنه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، يخبر بولايته العهد والإمعان إليهم بالدعاء له على منابرهم بالعهد بعد الدعاء للخليفة ، مع نسق أسمائه المجموعة له .

قال : وغدا وجوه الناس من أهل قرطبة لتهنئة المغرور عبد الرحمن بهذه المنحة ، التي كانت عندهم أشد محبة ، كلهم يعزّي عنها نفسه ، ويكفكف عليها عبرته ؛ ثم تجملوا بالملق . وجلس لهم عبد الرحمن بقصر الزاهرة في مرتبة الملك ، لا ينقصه دققة ، وصفاً رجال المملكة قياماً ، بين يديه على مراتبهم في رائق أبهائهم ؛ وأذن لمن حضر الباب بالدخول إليه لتهنئته ؛ فدخلوا على منابرهم ، يقدمهم المبعدون عن الخلافة من أهل بيت المؤيد هشام المروانية وغيرهم من بطون قرطيس ، تبدو عليهم في ظاهريهم الاستكانة والكبوة ؛ وتسانل بعدهم وجوه الناس من الحضرة ؛ فقصوا حق تهنئته ، وغبطوه بما ارتقى إليه من رفيع مرتبته ؛ فأحسن الرد

عليهم ، وخرجوا من عنده ، وقلوبهم دؤوبة عليه موقدةً ببعضه .

وولّى عبد الرحمن ابنه عبد العزيز العزيمُ نَظْمَةَ الحِجَابَةِ مجموعةً له بسيف لدولة ، لقبَ عمه مظهر . فرمّم هذا الطفلُ بالحِجَابَةِ بقيةً مُدَّةً أبيه .

وانهك عبد الرحمن بعد هذه الحادثة في غيّه ، وأقبل على بطائه ، وجاهرَ بذيّاته . ومال إلى صحبة الجند بكائيه ، فأدنى أكابر الفريقين ، ونادى وجوه الجنّيين ، أعني البُيُوتَ والأندلس ، فأكثرُوا الشغل بالراحات والاسعاف بالمحالات ، حتى نفقوا الأمر ، وهو ذاهلٌ عن ذلك كله ، مشغولٌ بشأه .

قال ابن الرقيق في كتابه : لما تمّ له ما أراد من ولاية العهد ، ودبر سائر الأمور ، أخذ في التخليط والفسوق والانهاك في مجلس شرابه وخلوته حتى كبا لفيه عن قريب ، حسبا تذكّره إن شاء الله .

قال ابن حبان : ومن مختار ما قالته الشعراء في نهضة عبد الرحمن بولاية العهد قول أبي العلاء صاعد البغدادي :

قرأت كتاب الجودِ وحدك أوّلاً وأوضحت منه كل ما كان مُشْكِلاً
فلما تجلّى الحسنُ منه لبيستَه فأحسنتَ في الأقوام أن تفضلاً
أما والذي أعطى الخلافة ربّها أغرّ مُعِياً في التبايع مُخولاً
لقد حازها مُرخٍ عليها جناحه عقاب إذا ما أعلّق الصيد جلجلاً
وقال أبو منصور زيادة الله الضبيّ في ذلك بديهة :

تخيّر الله والسلطانُ للأمر وليّ عهدٍ براه الله من كرم
لا يعدم الملكُ منه أن يشيد له عزّاً شديداً بضرب السيف والقلم
اختاره الله للإسلام يحفظه وخصّه بعلو القدر والهمم
وقال أيضاً :

بوليّ عهد المسلمين ما التقى وابتضّ وجهه الدين حتى أشرقنا

الآن أبلغت الخلافة سؤلها
عند الإمام لها فأثبت عزّها
ملك ترى نور الهدى يجينه
زبان المغارب في ولاية عهدّه
لو أن مكة تستطيع زيارة

وقال قاسم بن محمود المرواني :

لقد وفق الله الإمام المؤيّد
فقلدك العهد الذي مدّ عقدّه
شهدت بأن الله ولأك خير من
وإنك يا مأمون أفضل مُنتقى
وهل ذخر الرحمن ذا الملك لأمري
إلا يا وليّ العهد وفيت عزّة
تقلّده وابتشر بالخلافة بعقدّه
فأنت الذي جاءت به النذر التي
وأنت أمينُ الله مهديّ يعرّب بن
لكم كان هذا الأمر بدءاً وفيكم

وقال كاتب الرسائل ، وأفرط في قوله ، وهو موى بني مروان :

[الكامل]

الآن عاد الدهرُ غضّاً مشرقاً وتمكّنت أوجاؤه واستوسقا
وغدا هلال الحق بدرّاً بعد ما قد كان أصبح شمله متقرّقا
بوليّ عهد المسلمين ومن غدا في المشركين إذا تقمّ قيلقا
فانه يشهد للمؤيّد أنّه قد حاط أمة أحمد منه بقا

وغداها رأي الإمام موثقة
بولاية المأمون عهداً موثقا
ملك ترى نور الهدى يجينه
زبان المغارب في ولاية عهدّه
لأنّ إليه مودة وتوثوق

[الطويل]

وألمه للحق فيك وأرشدنا
لك الله منه في الرقاب وأكثدا
به أسس الدين الحنيف وشيّدنا
وأجدر من عهد الخلافة قلّدا
سواك وأهداه إليك ومهدنا
بأعين وقت في الزمان وأسعدنا
وذوق ذوي الغل الحسام المهتدنا
أنى الأثر المروى فيها مُردّدا
فحطان فيها طبت نفساً ومحتدا
يكون مدى مستأنف الدهر سمرّدا

وأحلهم في بادئ متمنع صعب حواشيه عسير الملتصقا
أمسى يفتش قومته وعشيرته شحاً عليها والحميم الألفقا
ورجا بأن يلفي إذا ما فتشوا في عبد شمس للخلافة معلقا
فراهم متخلفين عن العلا لا يصلحون لأن يسوسوا جرذفا
فرمى إلى المأمون أمر جبيهم إذ لم يزل حذبا عليها مشفقا
قلوا إذا ضعفت قریش أخرت وأبو هريرة قال ذاك مصدقا
وأنى عن العاروق أكرم أسوة خبر غدا للخافقين مطبقا
لو أن فيكم سالما قدمته ليلى الأمور مغربا ومشرقا

وهذا الذي جلبنا : بعض من كلٍ وقليل من كثير . ولو أننا رأينا
أخبار العامرية غير مستقلة ، اذهبنا في الاختصار أقرب من هذا
المذهب .

ونحرك إلى الغزو شاذية ٣٩٩ التي اجتمعت أمره . وكان قتاه الأكبر
نصح له في ترك الغزو ، وخوفه من اضطراب الناس ، وأبلغه عن بعض
الروائين نصيحة في محاولة رجل منهم القيام عليه ، واستجابة خنق من
الجند إليه ؛ فأعرض عما ذكر ، واستهان به ، وقال : « والله ، لو اجتمع
بنو مروان إلى سرقدي ، وأنا نائم ، ما أيقظوني ! » وهذه سبل القرون
التي سلك عليها معظم أهل الدول ، إلا القليل من الحزمة كالمصور ؛ فإن
الحازم من لا يأمن الدهر ؛ فإنه جثم العجائب ، ولا يبطل طبيعة المؤمن ؛
فإن القريب في الدين بعيد ، والبعيد قريب ؛ والحازم من يزن كلاً
بميزانه ، ويعده له غدته ، ويعطيه حظاً من فكره وكفلاً من احتياطه ؛
فإن اتسق حال السلامة ، لم يضر حازماً حزمه ولا محتطاً احتياطه ، ولو
لم يكن في ذلك صلاح ، إلا أنه شجاً للعدو ، وكيداً للمكائد في أن يبصره
بعيداً عن الغفلة ؛ فيتنبأ رأيه ، ويترك مهاجته ، ويغتم السلامة معه والنجاة

منه وضبط القطر بأولي غناه من رجاله وذوي كفاية من بطانته .

ونفذ بسيله في وقت لم يسمع بأشد منه قوة بردٍ وكلب مطر .
واقترح جليقة من تغر طليطلة على سبل منكرة من الهو والبطالة .
وكان يوعز إلى صاحب شرطته في المحلة أن ينادي في الناس : « يأمركم
أمير المؤمنين بكذا وكذا . » فيفعل ، ويقول له إذا عاد : « كيف رأيت
الناس ؟ هل أنكر أحد منهم شيئاً ؟ » فيقول : « لا ! » فيقول : « عاود
ذلك مراراً كثيرة ! » إلى أن وصل طليطلة . وبها اتصل به أن محمد بن
هشام بن عبد الجبار قام بقرطبة ، واستولى على القصر ، وفتح مدينة
الزاهرة ، وأخذ أموالها ، ثم أحرقها وهدمها ؛ فهاله ذلك ؛ وضبط الجيش ،
وأتى قلعة رباح ؛ فأقام بها حائراً بنفسه ، لا يدري ما يصنع إلا أن
يستحلف الجند عند المنبر . وكان قد صحبه في موكب قوميس كبير
من زعماء النصارى ، المتوسلين إليه بقرنى أمه من عبوة الملك . فلما
رأى اضطرابه ، عرض عليه رأي الخلاص من اللحاق والنجاة ، ويثن له
الأمور ؛ فقال له : « أنا على علم من أتى إذا ظهرت لأهل قرطبة ، لا يبقى
أحد على ابن عبد الجبار ! » فقال له الرومي : « أنا على علم من أنك
مغرور ! واهاً لك ! ولكن لا يؤسعي الوفاء لك إلا الموت معك ، مع
أنني قد أمكنتي خلاص نفسي ؛ فدونك وما شئت ! »

قال : ودعا أهل العسكر إلى مبايعته على حرب أهل قرطبة ونصر
الخليفة المظلوم ؛ فلم يمتنع عليه أحد ، وأقبلوا يحلفون له أياماً متوالية .
وقال ابن يعلى الزناتي : دعاني وقال لي : « أصدقني عن نفسك وعن قومك !
فلا رأي للكذوب ! » فقلت : « نعم ! لا تغتر ! فليس يقبل عنك
أحد من زناة ؛ وناس تبع لهم ! » فشق عليه ذلك ، وقال : « ما الدليل
على قولك ؟ » فقلت : « تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة ،
وتظهر الرحيل ؛ فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك ! » فقال :

« صدقت ! » ثم لم يفعل ، ورجل إلى قرطبة وقد زين له غدائه دخولها عنوة . وأخرج إليه ابن عبد الجبار حاجبه ابن أدري ، وقد فرغ عنه الناس . فقتل رحمه الله وقتل معه ابن « غوميس » وذلك بمنزل هانيء من أرميلاط ، أدنى محلاته إلى قرطبة ، يوم السبت لأربع خلون من رجب من السنة .

* * *

وانقضى أمر العامرية . وإلى دولتهم بلغت حدود التناهي في دول ملك الأندلس ، بحسب ضيق الخطّة وبُعد النجعة ، إذ الأمور لا تُقاس إلا بأشكالها ، ولا تناظر إلا بأمثالها . فذكر أبو مروان حيّان بن خلف رحمه الله في كتابه الذي أنافت على المائة أسفاره ، المسمى بـ « أخبار الدولة العامرية » ، المنسوخة بالفيتنة البربرية ، وما جرى فيها من الأحداث الشيعة » ، فقال : كتب إلي أبو التامم محمد بن مرشد ، أحد بقايا وجوه الكتّاب المستأجرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن ، معترفاً بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ ، أثبتتها نقلاً من كتابه ، وهي :

مبلغ الجباية آخر أيام المنصور أربعة آلاف ألف دينار ، سوى رسوم المواريث بنظرية وكور الأندلس كانت تجري على الأمانة ، وسوى مال السبي والمغانم على اتساعه في هذه المدة ، وسوى ما يتحصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون . قال : وكانوا يعتدونها أربع بيوت : تؤخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقص ، ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفاً ، إلى أن يدخل شهر يؤنيه العجمي : فيتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة ؛ فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها . وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه السلطان في بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفادته .

قال : وكتب أبو محمد عبد الله بن مروان ، آخر حذاق كتّاب الحساسة اليوم ، وممن لحق طرفاً من تلك الدولة أن محمد بن أبي عامر أحب الوقوف على حصيل الأطنعية في الأهرار عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة ٣٧٤ ؛ فارتفعت جنته إلى مائتي ألف مدي ونيّف عليها . قال : فليحقه العجب بذلك حتى قال : « أنا أكثر طعاماً من يوسف صاحب الخزائن ! » فلم يُطيله بغي كليمته إذ برأها من الاعتصام من ربّه تعالى ، واعتورته السّنون الشّداد المتوالية من سنة ٣٧٨ ؛ فانتسفت أطنعته بانّصال الإنفاق وعدم الاغتنال ، حتى أشفى على المجاعة وهم بالجواز إلى العدوّة لحصّيتها يومئذ ، حتى أغاث الله بلاد الأندلس ، وأخرج أرواقها ؛ وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطنعية ، ولا يقتصر على ما يجنيه منها حتى يخرج المال في شرائها في سني الحُصْب . فهلك وحاصله منها جملة غليظة .

وكتب إلي أبو عبد الله بن سعيد التجاني بما أثبتته ، فقال : كان عدد جميع الأجناد العامريين ، من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار ، وجميعهم مرتزقون في الديوان ، يُقام لهم بالحنلان والحلية والسلاح والمنازل والثقة والعلوفة على مراتب مختلفة إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة . قال : وانتهى تحصيل المنصور بن أبي عامر لجميع من ضمه عسكره في بعض صوائفه الحافلة من الفرسان خاصة إلى ستة وأربعين ألف فارس . فكان عدد فرسان الحرس لحمل العدة وخدمة العساكر ستمائة فارس ، وعدد الشرط والرؤاد المتصرفين في خدمة العساكر مائتي فارس ، وعدد الطبّالين مائة وثلاثين فارس . وانتهى عدد الرجالة معهم إلى ستة وعشرين ألف راجل .

قال : وأذكر أن المنصور بن أبي عامر ، لما اعتد للصائفة التي توفي في قفوله عنها سنة ٣٩٢ ، أنفذ الكتّاب إلى جميع الثغور بأن يلحق ببابه

جميع طبقات المترجلين من فرسان الجند بسائر النواحي ، ليُشرف
عن حملهم بنفسه ؛ فعمهم جميعاً بالإركاب لكثرة ما تكامل من الخيل
يومئذ . وقاد مع نفسه في العسكر بعد ذلك سبعمائة رأس من الخيل
أعراء عدّة لما يحدث في طريقه ؛ ومعه خمسون فرساً من العتاق لركابه ،
إلى قريب من عدتها تحلّقها بقرطبة . وأفضل مع ذلك كله في الإصطبلات
بقرطبة مقدار ألف فرسٍ عدويّة كانت طريقه العبور ، استغنى عنها ،
وأمر بالقيام عليها .

قال : وواصل الابتاع على ذلك في طريقه كله من الوفود وغيرهم إلى أن
ورد مدينة سالم ، وقوده من الأعراء نحو ألف فرس . وكان له من المطايا
والبغلات سوى ما يحمل عليه مائتان وخمسون رأساً ، منها لركابه نحو
خمسین . وكان له من البيغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى
الزوامل الحادّمة للخيل ومطايا الوكلاء . وكان له من الجيال المتصرّفة
في حمل الأثقال أربعة آلاف ، إلا مائة بمسارح كورة تدمير . وكان له
من الرماك المستنجة بجزائر إسبيلية المعروفة بالمدائن على أجناسها
ثلاثة آلاف فرس ، يعدها من فحول الخيل للضراب أو أن الاستنتاج مائة
رأس تُعزّل عند العلوّ .

قال : وكانت حمولة ابن أبي عامر لغزاته الصائفة الحافلة ما بين أثقاله
وأثقال غلماناه خاصّة تلتقي إلى ألفي رأس في أعظم السنين ، إلى مائة رأس
كانت معه تحمل أرواح الطحن الموزعة بجهات عسكره لطحن الأرواد .
وربّما قصر ظهره هذا عن حمولته في بعض الأوقات ؛ فيحتاج إلى
الاكتراء من الناس من بلد إلى آخر . ثمّ قال : ومن تفصيل حمولته
(وفصل ألقاباً من السرايق الكبير ، والمضبّخ ، وآلات الوضوء ، ودار
الصناعة ، وأغلال السجّين ، وحمل المال ، وأرجل النساء الغوازي ،
وأخيمية الفتيان) . وكان من جملة مائة داخل السرايق ومائتان إلا

سنة تُحمّل لمن لا قطعة له من الجند ، وثلاثمائة خباء تتحمّل الرجال ،
وثلاثون خباء فاضلة للأضياف والواردین . ثمّ ذكر عدداً كثيراً للقطاع
والوطاء على صنوفه ، وآلات الطبخ ، والسقائين ، والوضوء ، والمائدة ،
وتوابيت الكسبي والحلج ، وآلات المنجنيق ، وتوابيت النبال ،
وصناعات العسكر ، والزيت ، والتفط ، والقطران ، والمشافة وما
يُستضاف إلى ذلك ، وأحمال الدروع والعدّة ، وأرجل الرماكين والمقدمين .

ثمّ قال : وهذا كله زائد على ما كان يقدم إلى الثغر من العدّة على
دواب الأكرباء المستأجرة لحمل ستمائة ثرس عامري ، وألف ثرس
سلطاني ، وألفي حربة إفرنجيّة ، وألفي وضم للرجم ، وأربعمائة
وإثنين وعشرين خباء ، ومائة وسبعة وسبعين خباء من الأخيمية المعروفة
بالفرود ، وخمسين رُبْعاً من الزيت ، وستة تجانيق من مدينة سالم ،
ومائتي ألف سهم ، وخمسة آلاف ثرس سلطاني من مدينة سالم ، ومائتي
زوج من أزواج المطاحن ، وآلات الحديد . وكان يدفع لأهل الحملان
وللموالي فرس ومطية وسرج ولجام ، ولكل واحد نفقة شهرية
من الطعام والعلوفة ؛ وتعيّن لهم الدور للسكنى .

وكان الرّمم أن يُصنع من الأخيمية عدّة للجند كل عام على أجناسها
ثلاثة آلاف خباء ، إلى ما يقيمه السلطان لنفسه ولمن يتموّن إياه من كبار
خدمه وغلماناه . وكان يُصنع بدار التراسين من أصناف التراس كل سنة ،
حسباً تلقينته من يحيى التراس ، أحد من بقي من مشيخة التراسين في
وقتنا ؛ فقال : كان الطريجة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ثرس ،
وطريجة القيسي في السنة إثني عشر ألف قوس بشطرين عروية
ونركية : ستة آلاف من قبل أبي العباس البغدادي المعلم الأكبر
بقرطبة ، ومثلها من قبل طلحة الصقلبي بالزهراء . وكانت طريجة النبل
في الشهر عشرين ألفاً .

قال التَّجَافِي : وكان بالزَّاهِرَةِ عَمِي ذلك كله من التَّراس الحَفْصُونِيَّة المَعْدَّة للتوزيع على رَجَّالَةٍ قُرْطَبَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَحْشُودَةِ أَيَّامَ الْبُرُوزِ وَالزَّيْنَةِ أَرْبَعُونَ أَلْفًا . وكان فيها من أبدان الدروع المستعدة فيها لذلك سبعة آلاف درع ، ومن أجناس الدروع السَّوَابِغِ وَالغَلَّالِ السَّابِرِيَّةِ خَمْسَةَ آلاف درع ، ومن الجَوَاشِينِ التَّنَسِيَّةِ وَالْحُرَّاسَانِيَّةِ سَبْعُمِائَةَ قِطْعَةٍ .

قال : وكان الجاري من اللحم على صَقَالِيَّةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ فِي الشَّهْرِ وَقِسْطُ الْمَيَاوِمَةِ سَبْعَةٌ وَعَشْرِينَ أَلْفَ رِطْلٍ ؛ والجاري على نسائه في قصره على طَبَقَاتِهِنَّ مِنْهُ تِسْعَةُ آلاف رِطْلٍ ، سِوَى وَظِيفَةِ مَطْبَخَةِ الْخَاصَّةِ الْمُقَامَةِ كُلِّ يَوْمٍ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا .

وزعم أن عدَّةَ الْفُرْسَانِ مِنَ الْبَرَابِرَةِ الْغُرَبَاءِ فِي دِيَوَانِهِ ثَلَاثَةُ آلافِ فَارِسٍ ، يَنْصَافُ إِلَيْهَا مِنْ رَجَّالَةِ الرِّقَاصَةِ السُّودَانِ الدَّاحِلِينَ فِي عِدَادِهِمْ أَلْفًا وَاجِلِ تَتَمَّةِ خَمْسَةِ آلافٍ .

وذكر أحوال الطَّرَازِ ، وما يصنع فيها ، ومقدار ما كان يَرْدُ عَلَى بَابِهِ مِنَ الرِّعَاصِ وَالْحَشَبِ . فَرَأَيْنَا أَنَّ نَظُولَ بَجَلَبٍ ذَلِكَ .

قال : وكان يُزْدَرَعُ لِدَوَابِّ السُّلْطَانِ مِنْ شَعِيرِ الْقَصِيلِ لِقَضِيمِ خَيْلِ الْحَمْلَانِ وَغَيْرِهَا مُفْتَتَحَ الزَّرْبَةِ مِنْ كُلِّ شَتْوَةٍ بِالْأَحْقَالِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي أَعَمِّ السَّنِينَ خَمْسَمِائَةِ مِئَةٍ مِنَ الشَّعِيرِ . وكان حَاصِلُ الْإِبْتِغَاءِ مِنَ الْخَيْلِ فِي أَعَمِّ السَّنِينَ ثَمَانِيَةَ آلافِ فَرَسٍ ، سِوَى مَا يُبْتَاعُ مِنَ الْبِغَالِ بِأَرْضِ الْأَنْدَلُسِ .

قال : ولما عزم على غزو مُنْتَسِيمُورَ ، احتاج إلى الاستكثار من البغال ، وأمر باستحضار ما يصلح منها ، وقعد لما يُقَادُّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْهَا ؛ فابْتَاعَ فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ثَلَاثَةَ آلافِ رَأْسٍ . وقال : شَاهَدْتُ عِنْدَ التَّقَابُضِ فِي خِزَانَةِ السَّلَاحِ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْقَرِيطِيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْبَدَّادِ ؛ فَأَذْكَرُ أَنَّ الْقَرِيطِيَّ دَخَلَ فِيهَا مِنَ الْعُدَّةِ عَلَى نَحْوِ خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ جُنَّةٍ ، مَا بَيْنَ دَرَعٍ سَابِغَةٍ وَجَوْشَنٍ وَبَدَنِ خَاصَّةٍ . وَأَمَّا سَائِرُ الْأَسْلِحَةِ

مِنَ الدَّرَقِ وَالتَّرَاسِ وَالسُّيُوفِ وَالرُّمُوحِ وَالْبَيْضِ وَالطُّشْتَانِيَّاتِ وَالسُّوُوقِ وَالسَّوَاعِدِ وَالدَّبَابِيْسِ وَالطَّبْرَزِينَاتِ وَغَيْرَ ذَلِكَ ، فَقَاتَ إِحْصَائِي كَثُورَةً ، إِلَى مَا شَارَفْتُهُ فِي خَزَائِنِ الْحَلِيَّةِ مِنْ أَجْناسِ الْمَرَاسِكِ الْمُقَضَّةِ وَالْمَذْهَبَةِ وَالْحِزْمِ وَالْمَنَاطِقِ وَالسُّرُوجِ وَاللَّجْجِ الْمُخْتَلَفَةِ الصُّغَاتِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْيِرُ اللَّبَّ اتِّسَاعًا وَكثرةً ؛ كُلُّ هَذَا أَحَاطَ بِهِ النَّهْبُ يَوْمَ قِيَامِ ابْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ خُطْفَةً فِي سَاعَةٍ ، لَمْ يَحْصِلْ مِنْهُ عَلَى شِرْكََةٍ ؛ فَأَعْظَمَ بِهَا نَكْبَةً .

وَبَلَغَتْ الْمَدِينَةُ مِنَ الْإِتْسَاعِ وَالْإِنْبِطَاطِ وَبَعْدَ الْأَقْطَارِ إِلَى أَنْ كَانَتْ أَرْبَاعُهَا لِاحْدَى وَعَشْرِينَ رِبْضًا ؛ كُلُّ رِبْضٍ مِنْهَا يُعَدُّ أَكْبَرَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْأَنْدَلُسِ ؛ بِالْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا تِسْعَةٌ : رِبْضُ الرِّقَاقِينَ ، رِبْضُ مَسْجِدِ الْكَهْفِ ، رِبْضُ حَوَانِيتِ الرِّجَّافِي ، رِبْضُ مَسْجِدِ الشُّفَاءِ ، رِبْضُ مَسْجِدِ مَسْرُورٍ ، رِبْضُ بِلَاطِ مُغِيثٍ ، رِبْضُ حَمَامِ الْإِلْبِيرِيِّ ، رِبْضُ السَّجْنِ الْقَدِيمِ ، رِبْضُ الرُّوْضِ الْمُحَدَّثِ ؛ وَبِالْجِهَةِ الْجَوْفِيَّةِ ثَلَاثَةٌ : رِبْضُ الرُّصَافَةِ ، رِبْضُ بَابِ الْيَهُودِ ، رِبْضُ قُوتِ رَأْسِهِ الْمُنْسُوبِ إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ ؛ وَبِالْجِهَةِ الْقِبْلِيَّةِ اثْنَانِ : رِبْضُ سَقُونْدَةٍ وَرِبْضُ مُنْبِيَةِ الْمُغِيرَةِ ؛ وَبِالْجِهَةِ الشَّرْقِيَّةِ رِبْضُ مُنْبِيَةِ عَبْدِ اللَّهِ ، رِبْضُ فَرْنِ بَرْيَلٍ ، رِبْضُ فَحْصِ النَّاعُورَةِ ، رِبْضُ الْمَدِينَةِ ، الْقَصْبَةُ الْعَتِيقَةُ وَاسِطَةُ الْبَلَدَةِ . وَكَانَ يَنْقَسِمُ عَلَى رِبْضَيْنِ الْجَامِعِ ، وَمَا حَوْلَهُ رِبْضٌ وَاحِدٌ يَتَوَلَّاهُ عَرِيفُهُ وَمَحَارِبُهُ عَلَى حِدَةٍ . وَرِبْضٌ آخَرُ بِذَاتِهِ يَنْفَرِدُ بِهِ أَيْضًا عَرِيفُهُ . وَكَانَ دَرْعُ مَسَافَةِ الْخُنْدُقِ الْمَضْرُوبِ عَلَى قُرْطَبَةٍ أَيَّامَ قِتَالِ الْبَرَابِرَةِ مِنْ جِهَاتِهَا الثَّلَاثِ ، إِذْ أَغْنَى النَّهْرُ الْأَعْظَمُ عَنْ مَدِّ الْخَفِيرِ عَلَيْهَا مِنَ الْجِهَةِ الْقِبْلِيَّةِ ، سَبْعَةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَخَمْسَمِائَةَ ذِرَاعٍ ، يَجِبُ لَهَا سِتَّةُ عَشَرَ مِيلًا غَيْرَ سُدُسِ مِيلٍ .

قال : وَهَلَكَ الْمَنْصُورُ عَنْ سَبْعَةِ خُلَفَاءَ مِنْ فِتْيَانِهِ الْأَكْبَرِ . وَكَانَ شَأْنُهُمْ فِي مِلْكِ الْأُمُومَةِ كَبِيرًا ؛ وَهُوَ يَسُوءُ بِثِقَلِ كُلْفَتِهِمِ الْبَاهِظَةِ . فَلَمَّا تَوَلَّى

ولده عبد الملك بعده الأمر ، بلغ بهم ستة وعشرين خليفة ؛ فضاعف مؤنتهم أضعافاً كثيرة . وكان من مشاهيرهم : واضح ؛ بشير ؛ نظيف ؛ نجاء ؛ سعدة ؛ مظفر ؛ مجاهد ؛ زهير ؛ خيران ؛ نصر ؛ نصير ؛ طرفة ؛ شفيق ؛ يمن ؛ واثق ؛ بشير ؛ واضح ؛ بشري ؛ الزاب ؛ بلقيس ؛ كوثر ؛ خلف ؛ جعفر ؛ خلف آخر . انتهى كلام التجاني . قلت : خيران ومجاهد ملكان قد طارت بهم الأخبار ، ونسبت لهم المآثر والآثار .

ومن خط الميزاني الكاتب في تأريخه قال : أحب المنصور أن يتعرف مقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الخطب في اليوم الواحد من أيام دروره للاحتكار ؛ فوكل بإحصاء ذلك عدة من ثقاته ؛ فعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها ، وكتب كل واحد منهم ما أحصاه ، ورفعوا جميعه ؛ فانتهى إلى ستة آلاف حبل وستمائة حبل على اختلافها . وذكر أن الخليفة الحكم وكل من أحصى له ما يباع بقرطبة من السمك المملوح المسمى بالسردن خاصة ، المجلوب من الساحل ؛ فانتهى البيع فيه في يوم واحد إلى عشرين ألف دينار دراهم .

هذه نبذة من أحوال تلك المدينة التي كان أهلها تحت بعة صبي لم يبلغ الحلم بعمره ، ولا باشر شيئاً من أمره ، ولنظر نائب عنه بحمي حماه ، ويدافع عداه ، ويصون حرمة ، ويهتبه فضل الله قبله ونعمته ، ويخلد آثاره ، ويوفي إجلاله وإيثاره ، ويعطي وظائف الدين حقها ، ويوضح من شعائر الشرائع طرقها . وقد تقرر ما انتهى إليه أمرها من بعده ، وكيف ذهبت سعادتها بذهاب سعدة ، وأنجز لها الدهر كلى وعنده ؛ فحالت أحوالها ، وتغير جمالها ، وشقت عن العورات أسماؤها ، وصارت معتبراً لذوي الاعتبار ، ومنذراً لناظمي الأشعار . فما ينسب في ذلك إلى الوزير أبي عامر بن شهيد من كبارها ، وأبناء وزرائها :

[الكامل]

ما في الطلول من الأحبة مخير
فمن الذي عن حاله نستخير
لا تسألن سوى الفراق فإنه
ينيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم ففارقوا
في كل ناحية واد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم
وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم
نوراً تكاد له القلوب تنور
فليثل قرطبة يقل بكاء من
توربوا وتغربوا وتمصروا
دار - أقال الله عثرة أهلها -
في كل ناحية فريق منهم
متفطر لفراقها متحير
عنديها والشل فيها جامع
من أهلها والعيش فيها أخضر
ورباح زهرتها تلوح عليهم
بروائح يفتتر منها العنبر
والدار قد ضرب الكمال رواقه
فيها وباع التقص فيها يقصر
والقوم قد أمنوا تغير حسنها
فتعموا بحماها وتأزروا
يا طيبهم بقصورها وخدورها
وبدورها بقصورها تتخذوا
والقصر قصر بني أمية وأير
من كل أمر والحلقة أوفر
والزاهريّة بالمراكب تزهرو
والعابريّة بالكواكب تعمرو
والجامع الأعلى يغص بكل من
يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
ومسالك الأسواق تشهد أنها
لا يستقل يسالكها المسخر
يا جنة عصفت بها وبأهلها
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من المات وحق لي
إذ لم نزل بك في حياتك نفخر
كانت عراصك للميمم مكة
ياوي إليها الخائفون فينصروا
يا منزلاً تولت به وبأهلها
طير النوى فتغيروا وتنكروا

حَدَّ الْفَرَاتُ سَحَابَتِكَ وَدِجْلُهُ وَالنَّيْلُ جَادَ بِهَا وَجَادَ الْكَوْثَرُ
وَسَقَيْتَ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ غَمَامَةً نَحْيَا بِهَا مِنْكَ الرِّيَاضُ وَتَزْهَرُ
نَسْفِي عَنِ دَارِ عَهْدَتِ رَبُّوعَهَا وَظَبَاوُهَا بِفَنَائِهَا تَنْبَخْتُ
أَيُّمَ كَانَتْ عَيْنُ كُلِّ كِرَامَةٍ مِنْ كُلِّ نَحِيَةٍ إِلَيْهَا تَنْظُرُ
أَيُّمَ كَانَ الْأَمْرُ فِيهِ وَاحِدًا لِأَمِيرِهَا وَأَمِيرٍ مَنْ يَتَأَمَّرُ
أَيَّامَ كَانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلَامَةٍ تَسْمُو إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ وَتَبْدُرُ
حَزْنِي عَلَى سَرَواتِهَا وَرَوَاتِهَا وَثِقَاتِهَا وَحُمَاتِهَا يَتَكَرَّرُ
نَفْسِي عَلَى آلَائِهَا وَصَفَائِهَا وَبَهَائِهَا وَسَنَائِهَا تَتَحَسَّرُ
كَبْدِي عَلَى عِلْمَائِهَا حُلُمَائِهَا أَذْبَائِهَا طُرْفَائِهَا تَتَفَطَّرُ

قال : وممن رثي قرطبة أيضاً ، من وجوه أهلها وأرباب النعم
المؤثثة بها ، وأكثر التفجع على دياره منها ، لما استولى الخراب عليها
عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد
ابن حزم ، ابن وزير آل عابر الأكبر . فلإني وجدت بخطه في خبر
ذكره قال :

وقفت على أطلال منازلنا ، بمحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ،
ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة . فرأيتها قد حكت
رُسومها ، وطست أعلامها ، وخفيت معاهدُها ، وغيّرَها البلى ؛ فصارت
صحاري مُجْدِبَةٌ بعد العِمران ، وفَيَافِي مُوحِشَةٌ بعد الأُنس ، وآكاماً
مُشَوَّهَةٌ بعد الحُسْن ، وخرائب مُفْزَعَةٌ بعد الأمن ، ومآوي للذباب ،
وملاعب للجان ، ومعاني للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخابي
للصوص ، بعد طول غُثَيَانِهَا بِرِجَالِ كَالسِيفِ ، وفُرُسانِ كَاللِّبْثِ ،

١ راجع « طوق الحمامة » لابن حزم (ص ٨٨ من طبعة ليون) ، ومقالتنا في مجلة
« الأندلس » (١٩٥٠ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣) .

تَقِيضُ لَدَيْهِ النِّعَمُ الْفَاشِيَّةُ ، وَتَغْصُرُ مِنْهُمْ بِكَثْرَةِ الْقَطِيبِ الْحَاشِيَّةُ ،
وَتُكْتَسُ فِي مَقْصِيرِهِمْ ظِلَاءُ الْأُنْسِ الْفَاتِنَةِ تَحْتَ زِبْرِجٍ مِنْ غَضَارَةِ الدُّنْيِ
تُذَكِّرُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ ؛ حَالَ الدَّهْرِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ طَوْلِ النُّزْرِ ؛ فَبَدَأَ
شَمْلَهُمْ حَتَّى سَادُوا فِي الْبِلَادِ أَبَادِي سَبَا ، تَنْطِقُ عَنْهُمْ الْمَوْعِظَةُ . فَكَأَنَّ
تِلْكَ الْمُحَارِيبَ الْمُنْمِقَةَ ، وَالْمَقَاصِيرَ الْمُرْشَقَّةَ ، الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الدِّيرِ
كَبْرُوقَ السَّمَاءِ إِشْرَاقًا وَبَهْجَةً ، يَقْبِدُ حُسْنُهَا الْأَبْصَارُ ، وَيَجْلِي مَنَظَرُهَا
الْهُمُومُ ، كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ، وَلَا حَلَّتْهَا سَادَةُ الْأُنْسِ : قَدْ عَثَ بِهَا
الْخَرَابُ ، وَعَمَّهَا الْهَدْمُ ؛ فَأَصْبَحَتْ أَوْحَشَ مِنْ أَفْوَاهِ السَّبَاعِ فَاعِرَةٍ ،
تَوَدُّ بِنَاءَ الدُّنْيِ ، وَتُرِيكَ عَوَاقِبَ أَهْلِهَا ، وَتُخْبِرُكَ عَمَّا يَصِيرُ إِلَيْهِ
كُلُّ مَا قَدْ بَقِيَ مَائِلًا فِيهَا ، وَتُزْهَدُكَ فِيهَا . وَكَرَّرْتَ النَّظَرَ ، وَرَدَّدْتَ
الْبَصَرَ ، وَكُدْتُ أَسْطَارَ حُزْنًا عَلَيْهَا ، وَتَذَكَّرْتُ أَيَّامَ نَشَأْتِي فِيهَا ،
وَصَبَابَةَ لِدَائِي بِهَا ؛ مَعَ كَوَاعِبِ غَيْدٍ ، إِلَى مِثْلِهِنَّ يَصْبُو الْحَلِيمُ !
وَمِثْلَتْ لِنَفْسِي انْطِوَاءَهُنَّ بِالْفَنَاءِ ، وَكَوْنُهُنَّ تَحْتَ الثَّرَى إِنْ تَرَ تَقَطَّعَ
جَمْعُنَا بِالتَّفَرُّقِ وَالْجَلَاءِ فِي الْآفَاقِ النَّائِيَةِ ، وَالتَّوَاحِيِ الْبَعِيدَةِ ؛ وَصَدَّقْتُ
نَفْسِي عَنْ فَنَاءِ تِلْكَ الْقَصَبَةِ ، وَانْصَدَاعِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ بَعْدَ مَا عَهْدْتُهُ مِنْ
حُسْنِهَا وَنَضَارَتِهَا وَزِبْرِجِهَا وَغَضَارَتِهَا ، وَتَضَوُّتُهُ بِفِرَاقِهَا مِنَ الْحَالِ الْحَسَنَةِ ،
وَالْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ ، الَّتِي رَفَلْتُ فِي حُلِيِّهَا نَاشِئًا فِيهَا ، وَأَرَعَيْتُ سَمْعِي
صَوْتَ اللَّصْدَى ، وَالْبُومِ زَاقِيًا بِهَا ، بَعْدَ حَرَكَاتِ تِلْكَ الْجُمَاعَةِ الْمُنْصَدَعَةِ
بِعِرْصَاتِهَا ، الَّتِي كَانَ لَيْلُهَا تَبْعًا لِنَهَارِهَا ، فِي انْتِشَارِهَا بِسُكَّانِهَا ، وَالتَّقَاةِ
عُمَّارِهَا ؛ فَعَادَ نَهَارُهَا تَبْعًا لِلَّيْلِ فِي الْهَدْوِ وَالِاسْتِيحَاشِ ، وَالْخُفُوتِ
وَالْإِخْفَاشِ . فَأَبْكِي ذَلِكَ عَيْنِي عَلَى جُمُودِهَا ، وَقَرَعَ كَبْدِي عَلَى صِلَابَتِهَا ؛
وَهَاجَ بِلَابِي عَلَى تَكَثُّرِهَا ، وَحَرَّكْتُ الْقَوْلَ عَلَى نُبُوِّ طَبْعِي ؛ فَقُلْتُ :

[الطويل]

سلامٌ على دارِ رَحَلَتْنَا وَغُودِرَتِ خَلَاءِ مِنَ الْأَهْلِينَ مَوْحِشَةً قَفَرًا

دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

وكنيته : أبو أيوب ؛ ولقبه المهدي ، وكان عبد الملك بن المنصور قد وتر محمداً هذا بقتل أبيه هشام بن عبد الجبار لانتقامه بالتدبير على دولته ؛ فكان يطلب له العوائل . فلما توفي المظفر ، وكان من قدر الله أن اتهمت أمه الذلفاء ، حظية المنصور ، بالتدبير عليها وقتله باسم أخاه عبد الرحمن المتأثر بعده ؛ فداخلت المروانيين في الوثوب عليه بوساطة بشر الصقلي من الفتيان العامرية المنحرفين عن مولاه عبد الرحمن ؛ فأرشدوه المروانيون إلى فاتك من فتاك بينهم في ذلك الوقت ، جرار جصور ، ثائر ، مخاطر ، خليع ، مُداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أيّ وادٍ يهلك ، وهو المهدي هذا . ففتح معه باب التدبير ، ووعده عن الذلفاء الإغاة بالمال . واستظهر بسائر ولد الناصر وفتيان المروانية ، وقد شملتهم كيمة بعض العامرية ؛ فباعوا محمداً سراً ، واستألو له خلقاً كثيراً ، يلقونه بأطراف قرطبة وسفح جبلها ، على حال اكتنام وخفية . وخفي عن شيعه السلطان أكثر ذلك . فلما ذهب عبد الرحمن لوجهته من الغزو ، وأبعد عن الحضرة ، تمكن محمد بن عبد الجبار من وثوبه ؛ فأقدم على باب السلطان في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، واهتبل الفرقة لاستعمال صاحب كرسي المدينة القاعدي به يومئذ أكثر حركته في احتفار كرومه أمناً وطمانينة واعتزازاً بالأيام . وقد كان ابن عبد الجبار بث رجاله بتلك النواحي ، وانتبه هو في عدوة الظهر وبالة القصر يرتقب الميقات ، إلى أن تألف إليه من أصحابه اثنا عشر

تراها كان لم تنن بالأمس بلقماً
فيا دار لم يفكر منّا اختيارنا
ولكن أقداراً من الله أنفذت
ويا خير دار قد تركت حميدة
ويا مجتلى تلك البساتين حقمها
ويا دهر بلع ساكنيها تحييتي
فصبراً لسطور الدهر فيهم وحكميه
لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى
وأبنتها الدار الحبيبة لا يوم
كانك لم يسكنك غيد أوانس
تفانوا وبادوا واسترّت نواهم
سنصبر بعد اليسر للعسر طاعة
وإني ولو عادت وعدنا لعهدنا
ويا دهرنا فيها متى أنت عائد
فيا رب يوم في ذراها وليله
فوا جسني المضى وواقلني المعرى
ويا هم ما أعدى ويا شجوى ما أبرا
ويا دهر لا تبعد ويا عهد لا تحل
سأدب ذاك العهد ما قامت الحضرا

فى ، فبه طرسوس المجوسى ، وهو أشبههم القوم ، عامدين على الكرور
 فى الباب وظهر الأمر ؛ فانكفى ، فى ذلك ، وقد بث العصابة أمامه ؛
 فتكثفوا الباب كأنهم نظارة ، إلى أن طلع عليهم ابن عبد الجبار . فشر
 سيفه ، وهجم للحج على صاحب المدينة ، واقتحم عليه مجلسه . فجيء به إلى
 محمد بن هشام محتبلاً لقرط جزعه ؛ فأمر بضرب عنقه بين يديه ، ورقتع
 رأسه على قدرة . وحين أبصرت العمّة رأس المذكور ، تداعت إلى ابن عبد
 الجبار كالسيول من السفلة والغوغاء ؛ فقويت بهم نفسه ، وجعل يحركهم
 على العامرية ، ويخاطبهم بوجه قيامه واحتسابه . وبأذر بكسر سجن
 العامرية ، وفيه اللصوص والذئعار وأرباب الجرائم . ونلاحق به بنو عمّه
 المروانيون ، يستدعون الناس .

وأغلق هشام المؤيد باب القصر ، وارتقى إلى السطح ، وأشرف على
 العامة بين مصحفين ، يحملهما خادمان ؛ وأشار إلى من تحته من العامة ،
 يسكتهم بيده ؛ فصاحوا به : « لا حاجة لنا بك ! وهذا أولى بالملك ! »
 فولّى عنهم منصرفاً إلى قصره . وأمر الخدم بالكف عن دفاعهم حتى يقضي
 الله قضاءه ، ودخل محرابه ؛ فلم يتحول عنه إلى أن تمّ أمر الله عليه . وأمر
 محمد بن نقب القصر والدقّ لأبوابه ؛ فشرع فى ذلك ، وجلبت السلايل .
 وخاف هشام على نفسه وأهله لما رأى عجز من الزاهرة عن نصره ،
 وتمازى الناس عليه ؛ فأرسل إلى ابن عبد الجبار ؛ وجرت بينه وبين هشام
 محاورّة فى عشيّ هذا اليوم . وقصدت الزاهرة أمم من أخلاط الناس ؛
 فمانعهم أهلها ليلتهم ؛ ثمّ خذلهم الله بعدّها . وأزّل ابن عبد الجبار
 الناس من سقف القصر ، وذادهم عن أنقابه ، وأجلس بكرمي الشرطة محمد
 ابن المغيرة ابن عمّه ، ونصب عبد الجبار ابن عمّه الآخر مكان الحاجب ،
 واستدنى سليمان بن هشام منهم ؛ فسمّاه ولي العهد ، وبعث ليلتذ إلى هشام
 مغلوبه مبكّثاً له على حبّه إلى آل عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ؛

فاعتذر بالعجز عن الإراحة منهم ، وبأذر . إلى ما سئل منه من الخلع .
 فسّر ابن عبد الجبار بذلك ، وبأذر بالإرسال عن الناس ليلته ، لم يطبق
 جفناً . فسارع المشيخة وأهل البيت من قرّيش والأعمام والوزراء
 وطبقت الخدام والقضاة والفقهاء والعدول ؛ وقد بأذر إليه هشام يخلع
 فخيرة ، غير بها للوقت من أحواله . ودخل عليه الأشهاد ؛ فصحت الخلافة
 لمحمد بن عبد الجبار فى صبح تلك الليلة . وتلقب بالمهدي ، لقب لم ينسأه
 مرواني قبيلة .

وكان المهدي جسوراً ، مضطرب الرأي ؛ ويقال إن عدّة من تبعه من
 سفلة قرطبة ، فأثبتت أسماءهم فى العطاء ، خمسون ألفاً . وانتهب الزاهرة ؛
 فتسّمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من ما من مخزون وآلة ومتاع
 وعدد سلطانية ، وفرش ، وآنية ، حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة والحشب
 الضخمة ؛ وتوصل منها القائم زعموا - بعد ذلك خمسة آلاف وخمسة
 ألف دينار دراهم ، ومن الذهب لألف ألف وخمسة ألف دينار .
 واستخرج من بعض الدفائن ما تسي ألف لم يغن عنه شيئاً مع الاضطراب
 والفينة . وأطلق من حرم آل عامر الحرائر ، واصطفيت الأماء . ولما
 فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدمها ، وحط أسوارها ، وقلع
 أبوابها ، وتشعث قصورها ، وطمس آثارها ، وتعجيل ذلك ، توقّعاً
 لتدارك عبد الرحمن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره . وسوخ
 الناس إنقاضها ؛ فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا يبلغه الدهور
 المتعاقبة ؛ فأصبحت بلفعاً كأن لم تكن بالأمس .

وذكروا أن المنصور بن أبي عامر بانيتها كان يرى فى منامه كأن الله
 اطّاع عليها وتجلي لها ؛ فسأل عن ذلك ابن الهمداني ؛ فأخبره بخرابها ،
 وتلا قوله تعالى : « فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاً » . فكان

المنصور متى تذكر هذه الرؤيا تنغص عبثه . وكان ما تقدم به التعريف من اغترار عبد الرحمن بن المنصور ، وإقدامه بالجيش على قرطبة ، وفرار الناس عنه إلى ابن عبد الجبار وقتله .

وسر أهل قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً ، وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرحبات والأرباض ، غافلين عما خبا القدر لهم في ذلك من المكروه الذي أباده خضراؤهم ، وفرق جموعهم ، وأجاع بطونهم ، وسلب أموالهم ، وهدم دورهم ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ، سئة الله في الرعايا إذا بطرت ، وملئت العافية ، ودانت بحب الإدالة والقلق بالملوك والشرة إلى الثورات .

والتف الجيش الغازي مع عبد الرحمن بن أبي عامر على صاحب الأمر ، ودانوا بطاعته ؛ فكان من أسباب إداره قعود من وكل بأبوابه من السفلة ومحدثي الاستعمال والاستخدام من أراذل العامة المتجندة بكل من يجيب بره وتسويده من وجوه الناس وأعلام الجيلة وشيوخ البرابرة ؛ فكانوا يطالبونهم بإلقاء السلاح ، ويبادرونهم بالنجدة ويسمعونهم الحنى ، من غير تمييز بين أعلاهم وأدناهم ، حتى انبعثوا منهم حقداء ، وأثاروا على إسلام ابن أبي عامر ندامة . وهاجت طائفة ؛ فتعدت على دور البرابرة بالرصافة ؛ فنهبتا ؛ ففسدت طاعته ، وانخرقت النفوس عنه .

فلما استوسق له الأمر ، وكتب إليه واضح العامري صاحب طليطلة بالطاعة ، وتم مراده من انتظام الملك ، أخرج المؤيد هشاماً من قصره ، وأسكنه ببعض دور الملك ، وأحضر للناس رجلاً ميثاً شبيهاً به ، قيل إنه كان يهودياً أو نصرانياً ؛ فعايته الوزراء ، وشهدوا بأنه هشام المؤيد من غير شك فيه . وقام بحق مواراته يوم الإثنين ثلاث بقين من شعبان هذه السنة ، ثم أسقط سبعة آلاف ممن كان قد استلحقه من جنوده ، فاستهدف لانحرافهم وعداوتهم ، وأعلن ببعض البرابرة

وتنقضهم ، جهلاً بحلهم من البأس والعصية ؛ فتألفت من هذه الأصناف جملة على هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، ونعصبت العامة للمهدي . وأجلت الحال عن القبض على هشام بن سليمان ، والإتيان به إلى ابن عبد الجبار ، وتفرق من كان قد التف به من البرابر المستوحشين من ابن عبد الجبار لكونهم صنائع ابن أبي عامر ، وغيرهم من البكتيين والصنائع والفتيان . فقتل هشام بن سليمان صبراً بين يديه ، وانتشيت دورته ودوره من تلبس به من البرابر وغيرهم . وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط خارج قرطبة عشية يوم الجمعة ، بعد محاورة بينهم وبين العامة ؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر . ورأسهم محمد بن عبد الجبار ؛ فلم يلتفتوا إليه .

وكان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله قد فر من قرطبة طالباً النجاة بنفسه لما قتل من قتل من بني أمية ؛ فصار من جملتهم . ولما سألوه عن نفسه فصدقهم عن أمره ، قدّموه ، وعقدوا له الحلافة ، وتسمى المستعين بالله ؛ وذلك في عقب سؤال من سنة ٣٩٩ المذكورة ، ونهضوا به إلى سنانجه بن غرسية بن قرذليث ، وعاهدوه على أن يعين سليمان بن الحكم على دخول قرطبة ؛ فتحرك معهم في عسكر عظيم من النصارى ، واحتل قرطبة . وبرز إليهم المهدي فيمن معه ؛ فهزمهم سليمان ، وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أربيد من ثلاثين ألفاً . وكانت أول ثارات المشركين على المؤمنين .

ولما عظم الأمر على ابن عبد الجبار ، ورأى انحراف الناس عنه ، بدا له في أمر هشام المؤيد بالله المخلوع ، وظن أن الناس يتعصبون له إذا رأوه ؛ فأخرجه للناس ، ورجا أن يستمسك الحال به ؛ فلم يجده ذلك ، وقد تمكن الداء ، وأعزل المشتكى ؛ وعجز ابن عبد الجبار ، ورأى براز هشام للناس لم تغر ؛ فدبر الحيلة ، وأذن لسليمان ومن معه من البرابر ، وسلم في

انقصر سليمان ؛ فوجه إليه والدته الحكمة ليصبط أمره بخلاف ما يتم خروج ابن عبد الجبار عنه بأهله ، ويدخله ضحوة اليوم ؛ ففرّ ابن عبد الجبار من ليلته ، واختفى في المدينة أياماً ؛ ثم خرج مُتَكَتِّراً إلى طليطلة في خبر غريب ، ينقص حديث اختفائه وحيلته وما جرى عليه من الخطوب . فكان اتصاله بطليطلة وانحياسه إلى واضح الحكيم ؛ في أول جمادى الأولى من سنة ٤٠٠ . وقبيله أهل طليطلة أحسن قبول ؛ وكان من أمره ما يُذكر .

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله

والحديث قد تقدم بقيام البربر بدعوتيه ، ونزوله بظاهر قرطبة من بعد هزيمة ابن عبد الجبار ، ثم الخلاعه لهم عن الأمر ، واختفائه في المدينة ، ونزول سليمان قصر قرطبة مرتته الأولى في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٤٠٠ ، ثاني يوم من فرار المهدي وطليبه ، فأغياه . واستقر سليمان بقر المُنك ، وخاطب البلاد ، وقدم العمال . ولحين لحاق ابن عبد الجبار إلى طليطلة مستظهِراً بواضح ، بادر ، فأحكم له أيضاً العَقْد مع الفِرَنْج ، على أن يخرج لهم عن مدينة سالم ؛ فقبضوها ، إلى ما التزم لهم عن نفسه من مالٍ ونفقة . ونحرك الجميع إلى قرطبة . وبلغ ذلك سليمان ؛ فاستنفر الناس ، وخرج إلى لقاءهم لأربع عشرة خلت من شوال هذه السنة . ولما أحكمت البرابر التعبئة للحرب ، جعلوا سليمان في أحياتهم ، ومعه خيل من المغاربة ، وقالوا له : « لا تبرح من مكانك ، ولو وطأتك الخيل ! » فلما دفعت الفِرَنْج ، وخرقت صفوف البربر ، لم يدرك أن البربر أفرجت لها ، إذ لا يقوم لصدتها شيء ، ولأنها تلتفت عليها بعد ؛ فلم يشك أن

البربر قد اصطلموا . فانهمز فيمن كان معه على ذلك ؛ فقتلت يومئذ البربر أرمق ملك الروم ومئين من كبار قومه . وقتل من البربر نحو من ثلاثمائة من رجالهم ، إذ لم يقتل لهم يومئذ فارس . وانجازوا إلى الزهراء ؛ فرفعوا أولادهم ، وفرّوا على وجوههم . ومضى سليمان فاراً إلى ساطبة . وخرج أهل قرطبة ؛ فانتهبوا أثاث البربر ، وقتلوا من وجدوا . وأتى محمد بن عبد الجبار وواضح الفتى قرطبة ؛ فدخلوها .

أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية

قال : ولما عاد ابن عبد الجبار إلى قرطبة ، جدّد البيعة لنفسه ؛ فكان أول من بايعه هشام المؤيد . وطلب الناس باليفرضونه لمن معه من النصارى ؛ وكانوا في تسعة آلاف . ثم أقسم بالأيمان المغلظة أن لا يستقر ولا يحل شعار الحرب حتى يفرغ من أمر البربر ؛ وقد كانوا ساروا بعيالهم وأولادهم ، يحملونهم على مروج دوابهم وغير ذلك ، إلى جهة البحر الزقزقي تجاه بلادهم الغربية ، ونزلوا بوادي يارو من أحواز مربة . ونحرك إليهم بكل من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة وبواديها ، حتى نزلوا على البربر يوم الخميس لست خلون من ذي قعدة سنة ٤٠٠ ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً . وغش ابن عبد الجبار فرسان الثغر ، وبكوا من البربر قتال المستميت الذي لا يطعم في الحياة . ومن قاتل كذلك ، فقد كتب الله له الصائلة . فانهمز واضح وابن عبد الجبار والفِرَنْج أعظم هزيمة عن عد قليل ذليل إلا أنه أثبت رجله في مستنقع الموت ، ولم يعول على الحياة . فقتل من الفِرَنْج يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف ؛ وغرق منهم بوادي السقائين ، وهو وادي يارو خلق كثير . واحتوى البرابر على ما في عسكرهم وعسكر واضح وابن عبد الجبار من مضايرب ومال وسلاح ودواب . ووصل المهزومون إلى قرطبة ثاني يوم الواقعة . ورجب ابن عبد

الجبار وواضح من النصارى في الرجوع معها إلى البربر ؛ فأبوا منه ذلك ، ورحلوا إلى بلادهم مقلولين . وشرع ابن عبد الجبار في الحركة والرجوع ، وطلب أهل المدينة بالمال تجلداً وعزيمة كاذبة . ولم يكن إلا أن رحل عن الحضرة ، ثم غلب رأي الانحجار والاحتجار ، وأمر باحتفار الحندق .

ونكالتبت البربر ، وظهرت خيلهم مغيرة على الأطراف ، وملكوا جبل ببشتر قاعدة خلاف ابن حَقْصُون في القدير . وأجحف ابن عبد الجبار بالناس ؛ فنفروا عنه ، ونشأوا به ؛ وبدأ لهم سوء ما ذخّر لهم القدر من أيامه ، وأحسوا بعقاب الله إليهم في بطر العافية المقتونة بدول العامرية التي ملكوها وسَمُوا نعيمها ، وضجوا من مواصلة جهادها في سوء الجوار وكفران الحق . ولهذا العهد أتت النفقات على أسباب السلطان ، وذهب عتاده وزينه ، وأصبح حقيراً فقيراً ، واستأسل العدو ، واستقال سليمان بن الحكم أمير البرابرة العشرة . واقتضى نظراً واضحاً ومن معه قتل ابن عبد الجبار ، وإعادة هشام المؤيد المستبق لهذا العهد ، المبلى بهذه المحن ، إلى محبته . وكان المهدي قد استعجب واضحاً ؛ فدخل عليه يوم الأحد الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ ، وقبضوا عليه ، وأخرج هشام المؤيد ؛ فأجلس ابن عبد الجبار بين يديه ؛ فعاتبه طويلاً لما جرى عليه في نفسه وجرمه ؛ ثم أخرج من بين يديه ؛ فقتل ومثّل به . واختفى ولده ويئ عهده إلى أن لحق بضبطلة .

أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

الناصر لدين الله في المرة الثانية

ولما قتل المهدي ابن عبد الجبار ، جلس هشام للناس ، وتقديم لحجابه وإيضاح ، وجدّد له البيعة ، وبعث برأس المهدي إلى سليمان أمير البرابرة وإلى

من معه ، ودعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، والاستقالة من الفتن ؛ فلم يقبلوا ذلك ، واعتبطوا بأميرهم . وفي أخريات ربيع الأول من هذه السنة ، نزلوا قرطبة ، ودخلوا مدينة الزهراء . وانضم الخلق من الأحواز إلى المدينة ، وانتشرت الغارات ، وعظم العياث فيما اتصل بالبلد . وانتشر البرابر على كور الأندلس مالفّة ، وإليبيّة ، وما اتصل بأحواز قرطبة ، يحرّبون الديار ، وينسفون النعام ، ويسبون الحرّيم ، ويصادرون بالغداء من يتهم باليسار من الرعيّة ؛ وطلبوا الناس بالأموال ، وقطعوا الميرة عن قرطبة ، فاشتدّ الغلاء ، وعظم البلاء ؛ واضطرّ هشام وواضح إلى خطة الحسف من استصراخ النصارى والاستغاثة بملكهم على شرط تمكثه من البلاد . ووصلت رسله إلى قرطبة ؛ فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن ، ثم فتح الملوك المجاهدون من بني أمية وكافل أمرهم المنصور وولده . وحضر لذلك الفقهاء والقضاة والمفتون ؛ وانصرف الجميع مستبشرين بنصر العدو إليهم خذلاناً وعباية ولجاجاً في الغي وثقة من الله لبطر العافية . وارتكب العوام والرعايا بين المناصرة للبربر والمجانبة الطبيعية ، وعدم الإغماض في استصلاحهم ، مرتكباً من الجاج والتصامم مكّن خزّي الله من وجوههم ، وتلّ ربق القهر في رقابهم ؛ فلقد كانت من واضح وهشام في بعض الأحيان مروضة في السلم والصّلاح ، وصلّ للكلام فيها من قبل القوم رجل خير يعرف بابن بكر ، وقّع الناس عليه ، فقتلوه ومثّلوا به ، وقد عجز صاحب الأمر عن نصره .

ونجّرد الناس لقتال البرابر ، وكلّفوا المال للجيش ، حتى تليفت أموالهم . وكان مما أُلزم رسم الجيش خمسمائة فرس ؛ واضطرّ السلطان إلى المال ؛ فأخرج ما في قصره من حلى ثمينة وذخيرة وآنية فضّة وذهب ونوب ومتاع ، حتى الكتب والخزّن والمواعين والفرون ، وحتى الأدوية الطبيّة والعقاقير المجلوبة . ذكر أرباب التاريخ من ذلك أموراً تجدد الفجعة

ونبتت الحسرة ، لم يُغن ذلك من شيء لعبات الأيدي فيه ، وامتنياز أيدي
العوام به ، وشتره أهل الجاه والتسكن إليه . وجمع السلطان الناس إلى
القصر ، وشكا إليهم القل والحاجة ؛ فأظهروا العجز ، وقالوا : « لم يبق
فينا مَطْمَعٌ ولا عِلالة ! فأخرج بنا إلى العدو ! فإننا لا نقيم على هذه
الخلة ، والموت خيرٌ منها ! » وتخيّر وأصبح وارتبك عليه أمره ؛ فعزم
على الفرار إلى الشجر ؛ وفطن له الجنود ، وضعف في أعينهم ؛ فاجترأوا
عليه ، واجتمعوا على ابن وداعة من وجوه قوادِ العسكر ، وزحفوا إليه ؛
فعاتبوه بما أثلفت من الأموال ، وما عزم عليه من خراب الدولة ؛ ثم
سلّوا السيوف ، فقتلوه ، واحتزّوا رأسه ، وطافوا به البلد ، وألقوا جثته
بالموضع الذي طرّح فيه جثة ابن عبد الجبار ؛ ونهبت دُورهُ وخزائنه ،
وألفت أمواله مُبَسَّرةً وراحاله مشدودة . وتجلّد هشامٌ بعده ، وأظهر
الاستغناء عن الوزير ، وتجرّد لمباشرة الأمر بنفسه .

وكتب سليمان بن الحكم إلى أهل قرطبة يحذّروهم الفتنة ؛ فلبثوا . وبلغت
الغاية ، وانتهى الأمر . وطال على الناس لزوم المحاريس والمراصيد والبيات ؛
فلبثوا وعجزوا . وبان للعدو فشلهم وإخلاقهم إلى الأرض ؛ فاشتد فيهم
طبعه ، وهم على خلسة إضعاف الحاصر . وتوالت عليهم الهزائم ،
وأكلتهم السلاح ، وأضرعتهم الحاجة . واقتحم البرابرة أدباص قرطبة
عنوة . فكان الأمر في هول يومها مجلّ عن الوصف ، ويشدّ عن العبارة ،
من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب ؛ ولجأ من تأخّر أجله إلى
المدينة . وخرج القاضي ابن ذكوان ، وكان له نَوسَلٌ إلى أميرهم سليمان
ابن الحكم ، وقَدَمَ في الصاغية إليه ، ورأي سديد في مُصالحه قَومهُ ؛
فعدّوا للناس أماناً تحت صغارٍ وذِلّةٍ ودَنيّةٍ وخَفِيّةٍ . ودخل سليمان
القصر بقرطبة بعد .

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان

ابن الناصر لدين الله عبد الرحمن في المرة الثانية

دخل سليمان القصر بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة
٤٠٣ ؛ وأحضر هشاماً ؛ فوبّخه ، وقال : « كنت تبرأت لي من الخلافة
وأعطيت صفقة يمينك ! فنقضت عهدك ! » فاعتذر إليه بأنّه مغلوبٌ على
أمره . ثم تبرأ له عن الأمر جملة . وانتقل سليمان إلى سكّنى الزهراء ،
ورتب الأمر ، وكتب بالتسكين إلى الجهات ، وأخرج الولاة ، وقسم بعض
كُور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية ؛ وكانوا ستّة : فأعطى صنهاجة
منهم بني زيري بن مناد النيرة ؛ وأعطى مغراوة جونيّ البلاد ؛ ومُنذر
ابن يحيى سرقسطة ؛ وبني يوزال وبني يفرّج جيان وذواتها ؛ والمغاربة
وبني دمر وأزداجة شدونة ومورور . وولّى عليّ بن حمّود على سبّنة ،
والقاسم بن حمّود على مدينة طنجة وأصيلا الحضر . ولما استقرّ الأمر
لسليمان ، كان رؤساء البربر غالبين على أمره ؛ فحذر لذلك العامرية ، وفرّوا
إلى بلاد شمرق الأندلس ؛ فتأثّلوا بها الملك ، حسباً يأتي بحول الله .

وفي هذا العهد ، لأوّل عودة سليمان بن الحكم ، هلك هشام - رحمه
الله - ؛ وكان الفتيان والعامريون والبقايا الشاميون ، لما يسوا من
حسن العقبى ، وأيقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة ، قصدوا الليلة
الاثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة إلى باب السدّة ، وقد تاهّبوا للفرار ،
وجهدوا في الدخول إلى هشام ؛ فلم يمكنهم من ذلك . فجعلوا يرأسلونه
ويعرضون عليه الدخول إلى مدينة الزهراء ، كما يجتمع الجند إليه بها ؛
فأبى وقال : « المدينة من قرطبة ! ومن فاتهُ رأسُ الأمر فلا يأخذ
بذنبه ! وقد علم الله أني ما أحببت الدخول في شيء مما أَدْخَلْتُمُونِي

فيه ؛ فقد نفذ قضاؤه بكرهه ، وهو حسي ! » قالوا : « فاركب معنا الليلة في خف من رجلك وصفوة من أهلك ، نخزجك في جمعنا ، ونقطع من الليل ؛ فنلحقك بقلعة شاطية بحل عصمة . فلا يبعد أن يلحق بك الناس ، وينحل أمر عدوك بسرعة ! » فقال : « وهذا أسد ! أعود إلى مثل حال سليمان ، والقح الفتنه ، والعرج الأثمة ! هذا ما لا يكون أبداً ! » فلما يسوا منه ، مالوا إلى الصلح من غدي ، وطمعوا في الحياة ، واستجابوا لخلع هشام ؛ ومكثوا من ناصيته . فحمل إلى سليمان ، وعاتبه ؛ ثم صرفه ، وقد رقى له مع محمد بن سليمان ولده ، ووصاه بالجميل في أمره ؛ فأقام معه أياماً ، لا يخفى مكانه ؛ ثم غيب شخصه ؛ فكان آخر العهد به .

وشاع يومئذ أن محمداً أعجل عليه دون إذن والده سليمان ؛ فاغتاله خنقاً منفرداً بذلك ، مع بطانته ابن حدير وغيره ، خمس خلون من ذي القعدة سنة ٤٠٣ . فكانت مدته في هذه الكرّة سنتين وأربعة أشهر ، أنست ما قبلها من آمار الشر وأزمان الفتنة . وكانت سنه يوم الخلع الثاني ثمان وأربعين سنة وأربعة أشهر . ولم يخلف عقباً من ذكر ولا أنثى . واقتدر قاتلوه على ما لا شيء فوقه من كتم أمره ، وأساعوا أنه فر لوجهه مأذوناً له ؛ فتعيش زماناً سقاً بالمريّة .

وكان من غرائب الدهر ، ولعمري إن الدهر لغرائب كلّه ، أن ضم ابن عباد بإشبيلية شيخاً مأبوناً من عرض الرعاع ، أضبطه ، وحجبه ، وزعم أنه هشام المؤيد ، استقرّ عنده وقام بدعوته ، وندب الناس إليه ، ووقف عليه معاينو هشام أيام حياته ؛ فشهدوا بوجوده جثاً لديه فخطب له بأكثر بلاد الأندلس قرطبة وإشبيلية وغيرها زماناً ؛ وتوصل بذلك إلى كثير من تدييره حتى توطد له الأمر بإشبيلية ، واستحكم بناؤه ، وأورثه بنه بعده .

ولما تنفس مخرج العامريين الموالى والصنائع الهاشيتين ، وعادوا على سليمان بالحقود البربرية ، صرف بعضهم إلى علي بن حمود أمير سبته من الحسنيين عهداً منسوباً إلى هشام المؤيد ، وبخطه زعوا ، يعهد فيه بالأمر بعده إلى علي بن حمود وتوليته الطلب ؛ وسهلوا عليه سبل طلب الخلافة . فأظهر به الخلاف على سليمان بن الحكم ؛ وكان أملاك لنفسه ؛ ثم تحرك بعد أن انتف عليه بشر كثير ، وبعد أن خاطب أخاه القاسم بقرطبة ؛ فلحق ببلاده الخضراء . فكان استبداد علي بن حمود بسبته سنة ٤٠٤ . وقتل قاضيها محمد بن عيسى ، والفقير ابن يربوع عميدها ، لانتهاهما بميل إلى سليمان ؛ وقد بعث عيوناً تتطلع له على أحوال سبته .

وفي السنة المذكورة ، جاز علي بن حمود من سبته إلى مالقة ، بعد أن بعث منها إلى حبوس الصنهاجي وإلى خيران العامري ؛ فأشارا عليه بقصد مالقة وقتله . وخرج سليمان المستعين بالله من قرطبة إليه ؛ فالتقى في شهر محرم من سنة ٤٠٧ . فكانت على سليمان الهزيمة . وقبض على سليمان وأخيه وأبيه الحكم ؛ فقتلهم بيده ، وقال بلسانه الزناني : « لا يقتل الزنطان إلا الزنطان ! » وقيل إن علي بن حمود قال للشيخ الحكم : « يا شيخ ! هكذا قتلتم هشاماً ! » فقال : « لا والله ! ما قتلناه ، ولا هو إلا حي يوزق ! » فعند ذلك عجل علي بقتله . وكان هذا الشيخ الحكم بن سليمان فاضلاً ، لم يتلبس من أمر ابنه بكبير شيء . وجعلت رؤوس ثلاثهم في طست ، وأخرجت من المحلة إلى القصر ، ينادى عليها : « هذا جزاء من قتل هشاماً ! »

وانقضى أمر سليمان على هذه السبيل . وكان أديباً شاعراً مدركاً متأنياً ، إلا أنه خرج الأمر في تلفيق الأمور عن يده . وشعره متداول مشهور . وهو أحد من شرف الشعر باسمه ، ونصرف على حكمه .

ومن المشهور له ، قَوْلُهُ 'بُعْدِضُ' الرَّسِيدِ هَارُونَ فِي قَوْلِهِ بِسَبَبِ جَوَارِيهِ
[الثلاث :
[الكامل]

مَنْكَ الثَّلَاثُ الْآلِيسَاتُ غِنَانِي وَحَلَسَنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَا بِي تُطَاوِعُنِي الْبَرِّيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عَضِيْبَانِي
مَا ذَاكَ وَلَا أَنْ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوَيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي
بقوله :

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْلُتُ حَدُّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظُ قَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وَأَقَارِعُ الْأَبْطَالِ لَا مُتَهَيِّبًا مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْمُهْجَرَانِ
وَتَلَكَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثَ كَالِدَمَى زَهْرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأُبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ الظُّلُمَاءِ الْحَنِّ لِنَاطِرِي مِنْ قَوْقِرِ أَغْصَانٍ عَلَى كَثْبَانِ
هَذَا فِي الْهِلَالِ وَتِلْكَ بَنَتْ الْمُشْتَرِي حُسْنًا وَهَذَا أُخْتُ غَضَنِ الْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيهِمْ السُّلُوْا إِلَى الْهَوَى فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي
فَأَبْحَنَ مِنْ قَلْبِي الْحِمَى وَتَرَكَتْنِي فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي
لَا تَعْدُلُوا مَلِكًا تَذَلُّ لِلْهَوَى ذَلِكَ الْهَوَى عِزُّ وَمُلْكٌ ثَانِي
إِنْ لَمْ أُطِيعْ فِيهِمْ سُلْطَانَ الْهَوَى كَلْفًا يَهِنٌ لَا كُنْتُ مِنْ مَرَوَانِ

واعتنقته شعراء العاصرية والدولة الأموية ؛ وقد نسجت على أفواههم
ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتن ، واشتدت فاقتهم ، وحمّت
طباعهم . وكانوا كالبزاة الفذة الجباع ، انقضت لفرط الضرورة على
الجرادة ؛ فلم يُبالِ صدامهم ، ولا شدّ خلقتهم ، لاستغاله بشأنه واشتداد
حاجة سُلْطَانِهِ . فمن ذلك ما أنشده شاعر الأندلس على عبده ، السكّانُ

١ راجع « ذخيرة ابن سام » (ج ١ / ١١ ، ص ٣٣ - ٣٤) .

فيها يومئذ بمنزلة المتنبّي بضع الشام . أبو عمر بن دراج القسطلّي :
[الطويل]

هَنِيئًا لِهَذَا الْمُلْكِ رَوْحُ وَرِيحَانِ وَلَدِينِ وَالْأَمَانِ وَإِيمَانِ
فَإِنَّ قَعِيدَ الْحِزْبِي قَدْ ثَلَّ عَرْشُهُ وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ
سَمِيَّ الَّذِي انْقَادَ الْأَنَامُ لِأَمْرِهِ فَلَمْ يَعْصِهِ فِي الْأَرْضِ إِنْسٌ وَلَا جَانُ
وَبَانِي الْعُلَى لِلْحَمْدِ غَادٍ وَرَائِحِ وَحِلْفُ الثَّقَى لِلْهَرِاضِ وَعَضْبَانُ
بِهِ رَدٌّ فِي جَوْ خِلَافَةِ ثَوْرَهَا وَقَدْ أَظْلَمَتْ مِنْهَا قُصُورٌ وَأَوْطَانُ
وَأَنْتَقَدَ دِينَ اللَّهِ مِنْ قَبْضَةِ الْعِدَا وَقَدْ قَادَهُ لِلشَّرِّ ذُلٌّ وَإِدْعَانُ
وَقَامَ فَقَامَتْ لِلْمَعَالِي مَعَالِمُ وَلِلْخَيْرِ أَسْوَاقٌ وَلِلْعَدْلِ مِيزَانُ
وَجَدُّ لِلْإِسْلَامِ ثَوْبٌ خِلَافَةِ عَلَيَّهَا مِنَ الرَّحْمَنِ ثَوْرٌ وَبُرْهَانُ
وَأَكْدَدَهَا عَهْدٌ لَأَكْرَمِ مَنْ وَفَى بَعْدَهُ رَكَتٌ مِنْهُ عُهُودٌ وَأَيْمَانُ
بِهِ شَدٌّ أَزَرَ الْعَدْلَ وَالْعِلْمَ وَالْهُدَى وَفَاضَ عَلَى الْأَيَّامِ حُسْنٌ وَإِحْسَانُ
فَتَى نَكَصَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ مَهَابَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الرَّاغِبُ أَقْرَانُ
يَهْنُ عَلَيْهِ يَوْمٌ يَرُوي سِوْفَهُ دَمًا أَنْ يُوَافِيَهُ الدُّجَى وَهُوَ ظَمْآنُ
سَمِيَّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ وَوَارِثُ مَا شَادَتْ قُرَيْشٌ وَعَدْنَانُ
وَمَا سَاقَتْ الشُّورَى وَأَوْجِبَتْ الثَّقَى وَأَوْرَثَ ذُو النُّورَيْنِ عَمَّكَ عُثْمَانُ
وَمَا حَاكَمَتْ فِيهِ السُّيُوفُ وَحَازَهُ إِلَيْكَ أَبُو الْأَمْلَاقِ جَدُّكَ مَرَوَانُ
مَوَارِيثُ أَمْلَاقٍ وَتَوَكِيدُ بَيْعَةٍ جَدِيَّوْهَا فَتَحٌ قَرِيبٌ وَرِضْوَانُ
وَدَوْحَةٌ تَجَدَّدُ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا كَوَاكِبُهَا مِنْهَا فُرُوعٌ وَأَغْصَانُ
لِئِنْ عَظُمَتْ شَأْنًا لَقَدْ عَزَّ نَصْرُهَا بَكَرَّاتٍ فُرْسَانُ لِأَقْدَارِهَا سَنَانُ
قِبَالُ مِنْ أَبْنَاءِ عَادٍ وَجُوهُهُمْ لَمْ صَفَوْا مَا تَسْمِيهِ هُودٌ وَقَحْطَانُ

١ راجع بعض أبيات هذه القصيدة في « ذخيرة » ابن سام (ج ١ / ١١ ص ٥٣ - ٥٤) .

بنو 'دول الملك الذي سَلَفَتْ به
فهم عرفوا مَثَواك في هبوة الردى
وللموت في نفس الشجاع تخيل
فأعطوك واستعطوك في حومة الوغا
كَأَنَّ السَّمَاءَ بِدُرُهَا ونجومها
وقد لَمَعَتْ حَوْلَيْكَ مِنْهُمْ أَسِنَّةُ
أَسُودٍ هَيَّاجٍ مَا تَرَالُ تَرَاهُمْ
وأَقْصَارُ حَرْبٍ طَالِمَاتُ كَانَتْ
وَيَوْمَ اقْتِحَامِ الحَفْرِ أَيْقَنْتُ أَنَّهُمْ
دَلَفَتْ بِهِم للحَرْبِ تحت عِجَاجَةٍ
بِكُلِّ زَنَاتِيَّ كَأَنَّ حُصَامَهُ
وَأَبْيَضُ صِنْهَاجٍ كَأَنَّ سِنَانَهُ
لَقَدْ عَلِمُوا يَا مُسْتَعِينُ بِأَنَّهُمْ
وَلَوْ لَآكَ وَالْبَيْضُ الَّتِي مَهْدُوا بِهَا
وَلَا اسْتَبَدَّلَتْ قَرَعُ النَوَاقِيسِ بالضُّحَى
وَمِنْ سَمِعُوا دَاعِيكَ لَمَّا دَعَوْتَهُمْ
نِصَاصِيرُ نَاسٍ مُهْطَعِينَ لَصُورَةٍ
فَلَلِ عَزْمُ رُدِّ فِي الحَقِّ رُوحَهُ
وَقُلْتُ لَحَاً لِلْعَائِرِينَ كَأَنَّهُ
وَأَصْبَحَ أَهْلُ الحَقِّ فِي هَارِ حَصَمِهِ
مُحَمَّدٌ مَنْ رَدَّ النَفُوسَ فَأَصْبَحَتْ
وَأَنَسَ شَمْلُ بالتَفَرُّقِ مَوْحِشُ

ورَدُّ جِسَاجِ الغِي من غَرَبِ شَاوِهِ
وَقَدْ أَمِنَ التَّوْبِيْبَ إِخْوَةَ يُوسُفَ
وَأَعْقَبَ طُولَ الحَرْبِ أَبْنَاءَ قِبَلَةٍ
وَحَدَّثَ لِدَاعِي الصُّحُحِ بِكُرٍّ وَتَغْلِبِ
وَفَازَتْ قِدَاحُ المُشْتَرِي بِسُعُودِهَا
وَعُرِفَ مَعْرُوفٌ وَأُنْكَرَ مُنْكَرٌ
وَأَعْمَدَ سَيْفُ البَغْيِ عَنَّا وَعَظَلَتْ
وَمَا كَانَ مَنَّا الحَيُّ فِي ثُوبٍ ذَلَّةٍ
وَمَنْ عَلَى المُسْتَضْعِفِينَ وَأُنْجَزَتْ
يُسْنُ الإِمَامِ الطَّافِرِ الغَافِرِ الَّذِي
مُجَرَّدُ سَيْفِ الإِنْتِقَامِ لِمَنْ عَا
فَمِنْ سِرِّهِ المَخْبِيا فَسَمِعُ وَطَاعَةً
وَمِنْ يَحْسِدِ المَوْتِ فَكُفْرٌ وَعِصْيَانُ
وَكَانَ مُلْكُهُ ، الَّذِي عَفَا عَلَى مُحَاسِنِ العِبَادِ وَالْبِلَادِ ، بَوَاطِنِ الجِهَادِ ،
وَذَهَبَ مِنْهُ بِالطَّارِفِ وَالتَّلَادِ ، وَإِذْ قُرْطُبَةُ حَضْرَةِ الدُّنْيَا ، وَأُمُّ التَّوَاعِدِ مِنْ
غَيْرِ دُنْيَا ، حَرُّ النَّارِ ، وَبَرْدُ الشَّقَارِ ، وَتَرَكَ حَدِيثَهَا سَحْلًا لِلْإِعْتِبَارِ ، ثَلَاثَ
سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرَ ، أَلُوثَتْ بِمُحَاسِنِ المِضَرِّ الأَنِيقِ ، وَذَهَبَ رَوْنَقُهُ الشَّهِيرِ .
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ !

وعقد سليمان بن الحكم العهد لابنه محمد بن سليمان، في منتصف جمادى
الآخرة سنة ٤٠٠ هـ. وكان يومئذٍ واحدًا، وهو صبي مُراهق، فأُعلنَ
بتقليده عهده، وزعم أنه من حُسن اختياره لرعيته، بعد أن شاورَ في
ذلك وزراءه ورجال مملكته من الطائفتين. فتَوَخَّى معظمهم مراقبته؛
فأمضى به العهد، وأوقع الدعاة له بذلك في سائر أعماله، وأجرى ذكره
بالتأمين والتكثيف في المخطبة. فتمت ولايته على هذا الوجه دون نقعة

ولا عصاة لثمة المال . فكان أول من اقتنع بذلك ؛ وتلاه من جاء بعده من التوثيقين في الفتنه ، حتى صار العهد كخطبة من الخطط ، يقتصر فيه على صحيفة مقروعة . وأمر بنقش اسمه في السكة والأعلام والضرز ؛ وتقدم إلى الخطيب قضي الجماعة ابن ذكوان بالدعاء له فوق المنبر على الرستم ؛ ونفذت الكتب بذلك عن سليمان . فكانت نسختها :

م بعد ، فإن أمير المؤمنين ، لما جبله الله عليه ، وحبه إليه ، من الاجتهاد للمسلمين ، والنظر لهم ، والفكر في عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والإشفاق من اختلافهم ، وافتراق كلمتهم ، رأى أن يجتهد لهم لسانه ، كما اجتهد لهم في حياته ، بأن يرفع لهم عماماً يبتدون به ، وينصب لهم وزراً يلجأون إليه ، وموثلاً يتعطفون عليه ، يؤلف شملهم ، ويجمع كلمتهم ، ويلهم شعبتهم ، ويسكن نفوسهم ، ويؤمن رؤسهم ، مقتدياً في ذلك بالآئمة المهتدين ، والخلفاء الراشدين ، الذين نظروا للأمة من بعدهم ، وأسفقوا من اختلاف كلمتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجأهم ما لا يحيد لهم عنه ولا بد منه من بغات الأقدار ، ونفاد الأعمار ، الليل والنهار ؛ فأطال استخارة الله - عز وجل - وجهه - والرغبة إليه في أمده ، بتوفيقه ومعاذته بتسديده ؛ وحمله على ما فيه الخيرة له ولجميع المسلمين وجبل العاقبة في الدنيا والآخرة ؛ فألقى الله في روعه ، وثبت في خلده ، وقرر في نفسه ، أن محمد بن أمير المؤمنين أولى أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين غير محاب له ولا آخذ بهوادة فيه ، بل لما قد عليته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له ، واجتماع أدوات الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه ، وهديه ، وورعه ، وفضله ، وطهارة أثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال جلته ، وسعة علمه ، وكال أدبه ، واضطلاع به بأعباء الخلافة ، ومعرفة بمعاني السياسة ، ونفاذه في التدبير والإدارة . فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولاية

عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين ، وهو يعتقد أنه قد خرج جماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم ، وتبرأ إلى الله بما كلفه من أمرهم ، وأدعى الأمة التي حمله الله في الاجتهاد لجماعتهم ، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم ، مُبتغياً بذلك ثواب الله العظيم ، وفضله الجسيم ، ونظراً لأمة محمد - عليه السلام - ونحسناً عليها ، واحتياطاً لها ، وهروباً من التقصير في حقها . والله يُريو جماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له وألهمه إليه . فأعلم ذلك من عهد أمير المؤمنين وعهده وما أنفذه من فعله ، وتقدم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عمك بالدعاء له في خطب الجمع بما أدرجناه طي كتابنا هذا . والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم ، وجبل العاقبة في دينهم ودنياهم ، وأن يقارضه بجبل نيته لهم ، وكريم مذهبه فيهم . إنه ولي المجازاة بالإحسان عن الإحسان ، والتمتع بالفضل والامتنان ، إن شاء الله . وكتب في النصف من جبادى الآخرة سنة ٤٠٠ .

قال أبو مروان في « المتين » : ومن غريب ما طرحه أهل التبعيم في مبتدأ هذه الفتنه وكنته تأثيرها على أصولهم وزعمهم أن القرآن الشنيع الحادث في سنة ٣٩٧ المؤذن بها كان في برج ذي جسد بن قيل له السنبلة ؛ فأنذروا بذلك بأن تكون لمن قام بالملك في هذه الفتنه دولتان لا محالة . فرصدت ذلك ؛ فإذا القضاء قد أخرجه من القوة إلى الفعل ، حسباً ذكره ، وتناست على الكرور في الملك خمسة أملاك ملكوا مرتين ، وهم : محمد بن هشام هذا ؛ ثم هشام بن الحكم صاحب الجماعة ؛ ثم سليمان بن الحكم صاحب البرابرة ؛ وإثنان من ملوك الحسودية : القاسم بن حمود ، وابن أخيه يحيى بن علي بن حمود . وارتفعت بعد هذه العادة على أن أباه علي بن حمود ، عاقب سليمان بن حكم ، وأول ملوك بني حمود ، شذ

عن هذا الترتيب في تثنية الملك وَسَطَ من سِتِينَا ؛ فلم يَدُلْ إلا مرة واحدة . والله أعلم بآمره وأحكامه .

ذكر دولة الأدارسة الحسنيين بقوطبة
وما يتخللها من أفذاذ بني أمية من بعد الجماعة

دولة علي بن حمود بقرطبة

وهو علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - . وهو أول ملوك بني هاشم بالأندلس . والكلام في هذا البيت ولحاق أهله من البلاد الحجازية بالمغربية مما يرجى القول فيه إلى الجزء الثالث بعد هذا إن شاء الله . لقبه : الناصر لدين الله ؛ وكنيته : أبو الحسن . وكان من جملة أمراء المغاربة المترسبين في ديوان بني أمية بقرطبة .

ولما تفتت البرابرة والمغاربة بسليمان ، استباحسا من العصابات الأندلسية ، وتشميراً لمقارعتيها ، وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين ، لحق بالعدوة الغربية ، وتغلب على سبته محتالاً . ثم عاد إلى الأندلس لما استوسق الأمر لسليمان ، واختص من كوكب إبلته التي اقتسمها البرابرة واقتطعوا بسبته ، وأخوه القاسم بالجزيرة ، كما ذكرنا آنفاً . ولم يصب عن دهاء أصحاب سليمان بن الحكم فساد رأييه في إشراك بني حمود مع نفسه في الولايات على نفسه وترشعهم إلى طلب ما بيده . ولكن الله غالب على أمره ؛ فلقد دخل على سليمان عبد الله البيرزالي من رؤساء البرابرة ، لما بلغه تقديم بني حمود بضقتي العدو وتبين ؛ فقال له : « بلغني أنك وليت بني حمود على المغرب ! » فقال : « نعم » . فقال : « أليس العلويون طاليين ؟ » فقال : « نعم » . فقال له : « تأني إلى الأحناس ، فتروهم

شعابين ! » فقال له : « قد نقتل الأمر بذلك ! »

وقال ابن حيان : ومن الاتفاق العجيب على سليمان أنه ، لما استوسق له الأمر بعد فراغه من أمر هشام ، أنفذ عزمه من بين قواد جيوشه في اختيار علي بن حمود للتقديم بسبته ، رأياً ذهل عنه ، ونبذه إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقراية ؛ فلتقها علي ، وهجم عليه ؛ فسلبه ملكه ، وحوّل دولته ، ومزق عشيرته . وإذا أراد الله أمراً ، أمضاه ! وذكر أن هشاماً كان معنياً بقاءه على المروانية بسبته ، أول أسبه عين ، حسباً تلقى ذلك من كتب الملاحم والحدثان ؛ فلم يزل يرتقب ظهوره إلى أن قام علي بسبته ؛ فكتب له عهده ؛ فكان من أخذ به بثاره ما تقدم .

ولما صارت إليه الدولة ، قهر البرابر ، وأمضى الأحكام ، وأقام العدل . وكان الأغلب على خلقه السباحة والشجاعة والإنابة . وكان مفتوح الباب ، مرفوع الحجاب ، يقيم الحدود ، ويعذب المتظلمين ؛ فانتشر الناس في الأرض . ثم ساء في الناس رأيه ؛ فألزمهم المغارم ، وانتزع منهم السلاح ، وتوصل إلى خيارهم بسبب الإطباع ؛ فامتحن لذلك جملة من أعيان قرطبة . وكان فيما زعموا تليقاعة ، يصب بعينه ؛ فما يستحسن شيئاً إلا أمرت إليه الآفة . وازورت عنه جوانب الكثير من الرؤساء والعامرية .

وفي سنة ٤٠٨ ، كان مقتله بأيدي أحداث من صقالبه بحمام قصره ، لم يئسر كنهم في أمره سوام . ولما استطال نساؤه لبته في الحمام ، دخلوا عليه ؛ فألفوه صريعاً بسيل دمه ؛ فطار خبر مقتله . وبعث إلى القاسم أخيه بإشبيلية ؛ فلتحق بقرطبة ، وصلى على أخيه ، وفعد مكانه ، وعثر على ثنين من الصبية فقتلا وصلبا ؛ ولم تنتقل التهمة إلى غيرهم . فسكنت الأحوال .

دولة القاسم بن حمود بقرطبة

وقد تقدم نسبته في ذكر أخيه . وكان لقبه المأمون ، وكنيت أبو محمد . وولي الأمر مرتين مداولاً لابن أخيه يحيى ، أولاها لأربع خلون من ذي قعدة ، سادس يوم من موت أخيه . وأحسن تلقى الناس ، وأجل موعدهم ، وأمتهم ، وأسقط عنهم ما كان قد طلبهم به أخوه ؛ وأقر الحكام وأرباب الألقاب على ما تخلصهم عليه أخوه . ثم ضعف أمره وتلاشى ، وغلب عليه رؤساء البرابرة المستولون على الكور ، وأمراء الشعير ، والفتيان العامرية بالبلاد الشرقية . واتفق أمراء الشعير منذر بن يحيى ، وابن ذي الثون ، وزهير العامري على إعادة الدولة الأموية ؛ فبايعوا من بني أمية عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

بيعة المرتضى من بني أمية ،

وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر

وكان من أسباب ذلك أن خيران الفتى العامري ، لما دخل قرطبة مع علي بن حمود ، طمع في أن يجده هشاماً المؤيد بالله حياً . فلما لم يجده ، استأب من علي بن حمود ، وحذره ، وشرع في الفرار ؛ وأتبعه علي بذلك ؛ فسبقه زهير ، ولحق بأمنه وشيعته . ونصبوا هذا المرتضى ، وزحفوا به إلى قرطبة ، بعد أن أحكموا أمره ، وراشوا جناحه ، وأقاموا آلات الملك ، ونزلوا باغراتا ، بإثنين بها ؛ وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي . فكانت بينه وبين القوم محاورات ومخاطبات ؛

ثم اقتتلوا اقتتالاً شديداً أياماً ؛ ثم إن المرتضى خذله أنصاره من هؤلاء الأمراء ؛ وكانوا قد بدا لهم في أمره ؛ فانهزموا عنه ، وهم في أضعاف مضاعفة من عدوهم . وقبيل المرتضى . واستولى الصنهاجيون أصحاب زاوي على محلاته من الآلات والحيل والظهور والقياب ، على ما يجوز الوصف كثرة .

وورد على القاسم بن حمود الخبر بمقتل المرتضى وهزيمة الأندلسيين من قبل زاوي مع سبهم من الغنية ؛ وفي الجملة مرادق المرتضى ؛ فسر بذلك ، وضرب السراديق على نهر قرطبة ؛ وعشيه الناس ينظرون إليه ، وقلوبهم تنقطع أسى وحسرة .

ومن بعد هذه الواقعة ، ركبت ريح المروانية ، وتقطعوا في الأرض ، واستهينوا ؛ فلم تقم لهم قائمة . وكان ممن تخطاه الهلاك يومئذ أبو بكر هشام بن محمد ، أخو المرتضى ، ولحق بالموالي العامريين ؛ فزهدوا فيه ؛ فاستقر عند ابن قاسم صاحب حصن البنت ؛ فأجاره . ولم يزل عنده إلى أن استدعي للأمر بقرطبة ، حسبما يأتي التنبيه عليه إن شاء الله . ومن بعد هذه الواقعة أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وطنه بإفريقية ، مغتبطاً بما تم لها ، وحذراً من العواقب بعده ، إذ رأى أن الذي جر له الهزيمة على الأمراء إنما كان إغماضهم وتحاذلهم عن نصر صاحبهم . وكانت هذه الواقعة في سنة ٤٠٩ .

رجع الحديث إلى دولة القاسم . ولما ضعف أمر القاسم ، شرع أبناء أخيه : يحيى الكائن بسبنة ، وإدريس الكائن بالقلة ، في مطالبته ؛ فأجاز منهم يحيى بن علي بن حمود البحر إلى مالقة ؛ فقبضها ، ونحسب إدريس بسبنة . وجمع يحيى جيشاً ممن انضاف إليه بالقلة ومن معه من جيرانه البرابرة ، وقدم على عمه بقرطبة . واستجار القاسم برؤساء البرابرة بجيرانه فقمعدوا ، وأرادوا التغريب بين أولئك الحسنين . ولما عجز القاسم عن

مقاومته ، فرّ إلى إشبيلية ببلده ، لثان خلون من ربيع الآخر سنة ٤١٢ ، وضبط من بها من العدويين ، إلى أن لحق يحيى بن علي بقرطبة .

دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني بقرطبة

بوع له بقرطبة يوم الإثنين مستهلّ جمادى الأولى من سنة ٤١٢ . واجتمع عليه الفريقان من البرابر والأندلسيين بقرطبة وأعمالها . وكان شريف الأرومة في بيت كريم الولادة ، ربيع أربعة من أبناء القرشيات في الإسلام : أوّلهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثمّ الحسن ، ثمّ الأمين ابن زبيدة بنت جعفر . وسلك لأوّل أمره مسلك أبيه في التحقّق بالفروسيّة والصيد ، ومجانبة العصبية ، وإيثار النصفة ، وطلب السلامة ، إلّا أنّ الكبر والعجب ساءناه ، وثلث خصاله ، إلّا أنّ الإضاءة والراحة واستكفاء غير الكفي طرقت الخلل لأمره ، وضيق عليه الكلف ؛ فاضطرّ إلى ارتكاب ما نعه الناس على غيره ؛ فساءت حاله ؛ وتمشّت مدّة ولايته الأولى هذه ، وهي سنة واحدة وستّة أشهر ونصف شهر ، بمسالمة ومعاقبة بينه وبين عمّه المجاور له بإشبيلية .

قال أبو محمد بن حزم : ولم يسمع بخليفتين تصالّحا ، ولا بأدّل على الإدبار منه . واضطرّ إلى الفرار عن قرطبة لاثني عشرة سخلت من ذي قعدة سنة ٤١٣ .

دولة القاسم بن حمود الحسني بقرطبة

في كونه الثانية

ولما فرّ يحيى بن علي بن حمود من قرطبة ، وضعه من بها من جند البوير وغيرهم ، استدعى الأمر القاسم من إشبيلية ثانية ؛ فدخل قرطبة يوم الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ . فاستمرت أيامه بقرطبة وإشبيلية ، وابن أخيه يحيى بالقة ، يدعى لكل واحد منهما بأمير المؤمنين ، إلى أن ساءت حاله ، وفسد ما بينه وبين أهل المدينة بسبب من كفه من البرابرة . فثار الناس بهم وأعلنوا بخلعه كلمة إجماع ، وأزعجوه عن المدينة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة منها ، بعد حصره في القصر أياماً ، يراوحوه القتال ويغادونه ، إلى أن انتقل إلى الربض الغربيّ منها في جيش البربر . واتصل الحصار منه بقرطبة نحو شهرين ، إلى أن أتيحّ عليهم النصّر لأهل المدينة ، ووقعت عليهم هزيمة شنيعة فرّوا لها مفلولين ؛ وذلك لاثني عشرة ليلة تخلّت من شعبان من السنة .

وفرّ القاسم إلى إشبيلية ، وبها ابنه محمد الحسن وأهلته . فسد أهلها أبواب المدينة في وجهه ؛ وعميدهم القاضي بإشبيلية محمد بن سماعيل بن عبّاد أوّل الطائفة العبّادية ، وهذه الحال كانت أسّ دولتهم . وانصرف القاسم طريداً إلى مدينة شريش ؛ فاستقرّ بها . وأعمل إليه الحركة يحيى المعتلي بالله ، ابن أخيه مداو له بقرطبة ، فنازله بمدينة شريش إلى أن فتحها وأسرّه ؛ فسجنه مع بنيه بالقة ؛ ثمّ أمضى قتلته خنقاً فما زعموا .

ولما فرّ القاسم عن قرطبة منهزماً مع البرابر ، وظهر عليهم القرطبيون ،

طمعوا في جَبَر الدعوة المروانية ؛ وخذروا من أبناء المروانية أمثَلَ مَنْ
في بَقَايا الوقت 'سَلَيْمَانُ' بن عبد الرحمن ، وكتبوا بَيْعَتَهُ ، ولَقَّبُوهُ
بِالْمُرْتَضَى . فبينما هم بالمسجد الأعظم ، قد شرعوا في أخذ البيعة له ، إذ
هجم إليهم عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبَر ، أخو المهديِّ القاهر على
بني أبي عمير المصنوي على أمر هشام المؤيد ، في شِرْذِمَةٍ من الناس ،
يدعو إلى نفسه ؛ فرجعوا إليه طَوْعاً وَكَرْهاً . وبَشِيرَ اسمُ سليمان من
الرَّقِّ وجُعِلَ فيه اسمُه ؛ وذلك من النادر الغريب .

دولة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار

ببيع يوم خروج القائم والبرابر من رِبَضِ قَرْطَبَةِ منزهين ، يوم
الثلاثاء السادس عشر من رمضان المعظم سنة ٤١٤ . وتلقَّب بالظافر بالله .
وكان قد همَّ بالوثوب عند اضطراب أمرِ القائم بن حمود ، وبثَّ دَعْوَتَهُ ؛
فلم يَتَّأَتِ له ذلك ، ونذر به الوزراء والمَشِيخَةُ ؛ فحذروا من شَوْمِ الوثوب .
ووقع الطلبُ عليه ؛ فلم يظهر إلا يوم هجومه ؛ فأسَفُوهُ بذلك ، وإن كانوا
قد أعلَقُوهُ بالشُّورى لبراءته ، وجعلوه ثَالِثَ ثلاثةٍ بعد سليمان بن المُرْتَضَى ،
وحجَّد بن العِراقِيَّ . فاستقلَّ بالأمر يومئذٍ ، وتكثَّفَ أميرا الدائرة محمودُ
وعُتْبَيْرُ المَقْدَمَانِ على الرجال المتخذين بقرطبة لحمايتها من القائم والبرابرة .
فساء الوزراء والمشيخة ذلك ، ولم يمهِّلهم أن قبض عليهم ، واعتقلهم بالمطابق ،
وأغترمهم أموالاً ؛ فسَعَوْا عليه من المطابق ، وكتبوا الناس ؛ فاستجابوا
لهم وثاروا ؛ فكسروا المطابق ، إذ لم يكن بقرطبة مَعْقِلٌ يملك ألسطانُ
فيه نفسه إلا القصر ، اغتاروا بِأَزْمِنَةِ العافية ، وحُسْنِ ظَنِّ بالأيام .
وخرج الوزراء والمشيخة ؛ والتفَّ بهم الناسُ ، وتغلَّبوا على القصر ،
وأفعدوا به محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ،

ولقَّبوه المَسْتَكْفِي بِنْتِ .

وقال بعض المؤرِّخين : « غاثر به الناسُ لإكرامه وفنداً من البرابر .
قدموا عليه ؛ فصاح الناس : « عاد شرُّ البرابر جدعاً ! » ووافَقَهُم الدائرة ؛
فقتلوا الضيوف من البرابر ، وماجوا في البلد ؛ فسَمِعَهُم مَنْ بالمطابق من
مَشِيخَتِهِمْ ؛ فستغاثوا بِهِ ؛ فكسروا أقفاله . وما رآه إلا تَسَوُّرُ الناسِ
السقفَ عليه . وأحيطَ به من كلِّ جهة . وركب بطمع في الخروج ؛
فقامت الدائرة من وَجْهِهِ بِسَبُونِهِ ؛ فترجَّل ، وخلع ثيابه ، واختفى في
أَثَرِ حَمَامِ القصر . وسبَّيَتْ حرْمُهُ بما لم يجزِ على حرم مثله .
وبُحِثَ عنه ؛ فاستُخْرِجَ بحالٍ قبيحٍ ؛ فبطش به أحد الرجال القائمين على
رأس ابن عمِّه الملباع . فقتلَ ومَضَى لسبيله يوم السبت ثلاث خَلَوْنَ من
ذي القعدة سنة ٤١٤ ، وكان ، لولا قاطِعُ الأدبار عليهم ، من ذوي الفضل
البارع ، والظرف الناصع .

قال ابن بسَّام : كان على حدوث سنه ذكياً ، يَقِظاً ، لَبِيّاً ، أديباً ،
حَسَنَ الكلام ، جيِّدَ القرينة ، مليحَ البلاغة ، يتصرَّف فيما شاء ، ويصوغ
قِطْعاً من الشعر مستجادةً ، يُزِنُ ذلك بطهارة أثواب ، وعِفَّة ، وبراعة من
شرب النبيذ . وكان في وقته نسيجَ وَحْدِهِ ؛ به ختم فضلاء أهل بيته
الناصريين .

بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن

ابن عُبَيْدِ الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله

وكنيته : أبو عبد الرحمن . وكان عمره اثنتين وخمسين سنة . ووافَقَ
لَقَبَهُ لَقَبَ شبيهه من العباسية في كثير من الحلال ؛ منها توثبهما في

الفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه ، وتوسيط كل واحد منهما في شأنه امرأة خبيثة ؛ فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا بنت المروزيّة . قاله ابن حيّان . وكان منقطعاً إلى البطالة ، عطلاً من الحصال ، ضدّاً لقتيله المستظهر . وفي أيامه ، عاجل ابن عمه ابن العراقي بالحق ؛ وفي أيامه ، استوصلت القصور الناصرية بالخراب .

وفي سنة ٤١٦ ، اتصل بأهل قرطبة تحريك يحيى بن علي بن حمّود إليهم من مالقة ؛ فدخل الوزراء والمشيخة على المستكنفي ؛ فأغلظوا عليه في الكلام ، وقالوا : « قد اضطررنا إلى مكافحة عدوّنا ! ونحن خارجون إليه ! ولا ندري ما يحدث عليك بعدنا . فاخرج معنا ! » فأجمل الرد عليهم ، وخرج فارّاً بنفسه في هيئة النساء متنكباً بين امرأتين . فذكر أن من خرج معه من رجاله اتهموه بمال ؛ فاعتالوه وقتلوه بأقنيلج من الثغر . وكان خروجه في يوم الثلاثاء خمس بقين من ربيع الأول من السنة . وعاد يحيى بن علي بن حمّود إلى قرطبة .

دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة

كروته الثانية

وقدم يحيى بن علي من مالقة بعد انصراف المستكنفي عن قرطبة ؛ فدخل القصر يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٤١٦ المذكورة ، وبقي به إلى تمام السنة . ثم خرج إلى مالقة يوم الثلاثاء اثنان من المحرم ، وترك بقرطبة وزيره وكتابه أبا جعة . موسى ، ودوناس بن أبي رويح ، إلى أن قصد إلى قرطبة الموفق زهير وخيران العامريّان من قبل حبّوس بن ماكسن . فلما أحس أهل قرطبة

بهما ، وثبوا بن كان عندهم من البرابر ؛ فقتلوه يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة ؛ وبلغ عدد دم ألف رجل . وفر أحمد بن موسى ودوناس ؛ فنجيا . وكان يحيى بن علي بن حمّود قد انتقل إلى قرطبة ، مضيقاً على ابن عبّاد ؛ وطمع فيه ابن عبّاد لاستئثار اللهو والشراب به ؛ فوجه إليه إسماعيل بن عبّاد ابنته مع جيش من ضائعة وطائفة من البرابر المستخدمين لديه ؛ فطرقوا أحواز قرطبة ليلاً ، وقد كمنوا ، وستروا أنفسهم . واتصل خبرهم بيحيى ، وهو عاكف على شرابه ، فتمل ؛ فتنعّر - زعموا - وقال : « وايض يحيى الليلة وابن عبّاد زائر ! » وبادر الخروج برجاله ، ومضى ، يضرب لبطني قرسه . وألقى بنفسه على القوم في أوائل خيله ؛ فقال منهم منالاً كاد يفضحهم ، لولا أن انتفضت الكمناء . وجاد صبره ؛ ثم انهزم أصحابه وصرع ؛ فحز رأسه ، وطير به إلى ابن عبّاد بإشبيلية . فخر ابن عبّاد ، فيما زعموا ، ساجداً ؛ وانطبق البلد فرحاً . وكان لديه محمد بن عبد الله البرزالي كبير البرابرة من بني برزّال ؛ فابتدر قرطبة لوقتبه ، وقد ملك أبوابها سودان يحيى بن علي ؛ فتوصل من بعض الأماكن حتى دخلها عن حيلة ؛ فحاز ما اشتملت عليه .

وانقض أمر يحيى بن حمّود على هذه الوتيرة ، وذلك في سنة ٤١٧ ؛ فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً . وكان من حديث بني حمّود ما يأتي ذكره إن شاء الله .

قال : واجتمع أهل قرطبة بعد هذه الكائنة على خلع الفاطميين من بني حمّود ؛ ونشأت بينهم الترات التي تأتي المهادنة ؛ فظنّوا من يسدون به الرسم من بني أمية .

دولة هشام بن محمد بن عبد الملك

ابن عبد الرحمن الناصر

وقد تقدم أن المرئضى الذي يعه العاصريون قتل بظاهر غرناطة لما نحن بها طالب الأمر لنفسه . على يد زأوي بن زيري ، وأن أخاه هشاماً هذا فر يومئذ من الواقعة ، واستقر بحصن البنت عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهرري . ولما خيع الحموديون ، بآبائه أهل قرطبة بمكانه من الثغر المذكور ، يوم الأحد خمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٨ . وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام ؛ فخطب له بقرطبة غائباً عنها . ثم أتى قرطبة في سنة ٤٢٠ . ولم تطل مدته أن خلع بسبب وزير له يعرف بحكمهم بن سعيد ويدعى بالقزاز ، أساء معاملته الوزراء والرعية . وكان إحسان معاملته من ذكر يومئذ معوزاً بكل حال لسوء خلق المدينة ، وشذوذ أهلها عن ضبط السياسة ، وجراتهم على الثوب ، وضعف السلطان وعجزه عن مؤنة من يقهر به العامة ؛ فبطشوا به وقتلوه . وكان المغربي بهشام ابن عم له ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي ، من أبناء الناصر ، فتسى شديد التهور والجهل ، سؤلت له نفسه الاستيلاء ؛ فلما قتل حكم قام أمية هذا . وهو أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . واجتمع عليه العوام ، وتقدم إلى القصر ، وهشام الشيخ غافل بين نسائه ؛ فبادر حين بلغه الخبر والرجفة الصعود إلى العلية متمتعاً بها . ونهبت العامة القصر . وددت العامة إلى الشيخ أبي الحزم بن جهوز كبيرهم ؛ فهتف على الناس بكف الأيدي . وأمية مع هذا مقيم بالقصر ، قد تبوأ مجلس هشام ، واستوى على فراشه ، ورتب من النهاية من

ينفذ أوامره مخضاً على هشام ، لا يشك في تمام الأمر له . وأمر الوزراء والمشخة الرأي ؛ فاتفقوا على خلع الشيخ وإبطال رسم الخلافة جنة لعدم الشاكية ، وعلى نفى المروانية وإجلالهم . وأنفذوا إلى هشام المعتز بالله ، وإلى أمية بالخروج عن قرطبة ؛ فأنزل الشيخ هشام من العلية إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة ، فيمن تألف إليه من ولده ونسائه ، طارحاً نفسه على الجماعة ، ينشدهم الله في مهنجته . فأعلم بكره الناس له ؛ فقال : « لئبني قرب البحر : يرموني في اللجة ؛ فيكون أخف لشأني ! فافعلوا ما شئتم ، واحفظوني في أهلي ووادي ! » وبقي بمكانه يومه وليته أسيراً ذليلاً ، خائفاً ، شاخص البصر إلى جهة نهجم منها المنية عليه .

وذكر بعض خدمة المسجد أن أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كسيرة يسد بها جوع طفلة صغيرة له ، إذ كان قد ضيها إليه سائر أيامها بكمه من برد ليلته ؛ وكانت تشكو له الجوع ، ذاهلة عما أحاط بها ؛ فتريد في همة ؛ وسأل سراجاً يتأنس به نسائه . فأبكى من كلمته اعتباراً بعادية الدهر . وبات الناس ليلته بالجامع ليفرغ الوزراء من شأنه ؛ ثم أخرج إلى حصن ابن الشرف من غير أن يؤخذ خطه بالخلع ، ولا يشهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة وإحلال الأمة من يبعته على السبيل المعبودة . وأنسأهم الله ذلك تهاوناً بحقه ونسياناً .

وأما أمية بن العراقي فلم يبرح من القصر حتى أزعج مطلقاً لسانه من الحذل على الوزراء بما شاء . ومشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ، ولا يكتفهم أحد . وكان القائم بإخراجهم ، ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم أبا الحزم بن جهوز ، حسباً يأتي الكلام فيه . وانتهى أمر بني مروان لهذا الحد ، ومحا رسم الجماعة ؛ وتقسّم البلاد والأقطار رؤساء الطوائف ، قد استحاز كل منهم استبداده بنفسه . ورضي

بذلك مَنْ بقواعِدِهِم من المسلمين عسى وفور الفضلاء، وتعدُّه العلماء،
وانفاسخ الأقطار، وتواحم الاعمار. والأرضُ لله، بُورِثها من بشاء من
عباده. والعاقبة للمتقين. ونكره بالقول على تمام حديث العلويين الفاطميين
من بني حمود.

ذكر تلخيص الكلام

في الامراء من بني حمود

وقد ذكرنا منهم فيما سلف كبيرهم علي بن حمود، والقاسم أخاه،
ويحيى بن علي، وانتهينا إلى ذكر مقتل يحيى بن علي بظاهر قَرْمُوتَ
على يديّ ابن عبّاد، وتعلّب محمد بن عبد الله البرزالي على قَرْمُوتَ.
فَنَصِلُ ذِكْرَ القوم بعده؛ فنقول: ولما بلغ إدريس بن علي بن حمود
الكائن بسبّنة خبر يحيى أخيه، أسرع اللحاق بمالقة، ودعا إلى نفسه.
× ونَهَضَ إليه جنوس بن ماكنسن مع صنهجة؛ فبايعوه، واستضافوا
بجملتهم زهيراً الفتي؛ فخطب له بالمريّة لمطاوعة زهير حليفه
وجارهِ بإلييرة، وذلك في منتصف ذي الحجة من السنة. وتوجّهوا إلى
قَرْمُوتَ وإسيلية؛ فجلّلوها نهباً وغارة؛ ولم يتّجه لهم فيها أكثر
من ذلك.

ثم توفي إدريس صاحب سبّنة ومالقة سنة ٤٣١؛ فبويع بعده أخوه
حسن بن علي بسبّنة، وتسمّى بالمُسْتَنْصِر بالله. ولما توفي حسن بن علي،
قام بعده بأمره ولده يحيى، ودام ملكه بها سنتين. ثم قام عليه
ابن عمّه حسن بن علي نسيبه؛ فخلّعه. وبُذِّكر أن والد حسن
هذا، وهو يحيى بن علي، أسند إليه عهدَه؛ فسبقه عمّه إدريس أبو هذا
القبيل إليه. وعبر حسن بن يحيى إلى مالقة، وكان له أخ اسمه إدريس

وشي به؛ فثقفه في القصر. ثم غادى ملك حسن بمالقة إلى أن توفي بها
مُسْمُوماً. وترك ولداً صغيراً له بسبّنة؛ فبايعه أبو الفوز نجاة
العلوي قائدَه وثقته بها؛ وهو من شرط كتابنا بمن بويع قبل
الاحتلام من ملوك الإسلام. وأجاز البحر لثقاف البلاد؛ فأتى الجزيرة،
وبها أبناء القاسم بن حمود؛ وأراد إخراجهم منها. فبرزت إليه سبيغة أمهم
حامية، وقالت: «يا أبا الفوز! أقطع أيتام مواليك، وتخرجهم،
وتكشفهم عن البلاد؟» فخل - رحمه الله - من ذلك، وانصرف إلى
مالقة، وقيد صلبه قوم من برغواطية كانوا أخوالاً لحسين المتوفي
بمالقة؛ فترصدوا غفلة من أبي الفوز نجاة العلوي؛ فقتلوه بالطريق من
مالقة. ثم نهضوا إليها؛ فسبّقوا الخبر، ودخلوا على أحمد بن موسى الوزير
قائدها؛ فقتلوه؛ وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه، فبايعوه بها ممم
ومن فيها من رؤساء البرابر ولقبوه العالي بالله وخطبوا باسمه سنة ٤٣٤.

ثم ثار على العاني ابن عمّه محمد بن إدريس بن علي بن حمود؛ فضاها في
شعبان من سنة ٤٣٨؛ اهتبلوا غرته، وقد خرج إلى قلعة بيشتر؛ فسدت
الأبواب في وجهه؛ فعاد إلى بيشتر. ثم رحل بأهله وولده إلى سبّنة؛
فأقام بها عند سواجات البرغواطيين، القائم بأمرها لذلك العهد؛
ويأتي التعريف به.

واستقام أمر محمد بن إدريس بمالقة، وتلقب بالمهدي. وكان محمد بن
إدريس هذا سفاكاً للدماء؛ فأعملت الحيلة في هلاكه بكأس مسومة
وجهها بإدريس بن جنوس الصنهاجي أمير غرناطة مع رجل من خاصته؛
فقال: «هذه كأس جلبت للحاجب المظفر بإدريس؛ فم يرها تصلح
لألا للخلافة. فاخصك بها.» فأعجب بذلك محمد بن إدريس، وملأها
خمرأ، وضمها إلى فيه؛ فأحس في نفسه رغبة؛ فأمر الرجل الذي أوصلها
إليه؛ فشرب ما فيها؛ فتهرأ لحمه من حينه. وبقي محمد بن إدريس

ثلاثة أيام ، ومات في آخر سنة ٤٤٤ .

وقد بعده بالأمر ابن أخيه ، وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ؛ وتسمى بالسامي . ثم أحمل نفسه ، وركب البحر كانه تاجر ، ونزل في ريف غدر . فقبض عليه وأتي به إلى سبتة ؛ فقتله سواجات لبرغواضي . وبقي العاني عنده إلى أن مات في سنة ٤٤٤ .

وولي بعده ولده محمد ، وتسمى بالمستعلي . وانتفق أمراء البرابر على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود ، الكائن بعد أبيه بالجزيرة الخضراء وما إليها ؛ ولقبوه بالمهدي ، وخطب له بجميع بلادهم . وتوجه إليه من رؤسائهم جماعة ، منهم كبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وإسحاق بن محمد بن عبد الله الزناتي صاحب قزمونة ، ومحمد بن نوح صاحب موزور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش . وانضاف إليهم فتح الله بن يحيى من أمراء ولثة الغرب ، وابن الأفلح صاحب بطليوس ، ونهضوا به إلى بلد ابن عبّاد إشبيلية ، ونازلوه ، وانتسفوا أرضه ؛ ثم انصرفوا ، وقد عجزوا عنه ؛ وذلك في سنة ٤٣٩ .

ولما توفي محمد بن القاسم ، بايعوا ولده محمد بن محمد بن القاسم على رسنه . ثم مات . وولي بعده القاسم ولده الملقب بالمستعلي . ثم تغلب باديس بن حبوس على مالقة ، وأخرجه عنها ؛ ولم يبق لهذا العهد على منك الحسنيين إلا الجزيرة الخضراء ، وأميرها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود ؛ فنازله قائد ابن عبّاد عبد الله بن سلام في البر ؛ ونازله أساطيله في البحر . فلما عجز عن مقاومته ، تخلّى له عن البلاد عن أمان أكده ، وركب البحر معرضاً عن جهة سواجات بسبتة إلى المريّة فأقام بها إلى أن مات . وانقرضت مدتهم . وكانت من يوم ولي علي بن حمود إلى تخلّي القاسم عن الجزيرة ثانياً وخمسين سنة .

قال أبو محمد بن حزم : اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء

أربعة ، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بوضعه . وتلك قضيجة لم ير مثلاً لها : أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام ، كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين ؛ وهم : خنص الحنصري إشبيلية ، عبي الله هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام ، وشهد له إخصيان وإسوان ؛ فخطب له على مندبير الأندلس ، وسمكت الدماء من أجله ؛ ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة ؛ ومحمد بن إدريس خليفة بالآلة ؛ وإدريس بن يحيى ابن علي ببشتة .

ذَكَرُوا نُبْدَةً مِنْ

أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف

نقول ، وبالله الاستعانة ، ومنه الحول والقوة : وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطّة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لأحد في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ، ولا في الفروسيّة نسب ، ولا في شروط الإمامة مكتسب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسوا المدائن الكبار ، وجبّوا العمالات والأمصار ، وجنّدوا الجنود ، وقدّموا القضاء ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدتهم الشعراء ، ودوّنت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجود حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء ؛ وهم ما بين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجنّد غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بحسب ؛ ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغيراً ؛ وقصّارى أحدّهم أن يقول : « أقيم على ما بيدي ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ! » ولو جاءه عمر بن عبد العزيز ، لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه ؛ ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً ، وخلفوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً ، من معتدٍ ومعتدٍ ، ومترضى وموفقٍ ومستكفٍ ومستظهِرٍ ومستعينٍ ومنصورٍ وناصرٍ ومثوكلٍ ، كما قال الشاعر :

[البسيط]

نما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتدٍ فيها ومعتدٍ
ألقاب تملّكه في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخ صورة الأسد

جلبنا منهم ذكراً ليعتبط مطالعته بجأله ، ويرضى الواقف عليه من زمانه ، ويتبع بشأنيه ، ويرى أنه أوثق عهده ، وأحكم عقده ، وأرحب عطفه ، وآمن وطنه ، وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة ، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير ما لديه !

ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها

قلت : وكان من الترتيب أن تقدّم من تقدّم بالزمان من هؤلاء الرؤساء ؛ واستحقّ تقدّم الذكر بتقدّم وقت ظهوره . وإنما ابتدأنا هؤلاء الجهوريّة اعتناءً بمحل ولايتهم دار الملك قرطبة لأعادها الله . ونبدأ أولاً بشيء من ذكرها ؛ فنقول :

قال أبو محمد الرشاضي : قرطبة قاعدة البلاد ، وأمّ المدائن ، ومستقرّ الخلافة ، ودار الإمارة ؛ فيها كان الخلفاء من بني أمية ؛ وآثارهم بها ظاهرة ، وأبنيتهم فيها وفيما جاورها سنية ، وبها الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا لكبر مساحته ، وحكام صنعه ، وجمال هيئته ، وإتقان بنيته ؛ تهتم به الخلفاء من بني أمية ؛ فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتسمّياً إثر تهتمهم ، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، واستولى على أمر الإحسان ؛ فصار يحار فيه الطّرف ، ويعجز عن حسنه الوصف . وقرطبة على نهر كبير فوهته يجبل سفورة ، ويسر على قرطبة ؛ وينصب فيه تحت قرطبة أودية ؛ ثم يمر إلى إشبيلية (وقد ذكرناه في باب الإشبيلية) ؛ وعليه بقرطبة قطرة عظيمة حصينة من أجل البنيان قدرا ، وأعظمه خطراً ؛ وهي من الجامع في قبليته وبالقرّب منه ؛ فانتظم به الشكل إلى الشكل ، وجاءت كالقرع لذلك الأصل . ولما كانت قرطبة على الصّمة التي ذكرنا محل الإمارة ، ومستقرّ الخلافة ، كثّر بها العلم والعلماء ، واستقر فيها

فيه ؛ فأعطوا قوسَ السياسة باريها ؛ فانسدل عليهم به الستر .

قال المؤرخ : وكان مع براعته ، ورفعة قدره ، أشدُّ الناس بواضعاً وعفةً ، وأشتبَههم أولاً بأخِر ، لم يختلف به حالٌ من الفتاوى إلى الكهولة . واستمرَّ في تدييره بقرطبة ؛ فأفجج سَعْيُهُ ، ولمَّ الشعثَ في المدَّة القريبة ؛ فتعشَّ الرُّفَات ، وأحْيى منها الموات ، ودافع بحُسْن تدييره البرابرة ، وأحسن الجوار والمعاملة . ثمَّ توفِّي - رحمه الله - ليلة الجمعة السادس من شهر محرم سنة ٤٣٥ .

أيام أبي الوليد محمد بن جهور

قال ابن خيَّان^١ : وولي بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهوَر بن محمد ابن جهوَر بن عبَّيد الله ، نهاية بيوت الشرف الأثيل بقرطبة على تمرِّ الدهرِ المُعَرَّبِ شأوُهُ في نَظْمِ قِلَادَةِ خَمْسَةِ كَكُغُوبِ الرُّمَحِ أُنْبُوباً على أُنْبُوبِ ، مُنْ ما عُنْ ، تناقلوا الوزارةَ والكتابةَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَامِسِهِمْ عُبَيْدُ اللهِ ، خوَّاهم الله الرياسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار ؛ فلم تَنَقُلْها الفتنة إلى أن وَرِثَهَا تَرَبُّها هذا الوالي الفاضلُ أبو الوليد ، ولَمَّا يَعْرِفِ البُؤْسَ يوماً ، فَأَعَاتَهُ ذلك على الحَسَبِ والمروءة . وأقرَّ لوقته الحُكَّامَ وأولي المراتب . ثمَّ اقتفى آثارَ أبيه في السياسة ؛ فأصبح من العَجَبِ العُجَابِ تَكَافُ الناسِ عن التظالمِ والتسافلِ ، بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد بأيدي جَبَابِرَةِ أَصْحَابِ الشُّرْطَةِ أَيَّامَ الجماعة . فلا يكاد يُسْمَعُ لشرارهم من مَعْهُودِ ذلك إِلَّا السَّادِرَةُ . ثمَّ قال : فلم يَقُمْ من الأمرِ بثل ما قام به أبوه ، بل قدَّم وَلَدَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ على الناس وأخذ عليهم العَهْدَ والبيعة لابنه المذكور ؛ فجار واعتدى ، وصحب الأردال ، وأهمل الأمور ، وأخاف

١ راجع « ذخيرة » ابن بسام ، ١/٢ ص ١١٧ - ١١٨ .

السُّبُل ، وأظهر الفساد ، وتعاطى ما أحجم عنه سَلَفُهُ من الاستبداد ؛ فسَمَّى نَفْسَهُ بذِي السَّيَادَتَيْنِ المنصور بالله الظافر بفضل الله ؛ وخطبَ له على المنبرِ باسمه . ولم يكن أبوه ولا جدُّه انتقلا عن رَسْمِ الوزارة ولا تلبساً بشيء من أمور الأمويَّة .

أيام عبد الملك بن محمد بن جهور

وكان الرئيسُ أبو الوليد - رحمه الله - قد ألقى الله منه على ابنه الأصغر من وَلَدَيْهِ مَحَبَّةً آثَرَهُ لها على أخيه كَبِيرِهِ عبد الرحمن ، لِمَزِيَّةِ شُهامة كانت في نفسه جنى بها خروج الأمر عنهم . وخصَّ عبدَ الرحمن بحظٍّ رَغِيبٍ من أمره ؛ فكان لعبد الملك النظرُ في الجُنْدِ ، والثَّوَالِي لِعَرْضِهِمْ ، والإشراف في أعْطِيَتِهِمْ ، ولعبد الرحمن النظرُ في أمر الجِيَاةِ والإشراف على أهل الحِدْمَةِ ؛ ورضيا بذلك ، إِلَّا أن عبدَ الملك ابتزَّهُ ذلك ، وتغلب عليه ، وسجنه في منزله ، ورقب عليه ؛ وقد أصابت الأبَ زمانةٌ . واستولى عبدُ الملك على الأمر .

وكان من تدييره الانحطاط في سلك المُعْتَصِدِ بن عَبَّاد جارِهِم المصاقب ، فوالى مُخاطَبَتَهُ ومُداخَلَتَهُ ، وزاره بنفسه ؛ فقام ابن عَبَّاد بحَقِّهِ ، وأغراه بما تسبَّب به إلى ما بيده من قَتْلِ وزير أبيه الكائنِ سَجَى في حلق ابن عَبَّاد ، وهو المعروف بابن السَّقاء . واتَّصَلت مصادقُهُ لابن عَبَّاد بِضِدِّهِ يحْيى بن ذِي النُّونِ ؛ فصرَّف عزمه إلى قرطبة ، وجعل التَّضْيِيقَ عليها نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، واستهان في سبيل الحصول عليها الأموال ، واصطنع الرجال ، ونَحَرَ إلَيْهَا سنة ٤٦٢ . فاستغاث عبدُ الملك بن أبي الوليد بن جهوَر بصدِيقه ابن عَبَّاد ، لعجزِهِ عن الانفراد بِمُقاوَمَةِ ابن ذِي النُّونِ ؛ فبعث إليه المُعْتَصِدُ ابنَ عَبَّادَ بِكَتِيبَةٍ من ثلاثمائة فارس ؛ ثم أتبعها ألف فارسٍ لِنَظَرِ قائِدَيْهِ

الفضلاء والنبلاء ، وصارت دار هجرة للعلم ، ومكان رحلة لأولي النعم .
 وكان من بها من الخلفاء - رضي الله عنهم - هم العلماء ، ويكبرون من
 يولونه منهم خطة القضاء ، ويختارون للخطة أهليها ، ويوفونهم حقوقهم
 فيها ؛ فكانت للقضاة بها المنزلة العالية ، والرتبة السامية ، مع كَوْن الخلفاء
 منقادين لأحكامهم ، واقفين لدى نقضهم وبرايمهم ، مع ما خص به أهل
 قرطبة من علو الهمة ، واجتماع الكلمة ، وتآلفهم على الحقائق ، واتباعهم
 لأحسن الطرائق ؛ فصارت بذلك لهم النخوة والعزّة ، وحازوا أعلى منازل
 الرفعة . فمسن ولي القضاء بقرطبة ، وكان بها على الصفة التي ذكرنا ، محمد
 ابن بشير .

ووقع لي ذكرها في بعض كتب الفتوحات ؛ فقلت : قرطبة
 وما أذكر لك ما هيته ، ذات الأرجاء الحالية الطامية ، والأطوار الراسخة
 الراسية ، والمباني المباهية ، والزهور الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ،
 حيث هالة بدر الساء قد استدارت من السور المشيد البناء دارا ، ونهر
 المجرة من تهرها الفياض ، المسلول حسامه من غبود الفياض ، قد لسق
 بها جارا ، وفلك الدوّلاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مدارا ، ورجع
 الحنين امتياقا إلى الحبيب الأوّل ؛ واذكّارا ؛ حيث الطود كالتاج ، يزدان
 بلجين العذب المجاج ، فيزري بتاج كسرى ودارا ؛ حيث جسور التصور
 المديدة ، كأنها عوج المطي المديدة ، تعبر النهر قطارا ؛ حيث آثار العامري
 المجاهد ، تعقب من تلك المعاهد ، شذا معطارا ؛ حيث كرائم السحاب ،
 تزور عرائس الرياض الحباب ، فتحمل لها من الدرّ ثارا ؛ حيث شول
 الشمال تدور على الأدواح ، بالغدو والرواح ، فتري الغصون سكارى
 وما هي بسكارى ؛ حيث أيدي الافتتاح ، تقتض من شقائق البطاح ،
 أبكارا ؛ حيث ثغور الأقاحي البواميم ، تقبلها زوار النواميم ، فتخفق من
 قلوب النجوم الغيارا ؛ حيث المصلّى العتيق قد رحب بجالا وطال منارا ،

وأزرى ببلاط الوليد احتقارا ؛ حيث الظهور المثاره سلاح الفلاح نجب
 عن مثل أسنمة المهارا ، والبطون كأنها لتدميت الغمام بطون العذارا ،
 والأدواح العالية ، تخرق أعلاها الهادية ، بالجداول الحيارا . فما شئت
 من جور صقيل ، ومعرض للحسن ومقيل ، ومالك للعقل وعقيل ، وخمائل ،
 كم فيها للبلابل ، من قال وقيل ، وخفيف بجواب بثقيل ، وسنابل تحكي
 من فوق سويقها ، وقصب بسويقها ، الهمزات فوق الألفات ، والعصافير
 البديعة الصفات ، فوق القصب المؤتلفات ، تميل لهبوب الصبا والجنوب ، مالية
 الجيوب ، بدرر الجنوب ، ويطاح لا تعرف عين المخمل ، فتطلبه بالذخل ،
 ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار ، عند افتتاح السوسن والبحار ، غير
 العبدان من سودان التحلة ، وبجر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ
 الطية البعيدة راحله ؛ إلى الوادي ، وسمر النوادي ، وقرار دموع الغواصي ،
 المتجاير على تخطيه ، عند تمطيه ، الجسر العادي ، والوطن الذي ليس
 من عمرو ولا من زيد ، والفرّ الذي في جوفه كل صيد ، أقل كرسية
 خلافة الإسلام ، وأغار بالرفافة والجسر دار السلام ؛ وما عسى أن تظن
 في وصفه ألسنة الأفلام ، أو تُعبّر به عن ذلك الكمال فنون الكلام .

ولما خلع هشام الأخير ، واتفق رأي الجماعة بقرطبة على نحو رسم
 الخلافة الأموية ، لعدم الصلوح في أهل بيتها ، وسوء الجوار ، وفناء الأموال
 التي يُرزق منها من يقهر به السلطان كواف الناس ، ائثق الملائ على إسناد
 الأمور بالحضرة إلى شيخ الجماعة ، وبقية الأشراف من بيوت الوزارة ، أبي
 الحزم جهوز بن محمد بن جهوز بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن العمر
 ابن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بُخت بن أبي عبدة . وكان لمدخل
 جدّه يوسف بن بُخت بن أبي عبدة إلى الأندلس أثر عظيم من جميل
 الذراع وسعة الباع ؛ وأسندوا إليه مههمهم ، وعدّوا من خصاله ما لم يحتفلوا

الكبيرَيْن : خَلَفَ بْنَ نَجَاحٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَرْثِينَ ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا بِنَا يَكُونُ عَلَيْهِ عَمَلُهُمَا .

وَلَمَّا اتَّصَلَتْ يَدُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِجَيْشِ ابْنِ عَبَّادٍ ، دَافَعَ ابْنُ ذِي النُّونِ عَنْ حُوزَتِهِ ؛ فَاصْرَفَ عَنْهُ ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ غِرَّةً ، بَعْدَ قِتَالٍ وَمُدَافَعَةٍ . وَكَانَ مُضْطَرَّبُ الْجَيْشِ الْعَبَّادِيِّ أَيَّامَ مَقَامِهِ فِي نَصْرَةِ ابْنِ جَهْوَرٍ بِالرُّبُضِ الشَّرْقِيِّ مِنْ قَرْطَبَةٍ .

وَوَقَعَتِ الْمُدَاخَلَةُ بَيْنَ قَائِدَيِ الْجَيْشَيْنِ وَبَيْنَ بَعْضِ الْإِسْطَيْبِيِّينَ فِي الْإِرَاحَةِ مِنْ بَنِي جَهْوَرٍ وَخَلْعَتِهِمْ وَتَصِيرِ الْأَمْرِ إِلَى ابْنِ عَبَّادٍ . فَلَمَّا صَحَّ انْصِرَافُ ابْنِ ذِي النُّونِ ، وَذَهَبَ الْقَائِدَانِ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى وَدَاعِ ابْنِ جَهْوَرٍ بِيَابِ الْمَدِينَةِ ، اقْتَحَمَ رِجَالُهُ الْأَبْوَابَ وَمَلَكُوهَا ، وَدَخَلَ الْجَيْشُ ، وَقَامَتِ الدَّعْوَةُ بِاسْمِ ابْنِ عَبَّادٍ يَوْمَ الْأَحَدِ لِتَسْعِ بَقِيَّةٍ مِنْ شُعْبَانَ سَنَةِ ٤٦١ . وَامْتَنَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَخُورَيْصَةُ فِي عِلِّيَّةِ الدَّارِ حَيْثُ سُكْنَاهُ ، وَدَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى أَنْ غَشِيَ الدَّارَ الْجَرَادُ الْمُنْتَشِرُ مِنَ النَّاسِ وَشَلَّهَا النَّهْبُ . وَجَأَ الشَّيْخُ أَبُو الْوَلِيدِ أَبُوهَ ؛ فَأَوَى إِلَى مَقْصُورَةِ الْمَسْجِدِ بَيْنَاتِهِ وَكَرَائِمِهِ ؛ وَاقْتَحَمَهَا طَائِفَةٌ مِنْ نَصَارَى الْجُنْدِ الْإِسْطَيْبِيِّ ؛ فَجَرُّوهُمْ ، وَانْتَهَبُوا مَا أَصَابُوا عِنْدَهُمْ مِنْ ذَخِيرَةٍ .

وَطَلَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْأَمَانَ لِنَفْسِهِ ، وَنَزَلَ إِلَى الْقَائِدَيْنِ ؛ وَتَحَصَّلَ الْبَلَدُ وَرُؤَسَاؤُهُ فِي أَيْدِيهِمَا ؛ فَأُطْلِقَا النَّدَاءَ بِكَفِّ الْأَيْدِي ، وَتَوَعَّدَا بِالسَّيْفِ ، وَعَجَّلَا بِإِخْرَاجِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَخِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى إِسْطَيْبِيَّةٍ مِنْ يَوْمِيهِمَا ، مِرَاعَاةً لِلْعَزْمِ . وَأُلْحَقَا بِالْجَلَاءِ طَائِفَتَهُمَا ؛ فَوَكَّلَا بِالْكَفِّ مَنْ تَطَلَّعَ بِذَلِكَ ؛ ثُمَّ عَظَّمَا عَلَى النَّظَرِ فِي حَالِ الشَّيْخِ الزَّيْمِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ ، صَدْرَ بَيُوتَاتِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَوْتَقَتْهَا عُرُودُهُ جَاهٍ وَأَشَدَّهَا رُكْنَ تَعْيُنٍ ؛ فَصَيَّرَاهُ إِلَى دَارٍ صُغْرَى ، إِلَى أَنْ وَصَلَ جَوَابُ ابْنِ عَبَّادٍ بِإِخْرَاجِ الشَّيْخِ وَمِنْ مَعِهِ إِلَى جَزِيرَةِ سَلْطَطِيشٍ مِنَ الْجَزُرِ الْكَائِنَةِ فِي مَوْقِعِ نَهْرِ إِسْطَيْبِيَّةٍ ؛ فَأُخْرِجَ ، مِنْ بَعْدِ الْعِزِّ

وَالْبَجَلَةِ وَاتِّصَالَ التَّرَفِّ ، بِمَحْمُولٍ بَيْنَ عِدْلَيْيْنِ ابْنِ عَلِيٍّ تَظَهَّرَ زَامِلِيَّةً ، قَدْ أُرْكِبَ خَلْفَهُ مَنْ يُمْسِكُهُ .

فَقُلْتُ : وَقَدْ أَفْتَرَدَ أَبُو مَرْوَانَ بْنُ حَيَّانٍ لِهَذِهِ التَّكْبَةِ الْجَهْوَرِيَّةِ كِتَابًا سَمَّاهُ « الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى » ؛ وَكَلَامُهُ فِيهِ مِنْ لِبَابِ بِلَاغَتِهِ . وَذَكَرَ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا الْوَلِيدِ بْنَ جَهْوَرٍ لَمَّا تَوَسَّطَ الْقَنْطَرَةَ ، مُخْرَجًا عَنْ وَطَنِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ، رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَخَذَ يَبْتَهِلُ فِي الدَّعَاءِ ؛ وَكَانَ مِمَّا حَفِظَ عَنْهُ قَوْلُهُ : « اللَّهُمَّ ! كُلِّمَا أَجَبْتَ فِينَا الدَّعَاءَ عَلَيْنَا ، فَأَجِبْهُ لَنَا ! » فَمَاتَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ نَكْبَتِهِ بِجَزِيرَةِ سَلْطَطِيشٍ --- رَحِمَهُ اللَّهُ وَغُفِرَ لَهُ - فَكَانَتْ هَذِهِ سَبِيلُهُمْ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

وَوَضَعَ الْوُزَيْرَانِ فِي ضَبْطِ قَرْطَبَةٍ . فَتَأْتِي بَعْدُ حَوَادِثُ تَخَلَّلَتْ ذَلِكَ ، بِطَوْلِ الْكِتَابِ إِنْ اسْتَقْصَيْنَاهَا . فَكَانَتْ مُدَّةُ بَنِي جَهْوَرٍ بِقَرْطَبَةٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَسِيرًا . وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَتَأْتِي لِهَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ ، وَخُصُوصًا لِأَبِي الْحَزْمِ وَالِدِهِمَا ، مَا لَمْ يَتَأْتِ لِمُتَأَمِّرٍ مِنْ مُسَالَمَةٍ مِنْ يَلِيهِ ، وَانْسِحَابِ الْعَافِيَةِ عَلَى بِلَدِهِ مُدَّةً وَلَا يَتَهُ ، حَتَّى كَانَ لِرُؤَسَاءِ الطَّوَائِفِ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِّ ، يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ فِي الْقَضَايَا ، وَيُشْفَعُ فِي الْحَوَائِجِ ، وَيُصْلِحُ بَيْنَهُمْ فِي الْمُنَازَعَاتِ ؛ فَلَمْ يَدْرِ النَّاسُ مَا فَقَدُوا فِيهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَلَّوْا غَيْرَهُمْ وَفَقَدُوا خَيْرَهُمْ . وَالْحُكْمُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ !

وَلَمْ يُنْتَفِعِ الْمُعْتَبِدُ بْنُ عَبَّادٍ بِمَا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَنِيحَةِ قَرْطَبَةٍ ، بَلْ نَقَصَهُ مَرُورُهَا بِمَا كَانَ مِنْ هُجُومِ ابْنِ عَكَّاشَةَ عَلَى قَرْطَبَةٍ أَيْلًا ؛ فَطَرَقَهَا . وَتَبَسَّرَ ذَلِكَ لَهُ لِنَظَرِهِ بَعْضَ الْحَصُونِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْحَضَرَةِ ؛ وَقَدْ كَانَ الْمُعْتَبِدُ تَخَلَّفَ فِيهَا الظَّافِرَ وَلَدَهُ وَالْوَزِيرَ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْثِينَ ، مُضِيعَيْنِ لِلْعَزْمِ ، غَرِيقَيْنِ فِي الذَّلَّاتِ . وَاحْتَالَ ابْنُ عَكَّاشَةَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ لَيْلًا بِرِجَالِهِ ، وَطَرَقَ دَارَ الْإِمَارَةِ . وَبَرَزَ الظَّافِرُ إِلَى اسْتِجْلَاءِ الْأَمْرِ ؛ فَقَتَلَ وَحَزَّ رَأْسَهُ . وَبَادَرَ إِلَى ابْنِ مَرْثِينَ . وَهُوَ عَاكِفٌ عَلَى شَرَابٍ وَلَهُوٍ ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ . وَتَأَمَّرَ ابْنُ

عُكَّاشَةُ بْنُ الْبَلَدِ مِنْ أَوْلِيَاءِ ابْنِ ذِي الثُّونِ . فَتَمَّتِ الدَّعْوَةُ لِابْنِ ذِي الثُّونِ .
وَلَمْ يَخْضِرْ إِلَّا زَمَنٌ قَرِيبٌ ، وَقُتِلَ ابْنُ عُكَّاشَةَ ، وَعَادَتْ قَرْطَبَةُ إِلَى
الْمُعْتَمِدِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِهِ .

ذكر أيام بني عباد باشبيلية وغيرها

وَبَنُو عَبَّادٍ مِنَ الْعَرَبِ الدَّاخِلِينَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ لَخْمٍ .

قَالَ أَبُو مَرْوَانَ : جَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ الْفَتْحِ رَهْطٌ مِنْ لَخْمٍ تَفَرَّقُوا
فِي أَقْطَارِهَا ؛ وَانْحَازَ مِنْهُمْ إِلَى غَرْبِهَا أَخَوَانِ نَعِيمٌ وَعَطَّافٌ ؛ فَتَزَلَّ
أَحَدُهُمَا بِقَرْيَةِ يَوْمِينَ ، وَتَنَاسَلَ وَلَدُهُ بِهَا مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ ، ثُمَّ
انْتَقَلُوا إِلَى إِسْبِيلَةَ فَتَسَوَّوْا ، وَتَصَدَّرُوا لِلْوَجَاهَةِ وَالنَّبَاهَةِ فِي دَوْلَةِ الْحُكْمِ
الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ وَدَوْلَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَحَاجِيهِ الْمَنْصُورِ . وَقَدْ كَانَ نَشَأَ فِيهِمْ
صَدْرُ بَيْتِهِمْ وَمُؤَسَّسُ مَجْدِهِمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّادٍ ؛ فَقَدَّمَهُ الْمَنْصُورُ عَلَى
خُطْبَةِ الْقَضَاءِ بِهَا ؛ فَاتَّصَلَ اسْتِعْمَالُهُ إِلَى زَمَنِ انْقِرَاضِ الْإِمَامَةِ الْأُمَوِيَّةِ .
وَاسْتَمَرَّتْ حَالُهُ مَعَ مَنْ نَجَّى فِي الْفِتْنَةِ ؛ فَنَظَرَ فِي صَلَاحِ الْقَطْرِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى
الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ السِّيَاسَةِ ، إِلَى أَنْ تَزَلَ فِي عَيْنَيْهِ الْمَاءُ سَنَةَ ٤١٤ ؛
وَقُدِّرَ ؛ فَعَادَ بَعْضُ بَصَرِهِ ؛ فَلَمْ يَسْتَجِزِ الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَوَلَّى
وَلَدَهُ أَبَا الْقَاسِمِ الْقَضَاءَ ، وَاقْتَصَرَ هُوَ عَلَى رِيَاسَةِ الْبَلَدِ وَتَوَلَّى رَأْيَ الْمَشِيخَةِ .

وَكَانَ نَسِيجَ وَخَدِهِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَأَدَبًا وَحِكْمَةً ؛ فَحُمِيَ مَدِينَةُ
إِسْبِيلَةَ مِنْ سَطْوَةِ الْبُرَاجِرِ الَّذِينَ اقْتَطَعُوا أَحْوَازَهَا وَتَزَلُّوا حَوْلَهَا بِالْتَدْيِيرِ
الصَّحِيحِ ، وَالرَّأْيِ الرَّاجِحِ ؛ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ ، إِلَى أَنْ هَلَكَ
سَنَةَ ٤١٤ .

ذكر أيام القاضي أبي القاسم محمد بن عباد

أَوَّلُ مَلُوكِهِمْ بِإِسْبِيلَةَ

وَهُوَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ ذِي الْوِزَارَتَيْنِ أَبِي الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ
إِسْمَاعِيلِ بْنِ قُرَيْشٍ بْنِ عَبَّادٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ أَسْلَمَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَطَّافِ بْنِ
نَعِيمِ اللَّخْمِيِّ . وَعَطَّافٌ هُوَ الدَّاخِلُ مَعَ بَلْجِ بْنِ بِيْشَرٍ .

وَكَانَ الْقَاسِمُ بْنُ حَمُودٍ ، لَمَّا مَلَكَ إِسْبِيلَةَ ، قَدْ اخْتَصَّهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ عَلَى
مُهَيِّمَاتِ تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَاسْتَنَامَ إِلَيْهِ لِمَحَلَّتِهِ مِنَ الْجَلَالَةِ وَالْأَصَالَةِ فِي النَّظَرِ ،
وَوُفُورِ الْمَالِيَةِ . فَلَمَّا جَرَى عَلَى الْقَاسِمِ مَا تَقَدَّمَ التَّعْرِيفُ بِهِ مِنْ إِيقَاعِ أَهْلِ
قَرْطَبَةَ بَيْنَ مَعَهُ مِنْ بَرَابِرَتِهِ ، وَإِجْلَانِهِ وَإِيَّاهُمْ عَنِ الْحَضْرَةِ ، وَمَا أُتِيحَ لَهُمْ
مِنْ هَزِيمَتِهِ ، خَاطَبَ بَيْنَ يَدَيْ لِحَاقِهِ بِإِسْبِيلَةَ مَنْ بِهَا بَأَنَّ نُخْلَى لَهُ الدَّوْرُ
لِمَنْ فِي صَحْبَتِهِ مِنَ الْبُرَاجِرِ . فَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ عَلَى سَدِّ أَبْوَابِ
الْمَدِينَةِ فِي وَجْهِهِ ، وَأَنْ يُخْرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ ؛ فَفَعَلُوا . وَوَصَلَ
الْقَاسِمُ ؛ فَامْتَنَعُوا عَلَيْهِ ، إِلَى أَنْ قَصَدَ شَرِيْشَ ، كَمَا مَرَّ قَبْلُ . وَتَوَلَّى
ضَبْطَ الْمَدِينَةِ عَلَى كَثْرَةِ الْهَرَجِ الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ ، عَمِيدُ الْبَلَدَةِ ، مُشْتَرِكٌ
النَّظَرَ مَعَ وَجُوهِ الْبَلَدِ وَأَعْلَامِ بِيُوتَانِهَا ، إِلَى أَنْ انْفَرَدَ بِالْأَمْرِ دُونَهُمْ .

وَجَرَتْ لَهُ فِي تَدْيِيرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ أُمُورٌ شَهِيرَةٌ ، إِلَى أَنْ خَلَصَ
بِسَابِقَتِهِ ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ عَمَلِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ؛ فَدَانُوا لَهُ ، وَسَلَكَ سِيْرَةَ أَصْحَابِ
الْمَمَالِكِ بِالْأَنْدَلُسِ ؛ وَأَقْبَلَ لِأَوَّلِ وَقْتِهِ بَضْمُ الرِّجَالِ ، وَبِشْرِي الْعَمِيدِ ،
وَالْجِدِّ بِسَاعِدِهِ ، وَالْأُمُورُ تَنْقَادُ لَهُ ، إِلَى أَنْ اسْتَوَى عَلَى الْأَمَدِ ، وَبَنَى
قَوَاعِدَ سُلْطَانِيَّةِ سَامِيَّةِ الْعَمَدِ .

وَكَانَ مِنْ تَدْيِيرِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبَّادٍ ، لَمَّا ضَاقَ ذَرْعًا بِمُزَاحِمَةِ بَنِي حَمُودٍ

الفاطميّين من كل جهة ، ولهم في الناس النداء المسموع والحق المعلوم ، أن دعا إلى تجديد بيعة الخليفة هشام المؤيد ، المشكوك في موته ، المدّعي كثير من الناس أنه فرّ لوجهه ؛ وزعم أنه عثر عليه ساحاً في الأرض ؛ وقد كان صاحب المريّة زهير العامري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام ؛ فمؤّه زمناً به سنة ٤٢٦ ؛ ثم تلاشى الأمر في يده ؛ فصرده ؛ وأحكم ابن عبّاد أمره ؛ فأعلق منه اليد بشبهه ؛ فمضى الحال به زمناً طويلاً . والدنيا عند الله حقيرة الوزن ، خامة الشان .

قال ابن الفطّان حاكياً عنه ؛ فذكر أن هشاماً فرّ من الفتنة ، ورفض الملك ، وكتب أمره ، واستقر في قرية من قرى إشبيلية ، يؤذن في مسجدها ويعمره ، ويتقوت من العمل في الحلفاء ؛ فخرج اليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا وولده وجميع خاصته وعبيده ، ومعه أبواب الحلفاء وملايسهم وزيتهم ومراكبهم ، ولم يشعر الرجل ، وهو خارج المسجد من القرية ، يعمل بيده في حلفاء ، إذا بالقوم قد عثوه وأحاطوا به ، وتوجّل القاضي وابنه ومن معهم ، وقبلوا الأرض بين يديه ؛ فبهت الرجل لما عابن ، وجعل يقول : « لست بالذي تعنون ولا بالذي تطلبون ! » وهم لا يردّون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة ، إلى أن أقاموه من مكانه ، وجردوه من حلفائه ، وألبسوه الكسوة الخلافة ، ووضعوا القلائس على رأسه ، وأركبوه ؛ ومشى القاضي وجميع من معه أمامه . وكان الرجل أشبه الناس بهشام ؛ ودخلوا به المدينة ، وصائح ينادي : « يا أهل إشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ! فهذا مولاكم ! قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم ! » واستقر بالقصبة ، وحجبه ابن عبّاد بابنه إسماعيل ، شأن المنصور مع هشام بقرطبة . وخطب الناس بكل جهة في شأنه ؛ فوجه الكثير منهم أو رساله وثقاته ليقيموا على حقيقة أمره ؛ فأدخلوا على الرجل ، وهو في بيت مظلم ؛ وذكر لهم أنه يشكو مرض

عينيه ، كلّموه وكلّمهم ، غير أنهم لم يثبتوا صفته ؛ فمنهم المقر والمنكر . وأبى قبول ذلك ابن جهّور ؛ فغزا ابن عبّاد بلدّه ، إلى أن أظهر الموافقة . وخطب له في القواعد التي تغلب عليها العامريّة .

وعظم ملك ابن عبّاد ، وضيّق على الجهات ، وأكثر الغارات ، إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتعلّبين على كنورة إلبيرة في هزيمة انتجّبت عليه . وكانت له وعليه وقعات شهيرة ، إلى أن توفي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد في سنة ٤٣٣ . وولي الأمر بعده ولده أبو عمر عبّاد بن محمد الملقّب بالمعتضد .

أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد

تولّى الأمر بعد أبيه منسليخ جمادى الأولى من سنة ٤٣٣ . واستولى على غرب الأندلس كشدب ، ولبلّة ، وجبل العيون ، وما إلى ذلك . قال أبو مروان : وكان عبّاد قد أوتي من جمال الصورة ، وقام الحلقة وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحسن ، ما فاق به على نظرائه . ونظر مع ذلك في الأدب أدنى نظره بأذكي طبع ؛ فحصل منه على قطعة وافرة . قالوا : ومن عجائب سعه أنه فتح ما يجاوره من بلاد أعاديه ، وأجلى طواغيتهم عن جواره حتى انضاف إلى بلاده عمل قمرمونة وعمل الجزيرة ، وتحصّلت في خزائنه جملة من رؤوس ملوك البرابرة والأدارسة ، مثل رأس محمد بن عبد الله أمير قمرمونة ، شهاب الفتنّة ، ورؤوس خزررون وابن نوح والخليفة يحيى بن علي بن حمّود وغيرهم ، بمن أرواهم بسيفه ؛ وجدها اللّثونيون لما دخلوا لإشبيلية على ولده في مستودعات مفاخره ، والرقاع ملصقة بها معربة عن أسماها . هذا ، وهو قاعد فوق أريكته ، منفذ للعظام من

جوف قصره . وكان شديد الجرأة ، قوي المنة ، عظيم الجلادة ، مستهيناً بالدماء ؛ قتل ولده إسماعيل صبراً بيد نفسه ، وقد انتهه بالفساد عليه . واحتال على طائفة من رؤساء أعدائه البرابرة ، حتى زاروه ببلده ، فأدخلهم الحمام في سبيل التكرمة ؛ فسد بابه إلى أن هلكوا عن آخرهم . وما زال الناس ينسبون إلى هذا اللقب مصاحبة الجرأة والفظاظة في كل زمان ومكان .

وقال بعضهم فيه : لم يتضر عبّاد في دولته ، التي مهدها فوق أطراف الأسيّة ، وصير أكثر شغله فيها شبّ الحروب ، وكيادة الملوك ، وإهراج البلاد ، وإحراز التلاد ، في توفير حفظه الأوفي من الأمور الملوكيّة ، والعُدّة السلطانيّة ، والآلات الرياسيّة ؛ فابتنى القصور الساميّة ، واعتبر العبارات المُغلّية ، واكتسب الملايس الفاخرة ، وغالى في الأطلاق السنيّة ، وارتبط الخيل السابحة ، واقتنى العلّمان الرؤوفة ، واتخذ الرجال الذادة ؛ فانتقام من كل فرقة ، يتعهد طبقاتهم بإدوار الأعطية وضمان الزيادة ، على صدق الصيال والوفاء بالوعيد على النكول ، سياسةً أعيت على أئداده من ملوك الأندلس . وكان يتشبه في حزمه وضبطه لأمره بأبي جعفر المنصور .

وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المُظفّر بن الأفطس ، حتى عجز المُظفّر عن حربته . وسنّ الله بينهما الهدنة في ربيع الأول من سنة ٤٤٣ ، بسعي الشيخ ابن جهّور أمير قرطبة . وبعد ذلك ، فرغ ابن عبّاد إلى حرب الأمراء الباقيين بالعرب ، فأُتيح له من الظفر بهم ، والاستيلاء على بلادهم ، ما هو معلوم . ثمّ مدّ يده إلى الجزيرة الخضراء ؛ فنازل فيها محمد بن القاسم ، كما ذكرنا ، وملكها من يديه . ثم صرف جيده إلى قرطبة ، ووجه إليها عزّمه . فأقاه الحسام من دون ذلك . وكان ملكها مذخوراً لولده المعتمد وولي الأمر بعده . وهو محمد المكنى بأبي القاسم ، الملقب

أول الأمر بالظافر ، ثمّ بعده بالمعتمد على الله . وكان المعتمد مع جوده وبسالته وعلو هيبته ، يقرض الشعر ، ويصدر عنه المقطعات الرائقة ، والمعاني الفاتحة ؛ فمن شعره المنسوب إليه قوله : [المنسرح]

كأنما يسمينا الغض كواكب في السماء تبيض
والطرق الحر في جوانبه كخذ عذراء مسه عض

وقوله : [الطويل]

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بناء صباح والنسيم رقيق
معتقة حمراء أما بخارها فضخم وأما جسها فدقيق

دولة المعتمد على الله محمد بن عباد

كنيته : أبو القاسم . وهو الجواد ، الشجاع ، البليغ ، ذو الأخبار الشهيرة الذكّر ، والأنباء الماثورة في الدهر .

قال ابن الصيرفي : المعتمد على الله محمد بن عبّاد نسيح وحده في الجود ، وأصلب نظرائه مكسر غود ، فذ في البلاغة ، طرف في الشعر والكتابة ، باوع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جزل الألفاظ ، كثير المعاني ، حر المأخذ ، لدن معاطيف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الإشارة ، جم التوليد ؛ لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه ، على كثرة ما اجتلب إليه من أطلاق الثناء ، ونثر عليه من در الحمد ، ووضع في يديه من بر القريض .

قالوا : وكان شجاعاً مقداماً ، حسن السيرة ، رفيقاً بالريّة . وسنت به هيبته إلى غللك قرطبة ؛ فدخلت في أمره حسباً وقع الإلماع به عند

مُجَالِسَةٍ ، وشَهَامَةٍ نَفْسٍ ، فَأَخَذَ بِمَجَامِيعِ قَلْبِ الْمُعْتَمِدِ ، وَحَلَّ مِنْهُ
 الْمَحَلَّ الْمَجْجُورَ عَلَى سِوَاهُ . وَكَانَ خَيْرَانِ الْعَامِرِيِّ ، لَمَّا خَرَجَ عَنْ مُرْسِيَّةٍ ،
 تَغْلُبُ عَلَيْهَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ طَاهِرٍ مِنْ أَتْيَانِهَا وَجَلَّتْهَا ، وَمَحَلَّهَا فِي
 الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ وَالسَّرَاوَةِ مَعْرُوفٌ ، قَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْفَتْحُ فِي كِتَابِ
 « الْقَلَائِدِ » وَغَيْرُهُ ، إِلَى أَنْ خَالَفَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا ، وَكَاتَبُوا الْمُعْتَمِدَ
 يَسْتَدْعُونَهُ إِلَيْهَا . فَوَجَّهَ ابْنُ عَمَّارٍ وَزِيرُهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَائِدَ جَيْشِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 ابْنَ رَشِيقٍ . فَدَخَلَ مُرْسِيَّةً ، وَتَحَصَّلَ ابْنُ طَاهِرٍ فِي اغْتِقَالِهِ . وَضَبَطَهَا
 وَاسْتَقَرَّ فِيهَا قَرَارُهُ ، إِلَى أَنْ سَوَّاتْ لَهُ نَفْسُهُ الْإِنْفِرَادَ بِهَا ، وَكَشَفَ وَجْهَهُ
 فِي الْخِلَافِ لِلْمُعْتَمِدِ . وَقَبِضَ لَابْنَ عَمَّارٍ مِنْ ابْنِ رَشِيقٍ جَزَاءً عَامِلٍ
 بِسُوءِ عَمَلِهِ ؛ فَاهْتَبَلَ غِرَّتَهُ ، وَقَدْ خَرَجَ لَتَقْفُدَ بَعْضَ شُؤْنِ حُصُونِهَا ؛
 فَوُتِبَ عَلَى مُرْسِيَّةٍ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا . وَبَلَغَ ابْنُ عَمَّارٍ الْخُبْرَ ، فَفَرَّ عَنْهَا ،
 وَلَحِقَ بِالْمُقَتَدِرِ ابْنِ هُوْدٍ بِسَرَقِيسْطَةَ . وَاسْتَوَلَى ابْنُ رَشِيقٍ عَلَى مُرْسِيَّةٍ ؛
 فَامْتَنَعَ أَيْضاً بِهَا . وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ ، إِلَى أَنْ
 خَرَجَ ابْنُ رَشِيقٍ عَنْ مُرْسِيَّةٍ لِيُوسِفَ بْنِ تَاشْفِينَ أَمِيرَ لِسْمُونَةَ ، عِنْدَ
 جَوَازِهِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ . وَاسْتَعْدَّ الْمُعْتَمِدُ لَهُ ؛ فَلَمْ يَسْمَعْ الْمُعْتَمِدَ بَعْدَ ذَلِكَ
 فِيهِ الْكَلَامَ .

وَبَقِيَ ابْنُ عَمَّارٍ عِنْدَ الْمُؤْتَمِنِ بْنِ هُوْدٍ عَلَى شَأْنِهِ عِنْدَ الْمُعْتَمِدِ مِنْ سُلْطَانِهِ ،
 إِلَى أَنْ أَغْرَاهُ بِحِصْنِ سَقُورَةَ ، وَوَعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِقَبْضِهِ ، وَرَجَّاهُ إِلَيْهِ . فَلَمَّا
 نَزَلَ بِسَاحَتِهِ ، كَادَهُ صَاحِبُ الْحِصْنِ ، وَهَلَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَجَعَلَ الْبَلَدَ فِي
 يَدِهِ بِاللَّسَانِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ الصُّعُودَ بِنَفْسِهِ لِمُبَاشَرَةِ قَبْضَتِهِ ؛ فَأَسْرَعَ لِذَلِكَ
 فِي طَافَةِ بِسِيرَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِ وَرِجَالِهِ ، وَقَدْ أَعْمَى عَيْنَهُ الْخُرُصُ وَالْعُرُورُ ،
 وَتَهَوَّرُ الْمَشْهُورُ ؛ فَلَمَّا تَحَصَّلَ فِي قَبْضَةِ صَاحِبِ الْحِصْنِ ، وَثَبَّ بِهِ ، وَأَكْبَلَهُ
 وَأَوْدَعَهُ الْمُطْنِيقَ .

وَاتَّصَلَ ذَلِكَ ابْنُ عَمَّادٍ ؛ فَوَاسَلَ صَاحِبَ الْحِصْنِ فِي التَّمَكُّنِ مِنْهُ ،

وَأَرْغَبَهُ فَمَا لَدَيْهِ حَتَّى اسْتَفْزَهُ وَأَمُكَّنَهُ مِنْ رَمْتِهِ . فَأَذْخَلَ إِشْبِيلِيَّةَ مَدْخَلَ
 الشَّهْرَةِ ، فَوْقَ ظَهْرِ بَيْنِ عِدْلَتِي تَبْنٍ . وَحَشَرَ النَّاسَ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَقَدْ
 خَرَجَ أَمِيرًا كَبِيرًا ، وَأَعِيدَ الْيَوْمَ كَذَلِيلًا أَسِيرًا . وَتِلْكَ عَادَةُ الْأَيَّامِ فِي تَعَاقُبِ
 الصُّرُوفِ ، وَجَعْدِ الْمَعْرُوفِ . وَاعْتَقَلَهُ الْمُعْتَمِدُ بِيَعْضِ شَجَرِ الْقَصْرِ ؛ وَكَانَ
 يَسْتَحْضِرُهُ ، فَيُبَالِغُ فِي عُنْبِهِ ، وَيَتَأَقَّاهُ ابْنُ عَدَارٍ مِنَ الْأَسْتَطَافِ وَالْإِسْتِرْحَامِ
 بِمَا كَادَ يَحُلُّ عَقْدَةً مَوْجِدَتَهُ ، وَيَطْمَعُ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَيْهِ ، لَوْلَا أَنَّ أَعْدَاءَهُ
 شَمَّرُوا لِلْإِغْرَاءِ بِهِ ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَقْوَالَ فِي إِسَاءَةِ ذِكْرِهِ ، وَالتَّيْلِ مِنْ أُمِّ
 وَلَدِهِ ؛ فَأَمْضَى قَتْلَهُ بِيَدِهِ .

وَصَدَرَتْ عَنْ ابْنِ عَمَّارٍ مِنَ الْأَشْعَارِ فِي غَرَضِ اسْتِقَالَتِهِ وَاسْتِعْطَافِهِ
 كَلِمَاتٌ شَهِيرَةٌ ، تُعَالِجُ بِرَامِهَا جِرَاحَ الْقُلُوبِ ، وَتُعْفِي عَلَى هَضْبَاتِ
 الذُّنُوبِ ، لَوْلَا مَا فَرَّغَ عَنْهُ مِنَ الْقَدَرِ الْمَكْتُوبِ ، وَالْأَجَلِ الْمَحْسُوبِ ؛ فَمِنْ
 ذَلِكَ قَوْلُهُ :

سَجَايَاكَ إِنِّ عَافَيْتَ أَدْنَى وَاسْتَحْ وَعَذْرُكَ إِنِّ عَاقَبْتَ أَجْلَى وَأَوْضَحْ
 وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخَطِيئَتَيْنِ مَزِيَّةٌ فَأَنْتَ إِلَى الْأَذْنَى مِنَ اللَّهِ تَجَنَّحْ
 وَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَزَيَّدُوا سِوَى أَنْ ذَنْبِي ثَابِتٌ مُتَصَحِّحْ
 وَأَنْ رَجَائِي أَنْ عِنْدَكَ غَيْرُ مَا نَحْوُ عُدُوِّي الْيَوْمَ فِيهِ وَيُجَرِّحْ
 أَقْلَنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَى لَهُ نَحْوُ رُوحِ اللَّهِ بَابٌ مُفْتَحْ
 وَلَا تَكْتَفِ قَوْلَ الْوُشَاةِ وَزُورِهِمْ فَكُلُّ أَتَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرْشَحْ
 وَقَالُوا سَيَجْزِيهِ فَلَانٌ بِذَنْبِهِ فَقُلْتُ وَقَدْ يَعْفُو فَلَانٌ وَيُصَفِّحْ
 أَلَا إِنَّ بَطْشًا لِلْمُؤَيَّدِ يَرْغَى وَلَكِنْ حَلْمًا لِلْمُؤَيَّدِ يَرْجَحْ
 وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاةٍ نَمِيَّةٍ سَتَشْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحَمَامَ مُجْلَحْ
 سَلَامٌ عَلَيْهِ كَيْفَ دَارَ بِهِ أَهْوَى بَلِي فَيَدْنُو أَوْ عَلِي فَيَنْزَحْ

ذكر بني جهنور ؛ ووصل إليها ؛ فأنس أهلها ، وبث المعروف فيها ، وأحسن السيرة في أهلها ؛ فسرّوا بإياله . وولّى عليها ابنه الحاجب مِراج الدولة عبّاد بن محمد بن عبّاد ليستخلفه فيها ؛ فوصلها يوم الثلاثاء السادس من شوال تلك السنة ، ودخلها دخولاً فخماً ، تضاعف له سرور أبيه .

وانصرف المعتد إلى إشبيلية ، وخلف ابنه والياً عليها ؛ وترك معه القائد ابن مرتين بجدة من الفرسان ؛ فدخل ابن ذي النون صاحب طليطلة في أمرها رجلاً من قواد الخُصون المجاورة لقرطبة ، بُهمة من البُهم ، أجراً من خادير الأسد ، يُعرف بحكم بن عكاشة ، ضمن له غور ابن عبّاد بها . وغا ذلك إلى القائد ابن مرتين ؛ فأكذب الخبر ، وتهاون به ، إلى أن تم لابن عكاشة ما أراه ؛ ففتح له بعض أبوابها قوم من شيعته ، ودخل المدينة ليلاً ، بحيث لا يُشعر به ، في سرّومة من خيله ورجله ؛ فقصّد دار ابن جهنور ، حيث سكنى الأمير ابن عبّاد . وبرز ابن عبّاد عند سماع الهبة ؛ فجالدهم بسيفه حتى قتل . ثم نهضوا بعد قتله إلى دار ابن مرتين ، وهو عاكف على شرابه ولهوه ؛ ففر ، واختفى ببعض دور صناعه . وعُثر عليه بعد ثلثة ؛ فاستحضر ابن عكاشة من كان بين يديه ليلتذ من القينات والمُلهين ؛ فجعل يسأله عن أسماء من حضر ، شامناً له ؛ ثم أكبله وبعثه إلى حصنه . فلما وصل ابن ذي النون ودخل الحضرة ، أمر بقتله . ولم تصبح ليلة هجوم ابن عكاشة على المدينة إلّا وقد انضم إليه أعداد من الأشرار . واستولى على البلدة ، وأقام فيها الدعوة الذنوبية . وخاطب ابن ذي النون ؛ فلاحق بقرطبة ؛ فدخلها في أبهة عظيمة ، وأخذ بيعة أهلها . وكان وصوله إليها من بلنسية يوم الجمعة لحس بقين من جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ . ولم ينشب ابن ذي النون أن اعتل بقرطبة ؛ وتوفي فيها لإثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤٦٧ .

وخاطب أهل قرطبة المُعتد ؛ فأقبل إليهم ، وقاموا بدعوته . وفرّ ابن عكاشة على وجهه ، يوم المدافعة ؛ فقتله بالخنطرة يهودي من رجال قرطبة . واستولى ابن عبّاد على المدينة ثلاث ليالٍ بقين من ذي قعدة السنة المذكورة . ومن بعد ذلك ، اتصّلت بها طاعة ابن عبّاد ما ينيف على ست عشرة سنة . وأسكن بها ولده الملقب بالمأمون ، وعاد إلى إشبيلية .

واتصّلت أيام المُعتد على الله أحسن أيام . ولذلك ما لهجت القصص بأخباره وأحاديث حظيته المُسائة اعتياداً ، ليجتمع أسبها حروف لقيه ؛ وهي أم الملوك الأربعة من ولده ، والنسوبة رُمكية إلى مولاها الذي استواها منه ، واسمه رُميك بن فلان ، إلى أن ناله ضم من صاحب قشتالة إدفونس بن قرذلاندي في شأن الضربة التي كانت تؤذيها إليه ملوك الأندلس ، وابن سالب اليهودي المتولي لقبضها منه ، بحيث أسعاه ما يكرهه ؛ فغضب - رحمه الله - وأمر بقتله وأسر من وصل صحبته من النصارى . فعظم ذلك على الطاغية ، وأقسم أن لا يرفع عقلاً عن ابن عبّاد ؛ فاضطره ذلك إلى الجواز إلى المغرب ، واللاحق بالأمير يوسف بن تاشفين ، والاستظهار به على جيهاد الطاغية ؛ فأجابه لذلك ؛ وخرج له عن الجزيرة الخضراء . وكان ما يقع تعريفه ببعضه من الوقعة بالعدو على يد يوسف بن تاشفين ، وحسن بلاء المُعتد في ذلك ، إن شاء الله .

خبر المعتمد بن عباد مع ابن عمار

وكان محمد بن عمار من المُعتد بن عبّاد بالمحل المعروف تربية وخدمة ، وطول صحبة ؛ وكان نادرة وقته براعة وأدباً ، وحسن

لِيَهْبِئَهُ إِنَّ مَتَّ السَّلَاحُ فَبَشَّرَنِي أَمُوتُ وَيِي شَوْقُ إِلَيْهِ مُبَرَّحُ
 فَلَمْتُ : وَلَوْلَا أَنْ يَصُولَ الْكِتَابُ ، لَأَسْتَوْفَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعْجَبُ
 اسْتِفَاؤُهُ . وَسُبْحَانَ الَّذِي جَعَلَ نَفْسَ أَكْثَرِ الْمُلُوكِ تَقَادُ فِي أَرْمَةِ حُبِّ
 النَّفْسِ ، وَطَسَّبَ الْإِنصَافُ ، فَلَا تَتَوَقَّفُ فِي مُطَاوَعَتِهِ . وَذَلِكَ لِأَنَّهَا
 نَفْسٌ غَيْرُ مَقْهُورَةٍ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُلْكَاتِ ، وَلَا مَرْغَمَةٍ بِفِرَاقِ الشَّهَوَاتِ ، إِلَّا
 لِلْقَلِيلِ النَّادِرِ مِمَّنْ كَانَتْ نَفْسُهُ مُتَّصِفَةً بِالرَّحْمَةِ فِي أَصْلِ جَبَلَتِ ؛ هِيَ سَاكِنَةٌ
 الْفُورَةِ ، كَالْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ فِي الْعَفْوِ عَنْ عَمَلِهِ الَّذِي نَادَمَهُ عَلَى كَأْسِ السَّلَافَةِ ،
 مِنْ بَعْدِ أَنْ ابْتَزَّهُ تَوْبَ الْخِلَافَةِ ، فَتَرَكَهَا مَثَلًا بَعْدَهُ ، وَلَا يَخْلِفُ اللَّهُ لِمَنْ
 اتَّصَلَ بِخِلْعِهِ وَعَدَهُ ؛ وَمِمَّا يُوَثِّرُ عَنِ الْمَأْمُونِ قَوْلُهُ : « لَوْ عَلِمَ النَّاسُ
 تَحَبُّدِي فِي الْعَفْوِ ، لَتَقَرَّبُوا إِلَيْنَا بِالْجُرَائِمِ ! » وَمَا كَانَ أَجْسَلَ بِالْمُعْتَمِدِ أَنْ
 يَبْقِيَ عَلَى جَانٍ مِنْ عِبِيدِهِ قَدْ مَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ ، لَا يَوْمَلُ الْخِصُولُ عَلَى
 أَمْدِهِ ، وَلَا يَجْذُرُ نَعَصِبُ قَبِيلِهِ ؛ وَلَا يَزِيدُهُ الْعَفْوُ عَنْهُ إِلَّا تَرْفَعًا وَعِزًّا ،
 وَجَلَالَةً وَهَيْئَةً ، وَذِكْرًا جَبِيلًا ، وَأَجْرًا جَزِيلًا . فَلَا شَيْءَ أَمْنَحَى لِلْسَبْتَةِ
 مِنَ الْحَسَنَةِ ، وَلَا أَقْتَلُ لِلشَّرِّ مِنَ الْخَيْرِ ! وَرَحِمَ اللَّهُ الشَّاعِرَ إِذْ يَقُولُ :

[الكامل]

وَطَعَنَتْهُمْ بِالْمَكْرُمَاتِ وَاللَّهِ فِي حَيْثُ لَوْ طَعَنَ الْقِتَا لَتَكَسَّرَا
 وَذَكَرُوا أَنَّ الْمُعْتَمِدَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ وَلَاتِ حِينَ مَنَدِمَ ! وَمِنْ الْحِكْمِ
 قَوْلُهُ : « أَنْتَ عَلَى مَا لَمْ تَفْعَلْهُ أَقْدَرُ مِنْكَ عَلَى رَدِّ مَا فَعَلْتَهُ ! » جَعَلْنَا اللَّهُ
 مِمَّنْ يَمْلِكُ عَيْنَانِ نَفْسِهِ ، وَتَقَدَّمَ لَعْدِهِ فِي أَمْسِهِ . وَكَانَ زَمَنُ الْمُعْتَمِدِ بِالْأَنْدَلُسِ
 مَشْهُورًا بِالرَّاحَاتِ وَالْآدَابِ ، وَأَيَّامُهُ مَوْصُوفَةٌ بِاخْضِرَارِ الْجَنَابِ .

بقية اخبار المعتمد بن عباد

ولما استوسق ليوسف بن تاشفين بسببه أمر الجهاد ، وراقه حسن ما
 بالأندلس من البلاد ، وأغري بملوك الطوائف ، وَفَرَّرَتْ لَدَيْهِ مَسَاقِيمُهُمْ ،
 أَرْمَعَ عَلَى خَلْعِهِمْ ؛ فَبَدَأَ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةِ حَنْفِيدِ بَادِيْسَ ؛ ثُمَّ تَنَسَّى
 بِالْمُعْتَمِدِ عَلَى اللَّهِ ؛ فَذَاكَ لَتَهُ قَوْلُهُ إِذْهُ بِإِسْبِيلِيَّةِ ، وَنَازَلَتْ وَلَدَهُ الْمَأْمُونُ
 بِقَرْطَبَةِ ، وَوَلَدَهُ الرَّاحِي بُونْدَةَ . وَلَمَّا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ ، جَدَّدَ مُرَاسَلَةَ
 سُلْطَانِ النُّصَارَى ، يَسْتَرْخِي بِهِ ، وَيَطْمَعُهُ ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ جَيْشًا أَوْقَعَ
 بِالْمُرَاطِينَ الْمُحَاصِرِينَ لِأَهْلِ جَبَلِانَ وَقِيعَةَ اسْتَأْصَلَتْهُمْ ؛ وَلَاجِلِهَا ذَهَبُوا إِلَى
 الْإِقْطَارِ بِدَمِهِ عِنْدَ خَلْعِهِ لَوْ اتَّهَمَتْ الْفِتْيَا بِذَلِكَ . ثُمَّ وَصَلَ النُّصَارَى إِلَى
 بَلَنَةِ مِنْ أَحْوَازِ إِسْبِيلِيَّةِ ؛ فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيوشِ الْمُرَاطِينَ وَقِيعَةُ
 تَنَاصَفَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ . وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَسَّأَلُ ابْنُ عَبَّادَ ، وَأَيُّقُنُ بِالْغَلْبَةِ .
 وَتَوَاسَى النَّاسُ مِنْ فَوْقِ أَسْوَارِ إِسْبِيلِيَّةِ ، وَاسْتَدْعَى أَهْلُهَا أُمَرَاءَ الْمُرَاطِينَ .
 وَرَكِبَ الْمُعْتَمِدُ ، وَقَدْ اقْتَحَمَ الْبَلَدَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ مُنْتَضِعِ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ
 ٤٨٤ ، وَعَلَيْهِ قَيْصُ يَشْفُ عَنْ بَدَنِهِ ، وَقَدْ اعْتَزَلَ السَّلَاحَ ، وَالسِّيفَ
 مُنْتَضِي يَدَيْهِ ؛ وَحَمَلَ عَلَى الدَّخِيلِينَ ؛ فَرَدَّاهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ
 فَارِسًا ؛ وَانْزَعَجَ النَّاسُ أَمَامَهُ ، وَخَلَفُوا الْبَابَ ؛ فَأَمَرَ بِسَدِّهِ ، وَغَادَ إِلَى
 الْقَصْرِ . وَإِلَى تِلْكَ الْحَالِ يَشِيرُ بِقَوْلِهِ :

[مجزوء الكامل]

كَمْ رُمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ أَنْ لَا تُخَضِّصَنِي الدَّرُوعُ
 وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ صِرَ عَلَى الْحَشَى دِرْعُ دَفُوعِ
 أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ يَهَوَايَ دُلَّيْ وَالحُشُوعِ
 مَا مِزْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا لَوْ كَانَ مِنْ أَمَلِي الرَّجُوعِ
 شَيْئُ الْأَلَى أَنَا مِنْهُمْ وَالْأَصْلُ تَبِعُهُ الْفُرُوعِ

وفي يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، فُتِحَت المدينة ؛ فوقع النهب ؛ وفرَّ أهلها إلى المحلة . وخرج ابنُ عباد وابنه مالك ؛ فقتل مالك بين يديه . وكوثر المعتد ؛ فأغمد سيفه ، وانصرف إلى القصر ملقياً بيده . ووقع البرج بكف الأيدي . ثم أخرج المعتد فغرب مكبولاً ، مُدالَ العز ، مسنوب الملك ، بعد أن جرَّت عليه أهوال . وتلقَتْ بنته يوم الخروج ، ثم جبرَّت عليه بعد ذلك . واستقرَّ بأغمت ، وأقات من عزل بناته . وجرَّت عليه خطوب شهيرة ، هيئن ساعها مصائب الزمان ، وحوادث الحدائن . وبأغمت ماتت حظيئة قبله ؛ وله في التفجع عليها ، ورثاء نفسيه ، وإنذاره بسرعة لحاقها بها ، وذِكْرُ مَعْنَدِهِ وأيامه وتقلب الأحوال به ، أقوال "مفتتة" للقلوب ، "مفجرة" للقروب ، مُسْلِيَةٌ عن متاع الدنيا المسلوب .

وكانت وفاته بأغمت في ذي الحجة من عام ٤٨٨ . ولما أحس بالنية تروقه ، وجبالها تعلفه ، أمر أن يكتب على قبره :

قَبْرُ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي حَقًّا ظَفَرْتُ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عِبَادِ
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَتَلُوا بِالْحَصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرَّيِّ لِلصَّادِي
نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ وَأَقَانِي بِهِ قَدَرٌ مِنَ السَّمَاءِ وَوَأَقَانِي لِنِعَادِي
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ النِّعْشَ أَعْلَمُهُ أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادِي فَوْقَ أَطْوَادِ
فَلَا تَزَلْ صَوَاتُ اللَّهِ دَائِمَةً عَلَى دَفِينِكَ لَا تُحْصَى بِتَعْدَادِ

قُلْتُ : ووقتُ عني قَبْرُ الْمُعْتَمِدِ عَنِ اللَّهِ بِمَدِينَةِ آغَمَتِ فِي حَرَكَةِ رَاحَةٍ أَعْمَلَتْهَا إِلَى الْجَهَةِ الْمَرَاكُشِيَّةِ ، بِاعْتِهَا لِقَاءَ الصَّالِحِينَ وَمُشَاهِدَةِ الْأَثَارِ ، عام ٧٦١ ؛ وهو بقبرة آغَمَتِ فِي نَشْرِ مِنَ الْأَرْضِ ، قَدْ حَفَّتْ بِهِ سِدْرَةٌ ؛ وَإِلَى جَانِبِهِ قَبْرُ اعْتِمَادِ حَظِيَّتِهِ ، مَوْلَاةِ رَمِيكَ ؛ وَعَلَيْهِمَا وَحْشَةُ التَّغْرُبِ وَمَعَادَةُ الْحَوْلِ مِنْ بَعْدِ الْمُلْكِ ؛ فَلَا تَمُتْكَ الْعَيْنُ دَمْعَهَا

عند رؤيتها . فَأَنْشَدْتُ فِي الْحَالِ :

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بِأَغَمَتِ رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمُهِمَّاتِ
لَمْ لَا أَزُورُكَ بِأَنْتَدَى الْمُلُوكِ بَدَأَ وَبِأَضْيَاءِ الْبِالِي الْمُدْلِهَمَّاتِ
وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَّى الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ إِلَى حَيَاتِي لَجَادَتْ فِيهِ أَيْبَاتِي
أَنَافَ قَبْرُكَ فِي هَضْبٍ يُبَيِّرُهُ فَتَنْجِيهِ حَفِيَّاتِ التَّحِيَّاتِ
كُومَتْ حَيًّا وَمَيَّنَتْ وَأَشْتَهَرَتْ عَلَى فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءِ وَأَمْوَاتِ
مَا رِيءَ مِثْلُكَ فِي مَاضٍ وَمَعْتَقَدِي أَنْ لَا يُرَى الدَّهْرُ فِي حَالٍ وَلَا آتِ

وقال ابن الصنوفي : لما انفصل الناس من مُصَلَّى العبد الذي توفي المعتد في شهره ، حفَّ بقبره ملاء من الناس ، يتوجعون له ، ويترحلون عليه . وأقبل شاعره ابن عبد الصمد في جملتهم ؛ وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه ؛ فوقف على قبره ، وأنشد :

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَسَامِعُ فَأُنَادِي أَمْ قَدْ عَدَنَكَ عَنِ السَّاعِ عَوَادِ
لَا خَلَّتْ مِنْكَ الْقُصُورُ فَلَمْ تَكُنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ فِي هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعًا وَتَخَذْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَادِ

ثم خرَّ يبكي ويعفر وجهه في تراب قبره . قال : فبكى ذلك الملاء حتى أخلوا ملابسهم ، وارتفع نشيجهم وعويلهم ، ومنع النهار . فله كدُّ ابن عبد الصمد ، وملاء ذلك البلد . قُلْتُ : وقام رثائه :

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنَّ تَبْرَةً أَدْمَعِي نِيرَانُ حَزْنٍ أَضْرَمْتُ بِفَوَادِي
فَإِذَا بَدْمَعِي كَلَّمَا أَجْرَيْتَهُ زَادَتْ عَلَيَّ حَرَارَةُ الْأَكْبَادِ
يَا أَبُهَا الْقَمَرُ الْمُسِيرُ أَهَكَذَا يُنْحَى ضِيَاءُ النَّيِّرِ الْوَقَادِ

١ . اورد الفتح أول هذه القصيدة في « فرائد المعيان » (ص ٣١) .

أَفَقَدْتَ عَيْنِي مَدَّ فَقَدْتَ إِثَارَةَ
 مَا كَانَ ظَنِّي قَبْلَ مَوْتِكَ أَنْ أَرَى
 الْهَضْبَةَ الشَّتَاءَ تَحْتَ ضَرْبِهِ
 عَهْدِي بِمُلْكِكَ وَهُوَ طَلَّقَ ضَاخِكُ
 وَالْمَالُ ذُو شَرٍّ مَذَابِرُ وَالنَّدَى
 أَيَّامٌ تَخْفِقُ حَوْلَكَ الرَّايَاتُ فَوْقَ
 وَالْأَمْرُ أَمْرُكَ وَالزَّمَانُ مَبْشُرُ
 وَالْحِلُّ تَمْرَحُ وَالْفَوَارِسُ تَنْحَنِي
 إِذْ تَحْسِبُ الْهَيْجَاءَ رَوْضًا بَانِعًا
 وَتُخَالُ غَنَبُهَا دُخَانُ النَّدَى قَدْ
 وَكَأَنَّ بَيْضَ الْمَرْهَفَاتِ عَلَى الطُّلَى
 وَلَكُمْ هَزْزَتِ الْغُصْنُ مِنْ طَرْبِهَا
 وَسَقَيْتِ رَحْكَ نَمٍّ مِنْ مَاءِ الطُّلَى
 وَكَأَنَّمَا فِي الدَّرْعِ مِنْكَ رِبِيعَةٌ
 حَتَّى إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْهَرَ حَقْدَهُ
 أَلْقَيْتُ بِأَيْدِيهَا مَعَاظِلَكَ الَّتِي
 وَتَهْدَمَتْ أَرْكَانُ كُلِّ سِيَاسَةٍ
 قَالُوا أَضَاعَ الْحَزْمَ وَهِيَ بَوَاطِلُ
 وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُلْكِكَ فَالْعَنَا
 حَازَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ مُلْكُ أُمِّيَّةٍ
 وَرَأَى مُعَاوِيَةَ عَلِيًّا هَالِكًا
 وَالدَّهْرُ أَذْهَبَ تَبَعًا وَجُنُودَهُ
 وَأَزَالَ مُلْكَ الْأَرْضِ عَنْ شَدَادِ

منها :

بُنِي لِأَعْجَبَ بَعْدَ فَقْدِكَ كَيْفَ لَا
 أَوْ يَخْضِبُ الْخَطِيءُ بَعْدَكَ ثَغْرَهُ
 أَوْ تَلْتَقِي الشَّجَعَانُ تَحْتَ عَجَاجِهِ
 قَدْ كَانَتْ الْأَمْدَاحُ يُجْعَلُ دُرُّهَا
 مَنْ يَفْتَتِحُ الْأَمْصَارَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
 مَنْ يَطْعَنُ النُّجْلَاءَ فِي الْمِرَاقِ أَوْ
 مَنْ يَتْرِكُ الْأَسْطَارَ فِي الْأَوْرَاقِ مَنْ
 مَنْ يَفْهَمُ الْمَعْنَى الْحَقِيَّةَ وَمَنْ لَهُ
 مَنْ يَلْبَسُ الْحَصْدَاءَ وَهِيَ حَصِينَةٌ
 وَيَقْلُدُ الصِّصَامَ وَهُوَ مُنَمَّقُ
 مَنْ ذَا يَمْدُ عَلَى الْعَفَاةِ ظِلَالَهُ
 مَنْ يَبْذُلُ الْآلَافَ لِلزُّوَارِ وَالْإِ
 هِيَّاتِ مَاتَ الْجُودُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
 وَدَجَا الزَّمَانُ وَأَفْطَحَتْ أَيَّامُهُ
 مَسَخَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ فَتَعَوَّضُوا
 يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي فَقَدَانَهُ
 كُنَّا نَوَقِّلُ أَنْ نَرَى لَكَ عَوْدَةً
 وَتَبَيَّنَتْ خَيْلُكَ فِي مِرَابِطِهَا عَلَى
 وَتَهَمَّدُ السُّلْطَانُ فِي الْأَقْطَارِ
 فَإِذَا الْمَنَابِ قَاطِعَاتُ بِالْمُنَى
 قَدْ كَانَ هَزُّ الرَّمْعِ عَظْفِي قَدَّهُ
 وَابْنُ الْحَسَامِ الْعُضْبُ مِنْ إِنْغِمَادِ
 تَسْتَنْكِرُ الْأَسْيَافُ فِي الْأَغْمَادِ
 أَوْ يَرْكَعُ الْهِنْدِيُّ فَوْقَ الْمَادِ
 أَوْ يَقْتَضِي الْمَبِيدَانُ سَبْقَ جَوَادِ
 فِي كَفٍّ أَيْ يَمِيزُ نَقَّادِ
 مَنْ يَعْقِدُ الرَّايَاتِ لِلْقُوَادِ
 مَنْ يَضْرِبُ الْإِخْدُودَ فِي الْمِرَادِ
 لَ الْحِلِّي فِي اللَّبَاتِ وَالْأَجْيَادِ
 صَدَقَ الْحَدِيثُ وَصَحَّةُ الْإِيرَادِ
 وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ عَيُونِ جَوَادِ
 بِفَرِيدٍ لِفَرْنَنْدٍ وَحَلِيِّ نَجَادِ
 وَيَبْلُغُ الْآمَالَ كُلُّ مُرَادِ
 مَدَاحِ وَالْقُصَادِ وَالرُّوَادِ
 وَأَصَابَ بَزَّ الْفَهْمِ كُلُّ كَسَادِ
 فَالْجَدْبُ مَوْجُودٌ بِكُلِّ مُرَادِ
 مِنْ ذَلِكَ الْإِصْلَاحُ بِالْإِفْسَادِ
 قَتَلَ الرَّجَاءَ وَفَتَّ فِي الْأَعْضَادِ
 تَعْطِي بِهَا الْأَيَّامُ كُلُّ قِيَادِ
 وَعَنْدٍ مِنَ الْإِتِهَامِ وَالْإِنْجَادِ
 لِلْأَضْهَارِ وَالْحُقُودِ وَالْأَوْلَادِ
 وَالدَّهْرُ لَا يُرْدِي سِوَى الْأَجْوَادِ
 وَأَبَى الْحَسَامِ الْعُضْبُ مِنْ إِنْغِمَادِ

وتصاهلت بهم الجياد إلى الوغى
 إذ حان حين العز أذكرك الردى
 لو كنت إذ ساروا بنعشك حاضراً
 لمي لأعجب من ضجيعتك التي
 جاورتها في قنبرها فكأنما
 راحت وأنقلك النوى من بعدها
 جمعتكما آغيات في التوب الذي
 أمّ الملوك أما علمت بزاير
 أبكى العلى والمجد فقد كُما الذي
 لهفي على تلك السجيا إنهما
 لهفي على تلك العطايا واللى
 كم نعمة خضراء قد ألبستني
 ناديت كفك طامياً مستظراً
 أخرجلت في الجود الذي دفقت حا
 قد كنت لا أرضى البحار مناهلي
 في دولة غراء عبادة
 ورياسة نحيي البلاد رئيسها
 والبدري ترنمي والثرياً معقلي
 أغرقني في بحرك الطامي الذي
 وسللت في نصري سيوف مكارم
 عادت مجاراً إذ سقيت ضحاضحي
 ومددت كفي للكواكب قاعداً
 وتضاحك الأنجاد للأنجاد
 فكأن موتك كان بالمِرْصاد
 لرأيت نهيلاً على الأعواد
 قد كان قربك أنهما في الناد
 قد كنتا في ذا على ميعاد
 فمشيت إليها فوق نعشك غاد
 وسدما منه بأيّ وساد
 لك ذي وفاء مخلص ووداد
 ليسست له الدنيا ثياب حداد
 زهر الربا موشية الأبراد
 كم أخرجلت من واكفات غواد
 ومواهب واليتها وأباد
 فقضى عليّ نذاك باستعباد
 ثم طيئ وفضحت كعب لإباد
 زهواً ولا أرضى السماك مهادي
 فلت من الأملاك كل عناد
 يوماه يوم ندى ويوم جلاذ
 والصبح سيني والرياح جيادي
 منع الظماء ورود كل غاد
 تركت سيوف الهند غير حداد
 وغدت هضاباً إذ رفعت وهادي
 فبلغتها لما غدوت مصادي

نفقتني والدهر بيخس قيمتي
 وأقمتني لما رأيت حوا
 فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرى
 وكان قلبي في مخالب طائر
 إن لم تطب فيك المراتي والتنا
 أو فزت من ذاك الجمال بنظرة
 إن السادات التي قد حزتها
 ولئن مضيت فإن ذكرك خالد
 يا صاحب الفقر التي قد أصبحت
 راقت وجوه الكتب بالنكت التي
 لما فقدت المثل آترك الردى
 شقوا الثياب وجدوا أحزانكم
 كم رد ربح الخطب عنكم ظلّه
 لولا أمير المسلمين وفضله
 والله يبقيه لكم ليصونكم
 أبقى عليكم ستره وأقالكم
 كان ابن عباد صباحاً مسفراً
 كم بات منه البحر تحت سكينه
 ما كان إلا الروض موثي الحلي
 يهترئ عند الحمد معطفه كما
 يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً
 قد كان من أعلى الملوك رياسة
 وأنفت من رخصي به وكسادي
 دث الأيام قد أسرفن في إقعادي
 في كمنعة منهلة وسهاد
 وكان جني فوق شوك قتاد
 مني فلت بطيب الميلاد
 لجلعها حتى القيامة زادي
 تركتك منفرداً بلا أنساد
 يبقى مع الأيثار والآباد
 زهر الرّيض بضفتي بغداد
 منعت زنادك ثم من لاصلاذ
 ومن الصحيح تنافر الأضداد
 وصلوا التلّف يا بني عباد
 وحماكم من مثل عاصف عاد
 لم تكتحل أجفانكم بوقاد
 من كل حادثة تخاف فؤادي
 قد يشفق الأمجاد للأنجاد
 لغياب لث أظلمت وداد
 والطود ذو الهضبات فوق وساد
 سقيت أزاهيره بصوب عهد
 يهترئ عطف الأملد المباد
 صعب اللقاء على ذوي الأحاد
 وفؤاده من أوزع الزهاد

بموت لم تشفق لغريبه ولم
ما ورث الأبداء إلا مجده
إن العلى ميراث كل جواد
كأن قددي موته بنفوسه
لو كان يقبل فيه منا القادي
بموت كيف رأيت صبر محمد
قبل احتلاك كان في استعداد
والخط ليس بنال دون جهاد
كم راء في رجب لقاءك جاهدا
أهوى الشهور سواه فهو أذلني
وأحب أياي سوى الآحاد
صبرا جيلا يا بنيه فربما
قال المني قوم بلا ميعاد
إني نظمت لكم لآليء فولي
عرضت على الأيام صفو وداد
ولقد تمارج حكم بجواني
كتمازج الأرواح بالأجساد
مقى انسكاب الغيث قبر أياكم
من رائح متدفق أو غاد
ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم
والله يعلم ما يكن فؤادي

ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما اليها

كان مبدأ نباهة هذا البيت سليمان بن محمد بن هود الجذامي،
الملقب بالمستعين. وكان، في مدة الجماعة بالأندلس، من كبار الجند
بالغمر الأعلى إلى حين الفتنه الشاملة؛ فتغلب على مدينة لاردة، وقتل
قائدها أبا المطرف التيجي في خبر طويل. واستولى على مدينتي لاردة
ومنتون وأنظاريهما، في غرة محرم من سنة ٤٣١.

أيام سليمان بن هود

ولما ثار أهل سرقسطة بيحى بن منذر بن يحيى، صرفوا طاعتها إلى

سليمان بن هود. فضخم أمره، واشتهر ذكره، وبعد صيته، إلى أن
توفي سنة ٤٣٨. وتخلّف خمسة أولاد، قد كان قسم عليهم أقطار ملكه؛
فولى أحمد منهم مدينة سرقسطة المدينة البيضاء؛ وولى يوسف
مدينة لاردة؛ وولى محمداً مدينة قلعة أيوب؛ وولى لباً وسقة؛
وولى المنذر تطيلة واستبدوا بعد موته. وكان أحمد منهم مصنوعاً
له؛ وضايقهم؛ فظهر عليهم، إلى أن ابتزهم ما كان بأيديهم، واستأصلهم
إلى أن ذهب اسمهم ومسماتهم في حديث طويل. وتلقب أحمد
بالمقتدر بالله.

أيام المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود

واستوسقت للمقتدر أحمد بن سليمان الطاعة بالغمر الجوفي. واستضاف
مدينة طرطوشة إلى عمله، وكانت تحت يد لبيب من الفتيان
العامرية، ثم في يد مقاتل بعده؛ فاستحوذ عليها بعد مهلكها.
وكانت بينه وبين الروم حروب عظيمة، ودخلت مدينة برشت من
عمله غنوة، فاستولت من سبئها على ما يقارب مائة ألف نفس،
وعبروا المدينة. فشر المقتدر أحمد بن سليمان بن هود إلى استرجاعها،
واستنفر المسلمين من جميع بلادهم، ونازل المدينة؛ وكان في جيشه الذي
احتشدته من الرماة بالقسي العقارة أزيد من ستة آلاف؛ ففتح الله
المدينة على يده غنوة. فشاع له بذلك ذكر جليل وصيت شهير. ثم
زاحم إقبال الدولة علي بن مجاهد؛ فاستنزله على مدينة دانية، واستضاف
عملها إلى ما بيده؛ فاتسعت خطته، وانفسحت عمالته، وتعدّد جيشه.
ثم هلك سنة ٤٧٥ م في الميعة من كلب أصحابه كان يعرض له أعضاه،
وذلك لقتله رجلاً صالحاً دخل عليه بعظه. وقد ضرب على رعيته ضريبة

مالٍ للروم ؛ فلم يُنهِله الله أن أخذه أخذاً وبيلاً . وولي الأمر بعده ابنه المؤمن ؛ فلم تَطُلْ مدته أن هلك .

أيام المؤمن محمد بن المقتدر أحمد

ابن سليمان بن هود

تصير له ملكُ أبيه بالتغر كُله ، واستمرت فيه أيامه إلى أن هلك سنة ٤٧٨ ؛ وولي بعده المستعين . وكان بينه وبين المعتز بن عباد ما يكون بين الفحول في الهجمات ، والليوث في الأجبات . وبه تلاحق ابن عمّار لما خالف على المعتز ، حسباً تقدّم ذلك في جملة من الكتاب .

دولة المستعين أحمد بن محمد

ابن سليمان بن هود

وقام بأمر الثغور إلى هذا العهد المستعين بالله أحمد بن هود . وفي سنة ٤٨٩ ، نازل العدو مدينةً وشقة من عمالة المستعين ، وضيقوا بها . وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين ، وحمل إليها الميرة . والتقى الفريقان ، ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، حتى كادت تأتي على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله ، وقصد مضربه لِمَا ساء ظنه بيوم الكرية ؛ فرفع ما كان به من المال ؛ ثم كرّ إلى مقامه ، وأبلى إلى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام . ففقد من الناس ما يناهزُ اثني عشر ألفاً . واتمس أهلُ وشقة الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة .

ثم سما طبع العدو إلى مرقسطة حاضرة المستعين ؛ فنارلها في جموع لا تحصى . وأجاز الأمير يوسف بن تاشفين البحر ، ووجه جيشاً لنظر قائده علي بن الحاج يفحص عن أحوال ملك الروم بسرقسطة ، ويخبر أحوال جيشه . فشاع لما أطل على محلة الطاغية أنه يوسف بن تاشفين ؛ فأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وانحزم جمعه ؛ فأعمل المسلمون فيهم السيوف بما هو معروف . ونجا الطاغية في أفذاذ قليلة بعد مشارفته العطب .

والمستعين هذا ممن لم يرجه أمير لستونة ، ولا نازعه ما في يده ، ولا تطرق لحلمه ، قبلاً منه للعفو ، وإقراراً فيما بينه وبين العدو لما تجده مضايقة من تصيير ما بيده إلى الروم ؛ فكان يلاطفه . ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك ؛ فقام بحقه ، وصرفه مكرماً ، وأضحبه كتابه بما نصه :

« من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، إلى المستعين بالله أحمد بن هود - أدام الله تأييده . كتبناه إليك ، والله عز وجل يوالي أيام سعدك ، ويعالي أعلام مجدك ، وينطيل في طاعته وعلى أحسن ما تتاه عنرك ، ويشد بتقواه أزرّك ، ويجري على كل لسان صدق ذكرّك ؛ من حضرة مراکش ، حيث تثنى آيات مرفك ، وماثر السادة القادة سلفك . ونحن نحمد الله بجميع المحامد ، ونستهديه أيمن المسالك وأبين المقاصد ، ونسأله أتم الفوائد ، وأعمّ العوائد ؛ ونصني على سيدنا محمد صفة أوليائه ، وخاتم رسله وأنبياؤه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . وأما الذي عندنا - أيديك الله - لجانبك الكريم ، ومجدك العيم ، ومحلك المعلوم المفهوم ، فؤاد صريح ، وعقد في ذات الله تعالى صحيح . ووردنا أدام قبالك ، وأجرى إلى غاية الإفضال آمالك نشأة السيادة والفضل ، والنباهة والنبل ، أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة وتنشأ ، وابننا ودادة وتقرّبا ، زاد الله به عينك قرّة ، ونفسك

دار^١ ملكتهم سرّسطة إلى النصارى ، متعلّقاً بأذيال ابن رُدْمِير ، إلى أن عاوضه من رُوطة بحظّه من مدينة تُطِيلَة فانتقل إليه بأهله . ولما ثار ابن قسيّ في صقر من عام ٥٣٩ ، نهض إلى قرطبة عند ثورة ابن حمّدين ، فدخلها ؛ ثم لم يلبث أن قرّر منها وقصد جيّان ، وقد ثارت لابن جُزَيّ قلعة جيّان ؛ فتغلّب عليه ، وعاجل غرناطة ؛ وقد ثار بها ابن أضحى قاضيا ، واستدعى ابن حمّدين ؛ فتملك ابن هود المدينة ، وشدّ حصار من بقصبتها من المرابطين شهوراً . وجيّد قاضي مُرسية ابن أبي جعفر الجيش إليها ؛ وسبق الملتصمون ؛ فأوقفوا به الواقعة التي قتل فيها ابن أبي جعفر . وظهر الملتصمون إلى أن عجز ابن هود عن مرام غرناطة ، وفرّ إلى جيّان . وفرّ ابن أضحى إلى المنكب ، واستولى الملتصمون على البلد . ثم إن ابن هود اتصلت به ثورة ابن عياض بمُرسية ؛ فتوجّه إليها ، ودخلها في الحادي عشر لجمادى الآخرة سنة ٥٤٠ . ثم إن الروم أغارت على مُرسية وجهات الشرق ؛ وكان اللقاء بينهم وبين المسلمين في الموفى عشرين لشعبان ؛ فهزم المسلمون هزيمة شنيعة قتل فيها ابن هود . وانقرض أمرهم لهذا العهد من الأندلس ، إلى أن ظهر المتوسّكل بن هود ، يفخر بأنّه من ذرية المستعين بن هود ؛ وفي ذلك يقول بعض شطّار الأدباء يومئذٍ :

يقول المستعين : أبي وجدّي حليف البأس والجلود المعين
فقلت : الفضل في التقوى فدعنا بفخر التوب والماء المهيّن
وهل في المستعين رأيت خيراً فكيف المدعي في المستعين

دولة بني دنون بطليطلة وما إليها

وذكر المؤرخون أن بني دنون هؤلاء الملوك برابرة من قبيل

البربر الذين كانوا يخدمون في الدولة العائرية ، وأن اسم جدّهم الذي ينسبون إليه هو زنون ؛ فغيّر بالدال لطول المدّة^١ . ولم يكن لهم ربة ولا نياهة^٢ إلا في دولة المنصور محمد بن أبي عامر ؛ ففيها تقدّموا ، واشتهروا ، وقادوا الجيوش ، واستقروا بكورة سننبرية . ولما ضبط أمر طليطلة عبد الرحمن بن مثنويه ، ثم عبد الملك بن مثنويه بعده ، وأساء السيرة في أهلها ، خلعه ، واتفقوا على أن يرسلوا إلى ابن دنون ؛ فوجّه إليهم من سننبرية ابنه إسماعيل بن عبد الرحمن بن دنون .

أيام إسماعيل بن دنون بطليطلة

وما إليها

قالوا : فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وما إليها ، وساس أهل مملكته سياسة استقاموا عليها . واستنام في أموره إلى شيخ البلدة أبي بكر ابن الحديدي ؛ وكان من أهل العلم والدهاء ؛ فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دونه ، إلى أن حسده قوم من أهل طليطلة على منزله لديه . ثم توفّي إسماعيل ، وولي بعده ابنه يحيى المأمون .

أيام يحيى بن إسماعيل بن دنون بطليطلة

وما إليها

فلما ملك يحيى بن إسماعيل طليطلة ، جرى على سبيل أبيه في استعمال قاتنون العدل ، وأجرى أموره مع ابن الحديدي على سنن أبيه ؛

١ غير أن مؤرخي ملوك الطوائف ، كابن حبان وابن بسام وابن عذاري ، يسمونهم « بني ذي النون » ؛ وهو تعريب اسم جدّهم زنون البربري .

مَسْرُوةً ؛ ومعه وزيراك أبو الأصبع وأبو عامر . أَكْثَرَمَهَا اللهُ بِتَقْوَاهُ ؛ وَكَلَّا وَفَيْنَاهُ حَقَّ نَصَائِهِ ، وَأَتَيْنَاهُ بِرَّهَ مِنْ بَابِهِ ، وَتَلَقَّيْنَاهُ تَكْرِمَةً بِمَقْتَضَى دَوَائِيهِ وَأَسْبَابِهِ . وَأَذَيْنَا إِلَيْنَا كِتَابَكَ الْخَطِيرَ ، الْمَقْبُولَ الْمَبْرُورَ ؛ فَوَقَفْنَا بِهِ عَلَى رُجُوهِ شَخْصِيَّهَا ، وَأَضْعَيْنَا فِي تَقْصِيلِ جُمْلِهِ إِلَى تَلْخِيصِهَا ؛ فَالْتَقَيْنَا إِلَيْهَا مُرَاجَعَةً عَنْ ذَلِكَ مَا لَقْنَاهُ ، وَسَفَرْنَا لَهَا عَنْ وَجْهِ مَقْصَدِنَا فِيهِ حَتَّى يَسْتَبِينَاهُ ، مِنْ جُمْلَةِ الْوَفَاقِ ، وَجَمَاعِ الْإِنْتَظَامِ فِي سِلْكِ مَا يَرْضَى اللهُ تَعَالَى وَالْإِنْتِسَاقَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

ولما احتل يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ٤٩٦ ، أعاد إليه تَوْجِيهَ وَلَدِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَلْقَبَ بِعِمَادِ الدَّوْلَةِ ، الْكَائِنَ بِحِصْنِ رُوطَةَ ، بِهَدِيَّةٍ جَلِيلَةٍ : كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا أَرْبَعَةُ عَشَرَ رُبْعًا مِنْ آيَةِ الْفِضَّةِ مُطَرَّزَةً بِاسْمِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ جَدِّهِمْ ؛ فَأَمَرَ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينٍ بِضَرْبِهَا قَرَارِيطَ مُرَاطِيطِيَّةٍ ، وَفَرَّقَهَا فِي طَبَاقِ الْمُرَاطِيطِينَ لَيْلَةَ النُّخْرِ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ ، عَقَدَ الْبَيْعَةَ لَوْلَدِهِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ ، وَحَضَرَ الْعَهْدَ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ الْمُسْتَعِينِ .

وَاتَّصَلَتْ أَبْطَامُ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ إِلَى سَنَةِ ٥٠١ ؛ فَفِيهَا ، جَدَّدَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ وَلَوْلَدِهِ ، وَتَحَرَّكَ إِلَى الْجِهَادِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْهَا . فَدَخَلَ عَلَى تَطِيلَةٍ إِلَى أَرْنَيْطَ ، وَنَازَلَهَا ، وَدَخَلَ أَرْبَاضَهَا ؛ وَاعْتَصَمَ أَهْلُهَا مِنْهُ فِي كَنِيسَةٍ عَتِيقَةٍ ، فَحُلَّ عَنْهَا بَعْدَ مُصَالَحَتِهِمْ عَلَى مَالٍ يَوْثُودُونَهُ ، أَخَذَتْ بِهِ رَهَائِنَهُمْ . ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَقَدْ شَنَّ الْغَارَاتِ عَلَى تِلْكَ الْأَقْطَارِ ؛ فَعَمَّهَا إِحْرَاقًا وَنَهَبًا وَتَدْمِيرًا . فَلَمَّا سَارَفَ بِلَادَ الْإِسْلَامِ ، تَلَاخَقَ بِهِ النَّصَارَى ؛ فَاجْتَلَدَ الْفَرِيقَانِ أَحَرَ جَلَادٍ ، إِلَى أَنْ اسْتَشْهِدَ الْمُسْتَعِينُ بْنُ هُودٍ وَانْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ ؛ فَأُتِيَ الْقَتْلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ - رَحِمَهُمُ اللهُ - وَذَلِكَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ .

أَيَّامُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَحْمَدَ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ

عِمَادُ الدَّوْلَةِ

بَايَعَ النَّاسُ عَبْدَ الْمَلِكِ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَشْهِدَ أَبُوهُ ، بِسَرَقُسْطَةَ ، وَاسْتَرْطَوْا عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَلَبَّسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الرُّومِ . وَطَمَعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ فَاطِمَةَ ، قَائِدُ الْمُتَشَنِّبَةِ فِي سَرَقُسْطَةَ عِنْدَ مَوْتِ الْمُسْتَعِينِ ؛ فَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا عَلَى سَهَرٍ مِنَ الْوَقِيعَةِ ؛ فَلَمَّا قَرِبَ مِنْهَا - رَحِمَهُ اللهُ - أَشَارَ عَلَيْهِ أَهْلُهَا أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ ، وَلَا يَبْدَأَ بِالْفِتْنَةِ ، وَيُخَيِّسِي عَلَيْهِمْ اسْتِعَانَةَ أَمِيرِهِمُ بِالرُّومِ ؛ فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ . ثُمَّ إِنْ عَبْدَ الْمَلِكِ تَلَبَّسَ بِتِلْكَ قَشْتَاكَةٍ ؛ وَأَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ ؛ فَاسْتَدْعَوْا قَائِدَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ مِنْ بَلَنْثِيَّةٍ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ ، وَفُتِحَتْ لَهُ الْمَدِينَةُ . وَاسْتَدْعَى عَبْدَ الْمَلِكِ النَّصَارَى ؛ فَتَحَرَّكَ إِلَيْهِ ابْنُ رُدْمِيرَ . وَبَادَرَ ابْنُ الْحَاجِّ قَائِدُ عَسْكَرِ اللَّسْثُونِيِّينَ إِلَى قِتَالِهِ ؛ فَخَذَلَ النَّاسَ ، وَوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ ؛ فَاسْتَشْهِدَ - رَحِمَهُ اللهُ - ؛ وَأَتَتْ الْهَزِيمَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، عَشِيَّ يَوْمِ الْأَحَدِ مُنْتَصَفِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ ٥٠٣ ، إِلَى أَنْ أُخْرِجَ أَهْلُ سَرَقُسْطَةَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْمُؤْتَمِنِ بْنِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ الْمُسْتَعِينِ مِنَ الْحَضَرَةِ ، وَاسْتَدْعَوْا عَامِلَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ ؛ فَدَخَلَهَا يَوْمَ السَّبْتِ الْعَاشِرِ الَّذِي قَعْدَةُ سَنَةِ ٥٠٣ ، وَلَمْ يَقُمْ لَهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ عَقِبِهِ بَعْدُ قَائِمَةٌ . وَانْحَازَ إِلَى قَبِيَّةِ الرُّومِ .

أَيَّامُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ هُودٍ

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ بَقِيَّةَ بَنِي هُودٍ ، أَبَقَتْهُ الْفِتْنَةُ بِتَغْرِ رُوطَةَ ، لَمَّا تَصَيَّرَتْ

فاستقامت طاعته ، واتسقى ملكه ، إلى أن وقعت المنازعة بينه وبين جاره
سليمان بن هود ؛ فوجه إليه جيشاً كثيفاً لنظر ولده أحمد بن سليمان ،
ونازل مدينة وادي الحجارة . وبرز المأمون لمدافعته . وأتيح لابن
هود عليه ظهور حاصره لأجده مدينة طلببيرة ، ثم رحل عنه ؛ فأجأته
ضيقتة وما آسفه به ابن هود إلى الاستعانة بملك النصارى ، وبذل له مالاً ،
وأخرجه إلى قطر سليمان بن هود ؛ فجال العدو في أحوازه شهرين من زمن
الصيف ؛ فلم يدع ما يقتاته الطائر ، وخرّب البلاد ، وأهلك العباد ، وفتح
عدة من الحصون والمعاقيل . وحالف ابن عبّاد ، ووافقه على ما دعا
إليه من الدغوة الهشامية ، وأعلن بها على منابيره ، وقدّر أن الحرق
بذلك يرفع ، أو أن العبل به ينفع .

وفي السنة الآتية ، استعان ابن هود بالنصارى ، وخرج إلى أرض ابن
دثون ، واسترجع ما ظهر عليه ابن دثون من حصونه ؛ وناغاه ابن دثون ؛
فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود ؛ ففتح قلعة قلهرية التي كان
فتحها ابن أبي عامر ، وفازت بها أيدي الرّوم ؛ وذلك صدر عام ٤٣٧ .
وخرج الطاغية المظاهر لسليمان بن هود من ملوك جليقية إلى تغر
طليطلة . ودامت الفتنة بين هذين الأميرين المؤمنين على المسلمين
من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٣٨ ، وفورقت بموت سليمان بن هود منها . فلما
فتر حنق يحيى بن دثون من سليمان بن هود ، رجع إلى مطالبة جاره ابن
الأنطس . ثم شغلته الشواغل عنه ابن عبّاد ، وساء ما بينهما . وتحرّك
إلى قرطبة بما دعا ابن عباد إلى نصره صاحبها ، ثم إلى غدره والاستيلاء
عليه . ثم تصيرت إلى يحيى بن دثون على يد ابن عكاشة كما ذكرت
قبل . ثم توفي بها يحيى بن دثون لإحدى عشرة ليلة من ذي قعدة سنة
٤٦٧ ، وولي بعده حفيده وسبيّه يحيى بن دثون .

أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن دنون

وبُويع ليحيى هذا بطليطلة إثر بلوغ الخبر بموت جده . ثم وصل
تابوته إلى مدقته بها ؛ فجدّد رسوم الجد . وكان قبل وفاته قد قسم
وظائف الملك ؛ فجعل الأجناد إلى وزيره ابن القرّج ، وأمور الرعايا
والمشورة والرأي إلى ابن الحديدي ، وأخذ الموائيق على ابن الحديدي
ليبلغن كل مبلغ في شدّ أزره ، وثبتت أمره ، علماً باستقلاله ،
ويؤمن مناقبه وخلاله . وكان هذا الحفيد يحيى مضعفاً ، كثير الحيلة ،
حيث الفكرة ، بصاحبه مرض كدر قلباً ينش به . وأغرته
الطائفة الغالبة على أمره ابن الحديدي ؛ فعجل على مكروهه . وكان جده
قد سكن ملكه ، وقرّر أسباب الفتن ، بإشارة ابن الحديدي ؛ فتوسّوا
بحاث الشرور وأسباب الفتن ، بإشارة ابن الحديدي ؛ فتوسّوا
بالمطيق ، واطردوا الخبر بفقدهم . فلم يتمكن لابن دثون الفتك بابن
الحديدي لأصالته في المدينة إلا بعد الاستظهار عليه بأعدائهم ؛
فأخرجهم سرّاً . ولما دخل ابن الحديدي المجلس ، وقعت عليهم عينه ،
أيقن بالملكة . وقام ابن دثون ، وهو يتعلّق بأذيله ويستجيره ، فلم يغير
ذلك ؛ فتمكّنوا منه وقتلوه . وهاجت العامة ؛ فشغلت بنهب دوره
وإطلاق أيديها على ماله .

وظنّ ابن دثون أن الجو قد خلا له من ابن الحديدي ؛ وإذا به قد
بحث عن حنقه بظلفه . وإذا بتلك الجماعة ، لما فرغوا من ابن الحديدي ،
رجعت على حفيد ابن دثون بحسائف جده . وانتدب ابن عبد العزيز كبير
بلنسية بها ، وخلع يده عن الطاعة ووقف أمره على مهادة ، إلى أن
ثار بحفيد ابن دثون تلك الطائفة التي أخرجا من الاعتقال ، وصاحوا به ،

وَسَعَوْا فِي هَلَاكِهِ ، فَأَفْلَتَ مِنْ بَعْضِ الْأَبْوَابِ الْمُعَدَّةِ لِلضَّرَائِرِ ، لَا يَمْلِكُ شَيْئاً إِلَّا نَفْسَهُ .

وَزَعَمُوا أَنَّ زَوْجَهُ بِنْتَ الْمُظَفَّرِ وَابْنَتَهُ مِنْهَا تَبِعَتَاهُ يَوْمَئِذٍ رَاجِلَتَيْنِ أَزِيدَ مِنْ فَرَسَخَيْنِ ، إِلَى أَنْ رَكِبَتَا ، وَلَحِقَ بَعْضُ حُصُونِهِ . وَأَقَامَ أَهْلُ طَلَيْطَلَةَ بَعْدَهُ أَيَّاماً كَالسَّائِبَةِ الْمُهْمَلَةِ ، لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَمِيرٌ ، وَلَا فِيهِمْ بِالصَّوَابِ مُشِيرٌ ، إِلَى أَنْ جَنَحُوا إِلَى الْمُظَفَّرِ بْنِ الْأَفْطَسِ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَانِفِ ، عَلَى بُعْدِ دَارِهِ ، وَانْتِزَاحِ أَطْطَارِهِ ؛ فَجَاءَهُمْ مَتَاقِلًا ، كَمَا قَالَ الْمُؤَرِّخُ : كَوْدَتَا سَامُوهُ فَخَصَلَ سَبَاقُ ؛ فَدَخَلَ طَلَيْطَلَةَ سَنَةَ ٤٧٢ .

أَيَّامُ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ عَمْرٍ

ابْنُ الْمُظَفَّرِ بْنِ الْأَفْطَسِ بَطْلَيْطَلَةَ

قَالُوا : وَأَقَامَ الْمُتَوَكِّلُ بَطْلَيْطَلَةَ بُسْدَدَ أُمُورِهَا أَضَلَّ مِنْ يَدٍ فِي رَحِمٍ ، وَأَذَلَّ مِنْ لَحْمٍ عَلَى وَضَمٍ . وَقَدْ كَانَ ابْنُ دَنْثُونٍ بَعْدَ فِرَارِهِ تَهَيَّأَ لَهُ دُخُولُ مَدِينَةِ قُونَنَكَةَ ؛ فَتَمَسَّكَ أَمْرَهُ بِهَا إِلَى أَنْ فَرَّ عَنْهَا بَعْدَ ثَمَانِ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ أَمَامَ الْحَاجِّ الْعَدُوِّ وَقَلَّةِ الْمَالِ . وَعَادَ عُمَرُ بْنُ الْمُظَفَّرِ إِلَى بِلَدِهِ ، وَقَدْ حَصَلَ مِنْ ذَخِيرَةِ ابْنِ دَنْثُونٍ وَمَالِهِ وَمَا عَثَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ قَصْرِهِ عَلَى حَظٍّ رَغِيبٍ .

عُودَةُ يَحْيَى بْنِ دَنْثُونٍ إِلَى طَلَيْطَلَةَ

أَعَادَهَا اللَّهُ

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ حَفِيدُ ابْنِ دَنْثُونٍ بِأَمْنِهِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ طَلَيْطَلَةَ ، وَاسْلَ إِذْ قَوْنَشُ مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، بِذِكْرِهِ سَالِفَ عَهْدِهِ ، إِذْ كَانَ قَدْ اضْطَرَّ إِلَى الْحَاقِ بِابْنِ دَنْثُونٍ جَدِّهِ ، وَجَأَ إِلَيْهِ لَمَّا غَلَبَهُ أَخَوَاهُ عَلَى الْمُلْكِ ؛ فَأَجَارَهُ إِلَى أَنْ عَادَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ . فَلَبَّى دَعْوَاهُ ، وَسَمِعَ شُكْرَاهُ ، وَأَقْبَلَ مَعَهُ إِلَى طَلَيْطَلَةَ ، وَقَدْ عَاقَدَهُ عَلَى أَنْ يَخْلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ إِذَا أَبْلَغَهُ أَمْلَكَهُ مِنْ دُخُولِهَا . فَتَنَازَلَتْهَا ، وَشَدَّ حَصَارَهَا ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الْجَهْدُ مِنْ أَهْلِهَا مَبْلَغَهُ ، وَعَجَزُوا عَنْ الصَّبْرِ ، وَتَبَرَّأُوا مِنَ الْمُسْكَةِ ، وَأَعْذَرُوا فِي الدِّفَاعِ ، إِلَى أَنْ أُعِيدَ حَفِيدُ ابْنِ دَنْثُونٍ إِلَى طَلَيْطَلَةَ عَلَى شُرُوطٍ لِلنَّصَارَى لَا يُطَاقُ حَمْلُهَا ؛ فَدَخَلَهَا ، وَالطَّاعِيَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتَبَخَّجُ بِيَدِهِ عِنْدَهُ . وَاسْتَقَرَّ بِهَا شَرٌّ اسْتَقَرَّارٌ . وَاقْتَضَاهُ الطَّاعِيَةُ الْوَعْدُ ، وَسَلَبَهُ اللَّهُ النَّصْرَ وَالسَّعْدَ ، وَهَلَكَتِ الذِّمَّةُ ، وَاسْتَوْصِلَتِ الرِّمَّةُ ، وَتَفَثَّ عِقَابُ اللَّهِ فِي أَهْلِهَا جَاحِدِي الْحَقِّ ، وَمُتَعَوِّدِي الْعَتَقِ ، وَمُقِيمِي أَسْوَاقِ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، وَالْمَثَلِ السَّائِرِ فِي الْآفَاقِ . وَلَمْ تَطُلْ مَدَّتُهُ سَطْرُ السَّنَةِ حَتَّى مَلَكَ الطَّاعِيَةُ طَلَيْطَلَةَ .

ذَكَرُوا أَنَّ أَهْلَ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ مِنْ أَهْلِهَا ، لَمَّا بَلَغَ الصَّبْرَ بِهِمْ مَدَاهُ ، خَرَجُوا إِلَى مَحَلَّتِهِ ؛ فَأَدْخَلُوا إِلَى الْمَضْرَبِ الَّذِي كَانَ لَهُ ، بَعْدَ حِجَابٍ غَلِيظٍ وَإِذْ لَالٍ كَثِيرٌ ؛ فَأَلْفَوْهُ بِمَسْحِ عَيْنَيْهِ مِنَ النَّوْمِ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : « إِلَى مَتَى تَتَخَادَعُونَ ، وَمَاذَا تَصْنَعُونَ ؟ » . وَتَنَازَلَتْهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَتَفَثَّ عِقَابُ اللَّهِ فِي أَهْلِهَا جَاحِدِي الْحَقِّ ، وَمُقِيمِي أَسْوَاقِ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، وَالْمَثَلِ السَّائِرِ فِي الْآفَاقِ . وَلَمْ تَطُلْ مَدَّتُهُ سَطْرُ السَّنَةِ حَتَّى مَلَكَ الطَّاعِيَةُ طَلَيْطَلَةَ .

أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المجلس ، تخلّوا بينه وبين البلد . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وانتقل حفيد ابن دنثون إلى بِلَنْسِيَّة بِمُشَايعة مَلِك قَسْتَالَة ، ووجهه معه جيشاً حتى دخلها ؛ واستقر بها إلى شهر رمضان من سنة ٤٨٥ ؛ وقد تمّلك ابن عائشة قائدُ يوسف بن تاشفين مُرْسِيَّة ؛ فاستدعه أهلُ بِلَنْسِيَّة ، وعرضوا عليه مدينتهم ؛ فأقبل إليها نائبه بجيش من اللّسْثُونِيَّين . وخرج القاضي ابنُ جَعْفَر والفُقهاء لتلقّيه وإدخاله البلد . ففرَّ ابنُ دنثون من القصر ، ولم يمكنه الخروج من المدينة ؛ فاخفى ببعض الدّور الحاليّة ؛ فظهرَ عليه ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة ، وسيقَى إلى القاضي ابن جَعْفَر ؛ فأمرَ بقتله . تولّى ذلك فتى من بني الحديديّ القَتِيل بطُلَيْطَلَة ؛ وطيفَ برأسه . واحتوى ابنُ جَعْفَر على ما كان له ؛ وطرحَتْ جثته في سَبْخَةٍ ؛ فواراهُ رَجُلٌ احتساباً وصدقةً ، ودُفِنَ دون كفنٍ . فانقطعت مُدَّتُهُ على هذه السبيل .

ذكر مدة بني مسلمة

المعروفين ببني الأفطس

وهؤلاء من جُملة ملوك الطوائف . وكان جدُّهم أبو محمد عبدُ الله بن محمد بن مُسَلِّمة المعروفُ بابن الأفطس أصله من قبائل مِكنَاسَة ؛ ونزل بفَحْص البَلْثُوط من جوفيّ قُرْطُبَة .

قال ابن حيّان : ومن النادر الغريب انجاءه في تُجِيب ؛ وبهذه النسبة مدحّته الشعراء آخرَ وقته ، إذ يقول ابن شَرَف القَيَرَوَانِيّ : [السريع]
يا مَلِكاً أَمْسَتْ تُجِيبُ به تحسدُ قَحْطَانَ عليه نزار

لولاك لم تشرف معدّها بها جلُّ أبو ذرٍّ فجلبت غفارا
وكان من قومٍ لا نباهة لهم ، إلا أنّه كان من أهل المعرفة التامة والعقل والسياسة والدهاء . ولما تفرّق شمل الجماعة ، وانتزى كلٌّ على ما بيده ، استبدَّ بالقعقِ العَرَبِيّ بِيَطْلَيْنُوس وسَنْتَرِين وجميع الثغر الجوفيّ فتّى من عبيد الحكم اسمُه سَابُور ؛ وكان غفلاً ، من المعرفة عطلاً ، إلا من خلّة الشجاعة ؛ فكان عبدُ الله بن محمد بن مُسَلِّمة من صنائعه يدبّر له أمره ، ويخدم دولته ، إلى أن هلك سَابُور وترك ولدَيْن لم يبلغا الحلم ؛ فضبط له عبدُ الله الأمر ، وأمسكه على ولديّه .

دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس

خلف هذا الرجلُ سَابُورَ ، وقام بأمرٍ ولّده في صقع كبير ، هو الذي نُسِّيَه اليومُ بأرض بُرْتَقَال ، ودبّر أمره ، وأقام مَلِكاً ؛ وهو ومنّ ناب عنه من شَرَط كِتَابِينَا في ذكر من يُوبع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام . وحسبك بذلك الوطن جلاله ، وبأهله وفوراً ؛ فاشتمل عبدُ الله على ذلك الأمر ، واستأثر به ، وحصل على مُلْكٍ غَرِب الأندلس . واستقام له مُدَّةٌ إلى أن هلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من مُجَادِي الأولى سنة ٤٣٧ ؛ وولي بعده ولده المُظَفَّر .

دولة المظفر محمد بن عبد الله

ابن محمد بن مُسَلِّمة بن الأفطس

ولي المُظَفَّر بعد أبيه على ما كان بيده ؛ فاستقامت أموره . وكان فاضلاً عالماً وشجاعاً فارساً . وله التّأليفُ الكبيرُ المُسمّى به المُظَفَّرِيّ ، في نحو خمسين مُجلِّداً . وأقام بذلك الثغر مَلِكاً عَظِيماً . وكان يُنكر

الشَّعْرَ عَلَى قَائِلِهِ فِي زَمَانِهِ ، وَيُقِيلُ رَأْيَ مَنْ ارْتَسَمَ فِي دِيْوَانِهِ ،
ويَقُولُ : « مَنْ لَمْ يَكُنْ شِعْرُهُ مِثْلَ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ أَوْ الْمُعَرِّيِّ ،
فَلْيَسْكُتْ ! » ولا يَرْضَى بِدُونِ ذَلِكَ . وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَارِهِ ابْنِ عَبَّادٍ
حُرُوبٌ أَذْهَبَتْ الرُّسُومَ ، وَأَتَلَفَتْ الْأَرْوَاحَ وَالْجُسُومَ ، وَاللَّهُ يُنْصِفُ
الْخُصُومَ ، إِلَى مَعْبَدِهِ لِذَلِكَ الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ .

وَفِي مُدَّتِهِ ، أَخَذَ الْعَدُوُّ مَدِينَةَ قُلُومَرِيَّةَ مِنَ الْفُتُوحِ الْعَامِرِيَّةِ ، بَعْدَ مُحَاصَرَةٍ
طَوِيلَةٍ . وَكَانَ قَائِدُهُ عَلَيْهِا تَمْلُوكًا لَهُ اسْتَأْثَمَ الْعَدُوُّ فِي السَّرِّ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ
بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ . وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا ، وَقَدْ أَخَذُوا أَهْبَةَ الْقِتَالِ ؛ فَقَالَ لَهُمُ
الْعَدُوُّ : « كَيْفَ الْقِتَالُ وَقَائِدُكُمْ عِنْدَنَا مُنْذُ الْبَارِحَةِ ؟ » فَضَبَرُوا إِلَى
أَنْ نَفَدَتْ أَقْوَاتُهُمْ ، وَدُخِلَتْ عَلَيْهِمْ عُنُودٌ ؛ فَقَتَلَ الرِّجَالُ ، وَسَبَى الذَّرِّيَّةَ
وَالْحَرِيمَ ، فِي سَنَةِ ٤٥٦ ؛ فَكَانَ الْفَجْعُ بِهَا أَكْبَرَ . وَكَانَتْ مُدَّةُ الْإِسْلَامِ
بِهَا بَعْضًا وَسَبْعِينَ سَنَةً . وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ قَائِدُهَا إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ ، وَكَانَ
لَهُ مَحَلٌّ مِنْ قَبِيلِهِ ؛ فَأَمَرَ بِهِ ؛ فَضَرَبَتْ عَنْقُهُ . وَكَلَبَ الطَّاعِيَةُ عَلَى هَذِهِ
التَّغُورِ الْغَرِيبَةِ ، وَضَرَبَ عَلَى أَهْلِهَا الْإِتَاوَةَ حَتَّى صَعَقَتْ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ
أَهْلَكَهُ سَنَةَ ٤٥٨ ؛ وَقَامَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ إِذْفُونَشُ ؛ فَشَغَلَ بَابَ عَبَّادٍ إِلَى أَنْ
شَغَلَهُ اللَّهُ بِالْمُرَابِطِينَ .

وَلَمَّا تَوَفَّى الْمُظَفَّرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ عُمَرُ
وَيَحْيَى . وَفِي سَنَةِ ٤٦١ ، عَظُمَ بَيْنَهُمَا الْخِلَافُ وَالنِّزَاعُ ؛ وَحَصَلَ الطَّاعِيَةُ
بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى مَا أَرَادَهُ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا لَهُمْ وَذَخِيرَتُهُمْ ، فَسَبِيلُ
التَّضَرُّبِ مِنْ مُنَارِحِهِمْ . فَشَبَّتْ نَارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمَا ، وَتَعَلَّقَ مِنْهَا بِحِي
بُولَايَةِ ابْنِ دَنْثُونٍ ؛ وَمَالَ أَخُوهُ عُمَرُ إِلَى تَوَلِّيِ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ . وَمَا
زَالَتِ السَّعَايَاتُ تَقْدَحُ بَيْنَهُمَا حَتَّى اصْطَلَمَتِ الْبِلَادُ ، وَاجْتَاكَتِ الرَّعِيَّةُ . وَأَزْرَاحَ
اللَّهُ زَمَنُهَا بِمَوْتِ أَحَدِ الْأَخَوَيْنِ بِحِي . وَاسْتَوْسَقَ الْأَمْرُ لِأَخِيهِ عُمَرَ ؛
فَاسْتَحَقَّ الْإِنْفِرَادَ بِالذِّكْرِ .

دولة المتوكل على الله عمر

ابن المظفر بن الأفطس

وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ مَلِكًا عَالِي الْقَدْرِ ، مَشْهُورَ الْفَضْلِ ، مَثَلًا فِي الْجَلَالَةِ
وَالسَّرِ ، مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْحَزْمِ وَالْبَلَاغَةِ . وَكَانَتْ مَدِينَةُ بَطْلَنِيُوسَ فِي
مُدَّتِهِ دَارَ أَذَبٍ وَشِعْرِ وَنَحْوٍ وَعِلْمٍ .

وَقَالَ الْقَتْنَجِيُّ عِنْدَ ذِكْرِهِ فِي « فَلَانْدِهِ » : مَلَكَ جُنْدَ الْكِتَابِ
وَالْجُنُودِ ، وَعَقْدَ الْأَلْثَرِيَّةِ وَالْبُودِ ، وَأَمَرَ الْأَيَّامَ فَاسْتَمَرَّتْ ، وَطَافَتْ
الْأَمَالُ بِكَعْفَتِهِ وَاعْتَمَرَتْ ، إِلَى لِسْنِ وَفَاحَةٍ ، وَرَحِبِ جَنَابِ الْوَاغِدِ
وَسَاحَةِ ، وَتَنَظَّمَ يَزْرِي بِالْدرِّ النِّظِيمِ ، وَتَشَرَّرَ يَسْرِي فِي رَقَّةِ النَّسِيمِ ، وَأَيَّامُ
كَانَتْهَا مِنْ حُسْنِهَا جُمِعَ ، وَلِيَالٍ كَانَ فِيهَا عَلَى الْإِنْسِ حُضُورٌ وَمُجْتَمَعٌ .
وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ بْنُ غَانِمٍ : كَتَبَ إِلَيَّ الْمُتَوَكِّلُ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فِي
وَرَقَةٍ كَرُّتَنِي مِنْ بَعْضِ الْبَسَائِنِ : [مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

أَهْضُ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَأَسْقُطْ سَقُوطَ النَّدَى عَلَيْنَا
فَنَحْنُ عِقْدُهُ بَغِيرُ وَسْطَتِي مَا لَمْ تَكُنْ حَاضِرًا لَدَيْنَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ دُخُولِ طَلَيْطُلَةَ فِي أَمْرِهِ ، وَانْتِقَالِهِ إِلَيْهَا ، وَمَقَامِهِ
بِهَا الْمُدَّةَ الْمَذْكُورَةَ . وَاسْتَمَرَّتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ تَغْلَبَ اللَّيْمُونِيُونَ
الْمُسْتَمُونَ بِالْمُرَابِطِينَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ؛ فَضَيَّقَ الْأَمِيرُ سِيرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ
بِبَطْلَنِيُوسَ بِالسَّرَايَا وَالْفَارَاتِ ، وَالْمُتَوَكِّلُ يَطْمَعُ بِالتَّسْكُّ بِهَا لِقُرْبِهِ
مِنْ حُدُودِ النَّصَارَى . فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُ ، وَعَجَزَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ، رَاسَلَ إِذْفُونَشَ
مَلِكَ قَسْتَالَةَ ، وَأَطْمَعَهُ - زَعَمُوا - فِي الْمَدِينَةِ ، وَخَرَجَ لَهُ عَنْ مَدِينَةِ

١ راجع « فلاند المقيان » ص ٤٦ .

سَنَتَرِينَ ، فحَصَّنَهَا العدوَّ وضَبَطَهَا . وعندما مُكِّنَ العدوُّ من سَنَتَرِينَ ، انخرَفَتْ عنه الرعيَّةُ ، واتَّصَلَ عليه الحملُ ، وضَاقَتِ الصدورُ ؛ وراسَلَ أَهْلُ بَطْلَيْوَسَ المُرَاطِطِينَ ، فوصلَتْها الجيوشُ ، وفتحَ الناسُ الأبوابَ ؛ فدخلَ القومُ غُدَّةً ، وقَبِضَ على المَتَوَكِّلِ وعلى بَنِيهِ وعَبِيدِهِ ، واستَخْرِجَ ما كانَ له من مالٍ وذخيرةٍ ؛ وأزْعَجَ مع ابْنَتَيْنِ لَهُ إلى إِشْبِيلِيَّةَ . وفي أثناءِ الطريقِ ، لما بَعُدَ من بَطْلَيْوَسَ ، أنْزَلَ وأَمَرَ بالتَّأَهُبِ للموتِ ؛ فسألَ أن يُقَدِّمَ ابْنَاهُ قَبْلَهُ لِيَحْتَسِبَ بِهِمَا ؛ فكانَ كذلكَ . وقُتِلَ الجميعُ صَبْرًا ؛ وذلكَ في أخرياتِ سنة ٤٨٨ . وكانَ قد اشْتَخَصَ وَلَدَهُ الملقَّبَ بالمنصورِ إلى حِصْنٍ سَاحِلِيٍّ لِيَتَحَصَّنَ بِهِ ؛ وجعلَ عندهَ ذخيرةً .

أيام المنصور بن المتوكل عمر

ابن الأفتس بمحسن شانجش

ولما اتَّصَلَ بِهِ ما جرى القَدَرُ بِهِ في والدِهِ وأَخَوَيْهِ القَضَلِ وسَعَدَ أَبِي عَمَرَ ، وَجَّهَ إلى إِذْقُونَشْ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، ودخلَ - زَعَبُوا - في دِينِهِ ، وصدرَ معه إلى بلادِهِ ، بعدَ أن تَقَفَّ الحصنَ بِرجالِهِ . وانتهى أَمْرُ بَنِي الأَفْطَسِ .

وقد رثاهم الوزيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ بنَ عَبْدِونٍ عَظِيمُ مُلْكِهِمْ ، وناظِمُ سِلْكِهِمْ ، بقصيدةٍ اشتملتَ على كُلِّ مَلِكٍ قُتِلَ ، وَأَسَارَتْ إلى مَن عُدَدَ مِنْهُمْ وَخُتِلَ ،

تُكَبِّرُهَا المَسَامِيعُ ، وَيَعْتَبِيرُ بِهَا السَّامِعُ ؛ وهي ١ : [البسيط]

تسرُّ بالشيءِ لكن كسي تفرَّ به كالأيم نر إلى الجاني من الزهر

١ ليست القصيدة مودة هنا بشماها ، إذ نقص منها الأبيات السبع الأولى . راجع نصها في « قلائد المياني » (ص ٣٨ - ٤٠) ، وفي « المعجب » لعبد الواحد المراكشي (ص ٥٣) ، إلخ .

كَمْ دولة وليت بالنصر خدمتها
هوت بدارا وفلت غرب قاتله
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
وأبعت أختها طسما وعاد على
وما أقالت ذوي الهيئات من يمين
ومزقت سبأ في كل قاصية
وأنفذت في كلليب حكما ورمت
ولم ترد على الضليل صحته
ودوخت آل ذبيان وجيوتهم
وألقت بعتدي بالعراق على
وبلغت يزجرجد الصين واختزلت
ومزقت جعفرأ بالبيض واختلست
وأشرقت بجبيب فوق فارعة
وخاضبت شيب عثمان دما وخطت
وأجزرت سيف أسفاها أبا حسن
وليتها إذ فدت عمرا بخارجة
وما رعت لأبي اليقظان صحته
وفي ابن هندی وفي ابن المصطفى حسن
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد
وعمت بالطبي فودى أبي أنس
وأزلت مصعبا من رأس شاهقة
ولم ترأب مكان ابن الزبير ولا

لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
وكان عضبا على الأملاك ذا أثر
ولم تدع لبني يونان من أثر
عاد وجرحهم منها ناقص المرر
ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
فما التقى رائح منهم بمبتكر
هلها بين سمع الأرض والبصر
ولا نلت أسدا عن ربها حجير
لخما وغطت بني بدر على النهر
يد ابنه أحمر العينين والشعر
عنه سوى الفرس جمع الترك والجزر
من غيلة حمزة الظلام للجزر
وألصقت طلحة الفياض للعفر
إلى الزبير ولم تستحي من عمر
وأمكنك من حسين راحتي شمر
فدت عليا بمن شئت من البشر
ولم تزوده الا الضيق في العمر
أنت بمعضلة الألباب والفكر
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر
ولم ترد الردي عنه قفا زفر
كانت له مهجة المختار في وزر
راعت عيادته باليت والحجر

ولم تدع لأبي الذبّان قاضيه ليس اللطيم لها عمروً بمنصر وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم تُبقِ الخلافة بين الكاس والوتر ولم تعد قضب السفّاح نابئةً عن راس مروان أو أشياعه الفجر وأسبكت دمعاً الروح الأمين على دمٍ بفتح لآلِ المصطفى هدير وأشرفت جعفرًا والفضلُ ينظره والشيخُ يحيى بريق الصارم الذكر ولا وفّتُ بعهود المستعين ولا بما تأكّد للمعتز من مررٍ وأوثقت في عراها كلَّ مُعتمدٍ وأشرفت بقذاها كلَّ مقتدرٍ وروعت كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ وصمّت كلَّ منصورٍ ومُنْتَصِرٍ بني المُظفّر والأيام ما برحت مراحلًا والورى منها على سفرٍ سحاً ليومكم يوماً ولا حملت بثله ليلة في سالف العمر من للأسيّة يديها إلى الثغر من للبراعة أو للبراعة أو للبراعة أو دفع كارثة أو ردع آزرقة أو قمع حادثة تُعيي على القدر وبيع السباح وبيع البأس لوسلما وحسرة الدين والدنيا على عمر سقت ثرى الفضل والعبّاس هاميةً تعزى إليهم سحاً لا إلى المطر ثلاثة ما رأى السعدانِ مثلهم فاختبر ولو عزّزا في الحوت بالقمر وكلّ ما طار من نسر ولم يطير ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا حتى التبّع في الآصال والبكر ومرّ من كلّ شيء فيه أطيبه قلوبنا وعيون الأنجم الزهر من للجلال الذي عمّت مهابته على دعائم من عزّ ومن ظفر ابن الإباء الذي أرسوا قواعده فلم يرد أحد منها على كدر أين الوفاء الذي أصفوا مشارعه عنها استطارت بن فيها ولم تقر كانوا رواسي أرض الله منذ ناوا

من لي ولا من لهم ان عطّلت سننٌ وأخفت ألسنٌ والآثار والسير من لي ولا من لهم إن أعضلت محنٌ ولم يكن وردّها يدعو الى صدر على الفضائل إلّا الصبر بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر يرجو عسى وله في أختها أملٌ والدهر ذو عقب شتى وذو غير أنبئنا هذه القصيدة لمناسبتها لغرض التأريخ .

ذكر مدة بني صمادح الامراء بالمرية

قالوا : كان جدّهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر بن عميرة بن مُريّج بن حرّمكة بن تميم بن المخضب بن شبيب بن الدعان بن سعد بن أشرس الواقع والده على ثجيب ؛ عُرِفُوا بأمتهم . كذا أثبتت نسبهم ابن الصيرفي . وثبت في « كتاب المغرب » انهم جدّهم أبا يحيى بن أحمد بن صمادح ؛ فيظهر أن هذه الاسماء الثلاثة متأخرة عن عبد الرحمن هذا الذي ذكر ابن الصيرفي ومُتَّصِلَةٌ به .

وكان جدّهم، حسباً ذكر ابن حيّان إذ قال : أبو يحيى بن أحمد صاحب مدينة وشقة وأعمالها ؛ وطلعت نبأته في أيام المؤيد هشام ؛ ثم أكّد له ذلك سليمان بن الحَكَم ؛ فتشّى له الوزارة ، وأمضاه على عمله . وكان أوّل أمره مُمانلاً لابن عمّه مُنذِر بن يحيى ، يُظهر موافقته ، ويكاتبه حسده بما لا شيء فوقه ؛ ثم تكاشفاً بعد مضي سليمان ، ونجاراً على ملك وشقة ؛ فعجز ابن صمادح عن مُنذِر لكثرة جمعه ، وسلّم له البلد ، وفرّ بنفسه . وأمّا ابنه مَعْن ، فنحن نذكره .

أيام معن بن صمادح

قلوا : لما قُتِلَ زُهَيْرُ الْفَتَى بظَاهِرِ غَرْناطة على يَدَيِ بَادِيسَ بْنِ حَبُوسٍ أميرِ صَنْهَاجة ، حسباً بِأُتِي ذِكْرُهُ ، وصارت الْمَرْيَةُ دارُ مُلْكِهِ إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحبِ بِلَنْسِيَّة ، حَسَدَهُ على ذلك ، ونافَسَهُ فيما صار إليه مُجَاهِدُ مَوْلَى سَلَفِهِ ؛ فَتَحَرَّكَ إلى بلاد عبد العزيز ، وهو يومئذٍ مشغولٌ بما نَفَلَ الدَّهْرُ من تَوَكُّه زُهَيْرِ الْقَتِيلِ ؛ فخرج مُبادِراً إلى استصلاح مُجَاهِدٍ ؛ واستخلف بِالْمَرْيَةِ صُورَهُ ووزيره مَعَنَ بنُ صمادح هذا ؛ فكان شراً مُسْتَخْلَفَ بدارِ مُلْكِهِ ؛ فلم يَكُنْ يُؤَارِي عبد العزيزَ وَجْهَهُ حتى خَانَهُ الْأَمَانَةُ ، وطردَهُ عن الإمارة ، ونصب له الحَرْبَ ؛ وفازت بها قَداحُهُ واستقرَّ فيها ملكُهُ ، وخلفها مِيراثاً لَبَنِيهِ بَعْدَهُ . ثم هلك . وأقامَ بِأَثَرِهِ بَعْدَهُ وَلَدُهُ أَبُو بَحِي .

أيام محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله

قال المؤرِّخ : فارتقى ذروة الخِلافة ، وتلقَّبَ من ألقاب الخُلَفَاءِ بِالْمُعْتَصِمِ بالله وبالرُّشِيدِ .

قال ابنُ بَسَّام : ولم يكن أبو بَحِي هذا من ملوك الْفِتْنَةِ في شيءٍ فَإِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الدَّعَةِ ، واكتفى بالضيق من السَّعَةِ ، واقتصر على قَصْرِ بَيْنِيهِ ، وعلقَ بِفَتْنِهِ ، وميدانٍ من اللَذَّةِ استوى عليه ، وبرَّزَ فيه ، غَيْرَ أَنَّهُ كان رَحِبَ الْفَنَاءِ ، جَزَلَ الْعَطَاءِ ، حَلِيماً عن الدِّمَاءِ والدماء ، طافت به الآمال ، واتَّسَعَ في مَدَنِهِ الْمَقَال ، وأُعْجِلَتْ إلى حَضْرَتِهِ الرِّحَال ، ولزِمَهُ فُجُولُ من السُّعْرَاءِ كَأَيِّ عبد الله بن الحُدَّاد ، وابنِ عُبَادَةَ ، وابنِ الشَّهِيدِ ،

وغيرهم . وكانت بينه وبين ملوك الطوائف فتونٌ مُبَيَّرةٌ ، غبوه عليها ، وأخرجوه من سَجِيَّتِهِ إليها مُكْرَهاً ، لم يكن مكانُهُ منها بِمَكِينٍ ، ولا فَتَحَهُ بِمُبِينٍ .

ولما ملك يوسف بن تاشفين أرضَ الأندلس ، وعزم على خلع رؤسائها ، ونازلت المحلات غَرْناطة ، أمر الأمير يحيى بن واسنو منهم بِمُحَاصَرَةِ الْمَرْيَةِ ، والنضيق على الْمُعْتَصِمِ ؛ فطال به الحصار ، وتُمَلَّكَتْ حصونُها وجهاتها ؛ فلم يَبْقَ بيد الْمُعْتَصِمِ غَيْرُهَا . وضائق بها الأحوال ، وشرع أهلُها في الفرار . واعتلَّ الْمُعْتَصِمُ ، ونزل به الموتُ أَثْناءَ مُحَاصَرَتِهَا ؛ فذكروا أَنَّهُ نظر إلى جاريةٍ عند رأسه تبكي عليه ؛ فقال لها : [المقارب]

توفَّقْ بدمعك لا تفنِّه فين يَدَيْكَ بكاءً طَوِيلَ

وأوصى وَلَدَهُ ولياً عَهْدِهِ مُعِزُّ الدولة أَن يَتِمَّسَكَ بِقَصَبَةِ الْمَرْيَةِ ما أقام ابنُ عَبَّادٍ مُتَمَسِّكاً بِإِسْبِيلِيَّةٍ ؛ فإذا أَفْضَى أمرُهُ إلى خَلْعِهِ ، فليُعبِّرَ الْبَحْرَ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ إلى الجزائرِ جَزائِرَ بَنِي مَزْعَنَّا ؛ وقد كان راسلاً صاحبَ الجزائرِ ، ووجهٌ إليه أحمد بن عبد العزيز بن عَيْشُونٍ من أهل بَلَدِهِ ؛ فوَصَلَ إلى المنصور بن الناصر بن عَلْتَّاسٍ ، وهو يومئذٍ بِالْقَلْعَةِ ، يخطف إليه جوارَهُ والتحوَّلَ إليه ؛ فتلقَّاه بالرحب والسَّعة ، وخبَّرَهُ في أَقْطارِ بلادِهِ . ثم توفِّي الْمُعْتَصِمُ بنُ صمادح في ربيع الآخر من سنة ٤٨٤ . ولما اتَّصلَ موتهُ بِالْمُعْتَصِمِ ابنِ عَبَّادٍ ، قال : « رَجُلٌ استصحب حالَ سَعْدِهِ من قَصْرِهِ إلى قَبْرِهِ ! كان الموتُ كَأَسَأَ يَدِهِ ؛ فحين استطابَهَا ، تَجَرَّعَهَا ! »

وذكر الفتحُ الْمُعْتَصِمَ بِيَعُضِ ما يُوجِبُهُ الانصافُ لَشَأْنِهِ ؛ فذكر أَيْبَاناً كتب بها إليه ابنُ عَمَّارٍ ، وقد طال مقامُهُ ضيفاً لَدَيْهِ ، ومُجَوِّباً بِسحابِ يَدَيْهِ ، وهي :

١ راجع « القلائد » (ص ٤٩) .

٢ أورد الفتح هذه القطعة والتي تليها في « قلائد المعيان » (ص ٥٠) .

ب واضحاً فضح اسجد ب مجود في معنى السراح
ومطبقاً يثني وجو ه الجدة من طرق المزاح
أسرفت في برّ الضيف ف فجده قبيلاً في السراح

فوقع له نجيباً ، ومن فراقه إياه كئيباً :

يا فاضلاً في شكره أصل المساء مع الصباح
هلاً رفقت بهجتي عند التكلم في السراح
إنّ السراح ببعدهم والله ليس من السراح

أيام معز الدولة بن المعتصم بالله

أبي يحيى بن ضامح

ولما توفيّ المعتصم ، أقام معز الدولة يصوّب ويصعد ، ويعمل النظر
في امثله وصية أبيه ؛ فجعل يبدى غرضه في نقل روجه بنت مجاهد إلى
دانية ، وينزل أسبابها إلى المدينة ، ليكون أقرب إلى الإيساق في البحر .
فلما كمل ما أرادته من ذلك ، وافاه اليقين بتغلب المرابطين على ابن
عبّاد وخروجه عن ملكه ؛ فأمر رجاله بنقّب السور خارج باب مؤمى
إلى دار الصنعة ، وركب بمن اختص به في قطنة ، وحمل المال والمتاع
في ثنتين ، وأحرق باقي الأجنحة حشية الانتباع ؛ فأمن عاديته ، ونزل
بالخزائن على البخت وطائر اليس ، إلى أن هلك . وانقضت أيام بني
ضامح .

ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر

وكان هؤلاء البقايّا العامريّون ولدوا المظفر والمنصور من نخطام
الهلاك عند ثورة عبد الجبار ؛ وسلّمت لبعضهم دية عريضة . ولما استقر
الأمر سليمان بن الحكم مدّته الأولى ، تقرب منهم ، واجتلب صنائعهم ،
وأذن في مواراة شلور عبد الرحمن بن أبي عامر ؛ فبولغ في التوبة به
أقصى المبالغ ، وأعلن النوح لها ، وأقامت العامرية ها المآتم الملوكية .
وبرز الطغلان ابن العمّ محمد بن المظفر وعبد العزيز بن المنصور ،
وأشقهما لا يجاوز سبع سنين ؛ فكافا تحت رعي ، إلى أن اختل أمر
سليمان بن الحكم بعودة عدوهما وقاتل أبيهما محمد بن عبد الجبار إلى
قرطبة ؛ فخرج عبد العزيز عنها ، وتآذّن الله سبحانه بتجدد ملك كبير
لعبد العزيز منها بشرق الأندلس ، دام سنين عديدة .

دولة محمد بن المظفر عبد الملك بن محمد

المنصور أبي عامر بن أبي عامر الملقب بالمعتصم

قال ابن أبي الفياض وغيره : كان محمد جليلاً سخياً . وكان يوم وقعت
الآفة بدولتهم صبيّاً صغيراً من نحو سبع سنين . واستقر بالتغر في كنف
ممنّار بن يحيى ؛ ثم صرف إلى كورة جيان ؛ فظهر ببعض أحواره ،
وضمّ إلى نفسه الرجل ، مستعيناً على ذلك بأموال عضية خلصت له . كانت
تهدده ، إلى أن ظهر أمره . فلما استقرّ خيران الفتن العامري
بقنعة ربيعة ورسمية ، وذرعه الموفق مجاهد عمري صاحب دانية ،
وتيجت مجاهد عليه الهزيمة ، عجز عن مقدومة مجاهد ؛ فخطب محمد

ابن المظفر يدعوه إلى ملك ما بيده ؛ فأسرعه إليه ، وملكه من زبولة ومُرسية ، وخرج له عن الأمر ، وصار في جملة من بين يديه . ثم فسد ما بينه وبين خيران ، وتغير له حتى حذره خيران على نفسه ؛ ففر عنه ، وقصد المرسية ؛ فاحتل بها ليلة الرابع عشر لربيع الآخر من سنة ٤١٢ . ثم تحرك منها إلى مُرسية ، محارباً لمحمد المعتصم ؛ فألح عليه حتى أخرجه عنها في السادس لربيع الأول من سنة ٤١٣ بعد ها . وذلك أن محمداً أضع الحزم ؛ فخرج عن المدينة ، وقد داخل خيران من أهل مُرسية رجلاً يعرف بعميرة بن الفضل ؛ فسد الباب دونه ، وضبط المدينة باسم خيران . ولجأ المعتصم محمد بن المظفر إلى أربؤلة ؛ فصمد إليه خيران . ولما علم محمد أنه لا طاقة له بخيران ، فر عنها ، ولحق بمجاهد ؛ فكان عنده مدة . ثم توجه إلى البلاد الغربية من جهة الأندلس ؛ فاستقر بحصن دارة ، وبها توفي من جذري أصابه ، في ليلة الجمعة من ليلتين تلتا من شهر رمضان سنة ٤٢١ .

وأخبر الإمام أبو محمد بن حزم أنه ، لما أيقن بالموت ، دق جوهراً عظيماً كانت قيمته ما لا نهاية له ، لئلا ينتفع به أحد بعده . فانقض أمره على هذه السبيل . وهو من شرط كتابنا ، إذ كان ممن يبيع قبل الاحتلام ، من ملوك الإسلام ؛ وكذلك ابن عمه الآتي ذكره .

أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر

عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر

قال أصحاب التاريخ : كان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد كبيرهم عنهم ، قد أسندوا أمرهم إلى مشيخة منهم ، وتشاوروا في ارتقاء أمير من أنفسهم ، يعترفون له ؛ فاتفقوا على ابن مولا محمد عبد العزيز هذا ،

لما نادى له على ابن عمه محمد بن عبد الملك ؛ وكان محمد مقيمًا بقرطبة ، وعبد العزيز بسر قسطة ؛ فليق بيلكنسية ، واستقبله الموالي أفواجاً ، ينفعون له بالطاعة ، وقتلوه رياستهم سنة ٤١٧ .

وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقرابته ، قد ابتغى الله رحمة للمستحقين من أهل بيته ؛ فأوامهم ، وجبر كسروهم ، ونعش فقيرهم طول مدته ، إلى أن بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه . وخاطب لأول حينه الخليفة القائم بن حمود بقرطبة ، ولطفه هدية حسنة ، وذكره بدمام سلفه ؛ فتقبله ، وسماه ذا السابقتين ، ولقبه المؤتمنين . فتوطد سلطانه . واشتمل على خدمته أربعة من الكتاب كانوا يُسمون الطباع الأربع ، وهم : ابن طائوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرتي كاتب رسائله ؛ ولم تزل حاله تسو حتى اتصل بوزارته ؛ فقال جسيماً من دنياه . وكان له من جهة سلفه للأئمة ملوك النصارى حظ انتفع به ، عند ما فازعه الأمر بمجاهد جاره بدانية ، وضيق عليه ؛ واستظهر بجيوش النصرانية في أخبار يطول شرحها .

وفي أيام عبد العزيز هذا ، كانت الواقعة على المسلمين ببطرنّة ، حسبا هو مشهور . وطالت مدة عبد العزيز إلى سنة ٤٥٢ ، وتوفي في ذي الحجة منها . وعهد بالأمر إلى ولده عبد الملك .

أيام عبد الملك بن عبد العزيز

ابن عبد الرحمن بن أبي عامر

ولما هلك عبد العزيز ، اجتمع أهل دولته على ابنه عبد الملك ، وهو صبي لم يبلغ الحلم ؛ فهو من شرط كتابنا فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . وقام له بالأمر كله كاتب والده المدبر لدولته

بن عبد العزيز المعروف مبع معروفة بن رويش القراحي ؛
 وكان موصوفاً بدرجة ؛ فأحسن معونته . وبنى تهيبة سطة ؛
 واستقر أمره ؛ ورعى عن الكاتب الشهير مدبر الدولة في عبدك
 مكان حبره وخبره بن دنون المؤمن ، وكان صهر عبد الملك ؛
 نرائه المساهمة في منصب أبيه ، المعين له على سداً ثمة ، المائد عنه كل
 من طمع فيه .

ذكر أيام الدولة المنذرية

قال ابن حبان : كان منذر بن يحيى رجلاً من عرَض الجند ؛ وترقى
 إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر ؛ وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة .
 وكان أبوه يحيى من القرويين غير الثبهاء ؛ فأما ابنه هذا فكان فارساً
 سبق القروية ، خرجاً عن حد الجهل . يتمسك بطرف من الكتابة
 السدجة ؛ وأما غدره ، فثار برأس اليفاع ؛ من أفحشه غدره بيشام
 المؤيد موى بعينه ؛ ولم يقتصر على غدره حتى غزا في عقر داره ،
 وأزله عن مريه ، وأسمه خلفه ، وباع دمه أهل قرطبة عشيرة . وعاد
 منهم محمد بن أسيد أثيره ، عندما استجابه في كنيته ؛ فقتله .
 وهو ضيفه ؛ فحده بـ خمسة مشهورة ، لم تعسهم معذرة ، إلا أنه كان
 كرم ؛ وهب لثلاثة ملاً عظيماً ؛ فوفدوا عليه . وعمرت بذلك حضرته
 أرقاً طعة ، مجسدت بدمه ، وهفت المساج بدم كثره . وكان لأهل
 واحة قد سلس بخصه القروية ؛ فحفظت خزانة أبي أبي
 سبيه .

وفي سنة ٢٣١ ، قتل منذر بن يحيى . فبسط رجل من بني ثمة
 يعرف بعد ثمة بن حكيم ، دخل عليه ، وعرف في غلابة . وليس عنده

إلا بعضاً من ثمة ، وقد أكتب سبع كتب ؛ قد خصلت من بين
 يديه ؛ إلا خدماً منهم قتلته عبد ثمة مع منذر مودة ؛ ونصع رأس
 منذر ، وأخرجه للوقت . وفعد في موضعه ؛ وقد ركب من لخطه
 التغري مراكب لم يجسر عليه فارتدت قبيلة ؛ استقطت فتكته كل
 فتك في الإسلام . لونه على ملك جوف قصره وبين يديه زبيد من
 مائة رجل سوى نسائه ؛ قام بن خضوع كالأسد لوزاء ؛ فأبسو وبتوا ؛
 فلم يكن من أحد منهم مدافعة . وأدس من حينه عن قاضي والمشيخة ؛
 فدخلوا عليه . وهو قاعد على فرش منذر ، وهو زمزم في دمانه إلى
 جانبه ؛ فوصف أنه بما جرى في سبل الإصلاح والشدة لسنابهم ، وأظهر
 الدعاء أولاً لابن هود ، فأرواه قبولاً . وحقه ، وتفرقوا عنه . وكلمتهم
 متألقة عليه ، إلى أن ثاروا به وقتلوه ؛ فخرج من باب بظهر القصر ،
 ونجا بفاخر ما استمل عليه من ذخائر آل منذر ؛ وخلق حصن روطه
 أحد معاقل مرقسطة المنعة . وقد كان أعداه لنفسه ؛ فأقام به يرصد
 الفتنة جهده ؛ وحمل معه أخوان منذر قسيه . وأل تغيرة بن
 حزم وزير منذر ، وغيرهم مقيدين ؛ فحبسهم عنده بصلابهم بالأموال .
 ونهب القوم قصر مرقسطة إثر خروجه حتى قنعوا برأيه . وطسوا
 أثره . ودار ابن هود ؛ فتملك مرقسطة سنة ٢٣١ .

وقال ابن حبان فيه : كان قد أسس عظمة القروية ؛ وحفظت
 أطرافه . إلى أن مضى بسببه ، وتعداه مسدوداً لا ثمة فيه ؛ وبلغ
 من استقامته الطوائف النصرانية أن عرى عيسى عليه وبحضرته عقد
 مصاهره بغيره ؛ فتركته لأشياء من ثمة ؛ فاعترف
 الناس برأيه . ولم يأت بعده من سداً مسدود . وبن منذر على
 قواد تلك المغور ؛ فستوسقت له الأمور وسكنت عنه ؛ من كتاب
 الثبهاء ، وقصده كابير الشعير ؛ ربه يقول وعمر بن كراج

قَصِيدَتُهُ ، لما صرف إليه وَجْهَهُ ، وقدم عليه سنة ٤٢٨ هـ ، وهي : [الكامل]

بُشْرَاكَ مِنْ طَوْلِ التَّحُلِّ وَالسَّرَى
مِنْ حَاجِبِ الشَّمْسِ الَّذِي حَجَبَ الدُّجَى
نَادَيْتَ حَيٍّ عَلَى التَّدَى ثُمَّ اعْتَلَى
لَبَيْكَ أَسْمَعْنَا نِدَاكَ وَدَوْنَنَا

منها :

فَسَرَيْتُ فِي حَرَمِ الْأَهْلَةِ مُظْلِمًا
وَسَعَبْتُ أَفْلَاحَ الْفَوَادِ وَلَمْ أَكْذِبْ
سَتْ تَسْدَأُهَا الْجَلَاءُ مَغْرِبًا
طُعْنُ أَلْفِنِ الْفَقْرِ فِي غَوْلِ الدُّجَى
يَطْلُبُنَّ لِحْ الْبَحْرِ حَيْثُ تَقَافَقَتْ
هَيْمٌ وَمَا يَبْنَعِينَ دُونَكَ مَوْرِدًا
مِنْ كُلِّ نَضْوٍ الْآلِ مَحْبُوكِ الْمُنَى
بَدَنٌ قَدَتْ مِثًا دُمَاءُ نَحْوَرِهَا
نَحَرَتْ بِنَا صَدْرَ الدُّبُورِ فَأَنْبَطَتْ
وَصَبَتْ إِلَى نَحْرِ الصَّبَا فَاسْتَخْلَصَتْ
خَوْصٌ تَقْفَحْنَ بِنَا الْبُرَى حَتَّى انْتَلَتْ
تَذَرَتْ لَنَا أَنْ لَا ثَلَاثِي رَاحَةً
وَتَقَاسَمَتْ أَنْ لَا تَسِيغَ حَيَاتَهَا
لَهُ أَيُّ أَهْلَةٍ بَلَغَتْ بِنَا
بَلْ أَيُّ غُضُنٍ فِي ذِرَاكَ هَصَرَتْهُ
فَجَرِي فَأَوْرَقَ فِي يَدَيْكَ وَأَمَرَا

١ راجع بعض هذه القصيدة في « الذخيرة » لابن بشام (ج ١/١ ، ص ٥٦ - ٥٨) .

فلئن صفا ماء الحياة لَدَيْكَ لِي
ولئن خَلَعْتَ عَلَيَّ بُرْدًا أَخْضَرَا
ولئن مددتْ عَلَيَّ ظِلًّا بَارِدَا
وكفى لِمَنْ جَعَلَ الْحَيَاةَ بَضَاعَةً
لَهْفَانُ لَا يَرْتَدُّ فِي أَجْفَانِهِ
أَبْنَى لَا تَذْهَبُ بِنَفْسِكَ حَسْرَةٌ
فلئن تَرَكْتَ اللَّيْلَ فَوْقِي دَاجِيًا
ولقد وردتْ مِيَاءَ مَأْرِبٍ حَقْلًا
ونظمتْ لِلْعِيدِ الْحَسَانَ قَلَانِدًا
وحللتْ أَرْضًا بُدِّلَتْ حَصْبًا وَهَاجَا
وَلَتَعْلَمَنَّ الْأَمْلاكُ أَنِّي بَعْدَهُمْ
وَرَمَى عَلَيَّ رِدَاءَهُ مِنْ دُونِهِمْ
ضَرَبُوا قِدَاحَهُمْ عَلَيَّ فَفَازَ بِي
مِنْ فَكٍّ طَرَفِي مِنْ تَكَالِيفِ الْفَلَا
وكفى عَنَائِي مِنَ الْأَمِّ مَعَذَرَا
وَمُسَائِلِ عَنِّي الرِّفَاقِ وَوَدَّهِ
وبقيتْ فِي لَجِجِ الْأَمَى مُتَضَلِّلًا
كَتَلًا وَقَدْ آتَسْتُ مِنْ هَوْدَى هُدًى
وَالْحَارِثَ الْجَفْنِيَّ بِمَنْوَعِ الْحَمَى
وَحَطَّطْتُ رَحْلِي بَيْنَ نَارِي حَاتِمٍ
وَلَقِيتُ زَيْدَ الْحَيْلِ تَحْتَ عَجَاجَةٍ
وَعَقَدْتُ فِي يَمَنِ مَوَاتِقَ ذِمَّةٍ
فَبِمَا شَرِقْتُ إِلَيْكَ بِالمَاءِ الصَّرَى
فلقد لَبِستُ إِلَيْكَ عَيْنًا أَغْبَرَا
فَلِمَ صَلَبْتُ إِلَيْكَ حَرًّا مُسْعِرَا
ورأى رِضَاكَ بِهَا رَخِيصًا فَاسْتَرَى
إِلَّا تَذَكَّرَ عِبْرَتِي فَاسْتَعْبَرَا
عَنْ غَوْلِ رَحْلِي مُنْجِدًا أَوْ مُغْوِرَا
فلقد لَقِيتُ الصَّبْحَ بَعْدَكَ أَزْهَرَا
وَاسْتَخِيلِي وَسَطَ جَنَّةٍ عَبَقَرَا
مِنْ تَاجِ كِسْرَى ذِي الْبَهَاءِ وَقَيْصَرَا
ذَهَبًا يَرُوقُ لِنَظَائِرِي وَجَوْهَرَا
أَلْقَيْتُ كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْقَرَا
مَلِكٌ تُخَيِّرُ الْعُلَى فَتَخَيَّرَا
مِنْ كَانَ بِالْقِدْحِ الْمُعْلَى أَجْدَرَا
وَأَجَارَ مِنْ طَرَفِي تَبَارِيحَ الشَّرَى
وَتَذَمُّمِي بِمَنْ نَجَلَّ مَعَذَرَا
لَوْ تَنَبَّذُ السَّاحَاتِ رَحْلِي بِالْعَرَا
وَعَدَلْتُ عَنْ سُبُلِ الْهَدَى مُتَخَيَّرَا
وَلَقِيتُ يُعْرُبُ فِي الْقُبُولِ وَحِينَرَا
بِالْحَيْلِ وَالْأَسَادِ مَبْذُولَ الْقَرَى
أَيَّامَ يَقْرِي مُوسِرًا أَوْ مُعْسِرَا
تَكْسُو غَلَائِلُهَا الْجِيَادَ الضُّمَرَا
مَشْدُودَةَ الْأَسْبَابِ مُوثِقَةَ الْعُرَى

القنافة من الثقف ، جنح إلى الاستقرار ببلنسية ، إلى أن لحقته بها الحادثة . فأُسِرَ وبقي عند العدو مدة . ثم سنى الله خلاصه بقلعة الطمع فيه لدهاب ذات يده ؛ فبحق بشاطبة ؛ ثم عاد إلى بلنسية ؛ فأقام بها إلى أن توفي سنة ٥٠٧ هـ ؛ وقد نيفَ على التسعين سنة . وكان رحمه الله - فصيحَ القلم ، ظريفَ التوقيع ، خفيفَ الروح ، عذبَ النادرة والفكاهة ، حسماً يظهر ذلك من كتابي « القلائد » و « المطمح » .

ذكر شيء من حديث ابن عبد العزيز

وكان الوزير أبو بكر بن عبد العزيز أحدَ رجال الكمال بالأندلس ، وعينَ بلنسية التي بها تبصر ، ولسانها الذي تسهبُ به وتختصر . وكان طاغية الرثوم ، الممارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إياه في أمر بلادهم ، يقول إذا جرى ذكره : « رجال الأندلس ثلاثة ! » فبعدُ فيهم ابن عبد العزيز . ولما فرَّ المتوكل بن المقتدر بن دثون عن طليطلة ، وسوغها لصاحب قشتالة ، لجأ إليه ببلنسية ؛ وقد كان بها وزيراً لأبيه ؛ فكفَّه وقام بأمره . وكانت آثارُ ابن عبد العزيز على الجملة جميلة ؛ وكان ثانياً لأبي الحزم بن جهور وشيهاً له في الجهة الشرقية ؛ حمل جهته على سداد ، وقام بها بحال الاستبداد ؛ فطاوَلَ الجبال والآكام ، وفلَّ السيوف بالأقلام . وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٤٥٦ هـ . وأخبارُ ابن عبد العزيز شهيرة ، وآدابه في الشهرة الشمس في الظهيرة .

أيام القاضي أبي أحمد بن حجاج

رئيس بلنسية

وهو ثالث القوم : ابن عبد العزيز وابن طاهر ، وفي غنمهم . وكان قاضي حضرة بلنسية ؛ وله فيها الأصاله الماجدة ، الناطقة بالقدم الشاهدة . وكان قد سئم إضافة عدو الله الكنيطور ببلنسية وسوءه أهلها خطة الحسف وسئم الذل . وضاق صدره بحقيد ابن دثون المنقل إليه بعد تمكين النصارى من طليطلة ؛ فقوي بمكان دولة اللثونيين ، وانتل على أيديهم كشف الميخنة والخروج من ذل الكنيطور متعبداً أهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بصرامته . فاستدعى محمد بن عائشة قائد يوسف بن تاشفين ؛ فوجه إليه جمعاً من المرابطين ، وبرز الناس إلى لقائه .

وفرَّ عند ذلك حفيد ابن دثون من قصره ، وثار البلد به ؛ وغثِرَ عليه ؛ فقتل بأمر القاضي ابن حجاج ، كما تقدم . وتمت بقتله الرئاسة في البلد لابن حجاج ؛ فرتب الأجناد والخدمة ، واستشعر أهبة الملك ، وعين الألقاب ، وحذا حذو ابن عباد بإشبيلية ؛ فلم تساعد الأيَّام .

وخاطبته عدو الله الكنيطور ، يُنيه على ما نهياً له ، وفي قلبه من استظهاره بسُلطان لثونة النار المضرة ؛ وأخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سُلطانها ، ويطلبه بالأطعمة التي كانت له بمحصول بلنسية ، انتهبا رجاله في حال الحادثة . فراجعهُ أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، والأطعمة قد انتهبت . فكسب إليه الكنيطور ، يقسم بحرجات أيَّان دينه ألا يروح عن بلنسية حتى يظفر به ، ويأخذ ثار ابن دثون . وخاطب من يجاوره من أهل

وَحَطَّطْتُ بَيْنَ جَفَانِهَا وَجُفُوبِهَا حَرَمًا أَبَتْ حُرْمَاتُهُ أَنْ تُخْفَرَا
تلك البدورُ تَابَعَتْ وَخَدَفَتْهَا سَعِيًّا فَكَنَتْ الْجَوْهَرَ الْمُتَخَيَّرَا
ولقد سَمَوْتُكَ ولادةً وسيادةً وَكَسَوْتُكَ عِزًّا وَابْتَنَوْتُ لَكَ مَفْخَرَا
أهدى إلى شغف القلوب من الهوى وَأَلَذَّ في الأجفان من سنة الكرى
ومشاهدك لك لم تكن أيامها ظنًّا يريب ولا حديثًا يُفْتَرَى
لاقت فيها الموتَ أَسْوَدَ أدهمًا فذعرته بالسيف أبيضَ أحمرَا
ولو اجتلى في زِيٍّ قَرْنِكَ معلمًا لتركته تحت العجاج مُعَفَّرَا
يا مَنْ تَكْرُمُ بالتكبر قَدْرُهُ حتى تَكْرُمُ أَنْ يَرَى مُتَكَبِّرَا
والمُنْذِرُ الأعداءَ بالبشرى لنا صدقت صفاتك مُنْذِرَا وَمُبَشِّرَا
ما صَوَّرَ الإيمانُ في قلب امرئٍ حتى يَورِكَ اللهُ فيه مُصَوَّرَا
وعلى ما تقرُّ من قَتْلِ مُنْذِرٍ أَكْثَرُ الحكايات ؛ إِلَّا أَنْ صَاحِبَ
« المغرب » ذكر في كتابه في سنة ٤٣٨ حديث آل المُنْذِرِ ؛ فقال ما
نصُّه : وذلك أَنَّ أَمْرَ سَرَقِسطَه كان إلى رجل من التَّجِيبِيِّينَ يُسَمَّى مُنْذِرَ
ابن يحيى ؛ فكان من قواد الدولة العامرية ، ومات في أمد الفتنة ؛ فورت
ملكه ابنه يحيى بن مُنْذِرٍ ؛ وكانت سنة فيما ذُكِرَ تسع عشرة سنة ؛
فتسمَّى بالخاجب مُعِزَّ الدولة ؛ فاحتقره بنو عمِّه ، وتَوَاطَّطُوا على قَتْلِهِ
مع كبير منهم دَخَلَ يوماً للسلام عليه ؛ فضربه بسكين في صدره ، كان
سبب مَيتَتِهِ . وخرج هذا القاتل ؛ فاجتمع عليه بنو عمِّه ، وولَّوه أَمْرَهُمْ ؛
وكان عاهِرُ الفَرُجِ : ذُكِرَ أَنَّهُ كان يدخل على النساء الحامَّاتِ ؛ فانكروا
فَعَنَّهُ . وقام عليه أهدأ سَرَقِسطَه وهُنا بقتله ؛ فخرجه فارداً بنفسه ،
وأقام أهل سَرَقِسطَه دُونَ أَمِيرٍ ؛ فبَعَثُوا إلى سِجَانِ بن هُدود ؛ فوَلَّوْهُ
على أَنْفُسِهِمْ ؛ فبقي مُيَرَّمُ بن أن مات .

فإن كان ما ذُكِرَ صحيحاً ، فيظهر أَنَّ مُنْذِرَ بن يحيى وَلِيَ بعده وند

له أو أخٌ سَمِيَ لأبيه . فجرت عليه الحادثة الشبيهة بالحادثة عليه ؛ وإلَّا ،
فهو وَهُمْ من المؤرخ . والمشهور في ثوار الأندلس وموسر لطوائف وثما
هو مُنْذِرُ بن يحيى .

ذكر شيء من حديث بني طاهر بمرسية

وكان هذا البيت بمرسية يَبْتَ أعلام ، وحَمَلَكِ سيوفٍ وأقلام . فلما
تفرقت الجماعة بقرطبة ، وجرت الحادثة على الدولة العامرية ، ولجأ فِثْيَانُهَا
إلى شَرْقِ الأندلس ، واستقرَّ منهم خَيْرَانُ العامريُّ بمرسية ، ثم انزعج
عنها حسبا يَنْبِشُّن في موضعه ، تغلب عليها الرئيس أبو عبد الرحمن بن
طاهر ؛ وكان صدرَ زمانه ، والمثل السائر في بلاغته وبيانه ؛ فأجرى
أُمُورَ بِلَدِهِ ، وذهب فيها من العِزِّ إلى أمدِهِ ، مُسْتَعْنِيًّا بِوَفْرِ نَشِيهِ ،
وسائراً من الحزَمِ فيها على مَذْهَبِهِ ، إلى أن فسدت به حاله مع جيرانه ؛
فحسدوه ، ومَوْرَدَ الرَّدَى أَوْرَدُوهُ ، وخاطبوا المُعْتَمِدَ على الله مُحَمَّدَ
ابن عباد . فوجه إليهم وزيره ابن عمار ، وابن رَشِيق قائدَ عسكره .
وثارَ البَلَدُ على ابن طاهر ، وثَقُبُصَ عليه ؛ واستولى ابنُ عمار على
مرسية . وسوَّلت له نفسه القديم بها على المُعْتَمِدِ ؛ ووجه إليه الجيش ،
وخاطبَ ابنَ رَشِيق في شأن الوثوب به . فتوصدَّ غِرَّتَهُ ، وقد خرج عن
مرسية ؛ فملكها ، ثم استأثرَ بها إلى نفسه ، حسب تقدَّمت الإشارة
إليه . وتَنَأَّى في هذه التقلُّبات الخروِجُ من الاعتقال لابن صهر ؛ فنحَقَ
بِابْنِ عبد العزيز جاره بِيَكْدِسيَّة ، وهو أيضاً كبيرُ ذلك القَطْرِ . وعين
الأعيان ، والمُشَرِّعُ إليه بِلَبْنان .

قال الفتح في « الفلاذ » : وعندما خص من ذلك الشذو . لخصوص

لخصوه ، الذي لا طاقة له ، استنجد الأقوات لمحاربة .

عما كانه ككتيبطور عدو له ابن جعاف ، وخدعه ، ودسسه في إقامة
أوده ونوحيدي ملكه : إذا صرف التتويين وأزعجه ، وبه يسوع
ستبداه بالنك ، ويقيسه مقدم ابن دنون ، ويقترن عنه من يريده ؛
وكان استنق القوم وضاق بمؤنتهم ؛ ففعل . وعند ذلك سبصر في التضيق
عليه ؛ فعظم الغلاء ، وتضاعف البلاء ؛ واستصرخ بأمير المسلمين يوسف
ابن تافين ؛ فبعث إليهم جيشاً عظيماً ، أتبع للكتيبطور عليه الظهور .
فأيقن الناس بالملكة .

واشته عليه ككتيب العدو إلى أن استأنوه لأنفسهم . وخرج إليه ابن
جعاف ، وأحكم معه العقد ؛ ودخل العدو المدينة في جمادى الأولى من
سنة ٤٨٧ . وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية ؛ فما أغنت وفزت بها
قداده . ولما تمكن فيها ، سام أهلها سوء العذاب ، واستخلص أموالهم ،
وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف . واعتقل القاضي أو المصترف جعفر
ابن جعاف ، وعمر بالنكبة جميع قرابه وأهله ، وصلى على حفيد ابن
دنون . فما استصفي جميع ماله من ظاهر وبطن ، أمر بضرام النار .
وسيق القاضي أبو المصترف يوسف في قيوده بين أهله وولده ؛ وقد
حشر الناس من أهل الملتين . وقال الكتيبطور للملأ : ما جزء من
قتل أميره عندكم في شرعكم ؟ فصمتوا ؛ فقال : (ما نحن ، فجزأوه
عندنا الإحراق !) وأمر به وبجملته إلى تلك الدار ؛ وقد نحت الوجوه على
مسافة البعيدة . فخرج المارة والدارى . وشهدوا له في تلك الأطلال
والعيال ، وبلا ذنب هم ؛ فاستغفروا لوجه بعد جهلهم وسوءهم . واحتفر
لقضي في حفرة حفرة ، وأدس فيها في حجره رمواي القربا
نحوته وضمت إليه النار . فما نعت وجهه ، سمى به وحين
لرحمه ؛ ثم ضمتها إلى جسده ؛ وحترق رحمه به . ولم يكن

غصبه عليه إلا لاجتبهده في طيب الضر . ودفعه إليه بالمصاولة ، رجاء
في استنساك البدة للإسلام . وسبقه الكلمة فيه .

وبعد بعد إحراقه إلى الجلاء من أهل بلنسية ؛ فتفقهم بحال
تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء . يتجاوب صراخهم أمام
المحنة ، حتى استأصل جميع ما عندهم . وجعل الناس في الضغط أسرة
على طبقاتهم . وهلك في التفاف خلق كثير منهم رحمهم الله في
آخرات السنة .

ذكر شيء من أخبار بني رزين

قال ابن حبان : وقد ذكر أبو مروان بن رزين الملقب بحسام الدولة ؛
كان جدده هذيل بن حنبل بن شب بن رزين صاحب السهلة ، موصلة
م بين النعمان ، الأبي والأدنى من قرطبة . وكان من أكابر بواب
بغداد . ورت ذلك عن سلفه . ثم ساء لأول الفتن . في اقتطاع عمله .
والإمارة بحسنة ، والتشبه بحره ؛ سعيد بن دنون في الشروء عن سلطان
قرطبة . فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره ، إلا أنه كان مع تعززه
على هشام ، لم يخرج عن طاعه ، ولا وافق منيراً وأصحابه على التنازل
عنه ، إلى أن ظفر سبها بستم المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة ؛ فسلك
من كتمه . ورضي له بذلك سمع ، وعقد له على ما في يده لعجزه عنه .
وبن من منة منيراً بن يحيى ؛ وضع فيه ؛ فحاره منه معة معقله ، رسم
من معزة فتنه كمال وفاته . ونحطته حوشت بقوة السعد ؛
وقهر مع ذلك على ضبط اسمه لموسم ولاية والده . وترك لتجوز
حره . والامتداد في تبي من أعمال غيره . واستقام أمره ، وعظم بداه
واحد نعت الجمهور له ؛ رزاندلس مدة حية .

وليس في بلد الثغر أخصب بُقعةً من سهلتِهِ المنسوبة إلى بني كزيرين
سَلَفِهِ ، لا تَصَالُ عبارتها . فكثُرَ ماله إذ ناعى جاره وشبيهه إسماعيل بن
دثون في جُبع المال ، ونافسه في خلال البخل وفَرَطَ القسوة . وكان
شاباً جميلَ الوجه ، حامي الأنف ، غليظَ العقاب . صار إليه أمرُ والده
مُنْبَعَثَ الفِئَةِ ، وهو فتى ما اجتمع وجهه ؛ فَانْجَدَهُ الصبا على
الجهالة ، وقواه الشباب على البطالة ؛ فبعد في الشرود شأوه ؛ ولم يحالف
أحدًا من الأمراء على أداء الإتاوة ، ولا حظي أمراء الفِئَةِ منه بسوى إقامة
الدعوة فَقَطْ ، إلى أن مضى بسيله . والأخبار متتابعةٌ بحجته وفضالته ،
حتى زعموا أنه سطا بوالديته وتولى قتلها بيده . وكان بارعَ الجمال ،
حسنَ الخلق ، أرفعَ الملوك هِمَّةً في اكتساب الآلات ؛ وهو أولُ من
بالغ في الأندلس في شراء الفينات المشهورات ؛ فكانت سِتَارَتُهُ أرفعَ
سِتَارَاتِ الملوك بالأندلس .

وتصير أمرُهُ إلى الحاجب ذي الرِاسَتَيْنِ أبي مروان عبد الملك بن كزيرين
ابن هذيل حُسامِ الدَّوْلَةِ ؛ وعندئذٍ احتفل بحجهم ، وبلغ النهاية في
الإشراف تجدهم .

ذكره القنح في « القلائد » فقال : ورث الرياسة من ملوكٍ عضدوا
مؤازرهم ، وسدوا دون النساء مآزيرهم ، لم يتوشحوا إلا بالحمائل ، ولا
جنحوا للبأس إلا في أعنة الصبا والشمال ، وركبوا الصعاب فذللوها ،
وابتغوا سبباً للنجوم حتى انتعلوها ؛ فملكوا الملك بأيديهم ، وعقلوه من
النجدة بقيد . وكان ذو الرِاسَتَيْنِ منتهى فخارهم ، وقطن مدارهم .
وأما شعرُهُ ، فأخبر الكاتب أبو جعفر بن سعدون أنه أصبح يوماً
بحضرته وللرذاذ رش ، وللربيع على وجه الأرض فرش ، وقد صقل الغمام
الأزهار حتى أذهب نضجها ، وسقاها فأروى عطشها ؛ فكتب إليه :

١ راجع « القلائد » (ص ٥١ - ٥٢) .

[الطويل]

قَدَيْنَاكَ لا يستطيعُ النظم والنورُ فَأَنْتَ ملك الأرض وانقصل الأمرُ
مرينا نذاك الغمر فأنهل صيباً كما سكبت وطفاء أو فتق الزهرُ
وجاء الربيعُ الطلقُ يندى غضارةً فحيثُك منه الشمسُ والروض والنهرُ
وما منهمُ إلا إليك انتماؤه جبينك والجلود المتمم والبشرُ
خلا منك دهرٌ قد مضى بعبوسه فلما أتت أيامُك ابتسم العُصرُ
فبشّرتُ آمالي بملكٍ هو الوريُّ ودارُ هي الدنيا ويوم هو الدهرُ
فأجابه :

إليك فلولا أنت لم ينظم الدرُّ ولا التام في مدح نظام ولا نشرُ
إذا قلت لم ينطق فصيحٌ مدرَّبٌ ولا ساغ في سمع غناء ولا زمرُ
لك السبقُ كم روضت من عاطل الربي وحللت من سحرٍ وقد حرم السحرُ
ولما ملكت القول قسراً وغنوةً أطاعك جيشُ النظم وانتتمر النشرُ
فلا نُقلَ إلا ما تقول بديهةً ولا خمرٌ ما لم تأت من فمك الخمرُ
وكبا به قَرَسُهُ يوماً ، وقد ركب متصيِّداً ؛ فسقط سقطةً أو هنتُ
قواه ، ودعته إلى ملازمة مشواه ؛ وبلغه أن أحدَ حُسادِهِ شت بوقعته ،
ومرَّ بصريحته ، فقال :

[البيط]

إنني سقطت ولا جبن ولا خورُ وليس يدفع ما قد شاءه القدرُ
لا يشينُ حسودي إن سقطتُ فقد يكبو الجواد وينبو الصارمُ الذكركُ
هذا الكسوفُ يرى تأثيره أبداً ولا يعاب به شمسٌ ولا قمرُ

١ راجع « القلائد » (ص ٥٤) .

ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البنت

منهم نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري . ولم تول في أيديهم من أوّل الفتن . وكان أوّل من تأكل بها ، وبني الرياسة لقومه بسببها ، عبد الله هذا المذكور ، إلى أن هلك سنة ٤٢١ . ثم ولي بعده محمد ابنه الملقب ببيمن الدولة ، واستمرت أيامه فيها في جيلة نوار الأندلس وأولي طوائفها إلى سنة ٤٣٤ . ثم ولي بعده ولده أحمد بن محمد بن عبد الله ، الملقب بعز الدولة .

قال أبو مروان بن حيّان عند ذكره : وألقاب سلفه ميسم مهولة لمن حظّه من الدنيا عدّة حربه ، نخط عينه بها من فوق رقبته ؛ فهلك هذا الفتى بمرقبته الشاهقة ولم يمل له بعد أبيه . وكان موته في رجب من هذه السنة . فنصب أصحابه بعده ابناً له صبيّاً ابن سبع سنين أو نحوها ، يُسمّى محمداً ، وسواه بالإمارة مكانه ، وتخطوا بها عيومتهم ، إذ آثرت بها شيخ دولتهم المسمى بقاسم ، جدّ هذا الغلام أبو أمّه ؛ ودبر الأمر باسمه شهوراً ليُبقي النعمة على ابن ابنته المؤمّر ، إلى أن يدرك ؛ فأنف عنه ابن محمد من ذلك ، وواطأ في السر جماعة من أصحاب أخيه على الوثوب بقاسم هذا ، وإزالة أمر ابن ابنته ، والكون مكانه ، خوفاً على ما في أيديهم . فتهيأ له ذلك ، فيما بلغتني ، آخر هذه السنة . ووثب بقاسم ؛ فقيده وحبسه . وصرف الصبي ابن أخيه إلى حجر أمّه ، ونكحها . فاستصلح إلى والدتها المنجوس في يده ، ورضى عنه ، وعاشه إلى حاله مع أخيه شهره الأوّل . وقوم بالإمارة مقامه . هلك ؛ فنظمت له سريعة . واستصلح إلى نوك حوالته ، وسمّى نظام لدولة ؛ فأنصت ولايته .

وقلت : هؤلاء الرؤساء أشهر ممن كان على نواصر الدولة الأموية من رؤساء الطوائف بالأندلس . ما بين متدهي الخلافة ، مجاري كبار الملوك في اتساع الخطّة ، وكثرة الجبّة ، وتوفر الجيش ، وانتشار الشهرة ، واحتفال المباني والآثار ، واستخدام الكتاب والشعراء ، ومحاورة العمد ، واختيار القضاة الفضلاء ، كبنّي عبّاد . وبني هود ، وبني دنثون ، وبني الأفطس ، وبني منذر ، وبني جهور . من أخذان السداد والعافية ، ومن أمثالهم بني أبي عامر .

وكان على عهد هؤلاء جيلة لم تبلغ هذا المدى في الشهرة ، ولا برزت في ميسدان الذّكر . منهم : ابن أبي الحجاج الشنيطي ، القائم بمدينة لاردة .

ومنهم : أبو الأصبع بن مزّين ، وموسى أخوه ؛ وكان أبوهما قاضي شلب وحصون الغرب ، سمى أحدهما بالمظفر ، وانفرد بالأمر دون أخيه ، إلى أن غلب عليه المعتضد سنة ٤٤٣ ؛ فكانت مدتهم تسعاً وثلاثين سنة .

ومنهم : أبو عيسى بن لبّون ، صاحب قلعة عبّاد السلام من الثغر قرب وادي الحجارة .

ومنهم : سعيد بن أحمد بن زنتقل الجماني ، المنتزعي بقسعة سفورة المنية من أطراف جيان .

ومنهم : عبد الحسيد بن مشهور الدابري . ومنهم : يحيى بن غرّان الدابري المنتزعي بصخرة ابن الشراف بسنة بقرعش ، على باب فراطيه . والدابري والدوابري عند أهل أندلس هم الصّاعليّات الذين يثورون في الحصون ، فيقطعون الطرقات ولا يعطون صعة .

ومنهم : ابن بصل ، صاحب حصن شوص من موطنة كنور الغرب .

ومنهم : المعروف بابن أخي حصّاد ، صاحب القلعة المنسوبة إليه
وسط كورة سذونة ؛ إلى عدد كثير شئ علينا ذكرهم مع عدم
الشهرة ، وضؤولة الشأن .

ومنهم : عبد العزيز البكري أبو مصعب ، صاحب سلتطيش ؛
استمرت حاله في رفاقة من العيش لرضى أهل بلده به ، إلى أن تحرّك إليه
ابن عبّاد ؛ فرأى أبو مصعب أن ليس له قدرة على مدافعتيه ؛ فخرج عنها ،
وانتقل إلى قرطبة بأهله ووَلَدَه .

ومنهم : أبو نصر بن يحيى ، المسمى بالحاجب ، ولي بعد أخيه بنواحي
لبلة وولبة وجبل العيون ؛ وكان رخي البال ، صالح الأحوال ، إلى
أن أخرجه عنها ابن عبّاد . وكانت مدة بني يحيى خمسا وأربعين سنة .
وقد مرّ ذكر ابن عمّار وابن رشيقي . ونحن نذكر بعد هؤلاء من
أمكن ذكره من موالي الملوك العامريين .

ذكر من تيسر

من ملوك الموالي الامويين والعامريين

أيام الفتى خيران العامري

نقول : انتهت الشهرة في هؤلاء الممالك العامريين إلى الأمير خيران
بعد انقراض الدولة العامرية . وكان ممن تخطته المتألف عند خلع هشام ،
واستيلاء سليمان بن الحَكَم على قرطبة ، وقتل من قبض عليه منهم .
وأنجاه الفرار له عن الحضرة . وكان قد نال بباب هشام الرئاسة والقيادة
على الصقلب ، والمشاركة في جماعة الفحول النابيين عن الدولة ؛ فخلص من
الحضرة مفلتا ، بعد أن تضمر بها وخفي مكانه ؛ وقد اتصل به انتزاع

أصحابه بشرق الأندلس ؛ فذهب إليهم عن توديع . وأبت له هيئته
الانقياد لأحد من رؤسائهم ، إذ كان ، منذ صباه وفي دار سلطانه ، أسنهم
أبناء جنسه نفسا ، وأغلاهم هيئة . فاستقر مصحبا بين أخرجه من
طرف كورة تدمير ، وكتب إلى جماعتهم من تحته ، ليخبرهم بمذهبه في
النزول بمكانه بينهم وبين عدوهم من البرابرة ، سادّا لثغريهم ، ويسألهم
الإعانة على ذلك ، حتى يدودهم عن كورة تدمير . ففعلوا . واستقر خيران
بذروة أريولة ، وهي مثل في الحصانة والمنعة ؛ وأقبل إليه ثوابيت الفينة
من الدّابرة والصّعاليكة ، أقدم بهم على الكثير ، وزاول جسام الأمور ؛
فاعتلى قدحهُ ، واشتهر أمره إلى أن استولى على الجبهة .

ووجه إليه صاحب قرطبة موسى بن مروان بن حدير ، وكان في
الصرامة والجرأة آية . وكانت بينه وبين خيران وأصحابه وقية أجلت
عن أمر موسى بن حدير ، وقتل أصحابه ، ونصر خيران نصرا عزيزا
اعتلى به . ثم تغلب على رُسية ؛ فكشف جمعه . ثم صرف وجهه إلى
طلب المريّة مغلل الأندلس ؛ وكان بها أفلح الصقلبي من هؤلاء
رجل جلف شديد العتو والجهالة ، مفرط النخوة ، لا يحسن التفرد
والاستقلال بنفسه ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، ورأى لنفسه
الفضل على سائر جنسه بالشيوخوخة وقديم الملكة . فاستهان الناس ؛
فتعبأ له خيران في جيشه من رُسية غرة المحرم سنة ٤٠٥ ؛ فنازله ،
ودخل المدينة ، وتغلب على القصة ؛ فقتل أفلح ووَلَدَه ، وحاز ما
وجد فيها من مال وعدة ؛ وهتف في رعيثها بالأمان ، واتخذ المدينة
وطنا ناله برجاله وماله ، واستخلف على ما انصرف عنه ، وعول على
المريّة ؛ فأحسن صبطها ، وحصن قصبتها ، وسد عوراتها ، إلى أن
صيرها في الحد الذي هي اليوم فيه ؛ فلا يُرام التعلق بها . واتخذها
قاعدة لسلطانه ، وحمل إليها أموال عمله ، وعدل في سيرته ، ورفق

برعيته ، واستوسع فيها يليها من الأعداء ، وضبطها مع نفسه الأول بجيشه ورجاله . واستعان على تدبيره بوزيره الشهير الدَّهْدَاءُ والرجاحة أو جَعْفَرُ أَحْمَدُ ابن عباس بن أبي زكرياء ، إلى أن قال بصحبته فوق ما ذلته 'مَجِيل' قلم من صحبة منك ، حسبها هو مشهور .

وجرت بين خيران وبين من يجورده من أمراء صنهاجة بكورة الشيرة حروب ؛ فلم يفلتوا من صرمة .

وله بالمريّة الآثار الخالدة ، والحسنات الشهيرة . فهو الذي أوصل إليها الماء ، وبني الحمة العجيبة . وفي أيامه بلغت من العمارة والقوة وفشو الصنائع ما هو مشهور . وكان مذهبه في الجود قصداً ، لم يشتهر بكرم ، ولا وسم بلوم . وكان أغلب خلال الخير عليه كهيته وشجاعته وحصافته ؛ اجتمع له إلى شجاعة النفس جودة الرأي وحسن التدبير ؛ فكان يجري أكثر عمله في محروبه على المكث والتدبير والمخادعة ؛ وهو رأي أولي المعرفة بها من ملوك الخزمية . وكان مذهبه مع جلالة شأنه الحفص من حاله ، والقصد في أسمائه ؛ فما كان يتسنى في شيء مما يتنافس فيه أملاك زمانه من ملوك الفتنة ، إلا ما كان من وصفه بالخليفة والفتى الكبير .

وإياه مدح شاعر الأندلس أبو عمرو أحمد بن إدراج القسطنطي صدر سنة ٤٠٧ ، يصف محنته في ركوبه البحر إليه ببنييه ؛ وهي :

[اصويل]

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران
ولم تترك قد أتاك سلطان
هو لنجم لا يدعى بن الصبح شاعر
هو النور لا ينفى عن الشمس برهان
إليك سحناً الفلك تهوي كأنها
وقد دعوت من مغرب شمس غروبان

أوردناه ان سمع في «التحفة» (ج ١١ ، ص ١١٤) .

على الحجج احضار إذ هبت حبيب
موائس رعى في ذراف موثلا
وفي طي أسل الغريب غريب
يرد ذن في لأحشاء حر مصائب
إذا غيض ماء البحر منها مددته
وإن سكنت عنها الرياح جرى بها
يقلن وموج البحر والهمل والدجى
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا
وهبتا رأيت معلّم الأرض هل لنا
وصرف الردى من دون أدنى منزل
تقسمن السيف والحيف وليسى
كما افتسمت أخذائهن يد النوى
ظعان ، عمران المعاهد مقفر
فإن غربت أرض المغارب موطني
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي
فإن بلاد أخرجتني العطر
سلام على الإخوان تسليم آيسر
ولا عرفت خلأت دار خليفة
ويا رب يوم دن صدع سلامه
شودعهم شوقاً لشجور كبريت ما
ويصدع ما ضم الوداع تفرق
إذا شرق الحدي بهم غربت بنا

ترامى بنا فيها نيران وثقلان
كما عبت في الجامعة أوثان
سكن شغاف القلب شيب وولدان
تريد ظلاماً ليها وهي نيران
بدمع عيون تمترين أشجان
زفير إلى دكر الأحيه حنان
تسوج بنا فيها عين وآذان
سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان
من الأرض مأوى أو من الإنس عرفان
تباهى إلينا بالسرور وتودان
وشطت بنا عنها عصور وأزمان
فهم للردى والبر والبحر إخوان
لهم وقعر الأرض منهم عمران
وأكرني فيها خبط وخلان
وأجزلت البشرى عي خراسان
وإن زماناً خان عهدي لخوان
وسقياً لدهر كان لي فيه إخوان
عفا رسمها من عفا ونسيان
بصدع النوى أفلاك قسي إذ كان
أجابت خفيف أسهم كواجر مران
كما انشعبت تحت العوص أغصان
نوى يومهم يومنا وليل أحيان

فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة
فيا عجباً للصبر منّا كأننا
قضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم
وجوه تناءت في البلاد قبورها
وما بليت في التراب إلا تجددت
ومنها :

هم استخلفوا الأحباب أمواج لجة
أقول لهم صبراً لكم أو عليكم
فلا قنط والعسر للبسر غالب
ولا يأس من روح وفي الله مطمئن
ستنسبون أهوال العذاب ومالكاً
متى تلتحظوا قصر المريعة تنزلوا
وتستبدلوا من موج بحر شباكهم
تقلد سيف الله عنا بحقه
وحلّى بتاج العز مفرق محبت
وبالحير فلاح وبالحير عائد
له الكرة الغراء عن كل شارد
بكل كمي عامري يقوده
حليهم بيض الصوادم والقنا
ترآك حزب الغي فيهم فأقبلوا
فأي صقور قلبت أي أعين
عيون بها كادوا العلى بعمائها

ومنها :

فلو نشير الأملاك يومك فيهم
ولو رد في المنصور روح حياته
وناديت للهجاء أبناء ملكه
جبال إذا أرسيتها حومة الوعى
يقودهم داع إلى الحق مجلب
كتائب بل كتب بتصر كسطرت
هو السيف لا يرتاب أنك سيفه
لجأك قد أحييت منّا شيئاً
ونجاك أسراراً وناداك معلماً
ألا هكذا فليحفظ العهد حافظ
قلبك ماذا أنجبت منك عامر
ولله منّا أهل بينت رمتهم
وكلهم يزهى على الشمس في الضحى
وقد راد أبناء السبيل وسيلة
فما قصرت بي عن علاك شفاعه
واعتل خيران بالمريّة أشهراً
زكرياء ، إلى أن توفي بها ليلة الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى
سنة ٤١٩ . وكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة . وصار الأمر إلى
زهير الفتى .

أيام الفتى زهير العامري

ولما توفي خيثران، اجتمع أحد بن أبي زكرياء بأهل العقد والحل، وعرفهم بموت خيثران، وبأنه قدّم أخاه زهيراً. قال: فرضي الناس. وكان زهير فاضلاً، شهنأ، داهية، سديد المذهب، مؤثراً للأناة، عالي الهبة. وكان خيثران قد استقدمه، وهو أمير بمُرسيّة من قبله، ورشّحه لمكانه؛ فقام بالأمر أحمد قيام يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة ٤١٩. ودامت مدته عشرة أعوام ونصفاً.

وله بالمريّة آثار جميلة: هو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة. وكان يشاور الفقهاء، ويعمل بقولهم. وامتدت أطناب مملكته من المريّة إلى قرطبة ونواحيها، وإلى شاطبة وما يليها إلى بيّاسة إلى الفجّ من أوّل طليطلة.

ودبر أمر قرطبة منفرداً به أيام الفتن والاستغناء عن الخلافة؛ وسكن قصرها يوم الأحد لحس بقين من شعبان سنة ٤٢٥. ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر، إلى أن فسد ما بينه وبين باديس بن حبّوس من الحلف القديم؛ وراسلته معاتباً ومستدعياً تجديد التحالف؛ فسارع زهير نحوه؛ قد ضيع الحزم، واغترّ بالعجب، ووثق بالثرة، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى عامل من عمّاله، قد ترك رنم الالتقاء بالنظر، وأعرض عن ذلك كله. وأقبل؛ فتجاوز الحد بين العمليين من غير إذن باديس؛ وصير الأوعار والمضايق خلفه. ولما وصل إلى غرناطة، خرج باديس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعدّه حاصلاً في قبضته؛ وبدأه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله في القري والقضيم، بما يمكن اغترارهم؛

ووقعت المناظرة بين زهير وباديس؛ فنشأ عارض الخلاف لأوّل وهلة، وحمل زهير أمره على التشطّط. فعزم باديس على لقائه؛ فتهيأ، والحائن لا يشعر، وقطع في الطريق خلفه قنطرة لا يحيد له عنها، وغاداه عن تعبئة محكمة. فدهش زهير وأصحابه؛ لكنه أحسن تدبير الثبات، وقام. فنصب الحرب وثبت في قلب العسكر؛ وقدّم خليفته هذيل بوجوه أصحابه الموالي العامريّة، وعرف صنهاجة أنهم الحماة والشوكة، ومتى خضدوا، لم يثبت من وراءهم؛ فاختلفوا بهم، واشتد القتال. فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة، ليُري قدرته. فانهمز زهير وأصحابه، وتقطّعوا؛ وعمل السيف فيهم؛ فمزقوا، وقتل زهير، وجُهل مضرعه. وغنم رجال باديس من المال والخزائن والأسلحة والعدّة والحلية والعليمان والحيايم ما لا يحاط بوصفه.

وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب سؤال من سنة ٤٢٩ بقرية الفت من خارج غرناطة. واتصل خبر هذه الواقعة بأهل المريّة؛ فضبطوا بلدهم، وأسندوا أمرهم إلى شيخهم أبي بكر الرميمي؛ فضبط المدينة إلى أن كاتبوا عبد العزيز بن أبي عامر المتقدم الذكر؛ فجاءها من بكنسية، حسباً ذكر في أسنّه.

أيام أبي الجيش مجاهد العامري

ومجاهد العامري هذا، صاحب دانية والجزائر الشرقيّة، ذو الأخبار الفخمة والوقائع الشهيرة.

قال أبو مروان: كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل، من أسقفا العلم والمعرفة، اللذان لم يكن في

الأحرار ولا في موالي أثبتت قدماً منه فيها ، يكاد يربي على متقلدتها من كبير العلم في وقته ، لاسيما علم العربية ؛ فإنه تحقق به ، إلى ما يتصرف من علم القرآن قراءته ومعانيه وتفسيره ، قد عني بطلب ذلك من صباه إلى اكتتاله ؛ فكان في النهاية من البصر به . وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه . وأنت إليه العلماء من كل صقع ؛ فاجتمع بفناء جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم ، كآبي عمرو المقرئ ، وابن عبد البر ، وابن معمر اللغوي ، وابن سيده ؛ فشاخ العلم في حضرة حتى فشا في جواريه وعلمانه ؛ فكان له من المصنفين عداة يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون في فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرفون دولته . ومنها التقدم في الفروسيّة والحدق بجانها ؛ فلم يك في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولباقةً ورؤاء وهيباً ، وحسن عمل في السلاح ، وتقليباً له ، إلى حدق أبواب الثقافة والرواية ، وتدقيق لمعانيها .

وتسمى ، أول انتزائه بالجزائر ، بذوي الزاريتين خطته التي رقاها إليها بعض ملوكهم . وكان شديد الوطأة على رعيته ؛ سام أهل الجزائر الحسنة ؛ فسقطا بوجوههم ورؤسائهم ، وألزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغريب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظروا عليهم رماكهم السامية ، وكانت عداة أموالهم ؛ فكتبها منعوتة ؛ فلا تكاد الرمكة تنج مهراً حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه إلى أن يصلح للرياسة ؛ فيقبض منه عند ذلك ، ويعطى منه خمسة دنانير ذراهم ، لا يزداد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه إن نقى إلا ببراة من ثقبته . ولقد قطع أذن رجل لقطعه أذن مهراً ، طلب التشوية بخلقه .

وأكثر التخليط في ذات أمره ؛ فطورا ناسك مخفي ، متبرأ

من الباطل كله ، منقطع إلى الجيد وأهله ، لا يستريح إلا إلى حرمه يقرأه ودقتر يطالعه ، أو عالم يذاكره ؛ وقارة لا يأنس بشيء من الجيد ، ولا يعرف غير البطالة واللغو . وكان مذهبه في الجود قصداً ، لم ينهيك فيه ، فيعزى إليه ، ولا كره عنه ، فيوصف بضده ؛ فأعطى وحرم وجاد وبخل ، ووضع الأشياء مواضعها ؛ فكانت نجا من عهدة الدم . وكان مع أدبه وعلمه أزهد الأبرار في الشعر ، وأنكرهم على منشديه ، لا يزال يتعقبه بنقده ، كاشفاً عن لفظة أو شبهة أو سرقة أو إحالة ؛ فأقصرت الشعراء لذلك .

وعزاً رحمه الله - إلى مرذانية جزيرة الرُّوم ، وهي عظيمة ، مسيرتها ثمانية أيام ، وفيها ملوك أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة ؛ اقتحمها في مائه وعشرين مركباً حمل فيها ألف فارس ؛ ففتح أرضاً جليلاً ، وضرب على بعض ملوكها جزيرة ، وتجاوز حده ؛ فاخبط مدينة واسعة شرع في بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، بعد أن غم وسبى ما لا يأخذه الحضر ، إلى أن كسد في زمانه السبي ، وخست فيه الأثمان . وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة واستجاشوا . وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه ؛ فعزم على التحوّل إلى محله ، والقفول إلى دار ملكه بدانية وميورة ؛ فأعجله العدو عن ذلك ، وقطع به . فكانت عليه وقعة شنيعة ، وظهر ما سيع بمثله ؛ فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله ، واستنقذوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهن نساؤه وبناته وعلي ولده وجوده أمه النصرانية ، افتدي بعضهن سرياً ؛ وتأخر البعض كولد علي ؛ فإنه وقع في سهم صاحب الألائين ، وهم أمّة من الفريجة تلي الصقالية ، بسع أن دارعة مقاتلتهم ثمانون ألفاً . فاحتبس به للمباهاة ، وأعيان على والده فداؤه ؛ وقد بذل فيه عشرة آلاف ، إلى أن خلاص بعد زمن طويل . ولم يخلص

من أسطوله أجمعه إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب ؛ وكان شحنة الأسطول المفلول من سبني سرذانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس .

وكان مجاهد قد نصب بجبل مملكه خليفة دعا الناس إليه ؛ وهو الفقيه أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي المدني ، أعتد من أزعجته الفتن من رجال الأشراف بقرطبة . وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها ؛ فنصبه خليفة ، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورة وغيرها ، وسماه المنتصر بالله ، وأثبت اسمه في سكتته وفي أعلامه ؛ وذلك في أول سنة ٤٠٥ ، وخلقه بدار مملكه . فلما عاد منكوباً من غزوته بسرذانية ، ألفاه قد استبد ، ودخل الناس ، وعمل على إبادته ؛ فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل ، وهو ذاهل عنه ، وهجم عليه ، وأقامه عن مجلسه ، وقبض عليه وعلى شايعة من أصحابه ، وتسلم منه سلطانه ، وعاتبه في سوء ما كفاه به ، وعدد عليه يده ؛ فاعترف له بهومه به ، وقال : « بلغني ما أخذتته بعدي من العتب بالناس ، والاستئثار بالقيء ، والمجاهرة بالمعاصي ؛ فلم يسعني انتظارك ، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد ؛ وعلى ذلك بايعتني ، ولا هوادة لك عندي ! » أو كلاماً هذا معناه . فاحتسله ، وصيره في البحر إلى أرض العدو ؛ فأنزله ببجاية ؛ واستقر عند البرابرة بها معلماً لصبيانهم ، لا يرفع رأساً إلى الدنيا . وطاولته هنالك الحياة إلى أن هلك بعد مدة . وأصبح خبره للناس عبرة .

ولما هلك مجاهد الموفق ، قام بالأمر بعده ولده علي بن مجاهد المسمى بإقبال الدولة .

أيام علي بن مجاهد إقبال الدولة

وكان مجاهد - رحمه الله - قد تم له افتكاك من أسير له من بناته ونسائه وأخواته في مدة قريبة ، إلا والدته ، وكانت نصرانية ؛ فاختارت أهل ملتها ؛ وتبعها أختها ؛ فأعرض عنها ، وأقام على ولده ؛ وكان يومئذ واحده وسنه سبع سنين ، إلى أن تهيأ فكاكه سنة ٤٢٣ ؛ ووصل إلى جزيرة ميورة ، ثم إلى دانية ، وهو فتى كاهل ، يتكلم بلسان الرُّوم الذين رُبِّيَ فيهم ، ويتزيّاً بزيمهم ، ويقول بقولهم . فعرض عليه والده الإسلام ؛ فقبله ، وحسن إسلامه ؛ وختنه ؛ فأصابه من ذلك مرض شديد . وبدت لمجاهد فيه خايل الشجاعة ؛ فتوكل بإرهاقه وتأديبه ، وألحقه بمرتبة أخيه الأصغر المرشح لأمره ، وعول عليه دونه في قود جيشه ؛ ثم قلده الأمر من بعده ، صارفاً إياه عن ولده حسن فكان لهذا من الموقعة على أخيه ، ما ظهر أثره قبل انصرام حول . وقد داخل حسن ابن عبّاد في أمر الوثوب عليه ، ووجه غلاماً من غلمان شجاعاً على سبيل الزيارة . ووقع اتفاقهم على الفتك بعلي عند خروجه من صلاة الجمعة ؛ فلما أمضى عزمه ، دهش ؛ فلم يجهز عليه ، وأصابته المديّة يده ؛ فقبض على يده ؛ وأراد الغلام العبّادي أن يطعنه ؛ فنشب الرمح في الحائط لضيق المكان . وثاب لعلي بن مجاهد رجاله ؛ فقتل الغلام ، وفر حسن بن مجاهد راكضاً . واستبل الجريح بعد أيام ، واستقل بأمن أنه . وطالت ألامه . وصاهر أمراً وقته على بنات له كنن آية في الجمال .

وكان نجح الشعب في أبواب الجباية والاكتساب ؛ فلقد ذكروا أنه وجه إلى مضر من كبا ضخماً مملوئاً طعاماً عام المجاعة المضروب بها المثل

في البلاد عام ٤٤٦ ؛ فعاد ، ليه تملؤوا مالا ودخيرة . وجرى بينه وبين جريحه وصهره ابن هود ما يطول شرحه ، حتى استولى على بلاد دانية . ثم حصره بها إلى أن سأل أن يسلمه في نفسه وولده ، وينزل له عن القصر ، تاركاً إياه بفرسه وزينته . فكان ذلك في سنة ٤٦٨ . ونقله إلى مرسطة ، وأقطعته قطاعاً يؤمنه ويقيم أوده . فكان آخر العهد به .

أيام الاميرين مبارك ومظفر العامرين

وختبر خيرة الصيقل العامري

كان هاذان الفتيان قد ترقيا من وكالة الساقية ببلنسية إلى ملك الحضرة ، وإقامة رسوم السلطان بها لأنفسهما على أفخم الوجوه . وظهر من سياستهما وتقارضيها صحة الألفة طول حياتهما ما فاتا به في معانها أشقاء الأخوة وعشاق الأحبة ، إذ نزلوا معاً بقصر دار الإمارة ، مختلطين تجمعهما مائدة واحدة من غير تمييز في شيء إلا الحرم خاصة . وكان التقدم لمبارك في مخاطبة رسوم الإمارة ، لفضل صرامة ونكراء كانتا فيه ، قصر عنها مظفر بدماثة خلقة ، وانخطاطه لصاحبه في سائر أمره ، على تحليته بكتابة ساذجة وفروسيّة . فبلغا الغاية من اقتناء الأسلحة ، والآلات الملوكية ، والحيل المغربات ، ونفيس الحلي والحلل ، وإسادة البناء للقصور . واشتمل هذا الرأي على جميع أصحابها ومن تعلق بها من وزراءها وكُتّابها . ولم يعرض لها عارض اتفاق ، بتلك الآفاق ؛ فانغمسا في النعيم على قمر رؤوسهما ، حتى انقضى أمرهما .

ومن الذي يدل على ما ذكر من اشتراكهما في السلطان الاشتراك الذي لا مزية فيه لأحدهما ولا انفراد دون صاحبه ، وهو من غرائب

ما اتفق لهما ، قول أبي عمرو بن كراع ، يمدحهما : [الطويل]

أثورك أم أوقدت بالليل ناركا لباغ قراك أم لباغ جواركا
ورباك أم عرف المجامر أشعلت بعود الكباء والألوة ناركا
ومبسك الرضاح أم ضوء بارق حداة دعاءي أن يجود دياركا
وطرة صبح أم جبينك سافراً أعرت الصبح نوره أم أعاركا
وأنت أجرت الليل ، إذ هزم الضحى كتابه ، والصبح لما استجاركا
فللصبح فيما بين قرطيك مطلع وقد سكن الليل البهيم خماركا
فيا لنهار لا يغيظ ظلامه وبيا لظلام لا يغيظ نهاركا
ونجم الثريا أم لآل تقسمت يمينك إذ ضمختها أم يساركا
بسلطان حسن في بديع محاسن يصيد القلوب النافرات نفاركا
وجند غرام في ضلوع صباية تقلدن أقدار الهوى واقتداركا
هو الملك لا بلبس أدرك شأوها مداك ولا الزباء شقت غباركا
وقادمة الجوزاء راعيت موهناً بحر هواك أم توسمت داركا
وطيفك أسرى فاستثار تشوئي إلى العهد أم شوقي إليك استثاركا
ومرتد أنفاسي إليك استطارها أم الروح لما رد في استطاركا
إذا الحظ بمن علم الكتاب حداك لي أم الفلك الدوار يحمي اذكراك
وكيف كتبت الليل وجهك مظلماً أشعرك أغشيت السنى أم شعاركا
وكيف عسفت البيد لا في طعائ ولا شجر الخطي حف شجاركا
ولا أذن الحي الجميع برحلة أراح لها راعي المخاض عشواركا
ولا أرحيت خوص المهاري مجيبة صهيل جياذ يكتفن قطاركا
ولا أذكت الركبان عنك عيونها حذار عيون لا ينمن حذاركا
وكيف رضيت الليل ملبس طارق وما ذر قرن الشمس إلا استناركا

وكم دون رحلي من بروجٍ مشيدةٍ
وقد زارت حولي أسودٌ نَهَامَسَتْ
وأرضي سيولٌ من خيولٍ مُظَفَّر
بحيث وجدت الأمن يهتف بالنا
هلبي إلى سيفين والحدُّ واحدٌ
هلبي إلى طرفي رهان تقدما
هلبي إلى قطبي نجوم كتابي
وحي على دوحين مدّ نداهما
وبشارك قد فازت قداحك بالنا
شريكان في صدق المنا وكلاهما
هما سمعا دعواك يا دعوة الهدى
وسلا سيوفاً لم تزل تلتطي أذى
ومنها بعد مدح كثير :

ولست بيدع حين قلت لهمي
فلله صدق العزم آية غرة
ويا حلّة التسويف قومي فأغثني
فقد آن إعطاء النوى صققة الهوى
ويا سُتْرَ البيض النواعم اعلمي
ودونك أفلاذ الفؤاد فشرري
صرفت الكرى عنها بغبقة السرى
فإن وجبت للمعربين وجوبها
وإن خلع الليل الأصائل فخلعي
إلى الملكين الأكرمين عذاركا

بَلَنَسِيَّةٍ مَثْوَى الْأَمَانِي فاطمي كنوزك في أعطانها وادّخاركا
سينيك زجري عن بلاؤ نسيته إذا أصبحت تلك القصور قُصَاركا
وأظفر سعي بالرضى من مُظَفَّر وبُورِك لي في حسن رأي مُباركا
وحمداً يميني قد تملأت بالنا وشكراً يساري قد حوت يساركا
وقل لسماء المزن إن شئت اقلعي ويا أرضها إن شئت غيبي بجاركا
ولا توحشي يا دولة البأس والندی مساءك من نورينها وابتكاركا

واختص بهذين الرئيسين من كتاب الحضرة ، الذين ضاقت عنهم
بسبب الفتن ، طائفة من الفضلاء البلغاء ، لو كيد الذمام المستحکم
في دولتهم ، كابن التاكرنسي وابن مهلب وابن طالوت : وتبؤهم في
دولتهم مرتبة مشيخة الوزراء بقرطبة ؛ فكانا يرجعان إليهم في الرأي
والمشورة والتدبير . ومضت أمورهما ومن معها خارجة عن طاعة
صاحب قرطبة وغيره ، رادة لدعوته . وآثروا ما آثره الناس من
التفرّد بقطعتهم ، وجروا مجرى من حولهم من ملوك الأطراف في
استكفاف أمراء الفتن إلى آخر أيامها .

قال المؤرخ : وكان موت مُبارك منها بانه ركب يوماً من قصر
بَلَنَسِيَّةٍ ، وقد تعرض له أهلها مستغيثين من مال افترضة ؛ فقال :
«اللهم ! إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه ، فلا تؤخر عقوبي
يومي هذا !» وركب إثر ذلك ؛ فلما أتى القنطرة ، وكانت من
خشب ، خرجت رجل فرسه من حدها فرمى به أسفلها ، واعترضته
خشب ثانية شدت وجهه ، وسقط الفرس عليه ؛ ففاضت نفسه ، وكفاهم
الله أمره . وثارت العامة بهم ؛ فانتهبوا القصر ، وقتل مظفر .
وانقضت أيامها .

وأما خيرة الصيقل ، فتأمر بشاطبة ، وهي المعقل المنيع ؛ فدبر

مبارك خيه عليه ، كما يفرد بإمارة الجماعة دونه . وكان خيرة السحاة أغلب الخلال عليه ؛ فأحبته الرجال وأملوه ؛ واستقر عند اقراض الدولة العامرية بشاطية ؛ فامتنع بها ، ودبر أمره . واتفق أن اجتاز بينسيية بمبارك أحد المذكورين ؛ فتلقاه مبارك ، وبالغ في كرامه . ودعه إلى طعامه ؛ فأجابه مطمئناً ، وأكل عنده ؛ فذكروا أنه درس له سماً في بعض ما أكله ؛ فانصرف إلى شاطية قد أنكر نفسه ، واستعز به وجهه ، وهلك إلى أيام قليلة .

وتقرء نائبه عبد العزيز بن أفلاح السلطاني بضبط القلعة وتدير أمر من فيها من الجند . وكان له المخطاط إلى مبارك ؛ فلم يهجه ، وقنع منه بذلك ، وخلده على حاله ، إلى أن تصير أمرها بعد ذلك إلى يد مجاهد العامري . واشتد سلطان مبارك بتلك الجهة ، واستضم الرجال . ولأذ به لبيب الصقلبي العامري ، صاحب طرطوشة ، وقد طمع فيه منذر بن يحيى ، وواصل استخراجه ؛ فخرج إليه بنفسه في نحو خمسمائة فارس من نقاوة الجندين ؛ فظهروا على منذر وهزموه هزيمة شنيعة ؛ وقتل ابن عمه وصفيته محارب بن عيسى التنجي . وانصرف مبارك على إثر ذلك إلى بلنسية ، وقد استفحل أمره ، وملك جماعة الموالي ، ودنوا له ، إلى أن كان من هلاكه ما ذكر .

وهؤلاء ثبهاة مقتنسي الملك من بعد الجماعة بالأندلس ، وكبار الممالك العامرية . ونحن نذكر بعدهم من أمكن من مشاهير الرؤساء من الطائفة المغربية المسماة عند مؤرخي الأندلس بالطائفة البربرية .

ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية

وقد تقدم ما كان من اختصاص كل واحد من رؤساء القبائل الغريبيين

بالأندلس بوطن من أوطانها عند مظاهرة سليمان بن الحكم وتغلبهم على الجماعة . ونحن الآن نذكر منهم كلاً على انفراد ، ونبدأ بكبيرهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي .

دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي

قد تقدمت الإشارة إلى ما كان من قدوم زاوي بن زيري بن مناد على باب بني أمية ، وما كان من حرص الحكم بن عبد الرحمن على طاق أصناف المغاربة وفتح باب القبول عليهم في ذلك ، وما كان من اعتدال ابن أبي عامر في هذا الغرض وعمله بالاحتياط فيه ، وتخلي ابنه المظفر عبد الملك بعده فيه ، لأمر فرغ عنه مسبب الأسباب سبطانه . فكان ممن ورد على الأندلس على عبد الملك بن المنصور من رؤساء الصنهاجة وأبناء ملوكها بالتخوم الإفريقية والحدود القبلية زاوي بن زيري وقومه ، جالياً أمام صولة باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري ، لأسباب تذكر عند ذكر ملوك صنهاجة إن شاء الله .

وحبر تلقيه وقدمه وإيجاب حقه شهير . فلما انشقت العصا باقراض الدولة العامرية ، ونالت البرابرة والقبائل المغربية بدولة ابن عبد الجبار الإخافة والحمل للنفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة ، اضطروا إلى الانجماع والانحياز والذيد عن أنفسهم ، والتفوا على سليمان بن الحكم ، وزحفوا به إلى قرطبة ، وكشفوا الوجوه في مناصبة جميع أهل الأندلس ، وهم منهم بمنزلة نصف المعشار أو أقل ، شأن المعول على الموت ، الباني على تقويت الحياة . ولم تزل الوحشة تعظم ، والنفرة تغلظ ، والعداوة تتأكد ، حتى لم تبقى بقية ترجى ، ولا مهادنة تبتغى . وخربوا الأندلس تحريباً لم يقتصر على المال دون البلاد دون الأنفس ؛ فتروها كأنها

أُطْلِقَتْ بَغَائِيهَا النَّارُ ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ صَاحِبُهُمْ بِمَقَرِّ الْخِلَافَةِ ، وَفِي أَيَدِهِمْ زِمَامُهُ ، وَلَحْكُمِهِمْ يَرْجِعُ نَقْضُهُ وَإِبْرَامُهُ ، طَلَبُوهُ بِالْبِلَادِ الَّتِي يَجْرُونَ بِهَا أَوْلَادَهُمْ وَحَرَمَاتِهِمْ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى فَوَائِدِهَا فِي حَاجَاتِ أَقْوَاتِهِمْ ، إِذْ لَا يَأْمَنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا الْبَلَدَيْنِ فِي زَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ . فَكَانَ زَاوِي ابْنُ زَيْرِي مَنَ اسْتَأْثَرَ بِكُورَةِ الْبَيْرَةِ وَجِيَّانَ .

أَيَّامُ زَاوِي بْنِ زَيْرِي بْنِ مَنَادِ الصَّنَهَاجِيِّ

يَكْنَى أَبُو مُشْتَى . وَكَانَ لَيْثَ الْحُرُوبِ ، وَفُلَّ الْوَقَائِعِ ، وَرَجُلَ الْقَبِيلِ قَاطِبَةً دَهَاءً وَحَزْمًا وَحَصَافَةً وَنَكْرَاءً وَصَبْرًا وَإِقْدَامًا وَرَأْيًا . وَكَانَ لَهُ فِي حُرُوبِ أَبِي يَزِيدَ مَخْلَدُ بْنُ كَيْدَادِ الْحَارِجِ عَلَى أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الشَّيْمِيِّ بِإِفْرِيقِيَّةٍ غَنَاءٌ كَبِيرٌ ، إِذْ كَانَتْ قِبَائِلُ صَنْهَاجَةٍ مُتَقَلِّدَةً آرَاءَ الشَّيْعَةِ ، مُخَالِفَةً لِقِبَائِلِ زَنَاطَةَ فِي انْخِيَاظِهِمْ إِلَى الطَّائِفَةِ الْأُمَوِيَّةِ لِنَحْتَقِ جُلُ مَلُوكِهِمْ يَوْمئِذٍ مِنْ آلِ خَزَرَ بَوْلَاءِ عُمَانَ بْنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - . وَكَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الصَّنَهَاجَةِ وَقِبَائِلِ زَنَاطَةَ مُتَّصِلَةً بَيْنَ غِلَالٍ وَسَجَالٍ ، إِلَى أَنْ انْتَقَلَ مُلْكُ الشَّيْعَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَأُسْنَدَ الْمُعِزِّ مِنْهُمْ أَمْرَ الْمَغْرِبِ إِلَى بُلُقَيْنَ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ زَيْرِي بْنِ مَنَادِ الصَّنَهَاجِيِّ ، إِذْ لَمْ يَرْجِعْهُ فِيهِ غَيْرُهُ عِنْدَهُ ؛ وَوَصَّاهُ بِمَا يَفْعَلُهُ فِي أُمُورِهِ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَرْفَعُ السِّيفَ عَنْ قِبَائِلِ الْبَرْبَرِ ، وَلَا الْمَغْرَمَ عَنْ الرِّعْيَةِ ، وَأَنْ لَا يُولِّيَ الْأَمْرَ أَحَدًا مِنْ بَنِي عَمِّهِ ، إِذْ يَرَوْنَ أَنَّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ ؛ فَامْتَلَأَ بُلُقَيْنَ أَمْرَهُ ، وَوَضَى بِهِ وَلَدَهُ . فَلَمَّا تَصَيَّرَ الْأَمْرُ إِلَى بَادِيسَ بْنِ الْمَنْصُورِ بْنِ بُلُقَيْنَ الْمَذْكُورِ ، ضَاقَتْهُ أَعْمَامُهُ وَأَعْمَامُ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يُعْطِهِمْ مِنْ نَفْسِهِ الضَّمَّةَ . وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ قُتِلَ فِيهَا عَمُّ أَبِيهِ مَآكْسَنُ بْنُ زَيْرِي بْنِ مَنَادٍ . فَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ لِانْتِصَالِهِمْ بَيْنَ عُدُوِّ زَنَاطَةَ وَسُلْطَانِ قَوْمِهِمْ .

فَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ زَاوِي ، وَجَازَ صُحْبَتَهُ إِلَيْهَا ابْنَتَا أَخِيهِ مَآكْسَنَ : حُبَاسَةَ وَحَبُوسَ . وَتَتَقَاهُمُ الْمَنْصُورُ بِكُلِّ يَرٍّ ، وَتَرْحِيبٍ وَفَرٍّ جَزِيلٍ . وَكَانَ ذَرْعُهُ يَنْتَسِعُ لَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا يَتَبَسَّطُونَ عَلَيْهِ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْحَقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا بِبِلَادِهِمْ يَعْرِفُونَهَا ؛ فَكَانُوا بِذَلِكَ تَحْتَ مَوْجِدَةٍ وَأَحْقَادٍ كَامِنَةٍ عَلَى الدَّوْلَةِ وَأَهْلِهَا . فَلَمَّا انْشَقَّتِ الْعَصَا ، ذَهَبُوا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ . وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ بِهِ الْإِلْمَاعُ مِنْ إِيقَاعِ زَاوِي بْنِ زَيْرِي بِجَيْشِ الْخَلِيفَةِ الْمُرتَضَى بِظَاهِرِ بَلَدِهِ غَرْنَاطَةَ ، وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى مَحَلَّاتِهِ ، وَعَزْمِهِ عَلَى الْانْصِرَافِ إِلَى بَلَدِهِ . وَكَانَ وَقُوعُ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ الْمُعِزِّ بْنِ بَادِيسَ ، بَعْدَ إِذْ نِ مِنْهُ لَزَاوِي ؛ وَقَدِمَ بَلَدَهُ عَلَى رَعْنِي وَبِيرٍ فِي قَوْمِهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ هُنَاكَ . فَكَانَ خُرُوجُ زَاوِي مِنَ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٤٢٠ .

وَتَمَسَّكَ بِمَحَلِّ سُلْطَانِهِ مِنْ كُورَةِ الْبَيْرَةِ ابْنُ أَخِيهِ حَبُوسُ بْنُ مَآكْسَنَ ، يَسْتَعْمِي مِنْ كَبِيرِ قَطْرِ الْبَيْرَةِ وَفَقِيهِهِ ، ابْنِ أَبِي زَمَانٍ ، إِذْ قَصَدَ بَعْدَ تَوَدُّعِ زَاوِي بْنِ زَيْرِي بَرَسَى الْمُتَكَبِّبِ إِلَى حِصْنِ آشَرٍ . وَقَدْ كَانَ حُبَاسَةُ أَخُوهُ قُتِلَ فِي الْفِتْنَةِ بِقَرْطَبَةِ .

دَوْلَةُ حَبُوسِ بْنِ مَآكْسَنَ بْنِ زَيْرِي بْنِ مَنَادٍ

وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمُ حَبُوسِ بْنِ مَآكْسَنَ بِغَرْنَاطَةَ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ٤١٤ ، اسْتَظْهَرَ عَلَيْهَا بِجَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَجَمَّةً وَافِرَةً مِنْ قَبِيلِهِ ؛ فَبَنَى مُلْكًا شَامِخًا ، وَغَلَبَ نُظَرَآءَهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى كُورَتَيْ جِيَّانَ وَقَبْرَةَ وَمَا فِي دَنِّ ، وَحَمَى رَعِيَّتَهُ مِنْ سَائِرِ الْمُتَنَزِّلِينَ بِحَوْزِهِ . وَاتَّصَلَتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ٤٢٩ . وَوَلَّى بَعْدَهُ الْأَمْرَ ابْنُهُ بَادِيسَ .

دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها

وكان تَصَيَّرُ المُلْكُ إلى بَادِيسِ بْنِ حَبُوسٍ بِتَسْلِيمٍ لَهُ مِنْ أَخِيهِ بُلْتُغَيْنِ ابْنِ حَبُوسٍ سَقِيْقِهِ . وَلَقَّبُ بَادِيسُ : أَبُو مَنَادٍ . وَتَسَمَّى الْمُظَفَّرُ بِاللَّهِ ، الدَّجِرُ لِدِينِ اللَّهِ . وَتَنَاهَى أَمْرُهُ فِي الْجَلَالَةِ ؛ وَأَذْعَنَتْ لَهُ الْأَعْدَاءُ ، وَانْضَافَتْ إِلَى إِيَالِهِ الْبِلَادُ ، إِلَى أَنْ مَلَكَ كُورَةَ رَبِّهِ وَقِنْسَرِينَ . وَعَظُمَتْ حَيَاتُهُ ، وَضَعُفَ أَمْرُهُ ، وَتَعَدَّدَتْ جِيُوشُهُ . وَأُتِيحَ لَهُ الظُّهُورُ عَلَى زُهَيْرِ الْقَتَنِ أَمِيرِ الْمَرِيَّةِ ، حَسْبًا مَرٌّ فِي ذِكْرِ زُهَيْرٍ ؛ فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا كِفَاةَ لَهُ .

وَمِنْ كَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ قَوْلُهُ : وَأَمَّا أَرْفَعُ أَمْلَاكِ الْبَرَابَرَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ شَأْنًا ، وَأَشَدَّهُمْ سُلْطَانًا ، وَأَكْثَرَهُمْ رِجَالًا ، وَأَوْسَعَهُمْ أَعْمَالًا ، فَبَادِيسُ بْنُ حَبُوسٍ مِنْ سُلْطَانِ صِنْهَاجَةٍ وَمُسْتَخْدِمِ الْكَثِيرِ مِنْ قِبَالِ رَنْسَاتَةٍ ، الْمُتَمَتِّدُ سُلْطَانُهُ الْيَوْمَ عَلَى مَا بَيْنَ أَطْرَافِ كُورَتَيْنِ بِسَطْنَةِ وَجَيَّانَ ، إِلَى بَابِيٍّ مَالِقَةٍ وَإِسْتِجَّةٍ ، وَمَا تَحْتَ ذَلِكَ مِنْ إِقْلِيمٍ قُرْطُبِيٍّ ؛ أَمَلَى النُّصْرَ الْعَزِيزَ عَلَى الْأَعْدَاءِ إِمْلَاءً وَاخْتِيَارًا ؛ فَلَبِسَهُ بَغِيًّا وَاسْتِكْبَارًا ؛ وَأَسَاءَ الْإِنْتِقَامَ ، وَلَمْ يُقِلَّ الْعَثْرَةَ ؛ وَأَخَذَ بِالظُّنَّةِ ، وَأَسْرَفَ فِي الْعُقُوبَةِ ، وَشَدَّ يَدًا بِالْعَصِيَّةِ ، وَتَقَلَّدَ الْحِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ، وَاسْتَأْثَرَ بِالْقُسُوفِ وَالْجَبَرِيَّةِ ؛ فَاسْتَلَفَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَخْبَارًا مَأْثُورَةً .

وَاسْتَوْلَى عَلَى دَوْلَةِ بَادِيسِ كَاتِبُهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ ابْنُ نَعْرَائَةَ ، ثُمَّ وَلَدَهُ يَوْسُفُ بَعْدَهُ ؛ فَكَانَتْ يَدُهُ أَمْوَالَهُ ، وَبَعِينَ لِحْظِهِ أَحْوَالَهُ ، وَبِمَرَأَى وَمُسْتَمْعٍ مِنْهُ أَعْمَالُهُ الْحَقِيَّةُ وَأَقْوَالُهُ . وَكَانَ قَدْ نَشَأَ لِبَادِيسٍ وَلَدُهُ الْمُسَمَّى بُلْتُغَيْنِ ؛ فَرَشَّحَهُ لَوْلَايَةِ عَهْدِهِ ، وَلَقَّبَهُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ؛ وَكَانَ مُنْحَرَفًا عَنْ الْيَهُودِيِّ الْمَذْكُورِ ، مُنْكَرًا اسْتِیْلَاءَهُ عَلَى الْمُلْكِ ، وَتَنْوِيحَهُ بِالْيَهُودِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَانْطِلَاقَ يَدِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَلَا يَزَالُ يَبْعَثُ فِيهِ إِلَى أَبِيهِ بِمَا تُنْهِيهِ

إِلَى الْيَهُودِيِّ وَتُبَادِرُ بِهِ إِلَيْهِ عُيُونُهُ فِي الْقَضَرِ وَجَوَاسِيْسُهُ ؛ فَأَعْمَلَ الْحِيلَةَ عَلَى بُلْتُغَيْنِ بِاسْتِدْعَائِهِ إِلَى تَجَلُّسِ شَرَابٍ احْتَفَلَهُ لَهُ ، وَسَفَاهُ كَأْسِ مُنَمَّرٍ قَضَى مِنْهُ نَجْبَهُ .

وَلَمَّا بَحَثَ بَادِيسُ عَنْ أَمْرِهِ ، صَرَفَ الْإِسْرَائِيلِيَّ التَّهْمَةَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ فِتْيَانِ وَلَدِهِ وَجَوَارِيهِ وَقَرَابَتِهِ ، عَاثَ فِيهِمْ بَادِيسُ قَتْلًا وَإِبَادَةً ؛ فَفَرُّوا عَنْهُ ، وَفُسِدَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَخَبِلَتْ ضَبَائِرُهُمْ . وَعَظُمَ اسْتِیْلَاءُ الْيَهُودِيِّ وَزِيرِ بَادِيسَ ، إِلَى أَنْ طَرَقَ جَاهَهُ الْإِعْتِلَالُ ، وَأَسْرَعَ إِلَى حَالِهِ الْإِعْتِلَالِ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الْأَقْوَالُ . وَرُمِيَ بِمُدَاخَلَةِ ابْنِ صَادِحٍ صَاحِبِ الْمَرِيَّةِ فِي تَصْيِيرِ مُلْكِ بَادِيسَ إِلَيْهِ .

وَحَفِظَتِ الْقَصِيدَةُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْمُتَوَلَّى الْعَابِدِ أَبِي إِسْحَاقَ الْإِنْبِيرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا مَخَاطَبًا بِبَادِيسَ ، وَمُحَرِّضًا عَلَى الْيَهُودِيِّ :
[الْمُتَقَارِبُ]

أَلَا قُلْ لَصِنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينَ بُدُورِ الزَّمَانِ وَأُسْدِ الْعَرِينِ
مَقَالَةٍ ذِي مَقَّةٍ مَشْفُوقٍ يَعْدُ النَّصِيحَةَ زُلْفَى وَدِينِ
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ
تَحْيَرُ كَاتِبُهُ كَافِرًا وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْدَلِينَ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى وَقَدْ جَازَ ذَلِكَ وَمَا يَشْعُرُونَ
فَكَمْ مُسْلِمٍ رَاهِبٍ رَاغِبٍ لِأَرْدَلِ قَرْدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَعِيهِمْ وَلَكِنْ مِنْهُمْ يَقُومُ الْمُعِينِ
فَهَلَّا أَقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأُولَى مِنَ الْقَادَةِ الْحَيَّةِ الْمُتَّقِينَ
وَأَتَزَلَّمُ حَيْثُ يَسْتَاهِلُونَ وَرَدَّهْمُ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ
وَطَافُوا لَدَيْنَا بِأَفْوَاجِهِمْ عَلَيْهِمْ صَغَارٌ وَذُلٌّ وَهَوْنٌ

ولم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيعوا على الصالحين
أباديس أنت امرأة حاذق تُصيبُ بظنك مرمى اليقين
فكيف تحبُّ فراخ الزنا وقد بعثوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاسقٍ وقارنته وهو بثس القرين
وقد أنزل الله في وجهه يُحذّر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادماً وذُرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجّت الأرض من فسقهم وكادت تمد بنا أجمعين
وكيف انقردت بتقريبهم وهم في البلاد من المُعذّنين
على أنك الملك المرتضى سليلُ الملوك من الماجدين
وأن لك السبق بين الورى كما أنت من جلّة السابقين
ولمى احتللت بغرناطة فكنت أرام بها عابئين
وقد قسوها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها وهم يخلصون وهم يقصون
وهم يلبسون ربيع الكسا وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سرّكم وكيف يكون أميناً خؤون
ويأكل غيرهم درهماً فيقصي ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهضوك إلى ربكم فما يُمنعون وما يُنكرون
وقد لابسوك بإسحارهم فما تسمعون ولا تبصرون
وهم يذبحون بأسواقنا وأنتم لإطريقهم آكلون
ورختم قيردُهم داره وأجرى إليها غير العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائلون
وبضحك منا ومن ديننا فإننا إلى ربنا راجعون

ولو قلت في ماله أنه كالك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربةً وضع به فهو كبش سين
ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرّق عراهم وخذ ما لهم فأنتم أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدره بل الغدر في تركهم يعثون
فقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لنا همّة ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم كأننا أسانا وهم يحسنون
فلا ترض فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلهك في حزبه فحزب الإله هم المُفلحون

فتار بهم صنهاجة؛ وقد تيقنوا إعراضه عنه وعملّه على نكبه؛
وزحفوا على داره. وقد تبعته العامة؛ فاقتحموها، وانتهبوها. وأخفى
اليهودي نفسه في بيت ملثان فحماً، وسودّ به وجهه وتكّر؛
فأخرجوه، وقتلوه، وصلبوه على باب المدينة. وقتل في هذا اليوم آلاف
من اليهود؛ وذلك في سنة ٤٦٩، وقيل سنة ٤٦٥.
وولي بعده حفيده عبد الله، ابن ابنه بلقين الذي اتهم اليهودي
بقتله بالسّم.

دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس

ولما توفي باديس بن حبوس، اتفق خدام دولته وأشياخ قبيله على
تقديم عبد الله بن بلقين؛ فأخذوا له البيعة على الناس، ولقبوه المُظفر
بالله، الناصر لدين الله، وعدلوا إليه عن عمه ولد باديس، الكائن بولاية

من يبيّن سرّاً جيّداً ، وذلك لما رأى به من سوء سجيّته وانهاكته
وجوّاره على سفك الدماء .

وكان عبد الله هذا منذ ولايته الأمر صبيّاً صغيراً ، لم يقارب الحلم ؛
فهو لذلك بمن يشتمل عليه شرط كتابينا بمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك
الإسلام . وغرناطة بذلك حافلة بالأعلام ، وصدور الإسلام ، وحملّة
السيوف والأفلام . ونفرد بتولية عبد الله وتديير ملكه الوزير سباجة
الصنهاجي ؛ فستلّ سياسته . وكان باديس قد جعل أخا عبد الله تميم بن
بلقين بآلقة ؛ فجرت أمورهم على سبيل من السداد وحسن السيرة . وطمع
ابن عبّاد فيما بأيديهم حين بلغه مهلك باديس ؛ فحشد واستكثر ، ووصل
إلى غرناطة ، وابتنى على ستّة فراسخ منها حصناً لتجديد رابطته فيه ،
منصيفاً على من بالحضرة ؛ فلم يحلّ بطالع لاضطلاع سباجة بالأمر وضّمّه
لأطراف الملك . وكان سباجة حازماً ، شديد السطوة ، مرهوب
العقاب ، جواداً ، شجاعاً ، فاضلاً ؛ ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتدّ في
منع اتخاذ الخمر ، وجعل بإزاء ذلك القتل غرامة لم يحلّ عقدها ولا نسخ
حكمها ؛ فبينما طائفة من أبناء الأعيان وصدور الطلبة أولي الوجوه
الحسان على راحة لهم بحجة المصلّى القديم خارج القصبة ، إذ أظلمهم
سباجة فجأة ؛ فستط في أيديهم ، وأيقنوا بالهلكة ؛ فابتدره قبل
الوصول إليهم فتى منهم ؛ فأشده :

يئسنا نحن بالمصلّى نسقى وجناح العشيّ فيه جنوح
إذ أانا سباجة يتلألا رُدّ في الشرق من تجليّ نوح
فطفقنا نقول بعض لبعض أغبوق شرابنا أم صبح

قال : فخيّل سباجة ، وأنس الصبي ، ووعد بالإحسان ، وانصرف من
طريقه ، إغضاءً وتغافلاً . ولم يزل سباجة يدبّر أمر عبد الله والسعود

تساعده ، والأمر ينوء به ساعده ، إلى أن بلغ عبد الله ، وأراد الاستبداد
بجالة ؛ وضاق بسباجة ؛ فرحل عنه إلى كنف جاريهم صاحب المريّة ،
وقد مهد لنفسه عنده فاستقرّ لديه بحال ثروة وغناء . وأقام عنده إلى
آخر عمره .

وكان عبد الله بن بلقين جباناً ، معتمداً سيف ، متكسلاً عن الحيل ،
زاهداً في النساء ، موصوفاً بالضعف ؛ لكنّه يكتب ويشعر ويتحدّث
فيما تتحدّث فيه الطلبة . وقفت على ديوان بخطه ألّفه بعد خلعه بمدينة
أغمات ، وقرّر في أحواله والحادثه عليه بما يستظرف من مثله :
أتعفني به خطيب المسجد بأغمات رحمه الله .

ولما اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من بعد الواقعة بملك النصارى
يوم الزلاقة ، شارعاً في خلّع رؤساء الأندلس ، وبادراً منهم بعبد الله
حفيد باديس ، وقد حرّكه إليه إغراء طائفة من خدامه لحقت به ،
واتصلت به عنه الاستعداد واتخاذ البلاد وتجديد الأسوار ومراسلة
صاحب قشتالة (وتجنّى عليه تجنّي الذئب على المعزى ، حسباً يتمثل
به الناس) ، إذ قال لها متسبباً لأكلها : « شمري ذنبك ؛ فإنك
تحرّكي عليّ به ! » فقالت : « وأي ذنب لي يفعل ذلك ؟ » فقال لها :
« أو تكذّبيني يا فعالة ! » ووثب عليها ، فأكلها ؛ فوجه الجيش إلى
منازلته ، وقصده بنفسه ، وتبادر إليه الرعايا معلّنين بطاعته .

ولما رأى اختلال حاله ، ونكول أهل بلده عن الدفاع عنه ، استشار
صناعته ؛ فأشاروا له بالخروج إلى الأمير يوسف ، والإلقاء باليد إليه ؛ فكان
ذلك ؛ فتلقاه هو وأمه على فرسخين من المدينة ؛ فترجل عبد الله ،
وسأله العفو ؛ ففعا عنه ، وأمره بالركوب ، فركب ، والتفت به الحيل ؛
فأنزل في مضرب معين له . وأمر بثقاف القصر ، وخاطب أهل البلد بما
أرضاهم من ضمان العدل والرفق وإفاضة الخير والذب عن الحوزة . وكان

تخلع عبد الله بن بلقين حفيد باديس يوم الأحد عشرة ليلة تخلت من شهر رجب سنة ٤٨٣ .

أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس

وكان باديس قد جعل تميمًا هذا بمالقة من عماله لتظر رجل من شيوخ صنهاجة لصغره ، إلى أن بلغ ، واستبد ، وتسمى بالمنتصر بالله . وكان شهماً ، شديد الجرأة ، بعيد الاعتدال ، سيء الملكة في الرعية . وهو الذي صنع ثريباً الفضة بسجدها ؛ وهي باقية إلى اليوم . إلى أن قتلك يوسف بن تاسفين غرناطة ، واتصلت به الشكوى بتسيم من أهل مالقة . وورد في شأنه على الأمير أبو المطرف الشعبي وغيره ؛ فرفع حكمه وأكبله بسبب الشكايات . ونسي عنه أنه أطلق لسانه عند القبض عليه في جهة السلطان ؛ فخصه بالجلد إلى السوس ، وأسكن أخاه عبد الله بمدينة آغمات ، إلى أن عفا عن تميم ؛ فسكن بمراكش حتى مات بها سنة ٤٨٨ . فانقض أمر باديس وعقبه على هذه السبيل . والبقاء لله وحده !

أيام شيخ زنانة

محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي

وكان هذا الرئيس يلي باديس من ملوك البرابرة في جلاله الشأن وقوة السلطان ، بقية أمراء البرابر المستطين في هذه الفتنة وأعظمهم شأنًا في الدهاء والرجولة ، وأبصرهم بتدبير العساكر ، وأربطهم جأشاً على الخطوب الثقيلة . وكان مشهوراً بذخيرة عتيده من صامت المال ، لم يزل يجمعها حائطاً

لها بالبخل الشديد ، واستظهاراً بها على الخطب العتيد .

وكان قدوم هذا البيت من زنانة القاطنين بأرض المزيلة والزاب الأسفل لعهد لحاق جعفر بن علي أمير الزاب بباب بني أمية ، إذ كان هذا البيت صديقاً له وظهيراً ؛ فبنى بهم المكان من بعده . ولما هلك جعفر ، أقاموا جنداً على عادتهم إلى حين وقوع الفتنة المعروفة ؛ فكشفوا في الحرب عن أعضادهم ، واستقر قرارهم بمدينة قرمونة وإسججة والمدور ، وغلبوا على هذه البلاد . وكانت بينهم وبين جيرانهم من هذه الجهات حروب وخطوب يطول الكلام إن استقصيناها . وتوفي رئيسهم هذا محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب ، وخزين من الطعام ، لم يجمعه أمير قبيلة في الفتنة . وصار أمره إلى ولده إسحق .

أيام اسحق بن محمد بن عبد الله بقرمونة

ورأس إسحق بعد مهلك أبيه ، وهو في حد الكهولة . كان مشهوراً بالحزم والكفاية والبأس والفروسيّة ، يتحلّى بشعبة من شعب الكتابة ، ويضبط شيئاً من الحساب ، ويقرأ الدفاتر القريبة . وهو دون أبيه محمد في القوة والفظاظة ، وأذهب منه في قرط العصبية . وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائنة ، مع اشتغالهما بالنكوب عن الجماعة واعتقادهما بمذهب الناكرين من فرق الإباضية الخوارج ، يستأثران بذلك هما وقومهما من بني يرزال ؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة . هذا كلام ابن حيّان .

ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة موزور والمعتصدين عبّاد إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة ، واضطروا ؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحق بعد هلاك إسحق ، في خبر طويل ، إلى

ابن دنثون أن يعطيه قَرْمُونَة وأنظروها ليتمكن من نكاحه عدوه ابن عبّاد
 مه ، على أن يعطيه المأمون بن دنثون عوضاً في بلاده الجوفية . فاتفقا على
 ذلك ، وخرج العزيز بن إسحق من قَرْمُونَة إلى الحصن المدور ؛ وقبض
 رجال ابن دنثون [ما في المدينة . وبعد ذلك خاطب المعتضد بن عبّاد بن
 دنثون] في السر يقول له : « إن قَرْمُونَة قريبة من بلدي وبعيدة من
 نظرك وبلادك . فاضربها إليّ ، وأجعل يدي مع يدك على ثلثك قرطبة
 حتى أصيرها لك . » وكانت قرطبة أمينة ابن دنثون عمره ؛ فأجاب إلى
 ذلك ، وتوثق منه ، وأخلى له قَرْمُونَة ، فشحنها ابن عبّاد بالأطعمية
 والرجال ؛ ولم يف لابن دنثون بشي مما ارتبط إليه . وجرت بينهما من
 الأحاديث في أمر قرطبة ما تقدم ذكره في اسم ابن جهنور . ولم يستقل
 العزيز بن إسحق بالمدور لضعفه وضيقه ؛ فتلاشى وانقرض أمره .

خبر سائر رؤساء الطائفة البربرية

وهذان البيتان من هذه الطوائف المغربية كانا أشبه بالملوك والأمراء .
 ويستوي من بعدهما من أمراء البرابرة في الحال منهم بيت أبي نور بن
 أبي قرّة بن دوناس اليفرني ، أمير الفريق من بني يفرن المتغلبين على
 كورة تآكرونا لأول الفتن . وكان جسوراً ، جشعاً ، مقدماً ،
 عطشاً من كل خلة نذل على فضيلة ، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة
 رجاله وحصانة قلاع ، شارباً في لذاته ، لا ينق درهماً أحداً ، على دأبيه
 في الباطل ، فتوق طوقه .

ومنهم : عبدون بن خزان الرنداجي أمير بني إريكان ؛ وبطونهم

١ هنا وقع إسقاط جملة في جميع الأصول لتكرار عبارة « ابن دنون » ؛ وقد سددنا
 الخلل سيقاً للمنى .

من القبائل الزناتية المتغلبين على كورة شدونة لأول الفتن ، النازلين
 بقصة قنشانة ؛ قام بسطانه وراثته من والده أحد أكابر البرابرة
 المتأثرين لما خرجوا عن الجماعة ؛ وهو فتى دمث أنيث ماكر ، عطل
 من الفضائل ، لا تضاف إليه منها خلّة صالحة ، إلا أنه رفق بقومه وأخذ
 عفواهم ؛ فاستقاموا له .

ومنهم : محمد بن نوح بن أبي تزيدي الدمري ، صاحب كورة
 مؤرور وراثته عن أبيه وجده ، فتى غير ، حديث عهد بالإمارة ،
 جاهل ، جندي ، خلوا من الفضائل ، موصوف بكيس وليانة .

قلت : وجميع من ذكرنا زاحمهم المعتضد بن عبّاد بمنكب
 العز والصبر والسلطة ؛ فأرداهم تارة بالقهر والغلبة ، وتارة بالحيلة . وكان
 في آخر أيامه قد صرف وجه السياسة إلى استمالتهم بالصلوات والمودة ، إلى
 أن وجه إليهم في الزيلة ليتجمل بهم في إغذار ؛ فأتوه في أحسن زي
 وأفخم أبهة . وقد كانت تكررت زيارتهم له أفذاذاً قبل ذلك ؛ فجاءوا
 إليه مباهين في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم ؛ فأكرمهم ، وأمر
 بتطييب الحمام لهم ، وحملهم إليه عبيده ؛ وهم الثلاثة الأمراء المذكورون :
 أبو نور ، وابن نوح ، وابن خزان . فلما دخلوا الحمام ، وقعدوا بإزاء
 حوضه ، أمر ؛ فبني عليهم خلف دقة الحمام ؛ ولما فرغ من البناء ،
 أمر موقد النار بالزيادة والإحراق ؛ فالتهب الحمام ، ولم يجدوا
 مخرجاً منه . فكان آخر العهد بهم . وأقام ذلك الحمام عطشاً إلى آخر
 أيام العباديين . ووجه العساكر إلى بلادهم ؛ فاحتوى عليها . ونزل بآقيهم
 إلى إشبيلية ؛ فصاروا من رجاله .

ولم يبق له معانيد إلا ما كان بمن شدونة وأركش ؛ فإن أميرهم
 محمد بن خزان كان قد تخلف عن دعوة ابن عبّاد ؛ فزادهم في استيصالهم ،
 وبنى عليهم حصناً شده بالحيل والرجال ؛ وضاق عليهم أمرهم ؛ فطارحوا

على باديس بن حبوس ، واتفقوا على أن يعطوه قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد سدونة ، ويبيع منهم طعامهم المختزن بسوم معروف ، على أن يعطيهم باديس بلدأ يسكنونه تحت كفه . فم ذلك ، وبعث معهم عسكرياً ضخماً . وخرج بنو إرنيان بأموالهم وحرهم ؛ فكانت جملة دوابهم نحو خمسمائة بغل . وكان بنو إرنيان قطعة كبيرة ؛ فلما أبعدوا عن القلعة التي خرجوا منها نحو عشرين ميلاً ، عارضهم ابن عبّاد بفحص سلب ؛ ف وقعت الحرب ؛ فلجأوا إلى ربوة كانت قريباً منهم ، وحطوا ألقامهم إلى الصباح . وكان ابن عبّاد قد أكن لهم كميناً ؛ فلما حبيت الحرب ، خرج عليهم الكمين ، وطبؤه هادرة ، وأعلامه خافقة ، وخيله متناسقة ؛ فلما رأوا ذلك ، سقط في أيديهم ، وضعت قلوبهم ؛ وثاب الظفر لابن عبّاد ؛ فهزمهم ، ولم يمين في اتباعهم . وهلك في هذه الحرب أكثرهم ، إذ قاتلوا على أموالهم وحرهم حتى أبيدوا . وقُتل أميرهم محمد بن خزرون بعد أن أمر غلامه بقتل امرأته لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه ؛ فطعنها بالرمح ، وهي راكبة ؛ فسقطت ؛ وفعل ذلك بأختيه . وقُتل قائد باديس الذي كان معهم ، وركب السيف أعناق من معه . ودخل ابن عبّاد قلعة أركش وسائر بلاد سدونة ، واتصل نظره إلى آخر بلاد غرب الأندلس ، وقتل ، واستأصل شافة القوم ؛ فلم يبق بالأندلس منهم باقية . فسبحان الحي الذي لا ينقضي شأنه ، ولا يبيد سلطانه !

قلت : وهذه جبهة من رؤساء الطوائف ونواري البلاد بالأندلس من بعد انقراض الدولة الأموية ؛ وعلى حين استقرار الدولة المرابطية ، وتغلب سلطانها الأمير يوسف بن تاشفين ، خلا الجو من جميعهم . وكان فيهم الفاضل ، والمعلوم ، والمجهول ، كما يكون فيمن كثر عدده ،

واختلف في السير مقصده . ولا شيء أشبه بالدول كلها ضعفت ، وتفرقت كللتها واختلفت ؛ وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت ، بالارض المتخذة بالمقاني والحضر ؛ والثوار فيها بمنزلة العشب الناجم ، والبقل الناجم ، الذي يُعندم عند قوة الفلاح ، واضطلاحه ، وقيامه على الأرض ، واتصال مباشرته ، وإزالة ما يشوش المزروع من العشب الغاصب ، ومن الحشيش الناصب ؛ فإذا اشتغل عنه لضعف ، أو مرض ، أو قلّة ذات يد ، ألقى غالباً على الأرض ، مهلكاً للفسح ، مُبيداً للبال ؛ فلم تدع الدولة ذات القبيل والدين الأصل منها شيئاً مذكوراً ، بعد أن شقيت الدنيا بهم دهوراً ، ولقي الإسلام بهم وبالأوثبوراً . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ذكر تصيير أمر الأندلس الى ملوك لمتونة

المدعوين بالموايطين ، على سبيل الإشارة والإلماع

لورود الكلام فيهم بمحلّه من دار ملكهم بالمغرب إن شاء الله تعالى ؛ وذكر ما آلت إليه الحال بالفتنة ، واقتسام أمراء الطوائف أقطار الأندلس .

ومن لدن تفرق شمل الإسلام ، وانشقت عصاه ، وتبددت كلياته ، لم يكن همّ عدو الإسلام إلا استرجاع البلاد والأقطار ، واستضافة العمالات ، واقتتاح القلاع ، والاستيلاء على الثغور ، تارة في سبيل المشاركة والاستجارة ، وتارة في سبيل المسالمة والمنازعة ، وتارة بالغلاب والمنازلة . وقد وقع من ملوكهم التكالب والتنافس ؛ فصاحب قشتالة وليون يضم ما جاوره ويطويه طي السيجل ؛ وصاحب برجلونة

١ كذا في الأصول ، وفيه تصحيف ظاهر .

سري مجيئيه سري النار في اهشيم . وحسبك أن هشام بن الحَكَم ، وهو
سلالة الأبيّة وبقية الدين والحشمة ، والبعيد المرمى من الدنية ، خرج
في يوم فتنته ومجنته بن عبد الجبار تسليماً على مائتي موضع ، وحازها
العدو ؛ وحينئذ موه بالحرّكة إلى نصره ؛ ولم يفعل ؛ ثم سالك من بعده
سبيله ، إلى أن استولى على طليطلة وما إليها سنة ٤٧٨ . وحسبك بها فجيعة
وعظيمة بها مصيبة ! وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون ، وعن عواقب
الإسلام لاهون ، حسبها قال أبو الحسن بن الجَدّ يمدح الأمير يوسف :

[البسيط]

في كلّ يوم غريب فيه مُعْتَبَرٌ نلقاه أو يتلقانا به خَبَرٌ
أرى الملوك أصابتهم بأنْدَلُسٍ دوائر السوء لا تبقي ولا تَذَرُ
قد كنت أنظرها والشمس طالعةً أو صحّ لقوم في أماليها النَّظَرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدّجى قدَرٌ هوى بأنجمهم خفّاً وما شَعَرُوا
وكيف يشعر من في كفته قدَحٌ يحدو به منهيّاه الناي والوترُ
صمتٌ مسامعه من غير نغمته بما تمرّ به الآيات والصورُ
تلقاه كالنجل معبوداً يجلسه له خوار ولكن حشوه خورُ
من حوله كلُّ مغترٍّ وما علموا انّ الذي زخرفت دنياهم غررُ
فقل لمن نام : أصبحت انتبّه فلقد مضى بك الليل نجباً واقضى السحرُ
وانضر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفرُ
يرعى الرعايا بطرف ساهرٍ يتظّر كما رعاها بطرف ساهرٍ عمرُ
ردّوا موارد قد أوردتهم خنقاً بها الأنام ولكن ما لكم صدرُ
كأنني بكم قد صرّتهم سراً وما لكم في الورى عين ولا أترُ
أماكم قبل موت سوء فعلكم وكيف بالذكر أن لم تحسن السيرُ
وإلى هذا العهد ، لم يبق إلاّ أنفس خافيت ، وعدم النصير بالمغرب

نبيد الكلبة واقسام أيدي الثوار إيّاه ، من ملوك الحزاريين ،
والزّناتيين ، والبرغواطيين ، والأزداجيين ، والمدّاريين ، إلى أن
ساع في المدينة خروج الممتنّين من الصّحراء ، واستيلاؤهم على المغرب ،
وأنتها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس بقيقه ، وأنته إسلام جديد ؛
فحدّقت إلى سمته العيون ، وصرفت إليه الوجوه ؛ ثم ارتفع إليه الصراخ ؛
تم أعلّمت الإشارات ؛ ثم مدّت الأيدي ، إلى أن كان من تنفس المخلق
بجأورة ملك لمتونة ما كان ؛ فانتعشت برهه ، وأقامت مدّة .
فسبحان من يقول : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا
يَرْجِعُونَ .

قلت : ولما استولى ملك قشتالة إدفونس بن فرذلند على
مدينة طليطلة ، دار ملك الروم ، وعلى الثغر الجوفي ، وانتظمت له
البلاد ، وقد كان أخوه سنانجه وأبوه فرذلند قبله ، راض له ذلك
بما ألقى بكلّ كليله على صاحبها يحيى بن دنثون الملقب بالمأمون سنة ٤٤٥ ،
وانزله ، وألح عليه ، وضعف أمر المسلمين حتى لم يقدروا إلاّ على التحصن
والاحتجار ؛ وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحوال الموضع
الذي قد قصده ، ويخليهم وما يريدونه من معاشهم ؛ فإذا كثرت
الغلات ، استكثر من الاحتشاد ، وفرض على رعيته أمماً من الفلاحين لضمّ
الأقوات ؛ فيحاول منها ما كان المسلمون يستفيدونه لأنفسهم ، وينقل
ذلك على ظهور محلاته ورعيته إلى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين ليعير بها
محلاته عند الحاجة لذلك ؛ وضرب الجزية عليهم بما شاء . فلما هلك فرذلند ،
وولي ابنه سنانجه ، ذهب الناس في إجراء عادته من المال ؛ فقال : « إنّما
كان ذلك المال لفرذلند ؛ وهو ثابت أبداً حسناته ؛ لا يزول ؛ وإنما

١ في الاصل : « إدفونس بن شاجه بن فرذلند » ؛ وهو خطأ من المؤلف ، لأن إدفونس
السادس كان ولد فرذلند ، وشاجه كان أخاه شقيقه ؛ فصحّحنا النص الأصلي للضرورة .

نُصَالِحُكُمْ عَلَى مَا يَخْتَصُّ بِي ! » فَضَعَفَ الْعَدَدَ . ثُمَّ هَلَكَ شَانِجُهُ ،
وَوَلِيَ بَعْدَهُ إِذْفُونُشُ أَخُوهُ هَذَا ؛ فَسَارَ بِسِيرَةِ أَخِيهِ ، وَأَضْعَفَ
الْعَدَدَيْنِ . فَكَانَتِ الرِّعَايَا تَحْمِلُ هَذِهِ الْأَمْوَالَ زِيَادَةً إِلَى أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ
الْمُسْتَقْضَاةِ بِالْعُنْفِ ، الَّتِي يُقِيمُ مِنْهَا مَلُوكُهُمْ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ . فَضَعَفَ الْإِعْتَارَ ،
وَوَخَلَّتِ الدِّيرُ .

وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التجاسد والتنافس
والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات . فلم تتصل لهم
في الله يدٌ ، ولا نشأ على التعااضد عزمٌ ، ولا توجهٌ ، إلى الاستكثار قصدٌ ؛
إِنَّمَا كَانَ وَكْدُهُمْ فِي النَّاسِ الْمَحَلِّ مِنْ وَدِّهِ ، وَإِبْرَازُ الْفَضْلِ مِنْ حِظْوَتِهِ ،
وَالْتَفَقَ عِنْدَهُ ، وَالتَّوَأَعَ إِلَيْهِ ، وَالِاسْتَظْهَرَ بِهِ ؛ وَقَدْ قَعَدَ لِلتَّضْرِيبِ بَيْنَهُمْ
وَالْمُفَاسَدَةِ ، وَأَطْلَلَ بِذُرُوءِ التَّغْلُبِ وَالتَّحَكُّمِ ، مَفْتُوحَ الْيَدِ ، مَقْبُولَ
الْمُزَايِدَةِ وَاجْتِلَابِ الْفَائِدَةِ ، إِلَى أَنْ اسْتَوَى عَلَى طَلَيْطَلَةٍ كَمَا قُلْنَا . فَأَفْطَرَطَ
فِي التَّعَاظُمِ ؛ وَحَقُّ لَهُ ذَلِكَ بِمَا اسْتَرْوَحَهُ مِنْ اسْتِرْجَاعِ مَا حَازَهُ الْفَتْحُ
الْأَوَّلُ . وَعَرَضَ عَلَيْهِ شَيْعَتُهُ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَلْبَسَ التَّاجَ ، وَيُعِيدَ عَادَةً مَنْ
سَلَفَ مِنْ مَلُوكِهِمْ فِي الْقَدِيمِ ؛ فَأَرْجَاهُمْ بِذَلِكَ إِلَى أَنْ يَسْتَوِلِيَ عَلَى دَارِ
مُلْكِ الْمُسْلِمِينَ بِقُرْطُبَةٍ ؛ وَقَدْ حَسِبَ ذَلِكَ حَاصِلًا فِي يَدِهِ ، وَوَاقِعًا فِي
مُدَّتِهِ .

ثُمَّ مَالَ عَلَى جِهَةِ ابْنِ عَبَّادَ كَبِيرِهِمْ ، بِحَصْلِ شَوْكَتِهِ ، وَيَخْطُبُ بِمُلْكَتِهِ ،
وَيَطْرُقُ حِمَاهُ ، مُتَنَاهِيًا فِي الْوَعِيدِ ، مَتْرَافًا إِلَى الْمَرْتَمَى الْبَعِيدِ . وَوَصَلَتْ
رِسَالَتُهُ الْيَهُودِيَّ الْمُعَيَّنُ لِقَبْضِ الضَّرَائِبِ ، وَتَجْرِيعِ الْمُسْلِمِينَ كُؤُوسِ
الْمَصَائِبِ ؛ فَتَزَلَّ بِظَاهِرِ إِشْبِيلِيَّةٍ فِي مَوْكَبٍ مِنْ فُرْسَانَ مُسْطَنِهِ ، وَكُتَّابِ
دِيَوَانِهِ ؛ وَأَبْرَزَ لَهُ الْمَالُ ، فَلَمْ يَرَوْضَ عِيَارَهُ ، وَأَقْدَمَ أَنْ مَوْلَاهُ لَا
يَقْعُ فِي السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ إِلَّا بِالْيِلَادِ ؛ وَجَمَعَ بِلِسَانِ الصُّوْلَةِ مَا سَاءَ ابْنُ عَبَّادَ .
وَلَمَّا نُقِلَ إِلَيْهِ كَلَامُهُ ، لَمْ يَمَلِكْ زِمَامَ نَفْسِهِ ، وَأَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ

مَعَهُ ، وَأَنْفَذَ الْأَمْرَ بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ وَأَسْرَ مَنْ مَعَهُ . وَبَذَلَ فِي نَفْسِهِ أَمْوَالَ
خَطِيرَةً ؛ فَلَمْ يُصْغَرْ إِلَيْهِ ، وَشَفَى مِنْهُ نَفْسَهُ . ثُمَّ خَاطَبَ مَلِكَ النَّصَارَى
بِشْرَحَ لَهُ عُذْرَتَهُ ، وَقَدْ آسَفَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ ، وَلَا يَعْرِفُ الصَّلَاحَ . وَقَامَ لَهُ
الْإِذْفُونُشُ فِي رِكَابِهِ ، وَصَرَفَ عَزْمَهُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ كَانَتِ الْأَخْبَارُ اتَّصَلَتْ بِخُرُوجِ الْأَمِيرِ يَوْسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ مِنْ
الصَّخْرَاءِ فِي أُمَّةٍ جَدِيدَةٍ الْإِسْلَامَ ، شَدِيدَةٍ الْإِعْتِزَامِ ، مُظْهِرَةٍ لِلْقِيَامِ بِالْحَقِّ
وَمُجَاهِدَةٍ مَنْ زَاغَ عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وَأَنَّهُ قَدْ طَوَّعَ الْمَغْرِبَ ، وَرَدَّ الْكَلِمَةَ
فِي أَكْثَرِهِ وَاحِدَةً ، كَمَا قُلْنَا . فَتَرَجَّحَ لَدَيْهِ اسْتِدْعَاؤُهُ وَالِاسْتِصْرَاحُ بِهِ
وَالْتِطَارُحُ عَلَيْهِ ، وَعَرَضَ ضَرُورَةَ الْإِسْلَامِ عَلَى دِينِهِ وَامْتِنَاعِهِ . وَاسْتَشَارَ
أَوْلِيَائَهُ فِي ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهُ وَلَدُهُ الرَّشِيدُ مَا مَعْنَاهُ : « حَاوِلِ الْأَمْرَ بِجَهْدِكَ
مَعَ النَّصْرَانِيِّ ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ بِإِدْخَالِ مَنْ يَسْلُبُنَا الْمُلْكَ وَيَشْتَتِ الشَّمْلَ .
فَالنَّاسُ مَنْ عَلِمْتَ ! » فَقَالَ الْمُعْتَمِدُ : « يَا وَلَدِي لِأَنْ أَمُوتَ رَاعِيًا
بِالْمَغْرِبِ خَيْرٌ عِنْدِي مِنْ أَنْ أُرَدُّ الْأَنْدَلُسَ دَارَ كُفْرٍ ؛ فَتَكُونَ اللَّعْنَةُ
عَلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبَدَ الدَّهْرِ ! » فَقَالَ : « يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا أَرَاكَ اللَّهُ ! »
فَخَاطَبَ الْمُعْتَمِدُ يَوْسُفَ بْنَ تَاشُفِينَ غُرَّةَ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ سَنَةِ ٤٧٨ ،
يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ لِتَقْرِيرِ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ .

وَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الْخُطَابُ ، جَمَعَ عَلَيْهِ قَوْمَهُ وَأَخْوَتَهُ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : « مَا
تَرَوْنَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟ » فَقَالُوا : « هَذَا الرَّجُلُ قَدْ اسْتَنْصَرَ بَنَاءَ عَلَى عَدُوِّ
الدِّينِ ؛ وَوَجِبَ عَلَيْنَا وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ نَصْرُهُ ! » وَقَدْ كَانَ اتَّصَلَ بِهِ مِنْ
فَضْلَاءِ الْأَنْدَلُسِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَسْبَاطَ ، وَخَدَمَتُهُ وَنَصَحَتُهُ فِي أَحْوَالِ
أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ؛ فَاسْتَشَاوَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَسْبَاطَ : « الْأَمْرُ لِلَّهِ وَلِكُمُ ، غَيْرَ
أَنْ عِنْدِي مَا نَلْقِيهِ إِلَيْكُمْ : وَهُوَ أَنَّ الْأَنْدَلُسَ مُنْقَطَعٌ يُعَمَّرُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ ،
وَيُعَمَّرُ بِأَقْيَمِهِ الرُّومُ . فَإِنْ جُزَّتْ إِلَيْهَا وَحَصُلَّتْ فِي حُكْمِ أَهْلِهَا ، لَمْ
يَكُنْ لَكَ شَيْءٌ فِي نَفْسِكَ . وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي انْتَصَرَ بِكَ لَمْ يَتَقَدَّمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

ما يوجب الحجل منه . فاكْتُسب إليه بأن الجواز لا يمكنك إلا أن يتخلَّى لك عن الجزيرة الخضراء ؛ تجعل بها رجالك وأجنادك وعدّتك ، ويكون منها الرجوع إلى وطنك بيدك متى شئت ! » فشكره على ذلك ، وأجاب المعتمد بأذن له في الوصول إليه ويعلق إجابته بما ذكر . فجاز إليه المعتمد سنة ٤٧٨ ؛ بأسطول الأندلس جوازاً فخماً ، اختار لمصاحبه في سفره الخواص والأعيان ؛ واستخف ولده الرشيد بسبيلية ؛ وشيعة الناس إلى محل ركوبه البحر .

وفي ذلك يقول شاعره ، بل بعض شعرائه ، عبد الجليل بن وهبون في قصيدته التي أولها :

عزمٌ تجدد فيه النصر والظفر وفكرةٌ خمدت من دونها الفكر
عساك خلّت حباب الماء من زرد تعوّد الخوض فيه طرْفك الأثير
أو قلت في المدح مُرصانٌ مَفوّقة تحارب الجيش أو مصقولة بتو
هي البسالة إلا أنها شرف تنفي الحذار وبما يؤثّر الحذر
لا تحل الدين والدنيا على غرر فليس يحمّد في أمثالها الغرر
إن كان ثوبك مختصاً بلبسه فقد تعلّق من أذيالك البشر

فلما قضى غرضه مشدود اليد بعهدّه ، معلق الآمال بإنجاز وعده ، وقفل إلى بلده ، تخلّى عن الجزيرة الخضراء بما فيها من بهيمة وأنعام ، وعلوفة وطعام ؛ وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ .

دولة الامير يوسف بن تاشفين بالاندلس

ولما اجتاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، لقي طائفة الروم ، وأوقع به وقعة الزلاقة ، منسوبة إلى موضع اللقاء من أحواز بطليوس . ثم أعاد بعدها إلى المغرب . ثم أجاز ثانية ، ونازل حصن

ليسط من كثورة تدمير ؛ وتعذر عليه فتحه ؛ فقفل إلى بلاده المرأكسية ، وقد وجد على ملوك الأندلس ، وانتهسهم بالإغراض في أقره . وداخله الناس في شأنهم ، ودُسّت إليه السعايات بهم ؛ فأعاد الجواز ثلاثة سنة ٤٨٣ ، وشرع في خلعيهم . فتم له ذلك ؛ فتوفي سنة ٥٠٠ ؛ وولي بعده الأثر ولده علي .

دولة الامير علي بن يوسف بن تاشفين

بالأندلس

فتجددت له بيعة أهل الأندلس . وشرع في الجواز إليها أخريات تلك السنة ؛ فباشراً أمورها ، ورتب أحوالها ، وهلك الطاغية في السنة الثانية لولايته ؛ فتمهّدت البلاد . ثم أجاز البحر ثانية ؛ ففتح مدينة طلبيرة ؛ ثم أجاز ثلاثة ، ونازل قلنريّة ؛ ثم قفل عنها وأجاز رابعة لإصلاح الأمور بقرطبة ؛ وولّى ولده تاشفين غرناطة ؛ وضع الله له في الجهاد الصنائع الجميلة والآثار الكريمة . ثم استدعاه في سنة ٥٣٣ ؛ فولاه عهدّه . وتوفي الأمير علي لسبع خلون من رجب سنة ٥٣٣ .

دولة الامير تاشفين بن علي بن يوسف

بالأندلس

واستقل الأمير تاشفين أمر الأندلس بعد موت أبيه ، بما دهمه من حروب المهدي واستيلائه على المغرب ؛ فلم يلتجئ إلى الأندلس رأساً . وجاء القدر ، من إتيان الهزائم عليه وتكبّر السداد إياه ، بخلاف ما جرى به الأمر أيام إمارته وجهاده بالأندلس ، ليفضي الله أمره ، إلى

أَن هَلَكَ فِي السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ لِرَمَضَانَ سَنَةِ ٥٣٩ . وَعَادَتْ هَيْفٌ إِلَى أَدْيَانِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ الْكَلِمَةُ إِلَى سَانِهَا ، وَلَفَحَتْ جُذُرُ الثَّوَارِ ، وَأَصْبَحَتْ الْأَنْدَلُسُ دَارَ الْبَوَارِ . وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ :

إِذَا غَابَ الْهَزْبُ الْوَرْدُ يَوْمًا أَخُو الْفَتَكَاتِ وَالنَّفْسِ الْبَيْسَةِ
وَلَمْ يَجْمَعْ الْقَرِيبَةُ مُسْتَطِيلًا تَرَاخَمَتِ الذِّبَابُ عَلَى الْقَرِيبَةِ

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين

السمتونيّين من الملوك والرؤساء والثوّار

وَتَعَدَّدَتِ الثَّوَارُ وَالْمُنْتَزِعُونَ فِي أَعْقَابِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ، مِثْلَ ابْنِ وَزِيرٍ ، شَيْخِ أَهْلِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَبِي مُحَمَّدٍ سِدْرَايَ ، وَيُوسُفَ الْبِطْرَوْنَجِيَّ ، النَّائِرَ بَلْبَلَةَ ، وَلَسِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبَ سَنْتَرِينَ ، وَأَبِي الْقَمَرِ بْنِ عَزُوزٍ صَاحِبَ شَرِيشَ ، وَابْنَ عِيَّاضِ الْأَمِيرِ بَشْرَقِيَّ الْأَنْدَلُسِ ، وَعَلِيَّ بْنَ عَيْسَى بْنِ مَيْمُونٍ صَاحِبَ قَادِسَ ، وَالْوَهْبِيَّ النَّائِرَ بَلْبَلَةَ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ الْحَبَّامِ صَاحِبَ بَطْلَيْئُوسَ ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَجَرٍ ، وَالشُّكْيَانِيَّ ، وَمُرِينَ الدَّابِيرِ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ لَهُ خَبَرٌ وَدَوْلَةٌ عَلَى قَدَرِهِ وَقَدْرُ عَمَلِهِ وَمَا مَدَّ اللَّهُ لَهُ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ غِيٍّ أَوْ رُشْدَةٍ . وَإِنْ جِئْنَا نَتَّبِعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، خَرَجْنَا عَمَّا أَرَدْنَا . فَلْنَقْتَصِرْ عَلَى طَائِفَةٍ فَوْقَ هَؤُلَاءِ فِي الشُّهْرَةِ ، مِثْلَ حَدِيثِ ابْنِ قَسِيٍّ بِاخْتِصَارٍ .

أيام أبي القاسم بن قسي مدعي الهداية

كَانَ ثَوْرَةٌ هَذَا الرَّجُلِ أَوَّلَ ثَوْرَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ فِي أَعْقَابِ الدَّوْلَةِ السَّمْتُونِيَّةِ ، وَنَسَبُ بَثْوَرَةِ الْمُتْرِيدِينَ ، إِذْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ شَيْخًا مِنْ مَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ ،

الْمُسَمَّى اتِّبَاعُهُمْ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ بِالْمُتْرِيدِينَ . وَقَدَرُهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقَةِ مَعْرُوفٌ ؛ وَلَهُ كِتَابٌ « سَلْعُ التَّعْلِينَ » وَغَيْرُهُ . وَكَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ قَدْ كَثُرَتْ يَوْمَئِذٍ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، لَا سِيَّمَا بِمَدِينَةِ شَلْبٍ ؛ وَكَثُرَ خَوْضُهُمْ فِي الْكُتُبِ الصُّوفِيَّةِ وَمَوْضُوعَاتِ الْغَلَاةِ مِنَ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَالْكَفِّ بِرِسَائِلِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَانْتَشَرَ هَذَا الرَّأْيُ بِإِسْرَافٍ وَلِسْبَلَةٍ وَنَظَرٍ مَرْتَلَةٍ ، وَهِيَ بَلَدُ أَبِي الْقَاسِمِ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ قَسِيٍّ ؛ وَكَثُرَ جَمْعُهُمْ ، وَوَقَعَ الْحَدِيثُ بِهِمْ ؛ وَحَذَرُوا صَاحِبَ الدَّوْلَةِ ؛ فَفَرَّقُوا . وَاسْتَقَرَّ جَدُّ نَحْلَتِهِمْ بِالْمَرِيَّةِ ؛ وَكَانَ بِهَا رَئِيسُ هَذَا الشَّانِ وَدِخْلَتُهُ ، وَالْمَشْهُورُ فِيهِ الشَّيْخُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيفِ . فَأُعْلِمَ عَلِيُّ بْنُ يُونُسَ بِذَلِكَ ؛ فَوَجَّهَ عَنْ ابْنِ الْعَرِيفِ وَأَبِي الْحَكَمِ بْنِ بَرَّجَانَ نَظِيرَهُ فِي الْحِلَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَمْثَالِهِمَا ؛ فَفَرَّقَهُمْ . وَكَانَتْ وَفَاةُ الشَّيْخَيْنِ بِمَرَّاكُشَ سَنَةِ ٥٣٧ .

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ قَسِيٍّ هَذَا فِي زَمَانِ فَتَاهِ وَشَيْبَتِهِ مُشْرِفًا بِشَلْبٍ مِنْ عَمَلِ إِسْبِيلِيَّةٍ ، إِلَى أَنْ أَظْهَرَ ، وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ ، وَتَطَوَّفَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَابْتَنَى رَابِطَةً بِقَرْيَةِ جِلَّةٍ مِنْ قَرْيَةِ شَلْبٍ ، كَانَ يَجْمَعُ بِهَا دَائِرَتَهُ الَّتِي دَارَتْ بِهَا عَلَى الْأَنْدَلُسِ دَائِرَةُ السُّوءِ ؛ وَادَّعَى الْوِلَايَةَ ، وَتَسَمَّى بِالْمَهْدِيِّ ؛ وَكَثُرَتْ مَخَارِقُهُ . وَاشْتَهَرَ عَنْهُ أَنَّهُ حَجَّ مِنْ لَيْلَتِهِ وَيُنَاجِي بِمَا شَاءَ ، وَيَنْفِقُ مِنَ الْكُفُونِ . وَتَتَابَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالرَّحِيلِ ؛ وَاتَّصَلَ بِهِ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيُوتَاتِ وَالْأَجْنَادِ ، مِنْهُمْ ابْنُ وَزِيرٍ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَابْنُ عَنَّانِ فَارِسِ جِهَةِ يَابُوتَةَ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ مِنْ أَهْلِ شَلْبٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي حَبِيبٍ ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ أَعْيَانِ ذَلِكَ الصُّقْعِ الْغَرْبِيِّ . وَاللَّمْتُونِيُّونَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْحَالِ قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ مَوَادُّ الْغَرْبِ بِمَا دَهَمَهُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَهْدِيِّ ، وَأَجْهَفُوا بِالنَّاسِ بِسَبَبِ اجْتِيَاحِ جُنْدِهِمُ بِالْأَنْدَلُسِ . وَتَحَامَلَتْ عَلَيْهِمُ النَّاسُ ، وَتَوَفَّرَتْ دَوَاعِي الشَّتَاتِ بِفَتْرَةِ الْخَوْفِ ، وَاسْتَهْدَفُوا الْخَلْعَ ، وَكَثُرَ التَّعَدِّيُّ فِي الطُّرُقِ وَالْدَوَابِيرِ فِي السُّبُلِ ، وَالْفَتَكُ بِالرُّفُقِ . وَأَوْعَزَ أَبُو

القاسم بن قسي بن أحد من طائفة أن ينهز النمرصة في حصن مشقوق ؛ فتهب الغيرة فيه . وتعذب عليه في سؤال من عام ٥٣٨ . وبأذرة المرابطون بجيسته قبل أن يستعيد ؛ فأنزلوه منه وقتلوه .

وكان ابن قسي يغايط أصحابه ، ويقول : « إنهما مثله كالفجر الكذب ؛ وبعده يطع الفجر الصادق ويصبح النهار ! » ثم خاف ابن قسي عند القبض على المذكور ؛ فخرج إلى جهة مرتلة من حصون العرب بكورة سدونة ؛ فاستقر عند قوم يعرفون بني السنة ؛ وكان من أصحابه رجل يسمى محمد بن يحيى ويعرف بين القبيلة ؛ وكان فريداً كهره صرامة ودهاء وشجاعة وبلاغة ، رسائله مشهورة وفصاحته مذكورة ، رمى به غرضه وجعله سيف ثورته وعضد دولته وتغلبه ، وعينه لغدر مرتلة ؛ فخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابن قسي بقرية الجوزة من قطر مرتلة في سبعين رجلاً من المريرين . وكان قائد حصن مرتلة قد واعد رجلاً من أهلها على الإتيان إليه في الليل برشوة على حال استتار من أهل الحصن ، وقدّم الوصاية بذلك إلى بوابه ؛ ونفى إليهم الخبر ؛ فأوهموا باتخاذ رفقة صعد بها بعضهم إلى الحصن ، ولم يشك صاحبه أنها رفقة ميعاده الخبيث ؛ ففتح الباب . واقتحم القوم الحصن ؛ فملكوه . وبأذرة محمد بن القبيلة إلى تسكين الناس وضبط الحصن . وزحف إليه المرابطون بتلك الجهة ؛ فلم يغنوا شيئاً ، وارتحلوا بعد تخريب قطر مرتلة . وتداعت عامة ما يحاورها إلى الثورة ؛ فقام أهل كابرلة ملتفتين على ابن وزير عبيدهم . وتوجه ابن قسي إلى مرتلة ؛ فاحتل بقصبتها المنعة غرة ربيع الأول عام ٥٣٩ ، وبث للحين عقيدته ، وتسمى إماماً ، وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين . واتصل به الأشرار ، وأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج . وكان ، إذا أعطى ، يحثو بيده من غير عدد ؛ وكان أصحابه يقولون للناس إن المال يتكوى عنده إذا فرغ .

ومن النوادر في ذلك أن رجلاً من البادية قال لبعض أصحابه ، وقد أعطاه : « عجباً هذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين ؟ » ولم يكن عليه طابع غير ذلك . ونقيل له هذا الحديث ؛ فكان آخر العهد بذلك الرجل .

ثم إن بعض أصحاب ابن قسي اختلفوا عليه ، وفسد ما بينهم وبينه ؛ فنازعه ابن وزير بشلب ، وأخوه بياجة ، وصرفوا الدعوة إلى ابن حمدين بقراطبة ، وقد دعا إلى نفسه ، ونسئ بالقاضي الخليفة ، حسباً يذكر . فعزم ابن قسي على اللحاق بأمير المؤمنين ؛ فخطب الأمير عبد المؤمن ابن علي ؛ فلم يجد عنده قبولاً لتعاليه في الخطاب عليه ؛ وجعل الخطأ لنفسه بوصف الهداية بضاعة القوم ؛ فأعاد واعتذر ؛ وتجرأ في عقبها . فكان لقاءه إيّاه في ربيع الآخر من عام ٥٤٠ . وتحفى عبد المؤمن به ، وأكثر موفادته . ثم انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحدن ، وهو أول عساكرهم وبأكورة تغلبهم ، حسباً يأتي ذكره .

ثم إنّه ، لما اضطربت الأحوال بالدولة المؤمنية بالماسي مدعي الهداية في دولتهم ، وانتقض عليهم كثير من البلاد ، رجع عن دعوتهم ؛ ولم يكن إلا أن تاب أمرهم وقتل الداعي القائم عليهم بماسة . فتورط بما جناه من القطيعة ، واضطر إلى مداخلة صاحب قلنصرية من النصارى المعروف بابن الرنق ، وألطف مهاداته ، ووصل التعلق بحبله على كيدن أمثاله من الثوار ؛ فقبل صاعيته ، وبعث له بفرس من مراكبه وثرس ورُمح .

وتوقع أهل شلب عائدة هذه المداخلة ؛ فظفروا لأنفسهم في الإراحة منهم ؛ فشغلوا ولده الحسين بن أحمد بن قسي بنزوة أعدوها له ؛ فأقْبى بعضهم برجل مكتوف كآته قبض عليه من الدائرة والأشرار ، واستأذنوا على مقدم الحرس ؛ فعندما دخل إلى البلد يستأذن في أمره ،

اقتحمت الطائفة الحِصْنَ ؛ فقتلوا أحمد بن قسيّ ، ورفعوا رأسه على الرمح المَهْدَى من قِبَل الروم . واستلَّ ابنُ المُنْذِرِ بِسِلْبِ إلى أن صيَّرها إلى مُلْكِ الموحِّدين ، في خبرٍ يطولُ شرحُه .

وكان قَتْلُ المذكور في جُمادى الأولى من سنة ٥٤٦ . وخَبَرُهُ يقتضي طولاً . وما صدر عنه من الرسائل في مُخاطَبَةِ أهل الأندلس ، وما تَضَيَّعت من المخارق والدعوى المذكور . ومن شِعْرِهِ في غَرَضٍ ما كان بسبيله :

[الطويل]

إذا صفر الاصفار جافى فإنما يجيء بهولٍ ما يمرُّ وما يجلي
وشهراً ربيعٍ فيهما كلُّ آيةٍ وعند جُمادى ينقضي أمدُ الحِيلِ

ومن شعره وكان يقول : « أنشدني رَبِّي في المنام ! » : [الكامل]

ارْدُدْ على قوس العلى أوتارَه وارْمِ العدا بسهامها العقَّارَه
وأنفض يدَيْكَ بِسِلْبِ مِفْتَاحِ البلا د المنجات وأمْها المختارَه
ويكون ذاك إذا تكاثرت العدا وتَمَلَّات قننُ الجبال نصارَه

ولما نُقِدَ عليه قوله في نصارى « نصَّارَه » ، غضب ، وقال : « كذا قال لي : قُلْ نصَّارَه ! » فمضى على هذه السبيل .

أيام أحمد بن حمدين الأمير القاضي بقرطبة

وهو أحمد بن محمد بن أحمد التَّغْلِبِيُّ . دخل الأندلس جَدُّهم في طالِعَةِ بُلُجْ ؛ فَنَزَلَ بَاعُهُ ، وبها تناسلُهم . ولي النضاء بعد أخيه بقرطبة سنة ٥٢٩ ؛ وعزله الأميرُ عليُّ بن يوسف . فلما ثارت العامَّة بقرطبة ، واستطالت الأيدي لضعف قاضيا إذ ذاك أحمد بن رُشد ، اضطرَّ أبو جعفر بن حمدين إلى الخروج للناس لردِّ العامَّة وتسكينِ الثائرة . وكان سَهْمًا ، يجيش في صدره

الأمر الذي برز فيه ؛ فظهر يومئذٍ ، وفرَّ ابنُ رُشد مُسْتَعْفِيًا عن النضاء . وتعطلَّت الأحكام بقرطبة أزيدَ من سنة ، سُخْطًا من الأمير على أهلها . ثمَّ أذن لهم في اختيار قاضٍ ؛ فاتفقوا على ابنِ حمدين هذا سنة ٥٣٦ ؛ فاستمرَّ على القضاء إلى سنة ٥٣٩ . وثارت العامَّة بوالي البَلَدِ الرئيس أبي عمر اللُّمْتُوني ، وخلعوا دعوةَ المُلَّتَمِينَ ، واتفقوا على مُبايعة القاضي أبي جعفر ابنِ حمدين ؛ فبايَعَه الخاصَّة والعامَّة بالمسجد الجامع من قرطبة خامسَ رمضان من سنة ٥٣٩ المذكورة ؛ وسكن قَصْرَ الخلافة ، وتسمَّى بأمير المسلمين وناصر الدين . وزحف إليه أحمد بن عبد الملك بن هود ، المستقرُّ عند صاحب قَسْتَنَالَةَ حسباً وقع ذكرُّه في دولة بني هود ؛ وكان قد أسنَّ ، وبلغ زمن الشيخوخة عند العدو ؛ فأقبل إلى قرطبة بُدَاخلة العامَّة ؛ وفرَّ عنها بعد اثني عشر يوماً . وعاد إليها ابن حمدين من مستقرِّه ببعض الحصون ؛ فاستقام له الأمرُ ودَوَّنَ الدواوين ، وجنَّدَ الأجناد ، ورسم الخطَّط ، ومخاطَبَ العُصاة بالأندلس ؛ فاستقلُّوا ببلادهم ، واعترفوا ببيعتِهِ . واستمرَّت أيامه أحد عشر شهراً . ثمَّ دَبَّرَ حُسادَه المكيدةَ عليه ؛ فكتبوا إلى يحيى بن غانية عميدِ العصابة اللُّمْتُونيَّة ، وهو بدار مُلْكِهِم إشبيلية ؛ فتحرك إليهم في جُمادى الآخرة من عام ٥٤٠ . وبرز ابن حمدين إلى لَنائِهِ ؛ فالتقى بأحوازِ إِسْتِجَّة ؛ فكانت على ابن حمدين الهزيمة ؛ اتَّبَعَهُ ابنُ غانية ؛ فدخل قرطبة في الثاني عشر لشعبان من السنة . وفرَّ ابن حمدين إلى بَطْلَيْوْس ؛ فأجاره صاحبها . ثمَّ تدرَّج إلى أن لحق بِحِصْنِ أُنْدُوجَرِ المجاور لقرطبة . وتحرك ابنُ غانية إليه ؛ فنازلَه ، وواصل حصاره نحواً من شهر ، إلى أن استصرخ ابنُ حمدين طغية الروم ، ووعدَه بِأَطْمَعَةٍ ؛ فحثَّ إليه السيَرُ وتخلَّصه ؛ وقتل ابنُ غانية إلى قرطبة . وأخذ ابن حمدين أثرَه بالنصاري ؛ فدخلها عاشرَ ذي الحِجَّة من عام ٥٤٠ . واعتصم ابنُ غانية بالمدينة بعد أن عاثَ الروم في شَرْقيَّها بما هو معلوم ؛ فذكروا أنه في

مدة محاصرة الصغية لابن غانية بقرطبة انصبت الأخبار بصاحب قشتالة بما كان من جوائز جيش الموحدين إلى الأندلس، وظهور دعوتهم بإشبيلية؛ فاقضى رأييه ورأي رباب الشورى من قومه أن يستبقي ابن غانية، وينهذه، وينصبه سداً في وجه القوم؛ فترددت بينه وبين ابن غانية المفاوضة، وتم له العرض على شروط من مال وبلاد التزمها له ابن غانية؛ وأقنع عنه.

وانصرف ابن حمدين خائباً في ظل صاحب قشتالة؛ فأقام بحصن فرنجلوش، وقصد عبد المؤمن بن علي؛ فأقبل عليه، وأحسن وعده، واستعجل الرجوع من عنده؛ فاستقر بمالقة، وقد ثار بها حليفه وصنيعه أبو الحكم بن حسون قاضيا، واستجمع بها، والتفت بصوابته. ونهض إلى قرطبة؛ فبان وهنه، وأخفق مسعاه؛ فعاد إلى مالقة إدراجة. وساعد ابن حسون بها على مخالفة الموحدين؛ فعدا إلى نفسه.

وتوفي ابن حمدين بمالقة في التاسع عشر لرجب سنة ٥٤٦؛ ودُفِنَ بقبلي مسجدًا. ولما استولى الموحدون على مالقة، نبشوا لجده وصلبوه، وهو بحاله لم يتغير بعد عشرين شهراً. وزعم بعض المؤرخين أن المنجمين في زمانه حكموا على مولده بأنه يُصلب؛ وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه بقرطبة؛ فصدقته الأيام، لكن بعد وفاته تجاوز الله عنه!

أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بمالقة

وهو الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكندي بن حسون؛ اشتهر بكنيته.

قال ابن خيمس في تأريخه: كان أبو الحكم قد نشأ على مذهب سلفه

من الوجاهة والنبهة، وعلو المكانة، وشرف الذات، وبعد الصيت، وطلب العلم. وولي القضاء بمالقة عند عمى قاضيا أبي محمد الوحيد سنة ٥٣٨. ثم دعا إلى نفسه لما تكاثرت القضايا؛ واستبد، وحصر اللئيمونين بالقصبة، إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر. وتملك القصبة، وانتقل إليها، وتسمى بالأمير، وأقام سالكاً طريقة القضاء مع الإمارة؛ وقلد أخاه أبا الحسن جيشه، وولاه بلد قرطمة وما إليها. وله بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره.

والتح عليه من مجاوره من المرابطين بأننتقيرة وغيرها؛ فواصلوا الغارات عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الروم؛ ولزمه المال؛ فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التدبير عليه؛ فدخلوا رجلاً شهياً من خدأه، كان قائد الرجال ببابه، يُعرف باللوشي، وتواعدوا معه على يوم معلوم ثاروا فيه؛ وتغلب المذكور على الأبواب، وملك القصبة. وسد ابن حسون على نفسه في القصر، وقاتل عنه؛ فلما أيقن بالهلكة، وقد قتل أهل البلد أخاه عند الهيج والثورة، ذهب إلى قتل من بداره من بناته، غيرةً عليهن؛ فامتنعن منه في الغرف والبيوت؛ واشتد الأمر؛ فأطلق النار في كتبه وذخيرته؛ فأحرقها؛ ثم شرب سماً؛ فلم يفعل فيه؛ فدخلت رُمحاً وتحامل على سينانه إلى أن خرج من ظهره؛ ولم يُجهز عليه. ودخل القصر؛ فوجد مشحطاً في دمه، يجود بنفسه؛ ثم مات ليومين. وكان ذلك في يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام ٥٤٧. وصليبت جثته، وحمل رأسه إلى مراکش.

واستولى الموحدون على مالقة بعده؛ فبيع بناته وأهلكه؛ وتسرّى بعضهن جيلة من أهل الدولة. كتب الله لنا حسن العاقبة!

أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز بيلنسية

ولما استقل ابن حمدين بقرطبة ، ثار الناس ببلنسية ، واخلعوا اللثمنيين ، واجتمعوا إلى القاضي ابن عبد العزيز بها ؛ فالتزم بينهم بعد نفاذ وتوقف لم يسعه إلا القيام بالأمر . وقد كان اللثمنيون لجأوا إلى معقل ساطية ؛ فاحتشد ابن عبد العزيز ، وتأهب لنزولها ؛ فكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة ٥٣٩ . ولما ضاق بأهل ساطية الحصار ، وأغورزهم الغوث ، اهتبل الغيرة عبد الله بن حمو بن غانية ؛ فخرج في طائفة قليلة من أنجاد قومه ، وتعرف بذلك ، واتيسع أثره ؛ فنجوا وحده ، وقصد الساحل . فذكروا أنه صانع صياداً للحوت ببعض آلتيه ، وركب جففته ؛ فأوصله إلى أحواز المريّة ؛ فقصدها القائد محمد بن ميمون صاحب الأسطول وصنعة الملتئين ؛ وقد كان وقى لهم ، وامتنك بدعوتهم ؛ فجهّزه إلى مدينة ميورقة ؛ فألحقه بأبيه حمو بن غانية . ومن هنالك تأثلت ميورقة العصابة الميورقية التي تعب فيها عبد المؤمن .

وملك ابن عبد العزيز ساطية ، وانضاف إليه لقنت وما إليها ؛ فضخمت جملته ، واتسعت طاعته ، إلى أن ضاقت جبايته ، وكرهته رعيته ؛ فثار به الحارث في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٤٠ ؛ فصابره إلى الليل ، وتراعى من السور ؛ فذهب لوجهه . وتلاعبت به الأيام إلى أن توفي مشرفاً بمرّاكش سنة ٥٧٨ .

أيام عبد الرحمن بن رشيق بمرسية وما إليها

قد تقدم ذكره من حديث ابن رشيق وابن عمّار ؛ وهو أن المعتد ابن عبّاد ، لما وجه إلى مرسية وزيره محمد عمّار ، عندما دخلت في طاعته ، فتملكها وتقبض على ابن عبد الرحمن بن طاهر أميرها ، تخالف المعتد ، واستقل بنفسه ، وفر ابن عمّار إلى ابن دنون . فلما شرع ابن عبّاد في مطالبة ، وشكا أمره إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، وقد جاز إلى الأندلس المرة الأولى ، بادر ابن رشيق بتصوير المدينة إلى طاعة الأمير يوسف ، وخطب له بمنابرهما ؛ فلم يسع ابن عبّاد المراجعة ، ولا فصل يوسف بن تاشفين الخطّة ؛ فلما قفل إلى مرّاكش ، انتهر ابن عبّاد استكانة الطاغية ، وتحرك طمعه فيما بيد ابن رشيق . فحشد من بعمالته ، واستكثر ، واحتفل ، واستضاف من بقرطبة من جيش ولده ، وأعمل السير مورياً بغزو حصن لييط من حصون النصارى المجاورة لمرسية ، ونزل بساحة ابن رشيق ؛ فاحتفل ابن رشيق في بيته وضيافته ، وجاهره بالاستبداد ؛ ولم يلقه ؛ فتلوّم المعتد أياماً . ولما يئس منه ، رحل عنه ، بعد أن قنع منه بضريبة يؤدّيها إليه مسانحة ، وخيل يجهّزها إليه عند الحاجة . وأقام ابن رشيق بمرسية . فلما جاز يوسف بن تاشفين في المرة الثانية ، ونزل حصن لييط من حصون الروم بجهة مرسية ، وحضر عنده أمراء الأندلس ، شكوا ابن عبّاد بن رشيق . وحضر ؛ فاحتج عن نفسه . ووجب الحكم الشرعي عليه ؛ فامرّ بإرساله إلى ابن عبّاد ؛ فأنفذه في حكم النفاق إلى لوزقة . وانتزى قرابته وأهله بحصون مرسية ؛ فانقطعت الميرة ، وساءت حال المحلّة ؛ فأقلعت . ونقل ابن رشيق إلى الإعتقال بإشبيلية ؛ فبقي بها إلى أن دخلها الملتصون على ابن عبّاد . فخرج من ثقافه .

أيام الامير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر

بُيُوتِيَّة

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الحُشَنِي .
وكان من أهل البيوت الكبيرة بُيُوتِيَّة ، استَقْضِيَّ بِهَا ؛ ثُمَّ تَقَلَّدَ رِيسَتَهَا
عندما أقام ابنُ حَمْدَنٍ بقرطبة في أواخر سنة ٥٣٩ ؛ فاضط الأمور
بُيُوتِيَّة ، مُشارِكًا فيها لِدُنْدِهَا المعروف بالتَّغْرِي . وتغلَّب على أُرْيُولَةَ
وجيَّاتِهَا . فلما تمكَّن من أَمْرِهِ ، قبض على التَّغْرِي ، وقد ضاق وسعُهُ
عن مُداراته ؛ فكمَّل استبداده وظهر على أموال للمُتُونِيَّين ، استعانَ بِهَا .
ولما ثار ابنُ أَضْحَى بقرطبة ، واستعصى عليه أمرُ المُلُكِيَّين بِقَصَبَتِهَا ،
استصرخ بابن أبي جعفر هذا ، ووَعَدَهُ بما أَطبعه ؛ فتحرَّك نحوه في عسكرٍ
وافرَّ ينيف على أَلْفِي فَارِس ، فيهم أعلامُ فُقَهَاء الشَّرْق وكُتَّابِهِمْ
وَمُتَعَرِّجِهِمْ . وكانت بينه وبين جُيُوش اللِّبْتُونِيَّين المُتَعَرِّجِينَ إِلَيْهِ وقِيعَةٌ
عظيمةٌ بظَاهِرِ المَدِينَةِ ، صدقت فيها عليه الهزيمة يوم الجمعة ثلاث خلون من
شهر ربيع الأول عام ٥٤٠ . وذكر بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَثْبِت على الظَّهْرِ ،
فيسقط عند الركض ؛ وسمعه بعضُ الجندِ يُخَاطِبُ كُطْبَلَاءً ، يقول له :
« اضرِب الطِّلْ ! فَإِنَّ فِيهِ مَهَابَةً ! » فكان الجندُ بعد ذلك يعبثون بقوله .
وحَزَّ رَأْسُهُ وَأَدْخَلَ المَدِينَةَ . وانْقَضَتْ حاله هذه .

أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الامير القاضي

بَأُرْيُولَةَ

وهو أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن سعيد بن عاصم ،

أحدُ أَرْؤَسَاءِ الحُسْبَاءِ ، أُولِي السِّلَفِ والنِّبَاهَةِ ، المتداولُ للقضاء ثم الإمارة ؛
قام بَرِيضَةً بَلَدَهُ للعَهْدِ المذكور ، وقصده الناسُ ، وامتدحوه وأشادوا
بذكره ، حسبا يظهر من شِعْرِ أَبِي بَكْر بن حَبِيس في مدحه في القصيدة
الشهيرة التي يصف فيها الصيد والجوارح ، التي أَوَّلَاهَا : [الطويل]

يعزُّ بك الإسلامُ والدين والفَخْرُ وتخدمك الأقلام والبِضُّ والسمرُ
وهي شهيرة . واتَّصَلَت الرِّيسَةُ في عقبه ، إلى أن تغلَّب الروم على بَلَدِهِ
في الدولة النُصْرِيَّة . ودخل غرناطة من وَلَدِهِ الرَّئِيسُ أَبُو الحَسَنِ خِجَل ؛
وكان مجالسا للسلطان بقرطبة ، غريبَ الزِّيِّ والوقار ، حَسَنَ الحَظِّ ، جميل
الرُّوَاءِ . وكانت وفاته بقرطبة مُسْتَأً سنة ٧٠٦ .

أيام القاضي

المُتَأَمِّرُ يوسف بن عبد الرحمن بن جزى

رَأْسٌ فِي الفَتْنَةِ بِجَيَّان ؛ وهو المدعوُّ بالرَّئِيسِ أَبِي الحَكَمِ ؛ وكان عنده
حَظٌّ مِنَ الطُّبِّ وَخَطٌّ حَسَنٌ . تَوَفِّي سنة ٥٨٩ . وعندِي أَن القاضي
المُتَأَمِّرَ بِهَا غِيَرَهُ .

أيام الامير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي

ابن مَوْدَنِيَش ، أمير شَرْقِ الأَنْدَلُسِ

كان أبوه سَعْدٌ لِمَيرِ إِفْرَاغَةٍ وَمَا وَالَاهَا مِنْ تُغُورِ شَرْقِ
الأَنْدَلُسِ . وكان ما تقدَّم به التعريف من مُنازلة ابنِ رُذَيمِرٍ إِبَاهُ بِإِفْرَاغَةٍ ؛
وَأَحَانَ الله الطَّاعِيَةَ فِي مَنَاحِهِ بِظَاهِرِهَا عَلَى يدِ يَحْيَى بنِ غَانِيَةٍ ، بعد أن

أَسْفَى عَلَيْهَا ؛ فَظَهَرَ مِنْ سَعْدٍ - وَحَمَهُ انْتِ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَبْلَهُ مِنَ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْبَلَاءِ مَا اشْتَهَرَ بِهِ ذِكْرُهُ وَعَلَا صِنُّهُ .

ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا وَلَدَهُ هَذَا أَخْبَأَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَأَوْضَعَ بِمَا كَانَ مِنْ مُصَاهِرَتِهِ ابْنَ عِيَاذٍ ؛ فَأَعَدَّ السَّيْرَ إِلَى مَحَلِّ كُورَتِهِ مُرْسِيَّةً وَمَا إِلَيْهَا ؛ فَمَلَكَهَا فِي الْعَشْرِ الْوَسْطِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ ٥٤٢ . فَتَبَتَ قَدَمُهُ فِي الرِّيَاسَةِ ، وَخَلَصَتْ لَهُ ضَائِرُ الْجُنْدِ لِلْمَلَأَمَةِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَصَاهَرَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هَمُّشُكٍ ، أَوَّلَ ثَوَرَتِهِ ، عَلَى بَنَاتِ إِبْرَاهِيمَ . فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ ، وَتَمَّتِ الْمُعَاوَضَةُ . وَبَادَرَ بِتَوْجِيهِهِ إِلَى الطَّاعِيَةِ ؛ فَعَقَدَ سُلْطَانًا عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ الْبِلَادِ ؛ حَسَنَ مَنَابُ صَهْرِهِ ابْنِ هَمُّشُكٍ فِيهِ ، وَنَجَحَتْ سَاطِئُهُ . فَأَمَّنَ الشَّرْقُ ، وَرَغِبَ أَهْلُ الْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ فِي طَاعَةِ ابْنِ سَعْدٍ ؛ فَعَظُمَ أَمْرُهُ ، وَاشْتَهَرَ ذِكْرُهُ . وَخُطِبَ مُسَالِمَةً عَدُوَّ اللَّهِ بِبَرَجِلُونَةَ ؛ فَتَمَّتْ كَذَلِكَ الْأَرْبَعَةُ الْأَعْوَامُ عَلَى ضَرْبِيَّةٍ مِائَةِ أَلْفٍ مِثْقَالِ حَشْمِيَّةٍ .

فَلَمَّا صَفَا لَهُ الشَّرْقُ ، ثَارَ عَلَيْهِ مِنْ أَصْهَارِهِ ابْنُ هِلَالٍ يَوْسُفُ بْنُ هِلَالٍ بِحِصْنِ مَطَرَنْدِيشَ ؛ فَأَقَامَ سَوْقَ الْفِتْنَةِ عَلَى بَلَدْنَسِيَّةٍ ، وَأَخَذَ حِصْنَ الصُّخَيْرَةِ ، وَتَمَلَّكَ مُورَتَلَةَ ، وَأَوْقَعَ ابْنَ مَرْدَنْشَ وَقِيعَةً انْهَزَمَ ابْنُ مَرْدَنْشَ بِهَا . ثُمَّ اسْتَرْجَعَ ؛ وَسَاعَدَهُ الْجَدُّ فِي جَرِيدَةٍ جَهَّزَهَا بِيَعُضِ الْأَطْرَافِ لِلضَّرْبِ عَلَى مُورَتَلَةَ ، مَوْضِعِ يَوْسُفِ الْمَذْكُورِ ، وَافْتَقَتِ الْبَائِسُ مُتَوَجِّهًا فِي خُورَيْصَتِهِ إِلَى بَعْضِ الْحُصُونِ ؛ فَتَمَلَّكَتْهُ أَسِيرًا . وَأَسْرَعَ بِهِ إِلَى مُورَتَلَةَ ، وَأَمَرَ بِمُخَاطَبَةِ زَوْجِهِ فِي التَّخَلُّصِ عَنْ الْحِصْنِ وَإِلَّا نَزَعَتْ عَيْنَهُ ؛ فَلَمْ يَصْدُقِ الْوَعْدَ ؛ فَفَقِئَتْ عَيْنُهُ بَعْدَ مِنْ الْأَرْضِ ، بَعْدَ أَنْ تَلَكَّأَ .

فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ غَرِيبَ السَّيْرِ فِي الثَّوَارِ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْقُوَّةِ فِي نَفْسِهِ ، شَدِيدَ الْأَسْرِ فِي تَرْكِيْبِ بَيْتِهِ ، أَصِيلَ الشَّهَامَةِ وَالْفَرُوسِيَّةِ ، يُنَادِمُ كِبَارَ الْأَبْطَالِ وَمَشَاهِيرَ الْفُرْسَانِ وَمَسَاعِيرَ الْحُرُوبِ ؛ فَيُعَاوِرُهُمُ الْحَمْرَ ،

وَيُعَاطِيهِمُ الْكَأْسَ ؛ وَرُبَّمَا هَزَّهُ الْارْتِيَاخُ ؛ فَأَفْضَلَ حَتَّى بَآئِيَةَ شَرَابِهِ وَفَرَشَ مَجْلِسَهُ ، وَانْهَمَكَ ؛ فَكَانَ يُرَاقِدُ أَزِيدَ مِنْ مَائَتِي جَارِيَةٍ تَحْتَ خَافِ وَاحِدٍ . وَمَالَ إِلَى اتِّخَاذِ زِيِّ الرُّومِ ، مِنَ اللَّبَاسِ الضَّيِّقِ ، وَرُكُوبِ الْبَرَاذِينِ الْمَهَالِيكِ ، وَاتِّخَاذِ السَّرُوجِ الضَّخْمَةِ الْقَرَارِيْسِ . وَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى تَدْيِيرِهِ ، وَرَتَّبَ مِنْهُمْ أَعْوَانًا وَجُنْدًا ، أَفْرَادَ لَهُمْ بِمُرْسِيَّةٍ مَنَازِلَ فِيهَا الْخَانَاتُ وَالْبَيْعُ . وَاضْطُرَّ إِلَى الْمَالِ ؛ فَتَحْتَفَ الرِّعْيَةَ بِكُلِّ وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْجُورِ ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْقَبَالَاتِ ، وَرَسَمَ بِدَائِعَ مِنَ الْمَكُوسِ ، وَقَرَّرَ فِي الْمَوَاشِي عَدَدًا يُلْزِمُ الْمُتَيْنِ ، وَفَرَضَ عَلَى الْأَدَمِ وَالْبَقُولِ وَالْحُبُوبِ مَعَاوِنَ ثَقِيلَةً تُقَارِبُ أَصُولَ الْأَثْمَانِ .

وَتَحَرَّكَ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْدَنْشَ إِلَى بِلَادِ الْمُوَحِّدِينَ ؛ فَتَغَلَّبَ عَلَى جَيْتَانٍ وَأَبْدَةَ ، وَطَاعَتْ لَهُ بَيَّاسَةٌ ؛ وَنَازَلَ قَرْطَبَةَ ؛ ثُمَّ إِسْثِيلِيَّةَ عَامَ ٥٥٤ . وَأَلْحَ بِالضَّرْبِ عَلَى قَرْطَبَةَ حَتَّى جَاءَ مُحَاوِلَ الْفَلَاحَةِ إِلَى حَرْتِ مَنَزَلِهِ بِدَاخِلِ الْحَضَرَةِ . وَتَمَلَّكَ مَدِينَةَ إِسْتِجَّةَ ؛ وَحَاوَلَ لَهُ دَابِرُ يُعْرَفُ ابْنَ شَرَّاحِيلَ عَدُوَّ قَرْمُونَةَ ؛ فَتَمَلَّكَهَا . وَجَهَّزَ إِلَيْهِ الْمُوَحِّدُونَ الْجَيْشَ ؛ فَقَرَّ مِنْ بِالْحِصْنِ لِقَصَبَتِهَا ؛ فَخَيَّمَ بِإِزَائِهَا ، وَاسْتَنْزَلَ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ قَصَبَتِهَا عَلَى حُكْمِهِ .

وَفِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ عَامِ ٥٥٧ ، وَجَّهَ صَهْرَهُ الْقَائِدَ أَبَا الْحَدَنَ بْنِ هَمُّشُكٍ إِلَى مُحَاصَرَةِ غَرْنَاطَةَ ؛ فَدَخَلَهَا لَيْلًا . وَامْتَنَعَ الْمُوَحِّدُونَ بِقَصَبَتِهَا ؛ فَغَرَضَ عَلَيْهِ ضُرُوبُ الْحَرْبِ ، وَتَحَرَّكَ إِلَيْهَا السَّيِّدُ أَبُو سَعِيدِ ابْنِ الْخَلِيفَةِ بِجَيْشٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَمَعَهُ وَالِي إِسْثِيلِيَّةِ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ ؛ فَكَانَ الْقَاءُ بَظَاهِرِ غَرْنَاطَةَ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِمَرْجِ الرُّقَادِ ؛ فَانْهَزَمَ الْمُوَحِّدُونَ أَقْبَسَحَ هَزْمَةً ؛ وَتَمَادَى الْحَصَارُ مِنْهَا ، قَصَبَةُ غَرْنَاطَةَ . وَتَحَدَّدَ الْعِزْمُ عَلَى تَجْمِيزِ جَيْشِ الْمُوَحِّدِينَ لِإِصْرَاحِ مِنْهَا ؛ فَكَانَ كَذَلِكَ ؛ فَتَوَفَّقَتِ الْعَسَاكِرُ بِمَالَقَةٍ . وَتَسَامَعَ بِذَلِكَ ابْنُ مَرْدَنْشَ ؛ فَأَمَدَّ صَهْرَهُ نَفْسَهُ . وَوَصَلَتْ الْجِيُوشُ الْمُوَحِّدِيَّةُ ؛ فَاضْطَرَبَتْ . فَدَارَ مِنْ بَظَاهِرِ غَرْنَاطَةَ ، وَبَيَّتَتْ جَيْشَ ابْنِ

مَرْدَنِيَش ؛ فانهزم مع الفجر من تلك الليلة ؛ فلم يَنْسِرْ عَدَا ؛ وكان المُوَحَّدُونَ أَمْلَكُ بِالْحَضْرَةِ . ثُمَّ أَخَذَ أَمْرُ ابْنِ مَرْدَنِيَش فِي الْإِدْبَارِ ؛ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِلْمُوَحَّدِينَ هَزِيمَةٌ بِفَتْحِ الْيَنْدُونِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ مِنْ ذِي حِجَّةِ عَامِ ٥٦٠ ، وَنَازَلُوا مُرْسِيَّةً ؛ ثُمَّ أَقْلَعُوا عَنْهَا .

وَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ هَمْشُكٍ بِسَبَبِ ابْنَتِهِ الْكَائِنَةِ تَحْتَهُ ؛ فَاخْتَلَّ أَمْرُهُ . وَمَالَ ابْنُ هَمْشُكٍ إِلَى الْمُوَحَّدِينَ . وَتَوَالَى عَلَيْهِ الْحِصَارُ ، وَأَذْرَكَ الْجَهْدُ ، وَلَزِمَتْهُ الشَّكَايَةُ . فَقَضَى عَلَيْهِ عَقِبُ انْصِرَافِهِ مِنْ مُنَازِلَةِ جَزِيرَةِ سُفَرٍ ، بَادَرَ إِلَيْهَا بَعْدَ إِقْلَاعِ السَّيِّدِ عَنْهَا ، وَعَجَزَ عَنْ قِتَالِهَا ؛ فَفَكَرَ إِلَى مُرْسِيَّةٍ ؛ فَتَوَفَّيَ عَاشِرَ رَجَبٍ مِنْ عَامِ ٥٦٧ . وَاسْتَوْسَقَتْ طَاعَةُ الْمُوَحَّدِينَ بِالشَّرْقِ ، وَشَمَلَتْهُ كَعْفَتُهُمْ .

أَيَّامُ يَوْسُفَ بْنِ هَلَالٍ صَهْرِ ابْنِ مَرْدَنِيَش

كَانَ يَوْسُفُ بْنُ هَلَالٍ صَهْرُ الْأَمِيرِ شَجَاعًا حَازِمًا ، أَحْظَاهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ، وَصَاهِرَهُ ، وَجَعَلَ لِنَظَرِهِ حِصْنَ مَطَرِيْشَةَ وَمَوَاضِعَ كَثِيرَةً . وَفَسَدَتْ طَاعَتُهُ ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ ، وَنَكَبَهُ ، وَغَفَبَهُ ، وَاسْتَخْلَصَ مَا كَانَ لِنَظَرِهِ ، وَتَرَكَهُ . فَأَعْمَلَ الْحِيلَةَ ، وَلَحِقَ بِمُورَتَلَّةَ ، وَثَارَ بِهَا ؛ وَعَاقَدَ صَاحِبَ بَرْجِدُونَةَ عَلَى تَصْيِيرِ مَا يَمْلِكُهُ إِلَيْهِ ؛ فَأَعَانَهُ بِخَيْلٍ مِنَ النَّصَارَى ، لَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ بِهَا وَيُوَالِي الضَّرْبَ عَلَى بَلَنْسِيَّةٍ ، وَيَشْجِي أَهْلَهَا . وَتَمَلَّكَ الصَّخْرَةَ وَالصَّخِيرَةَ وَغَيْرَهُمَا ، وَأَوْقَعَ بَابَ مَرْدَنِيَشِ وَقِيعَةً أَهْزَمَ ابْنُ مَرْدَنِيَشِ فِيهَا . ثُمَّ اسْتَرْجَعَ ابْنُ مَرْدَنِيَشِ ، وَسَاعَدَهُ الْجِدُّ فِي جَرِيدَةِ خَيْلٍ وَجَهَّاهَا بِبَعْضِ الْأَطْرَافِ لِلضَّرْبِ عَلَى مُورَتَلَّةَ الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ ؛ فَلَقِيتِ الْبَائِسُ ابْنَ هَلَالٍ مُتَوَجِّهًا فِي خُوَيْصَتِهِ إِلَى سَنْطَبِيْطُورٍ ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ وَسَيَّقَ إِلَى ابْنِ مَرْدَنِيَشِ ؛ فَأَسْرَعَ بِهِ إِلَى مُورَتَلَّةَ ، وَطَلَبَهُ بِإِخْلَاقٍ ، وَإِلَّا نَزَعَتْ

عَيْنُهُ ؛ فَأَبَى ذَلِكَ . فَأَمَرَ ابْنُ مَرْدَنِيَشِ ؛ فَأَخْرَجَتْ عَيْنُهُ الْيُمْنَى بَعْدَ . ثُمَّ قَرَّبَ مِنْ مُورَتَلَّةَ وَطَلَبَ بِإِخْلَاءِ الْحِصْنِ ؛ فِدَعَا بِزَوْجِهِ وَطَلَبَهَا بِإِخْلَاءِ الْحِصْنِ أَوْ تَخْرِجِ عَيْنَهُ الْأُخْرَى ؛ فَحَصَلَ عَلَى التَّكْذِيبِ ، وَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ؛ فَأَخْرَجَتْ الْعَيْنَ الْأُخْرَى . وَسَيَّقَ إِلَى سَاطِبَةِ ؛ فَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ٦٤٣ . وَقَدْ تَكَرَّرَ بَعْضُ حَدِيثِهِ .

أَيَّامُ الْمُتَأَمِّرِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مَفْرَجِ بْنِ هَمْشُكٍ

وَكَانَ جَدُّ إِبْرَاهِيمَ مُفْرَجٌ أَوْ هَمْشُكٌ نَصْرَانِيًّا مَقْطُوعَ أَحَدِ الْأُذُنَيْنِ ، أَسْلَمَ . وَكَانَ مَعْرُوفَ الشَّجَاعَةِ : إِذَا رَأَى النَّصَارَى فِي الْحَرْبِ ، قَالُوا : « هَمْشُكُ ! » وَمَعْنَاهُ : هَذَا مَقْطُوعُ الْأُذُنِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ دَلِيلًا بِالْأَرْضِ وَفَارِسًا نَجْدًا ، خَدَمَ مَعَ النَّصَارَى ، وَتَقَرَّبَ إِلَى ابْنِ غَانِيَّةَ بِقَرْطَبَةِ ؛ وَسَافَرَ رَسُولًا بَيْنَ ابْنِ حَمْدَانَ وَبَيْنَ مَلِكِ قَسْتَالَةَ ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِنْتِزَاعِ بِحِصْنِ سَقُوبِشَ ؛ ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى سَقُورَةَ ، وَتَمَلَّكَهَا . فَغَلَّظَ أَمْرَهُ ، وَسَاوَى مُحَمَّدَ بْنَ مَرْدَنِيَشِ ، وَدَاخَلَهُ حَتَّى عَقَدَ مَعَهُ صِهْرًا عَلَى ابْنَتِهِ ؛ فَاتَّصَلَتْ لَهُ الرِّيَاسَةُ وَالْإِمَارَةُ . وَكَانَ سَيِّفًا لِصَهْرِهِ ، مُسَلِّطًا عَلَى مَنْ عَصَاهُ ، إِلَى أَنْ فَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا . وَخَدَمَ الْمُوَحَّدِينَ آخِرَ أَيَّامِهِ ؛ فَكَانَ أَذْعَى الْأَسْبَابِ إِلَى خُرُوجِ الْأَمْرِ عَنْ ابْنِ مَرْدَنِيَشِ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَمْشُكٍ جَبَّارًا ، قَاسِيًا ، فَظًّا ، غَلِيظًا ، عَظِيمَ الْجُرْأَةِ وَالْعَبَثِ بِالْخَلْقِ ، يُخْرِقُهُمُ بِالنَّارِ ، وَيَطْرَحُهُمُ مِنَ الشَّوَاهِقِ ، وَيَفْصَلُ أَعْضَاءَهُمْ بِجَالِ الْحَيَاةِ . رَأَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ فِي النَّوْمِ وَسْأَلَهُ عَمَّا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ :

[البسيط]

مَنْ ضَرَّهُ الْعَيْثُ فِي الدُّنْيَا بِخَلْقَةٍ مَنْ يَصُورُ الْخَلْقَ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ فَلْيَصْبِرِ الْيَوْمَ صَبْرِي تَحْتَ بَطْشَتِهِ مَغْلَلًا يَتَطَيُّ جَمْرُ الْغَضَا فَرُشَا

وكان قدومه على مراكش أوائل عام ٥٧١ هـ ؛ وأُسْكِنَ مِكْنَسَة ؛
ثم هلك بها عن قريب من هذا التاريخ .

أيام أحمد بن ملحان

بوادِي آس

وكان أحمد بن محمد بن ملحان الطائي الواديّ ياشي معروف الكفاية ،
مُظْلِعاً بِالْعَمَلِ . فلما دعا ابن حمدين إلى نفسه ، واقتدى به غيره ، ثار
بوادِي آس ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وحصن القصبة ، وأخذ بالحزم ؛ ولم
يكل أمره إلى غيره . وخاض به الفتنة خوض الجراءة ؛ فأتى على كثير من
الأنفس والأموال ، واقتنى كثيراً من المال والذخيرة ، واستعان على غناه
بالفلاحة وإثارة الحرث . فكان أغنى أهل زمانه . وظهر على كثير بما
يجاور بَلَدَهُ كمدينة بسطة ؛ وبها اليوم له عقبة . واستخدم جملة من
مشاهير أهل العلم والأدب ، كآبي بكر بن طفيل ، وأبي الحكم
هرودس . ودخل في طاعة الموحدين لما ضيق به ابن سعد وطمع فيما بيده ؛
وكان خروجه إليهم عنها سنة ٥٤٦ . واستعمل بمراكش في اشتغال
البُخَيْرَةِ وَبِنَائِهَا وَإِجْرَاءِ مَاثِهَا . ونكّب ؛ وجرت عليه محنة استهلكت
ما بيده . وتوفي بمراكش على هذه السبيل .

فهذا ما حضر من مشاهير الثوار بأعقاب دولة اللّمتونيين على الاختصار .

ذكر تصيير أمر الأندلس

إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعوين بالموحدين ، على
سبيل الإلماع والإحالة ، إذ الكلام فيهم يستوفى
عند ذكر دولتهم بالمغرب إن شاء الله

قلت : ولما اضطرب أمر المرابطين من لمتونة بالأندلس ، وضعفوا ،
وكثر الفتن والثوار ، واغتم العدو ذلك ، فاستولى على البلاد ، واشتهر
ظهور الدولة المؤمّنية والطائفة المهدية بالمغرب ، وافتتحوا دار الملك
مراكش ، واستأصلوا أرباب الأمر ، تعلقت آمال المسلمين بهم ،
واستصرخهم الناس ، وثاروا من بلادهم من المرابطين ، سوء جوارٍ وحباً
في الإدالة وتبديل الملوك ؛ وقل أن رأوا أيلة أنفع أو أجرى في قتال
العدو من لمتونة . فأجابهم صاحب الدعوة الأمير عبد المؤمن بن علي ،
وبعث إليهم جيشه لنظر إبراهيم بن براز المسوفي في شعبان من سنة ٥٤١ .

دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس

ولما أطاع عبد المؤمن بن علي الكثير من البلاد الأندلسية بجهة الغرب :
إشبيلية ، وشريش ، ولبلنة ، تحرك إلى الأندلس في ذي القعدة من عام
٥٥٥ . واحتل بجبل الفتح في الشهر المذكور . ووفد عليه أهل الأندلس ،
وأنشدته الشعراء . وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن صاحب الصلاة :

[الطويل]

تلاً من نور الخلافة بارق أضاءت به الأفاق والليل غاسق

وَشَرَفَتْ لَدَيْهِ بِهِ فَكُنَّا مِنْ ابْشَرِ فِي كُلِّ الْجِهَاتِ مَشَارِقُ
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّضَائِيُّ، شَعَرُ الْأَنْدَلُسِ فِي وَقْتِهِ، قَصِيدَتُهُ
الشَّهِيْرَةُ الَّتِي وَصَفَ فِيهَا جَبَلَ الْفَتْحِ؛ وَهِيَ:

لَوْ جِئْتَ نَارَ هَدْيٍ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ قَبَسْتُ مَا شِئْتُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نَوْرِ
مِنْ كُلِّ زَعْرَاءٍ لَمْ تَرْفَعْ ذَوَابِتَهُ لَيْلًا لَسَارٍ وَلَمْ تَنْبِتْ لِمَغْرُورِ
فِيضَتُهُ الْقَمَدَحَ مِنْ نَوْرِ النُّبُوَّةِ أَوْ مَا زَالَ يُقَضِّمُهَا التَّقْوَى بِوَقْدِهَا
حَتَّى أَضَاعَتْ مِنَ الْإِيمَانِ عَنْ قَبَسِ نَوْرِ طَوَى إِيَّاهُ زَنْدَ الْكُؤُنِ مِنْهُ عَلَى
وَايَةِ كِتَابَةِ الشَّمْسِ بَيْنَ يَدَيْ يَا دَارُ دَارِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَفَدِ
ذَاتِ الْعِمَادَيْنِ مِنْ عَزٍّ وَمُلْكَةٍ مَا كَانَ بَانِيكَ بِالْوَانِي الْكَرَامَةِ عَنْ
مَوَاطِئِ مِنْ نَبِيِّ طَالَمَا وَصَلَتْ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ بِهِ نَعْلَاهُ بُورِكَتَا
وَحَيْثُ قَامَتْ قِنَاءَةُ الدِّينِ تَرْفُلُ فِي فِي كَفٍّ مَنَشْرِ الْبَرْدَيْنِ ذِي وَرَعٍ
يَلْقَاكَ فِي حَالِ غَيْبٍ مِنْ سِرِّيَّتِهِ تَسْمِعُ الْفُلُكَ مِنْ شَطِّ الْمَجَازِ وَقَدْ
فَسَّرْنَ يَحْمِلْنَ أَمْرَ اللَّهِ مِنْ مَلِكٍ تَوَمِّي لَهُ بِسُجُودِ كُلِّ تَحَرُّكَةٍ
لَا تَسَابِقُنَ فِي بَحْرِ الرِّفَاقِ بِهِ تَرْكُنَ شَطِئَتِهِ فِي شَكٍّ وَتَحْيِيرِ

أَهْزَأُ مِنْ عَطْفِهِ ائْتَاءُ مَسْرُورِ كَأَنَّهُ سَالِكٌ مِنْهُ عَلَى وَشَلٍ
مِنْ السُّيُوفِ الَّتِي دَانَتْ بِسُطُوتِهِ ذِي الْمُنْشِثَاتِ الْجَوَارِي فِي أَجْرَتِهَا
أَغْرَى الْمِيَاهُ وَأَنْفَاسَ الرِّيحِ بِهَا مِنْ كُلِّ عِذْرَاءٍ حَبْلِي فِي تَرَائِبِهَا
تَخْلُهَا بَيْنَ أَيْدِيٍّ مِنْ مَجَادِفِهَا وَرَبُّمَا خَاضَتْ التِّيَّارَ طَائِرَةٌ
كَأَنَّمَا عَبَرَتْ تَحْتَالُ عَائِمَةٌ حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الْفَتْحَيْنِ مِنْ كُتُبِ
لِلَّهِ مَا جَبَلَ الْفَتْحَيْنِ مِنْ جَبَلٍ مِنْ شَامِخِ الْقَدْرِ فِي سَحَابِهِ طُلَسَ
مَعْبَرًا مِنْ ذِرَاهِ عَنْ ذِرَا مَلِكٍ تَمْسِي النُّجُومَ عَلَى تَكْلِيلِ مَفْرَقِهِ
وَرَبُّمَا مَسَحَتْهُ مِنْ ذَوَائِبِهَا وَأَدْرَدَ مِنْ ثَنَائِهِ بِمَا أَخَذَتْ
حَبْلَ الْأَيَّامِ اسْطَرَّهَا مَقِيدَ الْخُطُوبِ جَوَّالِ الْخَوَاطِرِ فِي
قَدْ وَاصَلَ الصَّمْتَ وَالْإِطْرَاقَ مُفْتَكِرًا كَأَنَّهُ مَكْنَنٌ بِمَا تَعَبَّرَهُ
أَخْلَقَ بِهِ وَجِبَالَ الْأَرْضِ وَاجِفَةً كَفَّاهُ فَضْلًا أَنْ انْتَابَتْ مَوَاطِئَهُ
أَنْ خَضَ مِنْ لُجَّةِ أَحْشَاءٍ مَذْعُورِ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَهْجِ الْأَسْيَافِ مَقْطُورِ
وَقَدْ رَمَا نَارَ هَيْجِهِ بِتَسْمِيرِ شَكْلِ الْغَدَائِرِ مِنْ سِدْلِ وَتَضْفِيرِ
مَا فِي سَجَانِهِ مِنْ لَيْنٍ وَتَعْظِيرِ رَدْعَانِ مِنْ عُنْبُرٍ وَرِدٍّ وَكَافُورِ
يَعْرِفُنَّ فِي مِثْلِ مَاءِ الْوَرْدِ مَبْخُورِ بِمِثْلِ أَجْنِحَةِ الْفَتْحِ الْكُؤَاسِيرِ
فِي زَاخِرٍ مِنْ نَدَا يَنْهَاهُ مَعْصُورِ بِسَاطِعٍ مِنْ سَنَاهُ غَيْرِ مَبْهُورِ
مَعْظَمِ الْقَدْرِ فِي الْأَجْيَالِ مَذْكُورِ لَهُ مِنَ الْغَيْمِ جَيْبٌ غَيْرِ مَزْرُورِ
مُسْتَطَرَّ الْكَفِّ وَالْأَكْنَافِ مَمْطُورِ فِي الْجَوْءِ حَائِمَةٌ مِثْلُ الدَّنَانِيرِ
بِكُلِّ فَضْلٍ عَلَى فُؤْدِيهِ مَجْدُورِ مِنْهُ مَعَاجِمُ أَعْوَادِ الدَّهَارِيرِ
وَسَاقِفَا سَوَاقِ حَادِي الْعِيرِ لِلْعِيرِ عَجِيبُ أَمْرِيهِ مِنْ مَاضٍ وَمَنْظُورِ
بَادِي السَّكِينَةِ مَغْبَرُ الْأَسَارِيرِ خَوْفُ الْوَعِيدِينَ مِنْ دَكٍّ وَتَسْيِيرِ
أَنْ يَطْبِئَنَّ غَدًا مِنْ كُلِّ مَحْدُورِ نَعْلَا مِيكَ كَرِيمِ السَّعْيِ مَشْكُورِ

مستشفاً بهما ربح الشفاعة من
ما انفك أملٌ أمرٍ منه بين يدي
حتى تصدئ من الدنيا على رمق
مستقبل الجانب الغربي مرتقباً
لبارق من حسام سله قدراً
إذا تألق قيسياً أهاب به
ومنها

ما عن في الدين والدنيا له أرب
ولا رمى من أمانيه إلى غرض
حتى كأن له في كل آونة
يميز الجيش ملتقاً مواكبه
من الأولى خضعوا قسراً له وصغوا
من بعد ما عندوا دهرأ فما تركوا
بقية الحرب فاتوها وما بهم
ومنها

إذا صدعت بأمر الله مجتهداً
لا يوهلن لتقليل أخو سبب
فالبجر قد عاد من ضرب العدا ييساً
وإنما هو سيف الله قلده
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت
ولما قضى وطره من إصلاح أحوال الأندلس والنظر في مهماتها
وحسن علائها ، وقدّم أولاده بقواعد الأندلس ، قفل عنها إلى مصر سنة ٥٨٠ هـ .

لتوطيد ملكه ؛ وقد اتصل به ما أوجب ذلك . فتوفي . رحمه الله
ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ . وعهد إلى ولده يوسف

دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالاندلس

وكان ملكاً كبيراً ؛ جاز إلى الأندلس ، واستخلص بلاد سعة بن
مردنيش ، وفتح حصن يبلج من حصون الرُوم . وانصرف إلى المغرب
بعد أن قرأ أمور الأندلس . تم جاز في سنة ٥٨٠ ، ونازل مدينة
سنترين ؛ فأصيب بجراحة من قبل حامية النصارى لم تخطه ؛ فكانت
منها وفاته بحلة غزاة ، ليلة الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة ٥٨٠ .
وقام بأمره ولده يعقوب .

دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

بالأندلس

وكان ملكاً جليلاً فاضلاً ورعاً . فتح البلاد الإفريقية ، واستخلص
ميورقة ، وأوقع بطاغية الرُوم الواقعة العظمى المنسوبة إلى الأراك : بلغ
عدد القتلى بها ثلاثين ألفاً . وواصل العدو وعقد السلم . واستأن الله
به في ربيع الأول سنة ٥٩٥ . وولي بعده ولده الناصر .

دولة محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف

بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان ملكاً كبيراً . فتح ميورقة ثانية من يد الميوريقي . وتحرك

بن. فريقيه ؛ فدوَّخهم ومهَّدهم . ثم قفل إلى الأندلس . وعظمت نكايته
اعدوا . والتقى بميك النصارى مغلوب أبيه يوم الأرك ؛ فكانت على
المسلمين الهزيمة الكبرى المنسوبة إلى العقاب . ولم تستقل الأندلس بعدها
عشرة ؛ وكانت يوم الإثنين الثامن لصفر من سنة ٦٠٩ . وجاز إلى المغرب ،
وحشد ، واستكثر ، ولم يبق غاية ، وعزم عزماً لم يتقدم لمليك
قبيله ، إلا أن الدهر قطع عليه أمله . فتوفي في شعبان من سنة ٦١٠ .
ولم يعد بعدهم إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين ، إلى أن
انقرضت أيَّهم . فيلبي أن نقف عنده ، ونستوفي من بقي من أملاكهم
بوضع ذلك من الكلام في ملوك المغرب . فليستظره هناك من أراداه .

ذكر الثوار والطوائف والمتملكين

من بعد دولة الملوك آل عبد المؤمن بالأندلس

قلت : وقد كانت أيدي هذه الدولة المؤمينة أنفتحت الأرض من
عشب الثوار ؛ فلم تترك منها عيناً إلا صيرته أنرا ، ولا حبرا إلا
ردته حبرا . واتفتحت الأمة على دعوة واحدة . ثم إنهم ضعفوا
واختلفوا ؛ ولو شاء الله ، ما اختلفوا . فثارت الثوار ، وكثرت الغوار ،
واشتعلت للفتن النار ، وضوت البلاد طي برود الكفار . فكان على
آخر هذه الدولة منهم من يذكر .

بقية اخبار بني مردنيس بشرق الاندلس

ولما أفرط الأمر بظهور محمد بن سعد بن مردنيس ، ووقعت بينه وبين
الموحدين الحروب المشهورة ، أجاز البحر الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن إليه سنة ٥٦٧ ؛ وكان قد قسدا ما بين ابن سعد وبين خدامه
وكثير من قرابته ؛ فاضطرب أمره . وكان قد أركب النصارى ، واجتاح
لهم مالا ضاقت عنه جبايته . وفر عنه أخوه الرئيس أبو الحجاج بن سعد ؛
ففسد فكره وساء ظنه ، وأوقع بوزرائه . فهلك بمرض الذبول في رجب
هذا العام .

وتولَّى الأمر بعده ولده أبو القمَر هلال بن محمد بن سعد ، وبادر
بالتخلي عن مُرسية ، والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة . فوجه الأمير
أبو يعقوب إلى مُرسية السيد أبا حفص أخاه . وقدم هلال بن محمد
إسبيلية مُستهل رمضان من السنة . فذكروا أن الأمير محمد بن سعد
لما يئس من نفسه ، وعلم بتصير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه
بإيضاء يوسف بن عبد المؤمن عدوه على ولده وأهله ، ورغب منه في قبول
ذلك . وجلب إليه ولده بعد موته ؛ فرق لهذا القصد الأمير أبو يعقوب ،
واهتز لرعي هذه الوسيلة ؛ فتزوج ابنة أبي عبد الله بن سعد ، وخلط
أهله بنفسه . وأورثهم ذلك ملك البلاد الشرقية زمناً غير يسير .
وكان إعراسه ببنت ابن سعد ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة
٥٧٠ ؛ وولع بها ، وتغلبت عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب
الخليفة للزرقاء المردنسية . واتفق لقومها من البخت بسبها ما لم
يتفق لثائر ولا لخالف ملك من إعادته إلى ملكه . فأنفذ تقديم الأمير
أي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيس على بكنسية وجهاتها ، وقدم
غانيم بن محمد ، ابن أخيه ، على أساطيل العدو بسبته . وأمسك هلالاً
بحضرته أثير الرتبة لدينه .

أيام الأمير

أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وبنه

واستقرت ولاية الرئيس أبي الحجاج بالبلاد الشرقية مدة حياته إلى أن هلك في سنة ٥٨٢ . وتخلّف جُملةً من الولد الرؤساء . فمنهم : أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة . هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشرقية في أخريات دولة الموحدين . فلما انشقت العصا من لدن وفاة المستنصر ، خاضوا في الفتنة مع الخاضعين ، واستقرت الرئاسة في أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف بن سعد . وكان مدافع قد استشهد ساباً ، وفي حياة أخيه أبي السلطان عزيز بن سعد صاحب جزيرة شقر . فلما أزمع السيد أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية ، والاعتصام ببعض معاقلها ، ليكون أقدر على ضبط أمره ، وامتنعت عليه ، وألجأه الاضطراب إلى اللحاق بصاحب أرغون ، بادر الرئيس أبو جميل ببلنسية من مستقره يومئذ بمدينة أبدة ؛ فدخلها يوم الإثنين السادس والعشرين لصفر سنة ٦٢٦ ؛ وسكن القصر ؛ وأخذ البيعة لنفسه أوّل ربيع الأوّل من السنة ، داعياً للعباسي بيغداد . ثم دخلت دانية في بيئته ؛ فأتسع عمله ، ورجبت ساحته ؛ وغلبت في رجب من هذه السنة حصن قرْبُنيرة ، ودخلت جنبالة في بيئته . فضخم ملكه ، واشتهر جهاده ، إلى أن كانت عليه الواقعة بأنيسة من ظاهر بلنسية ، هلك فيها من المسلمين ما لا يحصى إلا الله ؛ وكلب عليهم عدو الشرق ، ويثسوا من نصره أهل الأندلس وأهل المغرب ؛ فتعلّقوا ببيعة الأمير أبي زكرياء بتونس ، واستصرخوه ، وأطعموه بفتح

الشرق . وصدر من الاستنصار المنظوم في ذلك القصيدة الشهيرة من نظم الكاتب أبي عبد الله بن الأبار التي أولّها :

أذكرُ بحبّك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجتها درسا
حسباً يأتي في اسم الأمير أبي زكرياء بحلّه إن شاء الله . ولم يصل جوابه وإمداده إلا والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٣٥ . وواصل عدو الله جافقه ملك أرغون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدة القتال ؛ وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، والنصارى تتوارد أمدادهم ، إلى أن نفذت الأقوات ، واستولى الجوع ، وضعفت القوى ، وأكملت الجلود والزفوق . وبلغ الكتاب أجله ؛ فكانت المروضة على إسلام البلد ، والخروج عنه في الرابع عشر لصفر من السنة ، بعد سنة المنازلة . وخرج الأمير أبو جميل والشهود ؛ وعقد الصلح بعدها على دانية وقلية . وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً ، والخطب فيها أليماً . وفي ذلك يقول القاضي أبو المطرّف بن عبيدة :

ما بال دمعي لا يني مداره أم ما لقلبي لا يقر قراره
أللوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه بعد الدنو وأخلفت أوطاره
أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثة خلت أعصاره
بحر من الأشجان عب عبابه وارتيح ما بين الحشى زخاره
في كل قلب منه وجدّ عنده أسف طويل ليس تحبو ناره
أما بلنسية فمشوى كافر حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حل حصاده بين العدى وغداة لج حصاره
وعزيمة لشرك جعجع بالهدى أنصارها إذ خانة أنصاره

قُلْ كَيْفَ تَبْتَ بَعْدَ تَزِيْقِ الْعَدَى آتَاهُ أَوْ كَيْفَ يُدْرِكُ ثَارُهُ
مَا كَانَ ذَاكَ 'نِصْرُ' إِلَّا جَنَّةٌ لِحُبِّهِ تَجْرِي نَحْتَهُ 'نَهَارُهُ'
طَابَتْ بِطِيبِ نَهَارِهِ آصَالُهُ وَتَعَطَّرَتْ بِنَسِيمِهِ أَشْجَارُهُ
وَتَأَلَّفَتْ أَوْقَاتُهُ وَتَفَسَّحَتْ أَرْجَاؤُهُ وَتَفَتَّحَتْ أَنْوَارُهُ
أَمَّا السَّرَارُ فَقَدْ عَدَهُ وَهَلَ سَوَى فَمَرَّ السَّمَاءُ يَزُولُ عَنْهُ سَرَارُهُ
قَدْ كَانَ يَشْرُقُ بِالْهَدَايَةِ لَيْلُهُ فَالآنَ أَضْلَمَ بِالظَّلَامِ نَهَارُهُ
وَدَجَا بِهِ لَيْلُ الْخُطُوبِ فَصَبَحَهُ أَعْيَا عَلَى أَبْصَارِنَا إِسْفَارُهُ
إِيَّ أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ وَإِنَّهُ نَبَأٌ يَرْجِعُ لَوَعْنِي تَذْكَارُهُ
عَاطِيَتْنِي ذَكَرَ الْجَلَاءِ وَإِنَّهُ جَلَاءٌ أَنْسِيَ إِذَا أَتَتْ أَخْبَارُهُ
وَقَدَحَتْ زَنْدَ أَمْسِي لَهُ بَيْنَ الْحَشَى عَمَلٌ تَلَاقَى مَرْخُهُ وَغَفَارُهُ
وَلَقَدْ نَطَقَتْ بِقَتَضَى الرَّدِّ الَّذِي رَاقَتْ نَضَارَتُهُ وَطَابَ نَضَارُهُ

ولم يطل الزمان بالشُّرْقِ أَنْ انْهَارَ ، وَأَجَابَ الْكَفَّارَ . فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ
بِئَنِي مَرْدَنِشَ . فَهَمَّ بَيْنَ قَتِيلِ شَهِيدٍ ، وَمُنْتَقِلٍ مِنْ ثُوْنُسٍ إِلَى إِيَالَةِ
التَّوْحِيدِ .

أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب

بمُرسِيّة

وكان هذا الرجلُ صَدْرَ الْبَلَدَةِ ، وَالْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ بِهَا فِي أُمُورِ الْعَقْدِ
وَالْحُلِّ . وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالنَّسْكِ ، وَأُولِي التَّقْوَى وَالْبِرِّ ، كَثِيرَ
الْحُشُوعِ ، مَعْرُوفَ الْخَيْرِ ، كَثِيرَ الصَّدَقَاتِ ، مُشْتَغِلًا بِالْعِبَادَةِ ، مَلَازِمًا
بَيْتَ اللَّهِ . ثُمَّ إِنَّ السُّلْطَانَ الْمُسْلِمَ عَلَى مَنْ لَمْ يُضِفْهُ اللَّهُ إِلَى عِبُودِيَّتِهِ مِنْ
بَنِي آدَمَ اسْتَنْزَلَهُ ، لِقَبُولِ الْإِمْرَةِ بِمُرسِيّةٍ وَمَا إِلَيْهَا ، مَعَ قَطْعِ صَبِي الْمَهْدِ

وَرَضِيْعِ الشَّدْيِ بِسُوءِ عَقْبِي مِنْ يَتَحَمَّلُ ذَلِكَ يَوْمئِذٍ . فَقَامَ بِالْأَمْرِ ، وَهَجَرَ
الْمُسْجِدَ ، وَنَشَبَ بِالْمُلُوكِ ، وَسَبَحَ فِي بَحْرِ الْخَوْضِ عَلَى كَثْرَةِ الْمَنَازِعِ ،
وَعَدِمَ الْمَالَ ، وَكَتَبَ الْجُنْدَ ، وَقَلَقَ الرِّعْيَةَ . فَكَانَتْ وَلَايَتُهُ فِي الْمَحْرَمِ
مِنْ سَنَةِ ٦٣٦ ؛ وَبَيَعَتْهُ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الْمُطَرِّفِ بْنِ عَمِيرَةَ سَهْمِيَّةً .

وَلَمْ يَقُمْ بِالْأَمْرِ حَتَّى قَعَدَ . وَكَانَتْ عَلَيْهِ لِلنَّصَارَى وَقِيعَةٌ لَمْ يُحْكَمْ فِيهَا
الْمَصَافُ ، وَلَا عَرَفَ الْقِتَالَ ، فَهَلَكَ فِيهَا جَمَلَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْهَنْتِ
الْبَلَدَ ، وَكَرَّهَتْهُ إِلَى أَهْلِهِ . وَفِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٣٦ ،
اسْتَدْعَى أَهْلَ مُرسِيّةِ الْأَمِيرِ أَبَا جَمِيلَ بْنَ مَرْدَنِشَ ؛ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ
طَوْعًا . وَهَاجَتِ الْعَامَّةُ ؛ فَدَخَلَتْ قَصْرَ ابْنِ خَطَّابٍ ، وَانْتَهَبَتْ مَا فِيهِ عَلَى
اخْتِلَافِهِ مِنْ فَرَشٍ وَثِيَابٍ وَآتِيَةٍ وَمَالٍ . وَقُبِيضَ عَلَيْهِ ؛ وَبَقِيَ مُعْتَقَلًا إِلَى
أَنْ قُتِلَ بَعْضُ زَوَايَا الْقَصْرِ لَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ الْمُوفِي عَشْرِينَ لِرَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ٦٣٦ .
وَأُخِذَتْ بِهَا الْبَيْعَةُ لِلْأَمِيرِ أَبِي زَكْرِيَاءَ صَاحِبِ ثُوْنُسٍ ؛ وَانْتَضَمَتْ لَهُ الْبِلَادُ
الشَّرْقِيَّةُ . فَمَضَى عَلَى هَذَا السَّبِيلِ .

أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي

بمُرسِيّة

كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ طَبِيعَةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ . وَتَلَوْنَ بِهِ الدَّهْرُ ،
وَجَالَ الْأَنْدَلُسَ وَإِفْرِيقِيَّةَ بَرْهَةً . ثُمَّ دَخَلَ جَزِيرَةَ مَنُورَقَةَ مُشْرِفًا بِهَا .
ثُمَّ نَالَ بِهَا الرِّيَاسَةَ لَمَّا افْتَرَقَتِ الْكَلِمَةُ وَاخْتَلَّ أَمْرُ الْمُوَحِّدِينَ . وَحَسَّنَ بِهَا
تَدْبِيرُهُ ، وَعَلَا قَدْرُهُ ، وَأَعْظَمَتِهُ الْمُلُوكُ . وَكَانَ بَعِيدَ الْهَمَّةِ ، اجْتِلَابًا لِأَهْلِ
الْعِلْمِ ، وَاصْطِنَاعًا لَهُمْ ، وَافْتِكَارًا لِمَنْ تَحْصُلُ مِنْهُمْ بِيَدِ الْعَدُوِّ . وَلَدَيْنَهُ
حَظٌّ جَزِيلٌ مِنْ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ وَقَرَضَ الشَّعْرَ وَحَسَّنَ الْخَطَّ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ
شَدِيدَ الْقَسْوَةِ وَالْعِقَابِ ، مُسْتَهْنِئًا بِالذَّمِّ .

حدثني الشيخ السري أبو الحسين التلمساني ، وكان عمه أبو عبد الله البرقي كاتباً لابن حاكم بمنورقة ، قال : كان من سيrote أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر . وكان قد اجتلب المحدث ابن مفلح للرواية عنه وسبع كتاب البخاري عليه ؛ اغتم ذلك لنيه . قال : فينا الكتاب يُقرأ إذا أتى إليه برجل قد شرب الخمر ؛ فأمر به ؛ فضربت عنقه . قال : فطوى ابن مفلح الكتاب ، وحلف أن لا يُسمع عليه منه حديث ؛ وقال : « حفظك الله ! تطلب رواية السنة وتصحيحها ، وتتعدى حدود الله هكذا ! والله ! لا سمعت مني حرفاً أبداً ! » فقال : « يا فقيه ! هذه الجزيرة كثيرة الغن ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ؛ فيضيعون الاحتواس ؛ فيظهر علينا العدو ! » فقال له : « هذا شيء لا يخلص عند الله ! لم تترك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلا أعطته حقه ! » وانصرف عنه . ودامت ولايته بمنورقة ، مقصوداً من الفضلاء والأدباء ، حسبما يظهر من ترسيل أبي الطرّف وابن الجئان وغيرهما ، نحواً من خمسين سنة ، إلى أن توفي في حدود عام ٦٨٠ . وورث رياسته بعده ولده أبو عمر .

ايام ابي عمر حاكم بن سعيد بن حاكم الاموي

بمنورقة

وكان أبو عمر أفضل من أبيه في دماثة الخلق ، والعفة عن الدماء والأبشار ، والاجتناب للعظام ، مع حسن الخط ، ورواية الحديث ، وقرض الشعر ، إلا أنه لم يستقل استقلال أبيه ، ولا نهض نهضته . فانصرفت أطماع العدو البرجلوني المجاور لثغره ، إلى غلبته ؛ فم له ذلك ، ونفذ قدر الله فيه ، سنة ٦٨٦ . فاستولى على الجزيرة ، وأجلى عنها

المسلمين . ولحق أبو عمر بسبته ، وقد رفع إليها رمة أبيه ، بعد أن كان نزل بالمنورية . ووصل إلى غرناطة ، وأقام بها أياماً تحت جراية أميرها .

وحدثني من رآه ورأى عنه من شيوخنا أنه كان رجلاً قويم السمات والهدى ، جميل الرواء ، عظيم الوفاة والتودد . وله أولاد كالنجوم جمالاً ووسامة . وكان نساؤه وخدمته يلبنسن عفتاً حمراء منسدة عليهن في زي غريب . وركب البحر هو ، وبنوه ذكورهم وإناثهم ، وحاشيتهم ، قاصداً تونس ؛ وقد بذر بها والده ذماماً وأثله حظوة . فعدا عليهم البحر بأحواز الجزائر جزائر بني مزغنا . فزعوا أن صاحب المركب عزم عليه في ركوب الشاني الذي يتبع المركب ، وقد انتفى فيه الأعزة عليه ؛ فقال له أبو عمر : « ومن معي ؟ » فقال : « لا سبيل إلى ذلك فلتنعن بنفسك ! فهو الذي تقدر عليه لك ! » فرجع إلى الطارمة حيث بناته وكرامته ، وسد غلقها عليهن وعلى نفسه ؛ فلم ينج منهم أحد - نفعهم الله بالشهادة ! - وكان ذلك في أخريات العام المذكور أو في العام بعده .

وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية ؛ ولكنها أنسب إليها منها إلى غيرها ، إذ لم تزل راجعة إليها ، وثابعة لأحكامها ؛ فهذا وجه المساحة ، كما أضيف صليّة إلى إفريقية .

دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي

وهذا الرجل هو الذي تعين صاحب الأندلس من بعد انقراض دولة الموحدين ، وملك مرسية وقرطبة وإشبيلية وقرطبة ومالقة والمنيرة وما إلى ذلك ، بحال اجتماع وافتراق ، وانتزاع من أهلها عليه وشقاق . وكان يدعى بأمير المسلمين ، ويلقب من الألقاب السلطانية

بِالْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ . وَكَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ الَّذِي تَقَدَّمَ
الْحَدِيثُ فِي دَوْلَتِهِ . وَلِأَجْلِ ذَلِكَ ، يَقُولُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مُرْجٍ الْكُحْلِيُّ مِنَ
قَصِيدَةٍ يَمْدَحُهُ بِهَا :

فَتَحَّتْ بِلَادَ اللَّهِ دُونَ مَشَقَّةٍ وَمَا عَرَفَتْ أَرْبَابُهَا حَادِثًا نَكِيرًا
وَلَا بُدَّ مِنْ فِتْنَةِ الْبَقِيَّةِ عَاجِلًا وَيُعْجِلُ لِلْأَشْيَاءِ خَالِقُهَا قَدْرًا
وَكَمْ زَهْرَةٌ فَتَحَتْ وَهِيَ كَامَةٌ وَلَمْ تَجْنِ غَيْرَ الْبَيْضِ مِنْ فَتْحِهَا زَهْرًا
أَمْثَلَ ابْنَ هُودٍ آخِذًا بِتَوَانِهِ وَمَنْ كَانَ مَوْتُورًا فَلَا يَدْعُ الْوَتْرًا
وَإِنْ كَانَ مَغْضُوبًا فَإِنْ مُحَمَّدًا بِصَارِمِهِ الْهِنْدِيُّ قَدْ رَدَّاهُ قَهْرًا
وَنَادَى عَلَى مُلْكِهِ تَقَهَّقْ مَدَّةً وَعَادَ إِلَى مَا كَانَ فِي مَدَّةٍ أُخْرًا
فِيُوشِعُ رَدَّ الشَّمْسِ فِي جُرْبَانِهَا وَمَا بَعْدَتْ نُورًا وَلَا نَقَصَتْ قَدْرًا
قَضَى رَبُّهُ أَنْ يَمْلِكَ الْأَرْضَ آخِرًا فَقَدَّمَهُ فَضْلًا وَأَخَّرَهُ عَضْرًا
وَكَمْ آخِرٍ قَدْ جَاءَ بِالْفُضْلِ أَوَّلًا وَهَلْ تُجْعَلُ الدُّنْيَا سِوَاءً مَعَ الْآخِرَا
فَفِي رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ كُونَهَا وَمَا صَحَّحَتْ إِلَّا أَوَاخِرَ الْعَشْرَِا

وَكَانَ شَجَاعًا ، كَرِيمًا حَيِيًّا وَفِيًّا ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ، سَلِيمَ الصَّدْرِ ،
قَلِيلَ الْمُبَالَاةِ بِالْأُمُورِ ، مُحَدِّدًا ، لَمْ يَنْصُرْ بِهِ جَيْشٌ ، وَلَا وَفَّقَ لَهُ رَأْيٌ ،
لِغَلْبَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ وَاسْتِعْجَالِهِ الْحَرَكَاتِ وَنَشَاطِهِ إِلَى لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ مِنْ غَيْرِ كَمَالِ
اسْتِعْدَادٍ . وَكَانَ خُرُوجُهُ مِنْ مُرْسِيَّةٍ تَاسِعَ رَجَبِ سَنَةِ ٦٢٥ ، وَظَهُورُهُ
بِالصُّخُورِ مِنْ جِهَاتِهَا فِي نَفَرٍ يَسِيرُ مِنَ الْأَجْنَادِ . وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَشْعِرُونَ
ذَلِكَ ، وَيُرْتَقِبُونَ ظُهُورَ طَالِبِ الْأَمْرِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، وَاسْمُ أَبِيهِ يُوسُفٌ ؛
وَهِيَ الْعِلَّةُ الْمَحْرُوكَةُ بَعْدَهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ نَصْرَ بْنِ الْأَحْمَرِ . وَجَرَى
عَلَى النَّاسِ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْمُؤَحِّدِينَ امْتِحَانٌ شَقِيٌّ بِهِ قَوْمٌ ثَمَنُوا وَافَقَ
هَذَا الْاسْمَ أَسَاؤُهُمْ أَوْ أَسَاءَ آبَائِهِمْ . وَقُتِلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَخْصَانِ مِنَ
أَهْلِ جَبَّانٍ .

وَيُقَالُ إِنَّ شَخْصًا بَيْنَ يَنْتَحِلِ عُلُومَ الْحَدَثَانِ لَقِيَ ابْنَ هُودٍ ؛ فَامْعَنَ
النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ ، وَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ،
وَاطْلُبْ كَامِينَ سَعْدِكَ ! وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ يَقُومُ بِأَمْرِكَ . فَانْهَضَ إِلَى
الْمُقَدَّمِ الْعُشْتِيِّ ! » وَكَانَ الْعُشْتِيُّ رَجُلًا صُعْلُوكًا ذَائِعِرًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ ،
وَتَحْتَ يَدِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَتْبَادِ الرِّجَالِ وَسِبَاعِ الْبَرَاذِيرِ ، قَدْ اسْتَهْرَ أَمْرَهُمْ . فَهَضَّ
إِلَى الْمُقَدَّمِ الْعُشْتِيِّ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ؛ فَارْتَبَطَ مَعَهُ عَلَى أَنْ يُؤَلِّيَهُ قِيَادَةَ
الْأُسْطُولِ بِالْأَنْدَلُسِ ، إِذَا تَمَّ لَهُ الْأَمْرُ ؛ وَقَالَ : « نَسْتَفْتِحُ الْأَمْرَ بِمُغَاوَرَةٍ
إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ بِأَسْنِكَ وَعَلَى سَعْدِكَ ! » فَفَعَلُوا ، وَجَلَبُوا كَثِيرًا مِنْ
الْغَنَمِ وَالْأَسْرَى . وَانْضَافَ إِلَى ابْنِ هُودٍ طَوَائِفُ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ، وَبَابِعُوهُ
بِالصُّخَيْرَاتِ ، كَمَا ذَكَرَ ، مِنْ ظَاهِرِ مُرْسِيَّةٍ .

وَأَوْقَعَ بِهِ جَيْشُ الْمُؤَحِّدِينَ وَشَرَّدهُ . ثُمَّ ثَابَ إِلَيْهِ نَاسُهُ ، وَعَدَلَ إِلَى الدُّعَاةِ
لِلْعَبَّاسِيِّينَ ؛ فَتَبِعَهُ الْكَافِي . وَوَصَلَهُ تَقْلِيدُ الْمُسْتَنْصِرِ الْخَلِيفَةِ بِيَعْدَادٍ .
فَاسْتَبَصَرَ النَّاسُ فِي دَعْوَتِهِ ، وَشَاعَ ذِكْرُهُ ، وَمَلَكَ الْقَوَاعِدَ . وَوَفَّى لِلْعُشْتِيِّ
بِعَهْدِهِ ؛ فَوَلَّاهُ أُسْطُولَ إِسْبِيلِيَّةٍ ، ثُمَّ أُسْطُولَ سَبْتَةِ مُضَافًا إِلَى
إِمْرَتِهَا وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا ؛ وَثَارَ بِهِ أَهْلُهَا بَعْدَهَا وَخَلَعُوهُ ، وَفَرَّ أَمَامَهُمْ فِي
الْبَحْرِ وَخَفِيَ أَثَرُهُ ، إِلَى أَنْ تَحَقَّقَ اسْتِقْرَارُهُ أَسِيرًا فِي الْبَحْرِ بِغَرْبِ
الْأَنْدَلُسِ ؛ وَدَامَ أَسْرُهُ زَمَانًا ؛ ثُمَّ تَخَلَّصَ فِي سَنَةِ الشَّيْخُوخَةِ ، وَمَاتَ
بِرِبَاطِ آسْفِي .

وَجَرَتْ عَلَى ابْنِ هُودٍ هَزَائِمٌ شَهِيرَةٌ وَوَقَائِعٌ مَذْكُورَةٌ ؛ وَأَوْقَعَ بِهِ
السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ نَصْرٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ آخِرُهُنَّ سَنَةَ ٦٣٣ أَوْ ٦٣٤ . وَكَانَ
الْقَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُأْمُونِ إِدْرِيسَ أَمِيرِ الْمُؤَحِّدِينَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ ٦٣٥ ؛
فَهَزَمَهُ الْمُأْمُونُ هَزِيمَةً كَبِيرَةً ، وَلَازَمَهُ مِنْهُ بِمُرْسِيَّةٍ ، وَامْتَنَعَ بِهَا ، إِلَّا أَنْ
الْمُأْمُونُ شَغَلَهُ أَمْرُ الْفَيْتَةِ الْوَاقِعَةِ بِمَرَّاكُشَ ؛ فَصَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهَا ، وَثَابَ
الْأَمْرُ لِابْنِ هُودٍ ؛ فَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ الْمَرْيَّةِ ، ثُمَّ عَرَّطَا طَهُ ، ثُمَّ مَاتَ .

رجل الإيمان حوَّ حُبِّكُمْ سَهْ ورسوله !» وجاء في الحديث أن العباس دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فخفض النبي صلى الله عليه وسلم صوته ؛ فقيل له : « يا رسول الله ، رأيناك خفضت صوتك لما دخل العباس ! » فقال : « إن جبريل أمرني أن أخفض صوتي عنده ، كما أمركم أن تخفضوا أصواتكم عِندِي . » وفي الحديث : إن جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم وعليه قباء وعمامة أسودان ؛ فقال له : « يا أخي ! ما هذه الصورة التي ما أراك هبطت علي في مثلها ؟ » فقال له : « شعار ولدي عمك العباس . وليأتين على أمتك زمان يُعِزُّ الله فيه الإسلام بهذا السواد ؛ وسيلكون الأبيض والأحمر ، والأصفر والأخضر ، والجعر والمدر ، والصف والمخمر ، والسرير والمنبر ، والدنيا إلى المحشر ، والخلافة إلى المنشر ! وعليهم تقوم الساعة ! »

والحمد لله الذي اجتنى من هذه الدوحة العباسية الشماء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفروعها في السماء ، إماماً ألقى ولاه في القلوب والأرواح ، واسترعه ، فوجدته لأُمَّته خيراً راع ، وأوضح للناس من اعتقاده ووجوب طاعته سنناً قويمًا ، وجعله كما قال عز وجل : « وكان بالمؤمنين رَحِيمًا » ، سيدنا ومولانا إمام المرسلين ، وخليفة الله في الأرضين ، ووارث الأنبياء والمرسلين ، والمفتروض الطاعة على الخلق أجمعين ، المنون بإيالله المقدسة على العالمين ، مولانا أبا جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين - إمام تحلَّت أجياد المنابر بجواهر شريف دعوته ، وترصعت تيجان المآثر بلآلي معدلته وحسن سيرته ، ونزلت السكينة على العباد والبلاد بالسكون تحت وارِفِ ظلال رَأْفَتِهِ المقدسة ورحبته ؛ فالناس وادِعون في كنف عِمْ مكارمه وعواطفه ، والخلائق راتِعون في رِيضِ جِسمِ مواهبه وعوارِفِهِ . فأدام الله أيامه الزاهرة دواماً يخلق أثواب الأعوام وهو جديد ، وجعل

دَعْوَتَهُ القاهرة مقرونة بالدوام والتخليد ، إلى يوم الوعيد . ولما انتهى إلى علومه الشريفة - زادها الله شرفاً وقُدْساً - ما عليه مُجَاهِدُ الدين ، مُحَمَّدُ بن يوسف بن هود ، من سلوكِ سَنَنِ الطاعة المؤسَّس بنيانها على تقوى من الله ورضوان ، والتزامِ شروطِ الولاء الذي هو علامةُ منامة الدين وكال الإيمان ، والتصدي لمقارعة الناكبين عن محبة الحق والهدى ، والتجرُّد لمُرابطة من حاد عن السُّنة والإجماع اللذين بهما يُسترسد ويُنْتَدَى ، اقتضت آراؤه الشريفة المقدسة النبوية الإمامية الظاهرة الزاكية المجددة المعظمة المكرمة المستنصرية - زادها الله جلالاً متألِّق الأنوار ، وشرفاً رفيع المنار ، واقتداراً تجوب جباهه جنوب الآفاق والأقطار - أن يُقلِّده أمرَ جزيرة الأندلس وما يجري معها من الولايات والبلاد ، ويُسَوِّغه ما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد ، تقليداً صحيحاً شرعياً ، وتسويغاً صريحاً إمامياً ، وإنعاماً يصفو عليه لباسُ فخاره الفخاض ، وتصفو لديه موارد مواهبه النيرة الحياض .

وقد أمره - صلوات الله عليه - بأوامر تهيئه إلى سبيل الرشاد ، وتحظيه برضى الله الذي هو أنفع الذخائر في الدنيا ويوم يقوم الإشهد ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله : عليه يتوكَّل وإليه ينسب !

أمره بأن يتدرَّع شعار تقوى الله الذي هو خير لباس ، ويستشعر خيفته التي تجعل له كما قال عز وجل : « نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ » ؛ فإن تقوى الله تعالى هي المنجاة بمن تورد مهاوي الآثام والعصيان ، والسبب الذي يعتصم به من كان من العناية الأزلية بكان ؛ قال الله تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ . » وأمره أن يجعل كتاب الله تعالى مناراً يرجع إليه في حل المشكلات ، ومُصْبَاحاً يستضيء بمراشده في الأحكام المُشْتَبِهَات ، فإنه الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ، والنور الساطع الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه

وفي سنة ٦٢٧ ، تحرك بفضل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإخراج ماردة ، وقد نازلها العدو وحاصرها ؛ ولقي جيش العدو بظاهيرها وطاغيته ؛ فلم يتأن - زعدوا - حتى دفع بنفسه العدو ، ودخل في مصافه ؛ وفقدته الناس لما غاب عنهم ؛ فلم يرجع إلّا وقد انهمزوا مُدبرين . وكانت غزوة شنيعة . واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ .

وفي سنة ٦٢٩ ، غلبك إشبيلية ، وولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سائلاً الملقب بعماد الدولة . وغلبك مالتة وعرة ناطة عام ٦٢٥ . وفي سؤال من هذه السنة ، جنح إلى طاعته الرئيس أبو زكرياء وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد ، وخرجا عن طاعة ابن عمهما الأمير أبي جليل ؛ وأخذاه البينة على ما بأيديهما .

وفي سنة ٦٢٩ ، فتح الجزيرة الخضراء غزوة ؛ وقد كان انضم إليها بقايا المغربيين ؛ فأجازهم إلى المغرب ، وصح له تملك الأندلس ، وأطاعته سبنة ؛ وملك رباط الفتح بسلا أيّاماً .

وفي أوائل العشر الوسط من سؤال ، ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو جهة وادي آس ؛ فأسرى ليلته ، ولحق العدو على ثمانين ميلاً ؛ فاستأصله السيف ، ولم يفلت منه أحد . وفي سنة ٦٣١ ، وردت عليه الهدية والتقليد من المستنصر العباسي ببغداد . وقرى على الناس كتابه بمصلى العيد من غرناطة بموافقة اجتماع من الناس لطلب الغيث واستسقائه . وكان الأمير ابن هود يومئذ لايساً السواد ، والراية السوداء بين يديه ؛ فنزل المطر يومئذ ، واستبشر الناس . وكان يوماً مشهوداً وصنعاً غريباً . وأمر بعد انصرافه أن يكتب عنه بتلك الألقاب التي تضمنها الكتاب المذكور إلى البلاد .

ونصر الكتاب ، وكانت العلامة فيه بعد ثلاثة أسطر أو نحوها :

« توكلت على الله الواحد القهار ! الحمد لله خالق الإنسان من صلصال

كالخار ؛ ومالك أزمه الأفضية والاقدار ، ومكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار ، المتعالي بوجدانيته عن الأشباه والأنظار ، المتنزه بكبريائه عن تمثيل الأوهام وتكثيف الأفكار ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ! سبحانه ! هو الله الواحد القهار !

والحمد لله الذي اختار محمداً - صلى الله عليه وسلم - من أطيب قریش عنصراً وأرومة ، وأزكاه أصلاً وجرثومة ، وأكرمها خولة وعمومة ، ابتعنه والكفر قد ظهر فنيقه والشرك قد قامت سوقه ، والضلال قد استطارت بروقه ، والشيطان قد استظهر حزبه وفريقه ؛ فصنع بالحق وأظهره ، ودحض الضلال ودمره ، ورفع لواء الإيمان ونشره ، وأمات الباطل وأقبره ، وأحيا الدين الحنفي وأنشره . فصلّى الله عليه ، وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتبعة ؛ وعلى صحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، صلاة دائمة متصلة غير منقطعة ، ما وخذت قلوب براكب ، وأضحك الروض بكاء السحاب ؛ وعلى عمه ابن عبد المطلب خير الأعمام ، وكافل الأيتام ، وصاحب رمز والمقام ، والمخصوص بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، المستنزل ببركته أنواء الغمام ، عن جذب العام ، ومن قال في حقّه سيد الأنام ، محمد خاتم النبيين - عليه أفضل الصلاة والسلام : « يا عم فيكم النبوة والخلافة لا ينافيكم فيها منازع إلا أكبه الله لوجهه . ولا يزال الأمر في ولدك حتى يسلموه إلى عيسى بن مريم . » وقال - صلى الله عليه وسلم : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً . فمنازلي ومنازله في الجنة تجاهين ، وعمي العباس بيننا مؤمن بين خليلين ! اللهم اغفر للعباس وولد العباس ومحبّي وولد العباس مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادرهم ! اللهم احفظه في ولده وأخلفه فيهم واحفظ ذريته من كل سوء واعزهم بعونك ونصرك ما بقي منهم باق ! » وقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم لا يدخل قلبك

سبل السلام . قال الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

وأمره أن يعمل بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - في مصادر أموره وموارده ، وبإجماع المسلمين في جميع مناحيه ومقاصده ، فإن اتّباع السنة يُرْسِدُهُ إلى منهج الحقّ وسبيله ، والإجماع يوضح له معاني كتاب الله وأحكام رسوله . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وأمره أن يُكثِرَ من 'مجالسة الفقهاء والعلماء ، وأرباب الديانة الصلحاء ، ومشاورة العقلاء الألباء ؛ فإن 'مجالسة العلماء لفتح الخواطر ، ومُعاشرتة الصالحين فيها رادع عن اتّباع الأهواء وزاجر ، ومُشاورة الألباء تقدح بها زناد التوفيق في النواهي والأوامر . قال الله تعالى : « وَسَاورَهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذْ عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

وأمره بأن يُحسِّن السيرة في رعيته ، ويسكنهم أرحب كنفٍ من حنوه وشفقتيه ، ويساوي بينهم في مجالس نظره وحكومته ، ولا يفرّق في التفاتيه بين القوي والضعيف ، ولا يميّز بما يقتضيه العدل والإنصاف بين المشروف والشريف ، ويقوّي الحكماء على ما يوجب الشرع ويقتضيه ، ويأمرهم بإقامة القسطاس الذي يُحِبُّه الله ويرضيه . قال الله تعالى : « إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

وأمره أن يقتدى ، في جميع أموره ، بتصفاته ، وتوحيده ، وسكنته ، بما أمره الله تعالى في كتابه المكنون ، الذي لا يمسه إلا المطهرون ، من قوله عز وجل : « إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وأمره أن يعتَمِدَ في 'مجاهدة الكُفَّار الملاحين ، وأحزاب الشيطان المشركين ، ما أمر الله تعالى به في قوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » واعلموا أن الله مع المتقين » ، وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

فلنكن 'مجاهد الدين بهذه المراسد مقتديا ، ولما هيج أو أمرها المطاوعة مقتفيا ؛ فإنه إذا اتّبع هداها ، وامتل مراسمها واحتداها ، وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله عليه وعلى الخلائق اعتقاد مفروض طاعته ، وطوّق أعناقهم بالتزام شروط مولاته وعبوديته ، سيدنا ومولانا خليفة الله في أرضه ، والقائم بسنة دينه وفرّضه ، أبي جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين - فازت قداحه ، وتضاعفت من أقسام السعادة الراهنة متاجره وأرباحه ؛ فإن ذلك عند ذوي الديانات المتينة أحكم الأوامر وأوثق العرى ، والذخر الذي يجده كل مؤتق مسعود يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، إن شاء الله . وكتب في العشر الوسط من ذي القعدة سنة ٦٢٩ هـ .

ووصله عن الديوان العزيز ، وهو المعبر به عن رتبة النائب عن العباسي من الأعجام في ذلك التاريخ : « عن الديوان العزيز النبوي أرفع منازل السعداء الفائزين منزلاً ، وأحمد مقامات الأبرار المتقين تمهيداً وتأثلاً ، وأسسى هضبات السعادة الراهنة يقاعاً وقللاً ، وأضفى جلايب المواهب الأزلية مدارع وحللاً ، وأرحب مواطن العذبات الإلهية التي لا يبغى ذو الديانات المتينة عنها حوْلاً ، وأعظم حيازة فضيلة قوله عز وجل : « فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى » ، هو ما أضفى الأمير ، الإصفه صلاً الكبير ، الأجل المربط المتأغر الغاري 'مجاهد الدين مجد

الإسلام . جسد الأثام ، سجن الدولة ، عز الملة ، منعين الأمة ، فخر الملوك ،
 قاصع المشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، زعيم الجيوش ، شرف
 الأمراء ، بريق الخواص . أطال الله بقاءه ، وأدام علوه ، وزعمته باعتقاد
 وجوبه موارد خوص معتقده ، وأوضح بسلوك منهجه آثار صدق
 يقينه ومحض تعبده ، واحتوى على قصبات رهان التوفيق بازوم لاجب
 محجته وقويم جديده ، ونور الله تعالى أرجاء عقيدته الصالحة بأنواره التي هي
 علامة كمال بوفيقه ووفور رُسده ، من طاعة من لا يقبل تعالى إلا بطاعته
 الأعمال ، وموالاة من موالاته عنوان استمرار السعادة والإقبال . وتباعة
 من تباعته ذخيرة نافع يستظهر به كل ذي حظ عظيم في الحال والمآل ،
 ومخالصة من

[هنا وقع بياض في جميع النسخ الموجودة من هذا التأليف]

وماله إلى مدينة تونس ؛ ثم إنه استراب بمن لدته من فرسان النصارى
 وحذر منهم التغلب على ما بيده ؛ فدرس - زعموا - إلى الأمير الغالب بالله
 بشير عليه بمطالبة وحصاره ؛ ففعل وبأدر إليه ونازله أياماً عدّة .
 وتودد بينها أبو عبد الله بن مهيب حتى أحكم الشروط ، ونازل إليه ابن
 الرميبي ؛ ولحق بتونس بعد ذلك . وعرفني بعض الشيوخ من أهل
 المريّة أن السلطان لما دخل المريّة ، جاز ابن الرميبي البحر في جفن
 أعدّه لذلك ؛ فلم يشعر به إلا وقد أنفذ في البحر ، بعد أن أحرق ما يخاف
 اتباعه به من الأجبان ، والقصد أن ابن الرميبي استقر بتونس وتأكل
 بها ؛ وبها حمائم ينسب إليه اليوم . وتغلب الغالب بالله على المريّة
 بعده ؛ وذلك في وسط سنة ٦٣٥ .

ذكر الخلاف بين ابن نصر وبين بني اشقيلولة

وقد ذكروا أن الغالب بالله كان له صهر من أهل بلده ، يماثل له ،
 يُعرف بابن أشقيلولة : ظاهره على أمره ، ووقع بينهم اتفاق على قسمة ما
 يتحصل لهما من المثلث . فلما استقر بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره
 الأمر ؛ فقال له : « أنا أمي » ، لا أكتب ! وعزك عزّي ومملكك
 ملكي ! فأسكنه بالنصبة ، وقدمه على الجيش ، إلى أن توفي الرئيس
 أبو الحسن ؛ وخلف ولدين : إبراهيم أكبرهما ، والرئيس أبا محمد
 يتلوه ؛ فصاهرهما السلطان على ابنتيه : مؤمنة وشمس ؛ وهما إذ
 ذاك محضرتاه ، والرئيس أبو إسحاق أكبر الولدين قد استحق رتبة
 والده . ثم أولد الرئيس أبو إسحاق من بنت السلطان ولدين : عليّاً
 وعبد الله ؛ فولاهم السلطان مدينة وادي آش وما إليها . وولد للرئيس
 أبي محمد (بعد أن كان السلطان ولأه مائة لوقاة أخيه السلطان بها ، وهو
 إسماعيل بن يوسف بن نصر أبي الرئيس أبي سعيد ، إذ لم يكن له في
 الوقت ولد يسد مسده ؛ وكان ولد الرئيس أبو سعيد صغيراً)
 أولاد أربعة : علي ، ومحمد ، ويوسف ، وفرج .

واستمرت الأحوال وطاعتهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدّهم
 جارية ، إلى أن كبر ولد السلطان وولي عهده ؛ فنافس المذكورين ،
 وقلق بهم ؛ وحذروه وأنفوا من غصه واحتضامه ؛ فأظهروا الامتناع بوادي
 آش ومالقة على عهد جدّهم السلطان ، وما عدلوا عن تمزيقه ، ولا استبدوا
 بنقش سكة ولا تقديم قاض ، إلى أن هلك السلطان الجد ، وصار أمره
 إلى ولده الذي نفروا عنه . فعظمت الفتنة ، واشتدت المحنة ، وكثر
 الخلاف ؛ ونازلهم ؛ واستعانوا عليه بالنصارى ، وكشفوا الوجوه في

مَعْصِيَّتِهِ . وَكَثُرَ بِسَبَبِهِمُ الثَّوَارُ بِقِمَارِشَ وَأَنْتَقِيرَةَ وَلَوْشَةَ ، إِلَّا أَنَّ السُّلْطَانَ ، لَسَعَةِ ذُرْعَهُ وَوَفُورِ دِهَائِهِ وَكَثُورَةِ مَالِهِ ، اضْطَلَعَ بِذَلِكَ كَلْتَهُ . وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ الْإِلْمَاعُ بِهِ مِنْ إِجَازَةِ السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يَوْسُفَ إِلَى الْجِهَادِ ؛ فَاسْتَجَنَ بِهِ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ ، وَتَعَلَّقُوا بِحَرَمَتِهِ ، وَبَادَرُوا بِفُرْسَانِهِمْ وَرِجَالِهِمْ إِلَى خِدْمَتِهِ وَجَمَعَهُمْ ؛ وَالسُّلْطَانُ عَدُوَّهُمْ تَجَلَّسَهُ بِالْجَزِيرَةِ ؛ فَجَبَّهَوْهُ . وَلَمَّا عَظُمَ عَلَيْهِمْ ، وَطَلَبُوهُ لِلْمُبَارَاةِ ، كَانَ الرُّومُ فِي الْحَقُوقِ الْمَجْهُودَةِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ دَاعِيَةً بَيْنَ السُّلْطَانَيْنِ إِلَى الْوَحْشَةِ فِي الْحَالِ .

وَلَمَّا تَكَرَّرَ التَّلَاقُ فِي حَرَكَاتِ الْجِهَادِ ، وَأَمَكَّنَ السُّلْطَانُ ابْنَ نَصْرٍ الْخُرُوجَ عَنِ الشُّكُوفِ فِيهِمْ ، وَقَرَّرَ لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مَا يَتَوَقَّعُ الْوَطَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ ، فَتَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ تَتَكَرَّرَ رَاسِمٌ ، وَأُشِيرَ عَلَيْهِمْ بِرَدِّ مَالِقَةٍ إِلَى دَعْوَتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِجَدْمَتِهِ ؛ وَكَانَتْ وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ خَالِيَهُمْ حُرُوبٌ أَجَلَّتْ عَنْ قَتْلِ فَرَجٍ مِنَ الْأَخْوَةِ الْأَرْبَعَةِ ؛ فَانْحَرَفَتْ أُمُّهُ أُخْتُ السُّلْطَانِ عَنْ أَخِيهَا بِسَبَبِهِ الْخِرَافَ لَمْ يَسْتَصْلِحْهَا بَعْدَهُ ؛ فَارْضَوْا بِالْخُرُوجِ عَنْ مَالِقَةٍ لَعَنِيَهُ لِعِلْمِهِمْ بِمَوْقِعِ ذَلِكَ مِنْ نِكَايَتِهِ ؛ وَانْتَقَلُوا إِلَى سَكْنَى مَعْقِلِ فَرَطِطَمَةٍ بِجُمْلَتِهِمْ . وَتَصَيَّرَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يَوْسُفَ ؛ وَقَصِدَ إِلَيْهَا ، وَأَعْجَبَ بِهَا ، إِذْ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الدُّنْيَا ظَرْفًا وَحَضَارَةً ؛ وَأَقَامَ بِهَا عِيدَ التَّجَرُّ : أَجْمَلَ مَا سَمِعَ بِمِثْلِهِ مِنْ عَامِ ٦٧٥ .

وَكَانَ وَصُولُهُ إِلَيْهَا سَادِسَ شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ ؛ ثُمَّ رَحَلَ عَنْهَا ، وَقَدْ اسْتَحْقَظَ عَلَيْهَا عُمَرُ بْنُ مَحَلِّيٍّ الْبَطْشُوغِي ؛ وَكَانَ أَخُوهُ طَلْحَةَ مُسْتَقِرًّا فِي خِدْمَةِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ ، أَتِيْرًا لَدَيْهِ ؛ فَدَاخَلَ أَخَاهُ عَمْرًا فِي صَرْفِهَا عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَعَوَّذَ مِنْهَا بِالْمَكْرِ . وَبَدَأَ بِمِثْلِهِ . ثُمَّ بَدَأَ وَبَادَرَ عُمَرُ بِالْقَبْضِ عَلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ ؛ وَمِنْ جَمَلَتِهِمُ الرَّئِيسُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَشْقِينُولَةَ ، كَانَ قَدْ احْتَالَ عَلَيْهِ عُمَرُ قَبْلَ ذَلِكَ وَاعْتَقَدَهُ ؛ وَصَرَفَ الدَّعْوَةَ إِلَى صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ فِي السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ لِرَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ٦٧٧ ؛

وَبَادَرَهَا فَأَحْكَمَ ضَبْطَهَا ؛ وَانْتَقَلَ عُمَرُ إِلَى الْمُنْكَبِ ؛ وَمَا زَالَ السُّلْطَانُ يُجَاوِلُ بِهَا أَمْرَهُ وَيُسَالِيهِ حِينًا ، وَيُحَارِبُهُ حِينًا . وَنَازَلَ حِصْنَ سَاوْبَانِيَّةَ ، وَرَمَاهُ بِالْمِجَانِيْقِ ، إِلَى أَنْ اسْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى عُمَرِ ؛ فَأَظْهَرَ الْإِنَابَةَ ، وَطَلَبَ مِنْ يَقْبُضَ الْحِصْنَ ؛ فَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ أَحَدَ بَنِي عَمِّهِ وَبَنَدًا يُرْفَعُ فِي ذُرْوَتِهِ ؛ فَقَبِضَ عُمَرُ عَلَيْهِ ، وَأَقْسَمَ أَنَّهُ ، إِنْ رَمَى عَلَيْهِ حَجَرًا ، لِيَطْرَحَنَّ الرَّئِيسَ مِنَ السُّورِ ؛ وَاسْتَفَاتَهُ ؛ فَفَرَّقَ عَلَيْهِ وَأَقْلَعَ عَنْهُ ؛ وَقَدْ ضَاقَ بِهِ ذُرْعُهُ . وَوَالَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلَاطَفَتُهُ ، وَأَكَّدَ طَبْعَهُ ، وَعَقَدَ لَهُ عَلَى بَيْتِهِ ، وَاسْتَدْعَاهُ إِلَى الدُّخُولِ بِهَا . فَلَمَّا قَارَبَ الْحَضْرَةَ ، أَغْرَى بِهِ أَعْدَاءُ نُحُوتِهِ مِنْ بَنِي رَحُو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ فَتَلَقَّوْهُ ، وَقَتْلُوهُ . وَأَرَاخَهُ اللَّهُ مِنْهُ . وَكَانَ عُمَرُ بْنُ مَحَلِّيٍّ أَحَدَ أَفْرَادِ الرِّجَالِ وَحَزَمَتِهِمْ ؛ أَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ ، وَنَوَادِرُهُ مَأْثُورَةٌ .

وَشَرَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي اسْتِدْعَاءِ النَّصَارَى لِسَدِّ بَحْرِ الزَّقَاقِ وَنُزُولِ الْحَضَرَاءِ ؛ فَتَزَلَّهَا الْعَدُوُّ ثَامِنَ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ ؛ وَكَانَتْ بِهِمُ الْوَقِيعَةُ الْبَحْرِيَّةُ عَلَى أَيْدِي الْأَسْطُولِ الْغَرَبِيِّ وَالسَّبْتِيِّ . وَأَقْلَعَ الْعَدُوُّ عَنْهَا بَعْدَ الشَّهْرِ خَائِبَ السَّعْيِ . وَأَجَازَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَنَشَأَتْ الْوَحْشَةُ الْعُظْمَى ؛ فَجَهَّزَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَلَدَهُ إِلَى الضَّرْبِ عَلَى بِلَادِ ابْنِ نَصْرٍ ؛ وَنَازَلَ مَرْبَلَةَ وَحَاصَرَهَا ، وَرَمَاهَا بِالْمِجَانِيْقِ ؛ وَجَازَ بِنَفْسِهِ ؛ فَتَنَازَلَ مَالِقَةَ ، وَقَدْ صَارَ أَمْرُهَا إِلَى الرَّئِيسِ أَبِي سَعِيدٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ . وَكَانَتْ عَلَيْهَا حَرْبٌ عَظِيمَةٌ بَلَغَتْ فِيهَا حَمَلَاتُ الْجَيْشِ الْمَرِينِيِّ إِلَى أَنْ صَادَمَتِ الْأَسْوَارَ رُؤُوسُ الْحَيْلِ ، وَأَعْدَرُوا بِاعْتِرَاضِهَا دُونَهُمْ . ثُمَّ نَزَلَ سَهْلًا بَيْنَ الْيَمِّ وَالْبَحْرِ ؛ وَنَازَلَ يَوْمًا إِلَى الْحَضَرَاءِ . وَنَادَتْ الْأَيَّامُ بَيْنَ حَرْبٍ وَسِلَاحٍ وَحِيلَةٍ وَإِذْعَانٍ .

وَصَرَفَ السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ نَصْرٍ وَجْهَهُ إِلَى احْتِثَاثِ الرُّؤَسَاءِ الْأَشْقِيُولِيِّينَ ، وَالْإِرَاحَةِ بِمَنْ بَقِيَ بِبِلَادِهِ مِنْهُمْ . وَقَدْ كَانَ الرَّئِيسُ أَبُو

إسحاق شيخ بنيهم لحق بن مائة منهم ؛ فخرجوا له عن حصن قمارش ، وأفر دونه فيه ؛ وهو معقل الأندلس الذي لا يرام ؛ وكان الملوك من بني حشود وغيرهم قد قدروا قدره واتخذوا به مساكين تناسب الملك . ولم يزل الرئيس أبو إسحاق إلى أن هلك ، وانتقلت طاعة قمارش إلى ولديته بوادي آش . يضبطه لهم ثقة من خواصهم يعرف بابن الرامي ؛ فاحتال السلطان عليه بمداخلة رجل من حرسه خمسين ، بذل لكل واحد منهم خمسين ديناراً من الذهب ؛ فثاروا به ، وبادروهم الجيش ؛ فكان أملاك به ؛ وبعد ذلك حصنه بما هو عليه إلى اليوم .

وصرف السياسة إلى من بقي منهم بوادي آش ؛ فلأن لهم جانباً ، وسوءاً عليهم ، ووالى عليهم إحسانه وبره ، حتى غرهم بذلك ، وظنوا سلامة صدره ، وركنوا إلى جميل اعتقاده ؛ وعند ذلك جدد السلم مع صاحب قشتالة ؛ وهم مع السلطان خالهم بأحسن أحوالهم من الرضى والألفة . ففقد على بلدهم الصلح ، وأدخلهم في جملته ، وهم يفتشون بذلك ، ولا يستريون به ، حتى إذا كمل ، بعث إليهم ، وأخبرهم بعقد البيعة لولده ، وطلبهم بالانتقال عن مدينتهم إلى حضرته ، وفسح لهم الوعد في مجال كرامته ورعايته ؛ فبادروا بالركون إلى ملك قشتالة ، وطلبوا الرجوع لجهته ؛ فأجابهم بتعذر ذلك وعدم إمكانه ، إذ بلادهم قد انتظمتها معاقد السلطان ، وأن إيواءهم نكت للسلم والعهد . فسقط في أيديهم ، وعجزوا عن المال والطعام الذي يصادرون به عدوهم ، ووجهوا رسولهم إلى ملك أرغون ؛ فصرهم ، واعتذر ببعث الشقة وتوسط بلاد قشتالة دونهم .

وحشد السلطان أهل البلاد لمنازلتهم ؛ فلجأوا إلى القيام بدعوة ملك المغرب ، وكتبوا له البيعة ، ووجهوا إليه رسولهم ، وهو إذ ذاك بمراكش ؛ وجرت في ذلك بين السلطان أمير المسلمين وبين صاحب

الأندلس محاوراة أجلت عن تعويضهم من وادي آش بقصر كنامة . وانتقلوا إليه بأموالهم ورجالهم وأهلهم في أوائل عام ٦٨٧ . ولم استقرت وادي آش بيد أمير المسلمين بالمغرب ، جعل فيها ثقتهم . ولم يمر زمن غير كبير حتى خدع عنها ذلك الثقة وانصرف إلى سلطانه ؛ فطرقه الطنة ؛ فضربت عنقه .

ولما استقر هؤلاء الرؤساء بالمغرب ، حذروهم السلطان ابن نصر على ملكه ، وتوقع إغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه ؛ فاستدعى حينئذ الطاغية إلى سد فرضة المجاز بطريف . فكان نزول الطاغية بها في أوائل شهر جمادى الأولى من عام ٦٩١ ؛ وتلكها العدو حسبا هو معروف . وشق الخطب على المسلمين ؛ وساءت النفوس ؛ وندبت الشعراء . ولولا خوف الإطالة ، لأطنبتنا في هذه الأمور . وهذا المقدار من التعريف بخلاف هؤلاء القوم كاف إن شاء الله .

حديث امتسك بني الحكيم برندة

ولما حدث ما وقعت إليه الإشارة في أمر طريف ، وعبر السلطان صاحب الأندلس البحر مستقيلاً من ذنبه ، وعاد إلى الأندلس لتجديد الجهاد ، ومنازلة طريف ، واجتمع الأيدي على استرجاعها ، وجاز السلطان أمير المسلمين أبو يعقوب البحر عام ٦٩٣ ، تخلف السلطان عن مباشرة طريف ، معتزلاً بمرض أصابه ؛ ووجه بالجيش ولده ؛ فتلوا بمائة ؛ وطال على الجيش المربني الأمد في محاصرة طريف ، وظهر عدم المساعدة والكسل عن الإعانة ، وأظلم الأفق ؛ وأقبلت أجفان العدو لسد البحر الزقاق . فأجلت الحال عن انصراف أمير المسلمين الملك المربني عن الأندلس ورفضها ؛ فجعل أمر رندة إذ ذاك إلى الوزيرين الأخوين أبي زكرياء

وأبي إسحاق ابني أبي القاسم بن الحكيم ، وسُوِّغَتْ لهما . ولما طالبَ السلطانُ ابنُ نَصْرٍ بصرِهما ، أبوا ذلك ، واستمسكوا بهما ؛ فأمر جيشَ مَالَقَةٍ بالضربِ عليها . ووقعت بها الفِتْنَةُ في البلادِ الغَرْبِيَّةِ ، وتغادَّت الحالُ إلى أوائلِ عام ٦٩٥ . فلما أَعُوْزَتِ السلطانَ الحيلةُ ، داخلَ أخاهما الوزيرَ القائمُ بِأمرٍ وَلَدَهُ بَعْدَهُ ؛ وكان يومئذٍ متولِّيَ كِتَابَتِهِ ؛ فأخذوا لأنفسهم شروطاً عامَّةً لمصلحةِ القطرِ ، وشاملةً للكافةِ من أهله : منها أن لا يَلِيَّ بلدهم أحدٌ من قرابةِ السلطانِ ، وأن لا يزلَ غَايِرُ من المَغَارِبَةِ بدارٍ من دُورِ المدينة ، وإسقاطُ التَّبِيعَاتِ . وتمكَّنَ منها السلطانُ مُنْتَصَفَ جُمَادَى الثانيةِ من سنة ٦٩٥ .

خبر انتزاع الرئيس أبي الحجاج بن نصر

بوادي آش

وفي عام ٧٠٢ ، اقضى النظرُ تأخيرَ الرئيسِ أبي الحجاجِ ، صَهرِ السلطانِ أبي عبد الله ثالثِ الأمراءِ النصرِيِّينَ وزَوْجِ أُخْتِهِ ، عن مدينةِ وادي آش لِأمرٍ نَقِمَهُ عليه إذ ذاكُ بِمَحْضَرَتِهِ ؛ فركبَ لحينه ، وأسرعَ اللحاقَ بها ، وبَقَصَبَتِهَا ثِقَتُهُ ؛ فكان أَمْلَكَ بِأمرِها . ولما سَاحَ قَصْدُهُ وتوجَّهَ إليها ، استركبَ الجيشَ لمُبادَرَتِهِ . وكتبَ له عَهْدًا يَتَضَمَّنُ تقريرَهُ بها وتَسْطِيَّ أغراضِهِ خَوْفَ اشتعالِ الفِتْنَةِ . ولما شرعَ في الامتناعِ ، عند وصولِهِ ، فطنَ أَهْلُ البلدِ لما يريدُهُ ؛ وقد لدغوا من جُحْرِ النفاقِ الذي استأصلَ أموالَهُم وأنفُسَهُم زَمَنَهُ القريبَ العَهْدِ ؛ فبادَرُوا إليه ، وأحاطوا به قَبْلَ استعداده ؛ فمَلَكَوه عَنوةً ، وقبضوا عليه ؛ ولم يصلِ الجيشُ إلَّا وقد قُضِيَ فيه الأَمْرُ ، وأُوصِلَ بالقيودِ إلى بابِ السلطانِ ؛ فأمرَ ابنُ عمِّه محمد بن علي بن أحمد المعروفَ بالرئيسِ العَرُوسِ ، صَهرَ السلطانِ أيضاً ، بِضَرْبِ عُنُقِهِ بِيَدِهِ ابتلاءً

لِطَاعَتِهِ ومَكْرُوهًا حُبِّبَ إليه ، إذ كان السلطانُ مُنْجَرِفًا عن قرابته . فبُضِيَ على هذا السبيلِ .

وفي أثناء هذا المَرَجِ ، وهيجانِ هذه الفِتْنَةِ ، وانفرادِ كُلِّ يدٍ بما ملكت ، استولى العدوُّ على مدائنِ جَلِيلَةٍ ، وقِلاعِ حَصِينَةٍ مَنِيعةٍ ، وثغورٍ شَرِيفَةٍ ، وعَمَلاتٍ نَصِيبَةٍ ، ورُبُوعِ أَهْلَةٍ ، وأطرافِ بَعِزِّ الإسلامِ الذي وطئها شَاهِدَةٌ ، مثلَ مدينةِ قَلْهَرَّةَ ، وَأَنْتَيْشَةَ ، ومَدِينَةِ سَالِمٍ ، والمدينةِ البَيْضَاءِ مدينةِ سَرْقُسْطَةَ ؛ ثُمَّ ، في مدَّةٍ بَعْدَهَا ، على مدينةِ طَلَيْطُلَّةَ ، وكانت من الأندلسِ محلَّ المَرَكَزِ من الدائرةِ ؛ ثُمَّ بَطْلَيْوَسَ ، وبَلَنْتَسِيَّةَ ، ومَيُورَقَةَ ، وسَنْتَرِينَ ، وأُسْتُبُونَةَ ، وطَبِيرَةَ ، وَلَبْلَةَ ، وجَبَلِ العُيُونِ ، وكُورَةَ بَاجَةَ ؛ ثُمَّ ، في مدَّةٍ بَعْدَهَا ، على أُبْدَةَ ، وبَيَّاسَةَ ، ويَابُرَةَ ؛ ثُمَّ ، في مدَّةٍ بَعْدَهَا ، على عَهْدِ ابنِ هُودِ الأخيرِ ، على نحوِ خَمْسِمِائَةِ بَلَدٍ مِنْهَا سَاطِبَةٍ ، ودَانِيَةٍ ، ومَارِدَةٍ ، والكُرْسِ ، ثُمَّ ، في مدَّةٍ بَعْدَهَا ، بينَ تَنَازُعِ ابنِ هُودِ وابنِ نَصْرٍ ، على قَرْطُبَةٍ ، وإِشْبِيلِيَّةٍ وما إليها ؛ ثُمَّ ، في مدَّةٍ بَعْدَهَا ، من يَدِ ابنِ نَصْرٍ الأوَّلِ ، على مُرْسِيَّةٍ وَجِيَّانٍ وَلَوْرَقَةَ ، وشَرِيَشَ . وكم تبعَ هذه الأُمَمَاتِ من بَنَاتٍ ، وهَتِكَتٍ من حَرَمَاتٍ ، وتركَ الإسلامَ من عيونِ وَجَنَّاتٍ ! وفيما أذَرَ كَنَاهُ ، على قَلْعَةٍ يَحْصِبُ من بعدِ أُطِيبَةِ ، ووُبَيْرَةَ ؛ ثُمَّ الجَزِيرَةَ . ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ !

ومَنْ اعتقدَ أَنَّ هذه البَقْعَةَ الأَنْدَلُسِيَّةَ ، التي لاذَ بها العدوُّ ، فنسفها نَسْفًا وَلَقَّهَا لَقًّا ، كَسَيَّوَاهَا من بِيَقَاعِ الأَرْضِ جَمَالًا وَنُضْرَةً ، وانفِيسَاحًا وَنِعْمَةً ، وتَشْيِيدًا وَمَنْعَةً ، ونَاسًا وَحَيَوَانًا ، وَخَلِيقَةً وَخُلُقًا ، وعَادَةً وَزِينًا ، وَنَبَلًا وَإِدْرَاكًا ، وَصَنَائِعَ وَأَنْقَابًا ، وبُأَسًا وَشَهَامَةً ، وَظَرْفًا وَلَطَافَةً ، فَقَدْ ظَلَمَهَا حَقُّهَا وَبَحَسَهَا زِينَتُهَا ! والشاهدُ الصَّلَاتُ والمَوْضُوعَاتُ ، وما صُنِّفَ في العُلَمَاءِ مِنَ الطَّبَقَاتِ ، وما نُقِلَ عَنْ مَوَاقِفِ الحُرُوبِ ، وما دُوِّنَ من

المنظوم والمنثور . فوا أسفني عليها من معاليم أعلام ، ومغاني ليدن وإسلام !
يخبر الآن شواهدُها عن الغائب ، وراهنها عن الغابر ؛ كما قال :

[الطويل]

كبردِ الباني قد تقادم عهدهُ ورفعته ما شئتَ في العين واليدِ
لطف الله بما بها من بقيّة !

رجَعَ التاريخ إلى نسقه من ذكر أمراء بني نصر

دولة الامير ابي الوليد اسماعيل بن فرح بن نصر

وقد تقدّم تصويرُ الملك إليه من أبي الجيوش نصر بن محمد ، وانصرافه
إلى وادي آس مخلوعاً . واستقرّ الأمرُ في يده . وفي خامس عشر شهر
المحرّم من عام ٧١٥ ، أظهرَ السلطانُ نصرُ المخالفةَ لطائفةٍ لحقت به من
قرايته وخدّام أبيه ؛ فكشف عن وجه المُنابذة ، وأبدى ناجذ الشّر .
وتحرّك السلطان أبو الوليد ، فنازله في أوائل صفر من العام ، وأقام
محاصراً إيّاه خمسة وأربعين يوماً . ثمّ قفل إلى حضرته . واستدعى نصرُ
جيشَ النصاري ، وأمرهم يومئذٍ راجعُ إلى ابن السلطان سنانجُ بن
إذقونش كافلاً لابن أخيه . وخرج جيشُ السلطان من غرناطة إلى التضييق
على وادي آس . واتّفق وصولُ الطاغية إلى أحوازها بجيشه واستصحاب
ميرة طعام لتقويتها من بلاده ؛ وخفي على المسلمين أمرُهم إلى أن كان اللقاء
مكافحةً بوادي فرتوتنة من أحواز وادي آس ؛ وقد عبر المسلمون إلى
العدوِّ نهراً صعباً ، وكانت على المسلمين الهزيمة المشهورة ؛ واعترضهم الوادي ؛
فكانت بهم الدبرة ؛ فاستلحم منهم سبعمائة فارس . وامتلاّت الأندلس
حزناً وصراحاً .

وتغلّب العدوُّ للحين على حصن قنبل ومُنتماس وبجاج . وتحرك

في العام بعده إلى أحواز الحضرّاء ؛ فأفسد الزرع ، واكتسح المواشي ،
وشمّر لاستئصال المسلمين ، إلى أن أجمل الله صنعه للإسلام ؛ فتجرّك
الطاغية ، وعنه دُون جُوان كبيرُ النصرانية وولّد السلطان الجند ؛ فزلوا
المرّج من غرناطة . واجتمع المسلمون لمُدافعتهم ؛ فمنحهم الله النصر عليهم
ظهرَ يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى . وقُتل في الهزيمة أميراهم
جُوان ويطرُه ؛ واستولى المسلمون من دوابهم وأمتعتهم وأسبابهم على ما
يعي الحصر . وغزّا - رحمه الله - إلى مرّتش من بلاد الروم القريبة من
حضرته ؛ فدخلها عنوةً ، وأعمل فيها السيف ، وقفل ؛ فاحتلّ الحضرة يوم
السبت الرابع والعشرين من شهر رجب عام ٧٢٥ .

ولثالث يوم دخوله ، فتك به ابن عمه محمد بن إسماعيل ، أخو الرئيس
أبي سعيد بن إسماعيل بن نصر ، فتكتّه الشُّعاء التي قدّمَ بمثلها العهدُ
جرأةً وإقداماً ؛ فطرح نفسه عليه وهو مارٌّ بين السّاططين إلى تحكّ السلام عليه ،
والوزير بين يديه ، وضربه بجَنَجَر كان ملصقاً بذراعه مُعدّاً لذلك ، قد
تولّى له شحذه يومئذٍ الشيخ أبو الحسن بن كُماشة المتأخّرُ الحياة إلى اليوم ،
حسبما يعرف الناس . وعندما سقط السلطان ، اختلط أصحابُ الرئيس الغادر
سيوفهم ، وتعاونوا بها الوزير ، وقد كره لصيحة السلطان ؛ فاشتغلوا به ،
بخلال ما رُفع السلطانُ من بين أيديهم واحتُمِل إلى منزله ؛ فظنّوا به
السلامة وسقّلوا ؛ فقتلَ منهم جملةٌ علّقت رؤوسهم بسور القلعة .
وفجعوا الإسلامَ من السلطان برجلٍ مؤثّرٍ للجند صحيح القصد من أهل
الحير والبير - رحمه الله ! وولي الأمر بعده ولدهُ محمد .

دولة محمد بن اسماعيل بن فرح بن نصر

بويع له يوم توفّي أبوه ، وهو صبيّ صغير ، سنّه نحو تسع سنين ؛ فلم

يختلف عليه يومئذٍ أحدٌ ؛ وبأدرك إلى بيعة الفقهاء والعلماء والصلحاء والفضلاء وأهل الجهاد وكواف البلاد ، وجمعهم يومئذٍ مؤفور ، وشأنهم في الخير مشهور . وهو أول من بويج من هذا البيت النصري بحال الصغر وحدادة السن ؛ وهو ممن أملتينا الكتاب بسببه ممن بويج قبل الاحتلام من ملوك الإسلام .

وكان على عهد بيعته عه حاضرًا بحال الاكتمال وبقية بينهم وإفيرة الرجال ؛ وكان هذا الأمير وإفراً مدركاً ؛ فولئى خدام أبيه كفالته وتديب أمره والذب عنه . وثار عليه عه ، ونازعته الملك بمظاهرة شيخ الغزاة إيائه ، حسباً يذكّر : وهو أن الشيخ أباسعيد عثمان بن أبي العلى ، لما تصير الأمر إلى الولد ، وناب عنه وكيل السلطان الفقيه العدل محمد ابن أحمد المخرؤوق مضطنّع الشيخ ، احتقر الدولة ، وسامها إعمال غرضه وإنفاذ أمره وقبول شفاعته . ووقع التوقف في بعض ؛ فعلن الموجدية به والعب عليه ؛ وقطع أن صاحب الدولة لا بد أن يقصد منزله لاسترضائه ، فيتصرف فيه على حكمه . ولما حذر ذلك الوكيل ، أوغز إلى الرجال بالحمراء أن تضرب على يده ، وتمعه في سبيل نصح السلطان عن الخروج من معقله ؛ فزادت الموجدية . وأظهر الشيخ الانصراف عن الأندلس ، وهو لا يطرق الإمكان لتسويغ ذلك . فلما عسكر بظاهر البلد ، اغتممت غضبته وأمر أن يمنع من دخول المدينة رجاله . وقدّم على الغزاة يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق نظيره ؛ فلم يسع الشيخ إلا التصميم إلى مرسى المريّة ؛ وشرع منها في مخاطبة ملوك الجبهات التي يقصدها بمجملته . فتناقل الكل عن قبوله . وكان وصوله إلى مرسى المريّة في الثامن عشر لصفر من عام ٧٢٧ .

وفي الحادي عشر من جمادى الأولى ، داخل أهل حصن أندراش من عمل المريّة ، وهو قطر الجبابة ؛ واستدعى عم السلطان الذي صرف

بعد بيعة ابن أخيه إلى تلمسان ؛ فوصل إليه وبايعه . وتوجه ولد الشيخ إلى صاحب قشتالة ؛ فعرّكه إلى جهة رنّدة ؛ فاستولى على حصن وبرّة وما إليه من الحصون . وغام جوث الفينة ، وما أعدّه ملوك بني نصر للشدائد من عُدّة . وكانت بين جيش الحضرة وبين المذكور موافقات هلك فيها ولد الشيخ . وفصل الحطة ما كان من قتل الوكيل صاحب الأمر بتدبير أمر سلطانه عليه ، وقد قهره وأجلى عنه طائفة مختصة من ممالك أبيه ؛ فاغتاله ، وقد دخل دار الجدّة ، يفاوضها في المهمات على عادته ، ملوك كان حدّان ممن أعفني منهم ، هجماً عليه وقتلاه بين يدي الجدّة العجوز ؛ وذلك عشيّ اليوم الثاني من محرّم سنة ٧٢٩ . وقد كانت السلم تمت بين الفريقين في رمضان من السنة قبله .

وصرف العم إلى تلمسان ، يوسع من استدعاه ذماً ؛ واستدعى الشيخ إلى رسنه من الحطة ومكانه من الخطوة ، ثاني يوم الكائنة ؛ فأقام الرسم إلى حين وفاته في ذي القعدة من سنة ٧٣٠ . قُتبت الأمر في يده ، وخيب الله سعي من بنى عليه ، إلى أن ترعرع وظهر ؛ فكان مثلاً في الفروسيّة . وعبر البحر قاصداً باب السلطان الجليل ، واليد الملوك وكبير السلاطين ، المولى المقدّس أبي الحسن ، مستنصر خاً على عدو الإسلام ، ومستندعياً إلى جهاد عبدة الأصنام ؛ فتلقاه بما هو معروف من الفضل والبر ، وخلق المجيد ، والنائل المعم ، والصلوات الشاذّة عن الحصر ، بين المال والدبر ، والجياد الغرّ ، والسلاح المكلّل بالذرّ ؛ ووصل يديه ، وأعجبه ولده . ونازل جبل الفتح ؛ ففتح الله له . وبأدركه العدو قبل أن يعلق أصل الإسلام في ترابه ، ويستقرّ نضله في قرابه ؛ فتوجه بجيش المسلمين إلى إصراخه ، وبذل الأعمال الصالحات في خلاصه ، وحاول العدو حتى ألقع عنه ؛ ففازت يد الإسلام به .

فلما تم ذلك ، دبر بنو أبي العلى إدريس بن عبد الله ، وقد ساءهم ما كان

من غدرة خُدَّامه . وعَيَّنوا أخاهُ يوسفَ لمكانه ؛ واختاروا بعضَ أعلاجِهِ للإجهازِ عليه ، ليبرؤوا من أمرِهِ . وحينَ تمَّ ذلك ، تعرَّضوا له أثناءَ طريقِهِ قافلاً إلى مالقة في بعضِ أساطيلِهِ ؛ وقد وصل إلى الوادي المنسوب إلى السقائبِ برستم ركوبه ؛ فأوقَعوا به بضفةً وادي السقائبِ يومَ الأربعاءِ الثالثِ عشر من شهرِ ذي الحِجَّةِ عام ٧٣٣ . وبقي . رحمة الله عليه ورضوانه
 خلد ما فرَّعَ من بيعة أخيه ، منطروحاً مُعرَّي من ثيابه ، مسلوباً إلا من فضل الله وثوابه . ثمَّ عطفوا عليه ، فاحتسوه ، ودفنوه بمالقة ؛ وما صلُّوا عليه ولا غسلوه . وفي ذلك يقول شيخنا القاضي أبو بكر بن شيرين . رحمه الله :

[الحقيف]

عَيَّنَ أَبُوكَيِّ لِمَيْتٍ غَادِرُوهُ فِي ثَرَاهِ مَلَقَى وَقَدْ غَدِرُوهُ
 دَفَنُوهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا غَسَلُوهُ
 إِنَّمَا مَاتَ يَوْمَ مَاتَ شَهِيداً فَأَقَامُوا رَسْماً وَلَمْ يَقْصِدُوهُ

ولما فرغوا من قتله ، وإحكامِ عُدَّته وختله ، بدَّتْ لهم سيئاتُ ما عملوا ، وعلموا من قبيحِ صَنِيعِهِمْ ما جهلوا ، وعن العواقِبِ ذهلوا ، لما أمهلوا ؛ واجتمعوا بعد أيام من دفنِ أسئلته ، وحطَّ علاقه ، وكفرانِ نعمة وآلائه ؛ فحشدوا صفاتِ دينه بالظفر ، وكتبوا فيه عقداً بالكفر ، شهد فيه جملةً من أعلامهم ، ونفثتْ سُمُّ المِدادِ في رَقَّةِ أساوِدُ أقلامهم ؛ ولم يقنعوا بعد الكلامِ الرغيبِ إلا بكَلومِ كلامهم . أعظمَ الله أجْرَه ، كما أعظمَ نَجْرَه ، وضاعَفَ ثوابَه ، كما طهرَ من زورهم أَوَّابَه ! فلقد عبَّرَ البحرَ لغيرِ غَرَضٍ ، إلا ما كان من إقامةِ جِهادٍ مُفْتَرَضٍ ؛ ولقد ارتكبَ في خلاصِ الجَبَلِ بنفسه الذنيسةَ الخطرَ ، حتى قضى منه الوطر ؛ ولقد أظْلَمَ شهرُ الصَّوْمِ حَيَّاهُ اللهُ بِنَعِيهِ ونُصْرَتِهِ ، وهو إذ ذاك يسكن بالقصرِ خارجَ حَضْرَتِهِ ؛ وكان معروراً مزاجه ، يُردِّيه احتراقُ

الفصل واهتيجُه ؛ فكانت الصَّبِيَّةُ تتصلُ مرافِقِهِمْ من لدُنِ العَصْرِ ، بين البلد وبين القصر ؛ فكلَّمَا سمعوا النداءَ ، أشاروا بالأُتُوبِ ، لِمَنْ يَرْمِيهِمْ من تلكِ الأبوابِ ، فيبادِروا إليه بالماءِ وقد قاربَ الموتُ ، وشَفَهَتْ حياتَه الموتُ ، من غيرِ أن يستهلَّ عليه قضاءَ اليَومِ ، ولا الرخصةَ في الصومِ ، وإن بلغَ عذرُ المجهودِ ، وسُخَانَ العهودِ ، فقد أظهرَ الحُكْمَ العَدْلَ للخصمِ والشهودِ ، وأحكمَ الحاكمينَ ، وأسرعَ الحاسبينَ .

وكان على عَهْدِ بَيْعَتِهِ ، وعقدِ صَفَّتِيهِ ، أعلامٌ مشاهيرٌ ، فَخَرُ القضاةُ ، كقاضي الجماعة أبي بكر بن مَسْعُودِ المَحَارِبِيِّ الدِّينِ بَشَّالَةَ ؛ وابْنُ قاضي الجماعة بَعْدَهُ أبي يحيى ؛ والقاضي المُسَنِّ أبي جعفر الشاطِئِي ؛ والقاضي الأصيل أبي عثمان بن مَسْعُودَةَ ؛ والقاضي البقيَّة أبي الفرج الوادِئِي ؛ والقاضي الحاجُّ أبي جعفر بن قَعْنَب ؛ والقاضي أبي عبد الله بن العَرِيف ؛ والقاضي أبي بكر بن الزُّبَيْرِ ؛ والقاضي أبي محمد بن زكرياء ؛ والقاضي الوزير أبي عامر بن ربيع ؛ والقاضي أبي الحسن بن الزُّبَيْرِ ؛ والقاضي أبي الحجاج بن أبي الأخوص ؛ والقاضي أبي الحسن بن أبي العيش ؛ والقاضي أبي عمر بن مَنظُور ؛ والقاضي الشَّهيد أبي عبد الله بن بكر ؛ والقاضي الحبيب أبي عبد الله بن عيَّاش ؛ والقاضي الفقيه أبي بكر بن مَنظُور ؛ والقاضي المؤرِّخ أبي بكر بن عُبَيْدَةَ ؛ والقاضي الحاجُّ أبي محمد النَّفْزِي ؛ والقاضي المُرابِط أبي عبد الله بن عبد الوَهَّاب ؛ وقاضي الجماعة أبي جعفر بن بَرَطَال ؛ وصَدْرُ القضاة أبي البركات بن الحاج ؛ والقاضي أبي إسحاق بن شُعَيْب ؛ والقاضي أبي عبد الله الرَّعْيَنِي ؛ والقاضي أبي عبد الله بن حَدَّالْم ؛ والقاضي أبي عبد الله بن جَابِر .

ومن الخُطباءِ والصُّلَحاءِ والصُّوفِيَّةِ والفُقَرَاءِ والمُنْقَرِبِينَ والعُلَمَاءِ ، مِثْلَ الشَّيخِ الإمامِ القَيْجَاطِي ؛ والولي أبي إسحاق بن أبي العاصي ؛ والشَّيخِ العائِدِ أبي عبد الله السَّاحِلِي ، والخطيبِ الصالح أبي جعفر بن الزِّيَّاتِ

البَلَنْسِي* ؛ والخطيب أبي بكر الطنجلاني* ؛ وأبي محمد بن أبي المجد
الأرجوني* ؛ والخطيب أبي عبد الله بن العربي* ؛ والخطيب أبي علي القرشي* ؛
والخطيب ابن سُعَيْب المَرِّي* ؛ والفَرِثِي* الرُّنْدِي* ؛ وأبي الأصْبَغ
البَسْطِي* ؛ وأبي عبد الله البَيَّاتِي* المَفْتِي* ؛ والفقهاء البَارُونِي* العَزَمِي* ، وأبي
عبد الله الطَّرْسُونِي* ، وشيخ البَيَّازِين ابن غالب حَفِيد أبي أحمد الولي* ؛
وإمام الشاذليَّة أبي عبد الله العنَّجسي* ، وعيسى بن عذرة الأندلسي* ؛
وأبي علي بن المحرِّوق الصُّوفي* ؛ وأبي الحسن بن المؤدِّن المُرادي* ؛ وأبي
عبد الله بن الفقيه القرناطي* ؛ وأبي عبد الله بن الفَخَّار النُّحوي* ؛ والمحدث
أبي الحجَّاج الساحلي* ، وأبي محمد بن سَلْمُون سَنِيح الصُّوف الحَلَقِي* ،
وأبي عبد الله بن الصَّبَّاح متبوع بوادي القطر الأندلسي ، ومثني من العُدُول
المشاهير ، وأعلام الجماهير ، تضيقُ عن إعدادهم السطورُ المكتوبة ،
والأوراقُ المجلوبة .

ومن شيوخ الكُتَّاب المُبَرِّزين في علوم الآداب ، المخصوصين بالحِكْمَة
وفصل الخطاب ، مثل شيخنا أبي الحسن بن الجَيَّاب ؛ وشيخنا الشريف
القاضي أبي القاسم الحَسَنِي* ؛ وشيخنا أبي بكر بن شِيرِين ؛ والشيخ أبي بكر
ابن المُرَاطِيط ؛ والوزير أبي بكر بن ذي الوزارَتَيْن ابن الحَكِيم ؛ والقاضي
الحَضِر ابن أبي العافِيَّة ؛ وأبي إِسْحَاق بن جَابِر ؛ والشيخ أبي جعفر بن
صَفْوَان ؛ والوزير أبي عبد الله بن عاصِم ؛ والمُفَلِّق أبي عبد الله اللُّؤثِي* ؛
وكتّاب الجيش المحدث أبي الحسن التَّلِمْسَانِي* ؛ وصاحب الأشغال المحدث
أبي القاسم بن الهَمَّام المَالَقِي* ؛ والوزير أبي عبد الله بن المحرِّوق الأَشْعَرِي* ؛
ما منهم مقهورٌ على البيعة بغلبة قَبِيل ، ولا مُجْبَرٌ على اقتحام سَبِيل ،
ولا مدَّعي ضرورة ، ولا مستحفظ تقيَّة مشهورة ، ولا مُهاجِرٌ بدينه عن
بقعة مهجورة . وعمُّ الولد المُبَايَع حاضِر ، وإلى سخنة عينه ناظِر ؛
والقرابة صامِتون ، وفي قسمة الله باهِتون ؛ وكافِلُ الولد جريحٌ مخبول ،

وعِلْجٌ مجهول ، ومُؤَثَّقٌ مجهول* ؛ والرَّبيعُ مأهول ، والقولُ مقبول ، -
وسنُّ الولدِ غَيْرُ مجهول . وما ثَمَّ إِلَّا تراحمٌ على الشهادة ، وتهاكُّمٌ
في ابتغاء الحِسْبَة أو في الهوادة ، وتسلُّكٌ بالعادة ، وتسليمٌ فيما ظهر لولي*
الأمر من الإرادة . فمَسَى نَبَسَ أَهْلُ الأندلس بإنكار بيعة صبيٍّ صغير ،
أو نيابة حاجِبٍ أو وزير ؛ فقد عَمُوا وصَمُوا ، وحسروا يربع الإنصاف
فأعرضوا وما أَلَمُوا ، وبما سنَّوه لغيرهم ذمُّوا ؛ ولم يكفِ مبيعة الصبي*
غير البالغ ولا القرشي* المرفوع في الذراع ، المستعدُّ به للنزال في سبيل
الله والقراع ؛ وتقديمه لم يستوفِ للحلم زماناً ، ولم يعرف بعدُ خُتَاناً ، حتى
قُتِلَ ظُلماً وعدواناً ، وأشهدَ فيه بالكُفر زوراً وبُهْتَاناً ، وجلا العوارُ
على الأقطار ، وخلد العار في الأسطار ، ولم يستر القبيح بعد الفصل ، وتحكيم
النصل ، واقتدى بالصَّمِّ البُكْم ، وأخَّر ثبوت الموجب إلى أن فرغ من
الحُكْم . اللهم لا تفضحنا بالألسنة الشاردة ، والألسنة المنكِّرة
للحق الجاحدة ، واجعلنا ممن استعان بك على هَوَاه ، واشتغل بشأنه عن
شأن سِوَاه ! والله دَرُّ القائل :

إِرْجِعْ لِنَفْسِكَ فأنهها عن غِيَّهَا فإذا انتهت عنه فأنت حكيمٌ
لا تَنَّهُ عن خُلُقٍ وثاقِي مِثْلُهُ عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
ومن قَوْل سَيِّخُنَا أَبِي بَكْر ، في رثاء السلطان الشهيد* :

استقلَّ ودعاني طائفاً بين المغاني
وانعما بالصبر إنسي لا أرى ما ترويان
قضى الأمر الذي في شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إله ما له في الحكم ثان
مات يوم السلم فعضاً مِدْرَةُ الحرب العوان

١ . أورد ابن الخطيب هذا الشعر أيضاً في اللمعة البدرية (ص ٨٥ - ٨٨) .

خديجي أعين
 واذكرا سبعة النع
 وادا صتيه بو
 ما علمه غير خير
 لا ببلي ما سبعة
 غير ما قلوا اعتقد
 وغداً يجمعنا المبر
 ورضى الله هو المط
 وأخو الصدق لعري
 وهوى النفس غناء
 وعنى البغضاء يطوى
 بيبي والله أشلا
 لفتى ما كان بالو
 يمزج الماء نجيعاً
 ليس بالهيابة الـ
 أبيض الوجه تراه
 أي سيف لضراب
 ذو نجار خزرجي الـ
 ذكره قدشاع في الار
 لا تراه الدهر الأ
 عن سهل الخيل لا يد
 إن ألت هبة طا

يصدع الليل بقلب
 لها من نصة لو
 وشباب عاجلوه
 لم يجاوز من سنه الـ
 دوح الاقطار غزوا
 حكموا فيه الطهي الـ
 ان يكونوا غادروه
 تشرب الأرض دماً
 وتحييه بتسله
 فالمعالي اودعته
 وغواذي المزن يرضع
 ضاع سرح الثغر لما
 وأعير الأسد الور
 عاطياني أكؤس الحز
 حمله دون صلاة
 أو ما كانوا له يد
 لا تهينوه فما كا
 عجباً والله من اب
 بت أهدىها إليه
 ذاك جهدي ان احسا
 ويقال الرشع موجو
 وعهود الناس شتى

وهي النعمة حقاً شكرها في كل آن
اتخذ يا فارس الحية ن فغير الله فان
والمعالي تطلب الثا ر وتأقي بالأماني
وهي الأرحام لا تذ سى ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفماً ر الخطايا في ضمان
وهو مو في الخصم ان شا ء وزاناً بوزان
والذي أفشى قبيحاً حفظه عض البنان
سلم الله على من فيه ذو جهل لحاني
وجزاه بجهاد جاء منه ببيان
ربنا أنت خير بخصيات الجنان
ويذاك الدهر فينا بالندى مبسوطان
وبجال العفو رحب والرضى غض المجاني
فتعمدنا برحمى وقبول وأمان
واجمع الشمل على أف ظل حال في الجنان

دولة يوسف بن اسماعيل

ابن فرج بن إسماعيل بن تضر

رني ساعة قتل أخوه بوندي نسفانين من ظاهر الجزيرة الخضراء ،
عقب إقلاع ملك قشتالة عن الجبل ، بجاولة أخيه . واتفق الناس على
بيئته . وكانت سيته يومئذ قد توسطت من المراهقة ، إلا أنه لم يظهر ذلك
بعد عليه حياته وسكنه ببيت الحرّة الصالحة أمه ؛ وغلبت النعمة

والترف على بدنه . فلما تصير له الملك ، تبين فيه ظهور ذلك المعنى
باتخاذ أم الولد .

وكان لأوّل أمره كثير الصمت والسكون ، لا يتناول شيئاً من
ملكه ، ولا يفيض في غير أمور قصره ، ولا يُمضي اختياره إلا في
مائدة طعامه داخل باب قصره ، وبين من يلازمه من حبيته ، إلى أن
استقل ، ونهض بالكل منته ، وعظمت حنكته ، وتوفرت تجربته
ثم اشتل علي ، وسني يومئذ قريبة من سته . فأسند إلي جميع أمره ،
وفرغ لي من تدييره ، واستراح إلي بسيره وجهره ، وسفرني إلى ملك
المغرب في مهم أمره . وبلغ من لطف منزلي لديه ما يبلغ مثلي من
مثله . وبهذا الباب الكريم المريني اليوم من الأعلام الذين باثروا تلك
الحال من يقرروها ، متعجباً بما ينهيا بباب ملك يخدم ، أو يسوغه
سلطان لذي مقام معلوم .

حدثني صدر الشرفاء وعلم الجلساء أبو القاسم بن قاضي الجماعة أبي
علي الحسن بن يوسف الحسني ، قال : سأل مني الحاجب أبو عبد الله بن
أبي عمر ، وهو من يخدم السلطان المرحوم أبي عنان ، جلدة بين العين
والأنف ، أن نجري بين يدي سلطانه حديثاً غريباً باثراً من غرائب
حظوتك عند سلطانك بما شاهدته عند السفارة إليكم ؛ فاستطردت الكلام
إلى أن أتممت بكم . قال : فظن السلطان أبو عنان لغرضاً ؛ فأخذ ينحني
على الجميع من خديم ومخدم ، ويُنكر الإخلال بالرُتب وإهمال الأدب ،
جاريّاً من عكس الغرض بما اختاره من المذهب .

وكان السلطان أبو الججاج - رحمة الله عليه - من جدّة الملوك فضلاً
وعظماً واعتدالاً ؛ وباشر بنفسه الوقعة العظمى بطريف ، مؤاسياً لأمر
المسلمين ملاقي التمحيص في سبيل الله ؛ وقصد نصره ؛ فحسن القول عنه لذلك ،
ولقيت أيامه شدة لملك العدو قلعة يحصب الجزيرة الخضراء . ثم

توافده الله على يدي تمرور هجم عليه بالمسجد الأعظم من حميراني . وقد خفي مكانه ، يوم عيد الفطر من عام ٧٥٥ ، في الركعة الأخيرة من الصلاة ؛ فطعنه بسكين كان قد أغري بشحنها وعلاجها . وقبض عليه ؛ فاستنهم ؛ فتكلم بكلام مختلط ، وقبيل . ثم أحرق بالنار . واحتل السلطان إلى منزله ؛ فلم يستقر إلا وقد قضى . رحمة الله عليه . ووي بعده ولده محمد .

دولة محمد بن يوسف

ابن إسماعيل بن قروج بن نصر

بويح صبيّاً لا أنثر فيه لإنبات ، ولا حرّكة تدلّ على بلوغ ، إلا أن سته سارعة في زمن المراهقة على المعتاد لبعض الأربة ، وقاصرة عنها في بعض . وتمت له البيعة في حفل مشهود ، وجمع لغيره غير معهود ؛ فلم يختلف عليه إثنان . وبيعته مشهورة ، من إملائي ؛ اتصل خبرها بالسلطان أمير المسلمين أبي عنان ؛ فاجبها وغبط فيها ، حسبما تثبتت به في كتاب « ربحانة الكتاب » وغيره . وتمت أيامه على أتمّ ما يكون من الأمان ، وخصب الزمان ، إلى الثامن والعشرين من شهر الصوم سنة ٧٦٠ . وكان التغلب على دولته الأولى ، واستولى على الأمر أخوه إسماعيل ، حسبما تثبتت من كتبنا : في كتاب « الإحاطة » و « اللبحة البدريّة » فلم ينظره هناك من أراد .

دولة إسماعيل بن يوسف

ابن إسماعيل بن قروج بن نصر

وكان فتي وسيماً ، حسن الخلق ، منحطاً في لذاته ، لاستثارة غير النجباء بصحبته . استجلب له الحظّ قريبه ، وحفيد عم أبيه ، وزوج أخته ، ليجعله سبباً لحظه ؛ فنشئت الأمور باحتذاء السيرة المتقدمة ؛ إلا أن هيئة الأمر السلطاني ارتفع حجابها ؛ ووقع التعاسد والشنآن بين السباع القائمين بالدولة . وأحكم صهره المتوثّب باسمه التدبير عليه ، ونذره ؛ فأكذب الخبر شأن أولي الغدر الذين بلغ للإدالة منهم الكتاب ، وصت آذانهم أن يدخلها العتاب ؛ وشدت الأم يدها من زوج ابنتها على السراب الفرار ، والزئبق الفرار ، مقدار الناقة ، ومعدن الجنون والحقاقة . فهجم عليه بجلّ سكناه ، وأحاط به ، وقد اهتبل غرته ، وهو متبدّل في بعض قصوره مع شردمة لا تدافع عنه ؛ واعتصم ببرج في القصر . ثم ألقى بيده طامعاً في العود إلى الثفاف الذي ألفه . فلما ذهب به إليه ، أشار الدائر بقتله ؛ فقتل ، وقتل معه أخ له صغير اسمه قبلي ؛ وذلك في عشي ليلة السابع والعشرين من شعبان عام ٧٦١ . وولي بعده المتوثّب على ملكهم .

دولة محمد بن اسماعيل

ابن محمد بن فرَج بن إسماعيل بن نصر

واستقرَّ الملكُ بيد ابن عمِّهم هذا ، مُعِيلَ التوثبِ والمنقِديمِ على العظيمة ، أشبَّهَ الناسَ في خُلُقِهِ وسيرتِهِ بِمُحمَّد بن عبد الجبارِ الموثَّبِ على دولة هِشام بن الحَكَم وهادِمِ الدولةِ العامِريَّة ، حسباً شَهِيدَ به التاريخ . وكان هذا الفَتَى مِقْدَاماً ، شاطِراً ، بريئاً من التَزَمُّتِ ، خالطاً نفسه المَعَايِر ، آخِذاً بِإِيَّاهَا بِطَرِيقَةِ الفِتْيَانِ والحِرَافِيسَةِ ، سخيَّ اليد ، مُهَذَّبَ الخلق ؛ أَنكَحَهُ السُلْطَانُ أَبُو الحَجَّاجِ بِنْتَهُ لِمُرْغَبِ المَحَلِّ من القِراةِ خاصَّةً ، مع الغُضِّ عن العيوب . وهلك السُلْطَانُ ؛ فَنَالَهُ خُمُولٌ وإِقْصَاءُ جُمْلَةٍ عن التدبيرِ على وَلَدِهِ ؛ فَأَعَانَتْهُ حَظِيَّةُ السُلْطَانِ أُمُّ وَلَدِهِ المَعْدُولِ عنه يومِ الولاية ، المِسْمَاةُ بِرَبِّمِهِ . وكُنَّا قد غفلنا عن الاحتياطِ على المالِ ؛ وَخِزَانَتُهُ بِوَمَثَدٍ بِمَحَلٍّ سَكَنَى السُلْطَانُ لِنَظَرِ هذه المرأة ؛ فَرَزَّاتُ مِنْهُ مَا صِيرَتْهُ فِي سَبِيلِ التدبيرِ ؛ وَأَحْكَمَ هذا الصَّبِيُّ الصَّهْرُ أَمْرَهُ بِمُدَاخَلَةِ كُلِّ مُنْحَرَفٍ عَنِ الدَّوْلَةِ ، أَوْ حَسُودٍ مِنْ حُسَادِ اللَّهِ بِالنِّعْمَةِ ، أَوْ مُسْتَطِيلٍ لِلْمُدَّةِ أَوْ بِمَطُولٍ بِالْوِلَايَةِ ، أَوْ مُتَرَجِّعٍ مِنَ الْعَزْلَةِ ؛ وَدَاخَلَ مَشَايِخَ الْمَدِينَةِ وَأَعْيَانَ الْحَضَرَةِ ؛ فَلَمْ يُبْقِ إِلَّا حَاطِباً فِي حَبْلِهِ ، وَحَرَضاً لَهُ عَلَى فَعْنِهِ ، مَلَكاً لِلْعَافِيَةِ وَجَهلاً بِغَفِيَّاتِ الْفِتْنَةِ ، كَأَنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمْ تَصْيِيرَ الْأَمْرِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، أَوْ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، أَوْ هِشَامِ الرُّضِيِّ .

أما سائرُهم ، بَنُو دُرَيْدٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ مَلَكَ عَقْلَهُ ، مُعَلِّقاً عَمَّا أُمُورَ قَسْطَاسَ دِينِهِ ، يَقُولُ لَهُ بِلْسَانِ حَالِهِ أَوْ مَقَالِهِ : مَا أَشَبَّهَ الْبَيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ وَالْعَادِيَةِ بِالرَّائِحَةِ لِأَهْلِهَا ! بَلْ بَيْنَهُمَا مَا بَيْنَ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ ، وَالرُّشْدِ وَالضَّلَالِ ! فَتَسَوَّرَ

الْقَلْعَةُ بِالرِّجَالِ ، مُحْكِمًا لَذَلِكَ ، لَيْلَةَ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ٧٦٠ . وَفَرَّ الْمُوْتَوَّبُ بِهِ مُحَمَّدٌ ، إِذْ كَانَ خَارِجَ الْقَلْعَةِ ؛ فَلَحِقَ بِوَادِي آشٍ ؛ ثُمَّ اتَّصَلَ بِالْمَغْرِبِ . وَتَمَّ لَهُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ فِيهِ فِي اجْتِهَادِهِ .

وَأَلَحَّ اللَّهُ لَهُ وَقِيعَةً عَلَى النَّصَارَى بِظَاهِرِ وَادِي آشِ يَوْمَ السَّبْتِ التَّاسِعِ عَشَرَ لَشَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٧٦٣ ، لَمْ يَتَقَدَّمِ الْعَهْدُ بِمِثْلِهَا لِمِثْلِهِ ، نَيْفَ الْأَمْرِ فِيهَا عَلَى أَلْفٍ وَمِئَةٍ ، فِيهِمُ الْكِبَارُ وَالْفُرْسَانُ الدَّارِعَةُ ، أُدْخِلُوا الْحَضْرَةَ فِي الْحَبَالِ ، تَضَيَّقَ عَنْهُمْ الطَّرِيقُ وَالْفَضَاءُ الْعَرِيزُ ؛ فَاسْتَوَلَتِ الْأَيْدِي عَلَى أَسْلَاحِهِمْ ؛ وَكَانَ صَنْعاً لَا كِفَاءَ لَهُ ، تَسَبَّتْ عَنْهُ مَوْجِدَةٌ صَاحِبِ قَسْتَالَةٍ ؛ وَحَرَّضَهُ عَلَى اسْتِدْعَاءِ عَدُوِّهِ مِنَ الْمَغْرِبِ لِمَا فَرَّغَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِهِ . وَلَمَّا أَجَازَ إِلَيْهِ الْبَحْرُ ، وَاسْتَقَلَّ عَدُوُّهُ بِرُنْدَةِ ، اضْطَرَبَ أَمْرُهُ ، وَاقْتَضَى وَأَيْسَهُ الْفَائِلُ اللَّحَاقُ بِصَاحِبِ قَسْتَالَةٍ فِي طَائِفَةٍ عَدِيدَةٍ يَمُنُّ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَوَقَّعَ مِنْ طَالِبِ الْأَمْرِ الْمُطَالِبَةَ بِذَنْبِهِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ اتَّخَذَهُ لِنَفْسِهِ وَلَا ذِمَامٍ أَسْلَفَهُ لِيَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِ قَضَاءَهُ ؛ فَلَمْ يُرَعْ قَصْدُهُ ؛ وَتَقَبَّضَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ ، مُخَالَفاً فِي ذَلِكَ لِرَأْيِ قَوْمِهِ ، وَقَتْلَهُ بِيَدِهِ ، بَعْدَ أَنْ مِثْلَ بِهِ بِطَلِّيَاظَةٍ مِنْ ظَاهِرِ إِسْبِيلِيَّةِ ، ثَانِي رَجَبٍ مِنْ السَّنَةِ . وَأَلْحَقَ بِهِ طَائِفَةٌ تَنَحَّلَهَا مِنْ صَحَابَتِهِ ، وَأَسْرَ سَائِرَهُمْ ، وَاسْتَخْصَصَ مَا كَانَ عِنْدَ الْجَمِيعِ مِنْ ذَخِيرَةٍ . وَانْتَهَى أَمْرُهُ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ . وَعَادَ بَعْدَهُ الْأَمِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُخْلَوْعُهُ إِلَى دَارِ مُلْكِهِ .

دولة محمد بن يوسف

ابن إسماعيل بن فرَج بن نصر

وكان قد أعمل الحركة من مدينة رُنْدَةِ إِلَى أَحْوَازِ مَالَقَةِ ؛ فَبَسَّرَ اللَّهُ لَهُ

مُزْمَرُهُ ، إِذْ كَانَ قَدْ اسْتَظْهَرَ الطَّاعِيَةَ ، وَحَصَّلَ بِسَبَبِهِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ حَصُونِ الْمُسْلِمِينَ ، خَاسَ الطَّاعِيَةَ فِيهَا بَعْدَهُ ، وَأَمْسَكَهَا لِنَفْسِهِ . فَهَيَّئَ ذَلِكَ مَعَ قَضَاءِ اللَّهِ دُخُولَ مَالِقَةَ . وَعِنْدَ ذَلِكَ ، أَزْمَعَ عَدُوَّهُ الْفَرَارَ مِنْ دَارِ مُلْكِهِ ؛ وَاتَّصَلَ بِهِ الْخَبَرُ . فَأَعْمَلَ السَّيْرَ إِلَى الْحَضْرَةِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا زَوَالَ يَوْمِ السَّبْتِ لِمَوْفِي عَشْرِينَ لِحُمَادَى الثَّانِيَةِ مِنْ سَنَةِ ٧٦٣ . فَاسْتَقَرَّتْ بِهَا قَدَمُهُ إِلَى الْآنِ . وَاشْتَعَلَتِ الْفِتْنُ بَيْنَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، بِمَا أَوْجَبَ الْمُدْنَةَ وَأَنَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بِلَادِ الْعُدُوِّ فِي سَبِيلِ إِعَانَةِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ ، بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَاخْتَصَصَتْ بِمَوَازِرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ ، وَبَذَلَ الْجُهْدَ فِي نَصَحِهِ ، وَالْعِزَّةَ عَلَى دِينِهِ ، وَجَمِيلَ ذِكْرِهِ ، تَارَةً بِالْعَتَابِ ، وَأُخْرَى بِالْكِتَابِ ، إِلَى أَنْ تَرْجِعَ عَزْمِي عَلَى الْمَجْرَةِ ، وَإِعْمَالَ الرَّحْلَةِ ؛ وَأَنَا أُجَرِّدُ فَصْلًا أَقَرَّرُ فِيهِ حَالِي ، لِيَكُونَ مِنْ اتِّصَالِ بِهِ الْخَبَرُ بَعْدِي ، أَوْ سُكُّ فِي قَصْدِي عَلَى عَهْدِي ، حَاصِلًا عَلَى الْيَقِينِ مِنْ أَمْرِي ، وَالْيَقِينَةِ مِنْ عُدْرِي ، حَتَّى لَا يَبْوَءَ بِإِثْمِي ، وَلَا يَغْمَسَ الْيَدَ فِي ظُلْمِي ؛ وَإِنْ فَعَلَ كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ عَنْ الْعَهْدَةِ بِالْبَيَانِ ، وَعَوَّلْتُ فِي الْمُتَوْبَةِ عَلَى الرَّحْمَانِ ؛ وَأَنَا أَقْسَمُ بِاللَّهِ أَنِّي لَا أَتَعَمَّدُ فِي الْخُبْرِ طَرِيقَ الْبُهْتَانِ ، عَلَى أَنَّ الْمُنْجَاوِزَ فِي مِثْلِهَا يَفْضَحُهُ قَرَبُ الزَّمَانِ ، وَمُبَاشَرَةُ الْمُعَاصِرِ لِهَذَا الشَّانِ ؛ فَتَقُولُ :

أَمَّا حَدِيثُ مَا لِي بِبَابِ هُؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ مِنْ سَلَفٍ ، وَفِي دَوْلَتِهِمْ مِنْ حَظٍّ ، وَإِلَى مُلْكِهِمْ مِنْ وَسِيلَةٍ ، وَفِي أَبْوَابِهِمْ مِنْ تَجَلُّةٍ ، فَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ مَعَ شُهْرَتِهِ كِتَابُ « الْإِحَاطَةِ » وَكِتَابُ « الْمُبَاخِرِ الطَّبِيبَةِ » فِي الْمَفَاخِيرِ لِحَطِيبِيَّةٍ . وَلَمَّا صَارَ الْأَمْرُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِاسْتِدْعَاءِ إِسَارَتِي ، وَأَمْسَكَتُ يَدَهُ لِلنَّاسِ يَوْمئِذٍ بِإِذْنٍ لَا فِي تَهْنِئَةٍ لِزَوَالِ جَهْدِي ، بَلْ كَفْتُ الْحِظْوَةَ مُنْتَهَاهَا ، وَالدرَجَةَ الَّتِي تُؤَمِّلُ بِأَبْوَابِ الْمُلُوكِ إِلَى الْإِمَادِ وَأَقْصَاهَا ، إِلَى أَنْ وَقَعَ الْكِيَادُ عَلَى الدَّوْلَةِ . وَكَانَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ تَسَوُّرِ الْقَلْعَةِ وَتَحْوِيلِ الْحَالَةِ ؛ وَكُنْتُ

لَيْسَلْتَنِي سَاكِنًا بِقَضَرِ ابْتِنَانِيهِ بِالشَّرِيعَةِ الْقَدِيمَةِ مِنْ شَرْقِي الْمَدِينَةِ ، كُنْتُ أَسْكُنُهُ أَكْثَرَ فُصُولِ السَّنَةِ ؛ وَكَانَ الشَّيْخُ مَوْلَاهُمْ رِضْوَانُ الْعَبْدِ الصَّالِحِ بِالْقَلْعَةِ مُقِيمًا لِرُسْمِ حِفْظِ الْأَمَانَةِ ، وَالسُّلْطَانُ مُنْتَقِلٌ إِلَى جَنْتِهِ خَارِجَ الْبَلَدِ فِي سَبِيلِ الرَّاحَةِ . فَلَمَّا اسْتَوْلَى الْمُتَوَتَّبُ عَلَى دَارِ الْمُلْكِ بِنِ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ الْكَرْيَةِ ، قَصَدَ دَارَ الشَّيْخِ ؛ فَقَتَلَهُ . وَأَخْرَجَ الْأَمِيرُ ؛ فَأَجْلَسَهُ . وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِأَخِيهِ السُّلْطَانِ ؛ فَلَحَقَ بِوَادِي آشٍ . وَتَعَجَّلَ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي بَيْتُهُ فِيهِ ثِقَاتُ الْوَلَدِ الْقَائِمِ بِدَارِ الْمُلْكِ ؛ فَاسْتَضَحَبَتْنِي إِلَيْهِ بِأَمَانَةٍ . فَابْتَدَأَ الْأَمْرَ فِيَّ مِنْ حَيْثُ وَقَفَ أَبُوهُ ، إِذْ كَانَ يُشَاهِدُ لُطْفَ تَحَلِّيِّ مِنْهُ وَتَرْفَعِي عَنْ حَظِّ الْحِدْمَةِ فِي مُدَّةِ أَخِيهِ بَعْدَهُ ؛ وَالصَّبِيَّ مَغْلُوبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلِلْعَصَابَةِ الذَّلِيلَةِ التَّصَرُّفُ فِي مُلْكِهِ ؛ فَرَابَهُمْ تَحَلِّيٌّ مِنْهُ ، وَقَالُوا : « إِنَّمَا كَانَ هَذَا الْكَدْحُ الْمُعْتَمَدُ وَالْخَطَرُ الْمُرْتَكَبُ » لِأَنَّ الْجَعْلَ الْمُلْكَ ثَانِيَةً فِي يَدِ هَذَا الرَّجُلِ ، يَأْخُذُ مَنَّا ثَارَ دَوْلَتِهِ ، وَيَقْضِي حَسِيفَةَ سُلْطَانِهِ . « فَقَرَّرُوا لَهُ . وَقَدْ امْتَنَعَ أَخُوهُ بِوَادِي آشٍ ، وَأَجَارَهُ أَهْلُهَا أَتْنِي أَحْطَبُ فِي حَبْلِهِ ، وَأَعْمَلُ الْحِيلَةَ فِي جَبْرِهِ . وَتَقَبَّضَ عَلَيَّ ، وَانْتَهَبَ قَلِيلَ مَا يَعْلَمُ لِي وَكَثِيرَهُ ، وَتَأَوَّهَ وَخَطِيرَهُ ، وَأَعْمَلَ التَّدْبِيرَ فِي الْإِرَاحَةِ مِنِّي ، وَالْإِحْتِيَالَ فِي تَسْيِيبِ هَلَاقِي ، مَعَ أَنَّ الْلُطَافَ لِلَّهِ لَمْ تَخْلَنِي حَالُ الشَّدَّةِ مِنْ تَرْفِيلِ اعْتِقَالِ ، وَتَخْلُصَ جَفْوَةَ مَقَالِ .

وَجَرَّتْ بَيْنَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَبَيْنَ الْمُتَصَيِّرِ إِلَيْهِ مُلْكُ الْمَغْرِبِ يَوْمئِذٍ السُّلْطَانُ الْمُؤَلَّى الْمُقَدَّسُ أَبِي سَالِمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ - الْمُنَافَؤَةَ فِي اسْتِجْلَابِ الْمُسْتَقَرِّ بِوَادِي آشٍ إِلَى الْمَغْرِبِ بِقَصْدِ ابْتِغَاءِ الْمُدْنَةِ ، وَرَفَعَ الْفِتْنَةَ . فَلَمَّا تَمَّ ذَلِكَ ، جَعَلَ الْحَدِيثَ فِي أَمْرِي عَمْدَةً ، وَالْإِشَارَةَ بِخِلَافِي ؛ وَبَعَثَ اللَّهُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُهُ فِي الْكُونِ حِدًّا وَحَيَّةً ؛ فَمَّ بَعْدَ الْجَاحِ ، وَإِثَارَةَ عَجَاجٍ ؛ وَاسْتَخْلَصَنِي اللَّهُ . فَفُكِّتْ عَنِّي بَنَانُ النُّكْبَةِ ، وَفُتِّحَتْ بِالْفَرْجِ أَقْفَالُ الشَّدَّةِ . وَكَانَ قُدُومِي عَلَى السُّلْطَانِ أَوَّلَى النَّاسِ

بزفتي ، وصحبة رسوليه الخليق باعترافي وشكري ، وخَرَجتُ لا أملكُ
إلا نفسي ، وفضلَ ربي ملنطوفاً بي ، باستصحاب أهلي وولدي ؛
وقدِمتُ عليه تِلْوُ المخلوع وكلانا مطوق المن . وانشدته يومئذ القصيدة
المشهوره ، محرّضاً له على نصر من قصد بابّه ، واعتد جنابه ، والمَشُورُ
يومئذ قد جَمَعَ الدنيا بما حَمَلَتْ ، وأَشْيَاخُ المَغْرِبِ وأعلامه قد
اجتمعتْ واحتفلتْ ؛ وهي :

سلا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبَرَةٍ ذَكَرَ وهلْ أعشَب الوادي ونمَّ به الزُّهْرُ
وهل باكرَ الوسى داراً على اللوى عفت آيها إلا التوهّمُ والذكرُ
أقول فيها :

أقول لأطعاني وقد غالها الشرى وآنسها الحادي وأوحشها الزجرُ
رويدك بعد العسر يُسران أبشيري بإنجاز وعد الله قد ذهب العسرُ
ولله فينا سرٌّ غيبٍ وربما أتى النفعُ من حال أريدَ بها الضرُّ
وإن نخن الأيَّام لم نخن النهى وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبرُ
فقد عجمتُ عوداً صلياً على الردى وعزماً كما تضي المهتدة البترُ
وإن عركت مني الخطوبُ مجرباً نقاباً تساوى عنده الحلوى والمرُّ
إذا أنتَ بالبيضاء قررتَ منزلي فلا اللحمُ حلٌّ ما حيت ولا الظهرُ
زجرنا إبراهيمُ برّة هومينا فلما رأينا وجهه صدق الزجرُ
بمنتخبٍ من آل يعقوب كلّما دجا الخطبُ لم يكذب لعزمته فجرُ
تناقلت الركبان طيبَ حديثه فلما رأته صدق الخبرُ الخبرُ
ندى لَوْ حواها البحر لذّ مذاقه ولم يتعقب مدّه أبداً جزرُ
وبأس غداً يرتاع من خوفه الردى وترفع في أثابه الفتكة البكرُ

١ راجع القصيدة بنماها في « اللعة البدرية » (ص ١١٠ - ١١٣) .

أطاعته حتى العُصمُ في قنن الربا وهشت إلى تأميلة الأنجم الزهرُ
ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا ممّا جنى عبدك الدهرُ
كففتنا بك الأيَّام عن غلوائها وقد رابنا منها التعسف والكبرُ
وعذتنا بذاك المجد فانصرم الردى ولذنا بذاك العزم فانهمز الذعرُ
ولما أتينا البحر يرهب موجه ذكرنا نذاك الغمر فاحتقير البحرُ
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها فلإيمانه لغمر وعرفانه نُكْرُ
ووصفك يهدي المدح قصداً ثوابه إذا ضلّ في أوصاف من دونك الشعرُ
ومنها :

وهذا ابنُ نصرٍ قد أتى وجناحه مهيبٌ ومن عليك يتبس الجبرُ
غريبٌ يرجى منك ما أنت أهله فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخرُ
ففرز يا أمير المسلمين ببيعة موثقة قد حلّ عقدتها الغدرُ
ومثلك من يرى الدخيلَ ومن دعا بيا لمرين جاءه العزُّ والنصرُ
مراكم سهلٌ لا تؤودك كلفة سوى عَرْضٍ ما أن له في العلى خطرُ
وما العمر الا زينة مستعارة تُردُّ ولكنّ الثناء هو العمرُ
ومن باع ما يفنى بياقٍ مخلدٍ فقد أنجح المسعى وقد ربح التجرُ
وهي طويلة ؛ اختصرتها لطولها وشهرتها .

ثمّ ترجّح لَدَيَّ السكونُ إلى العافية ، والتمتعُ بالبقية ؛ فجنحتُ إلى
السكنى بمدينة سلا ، حيث طنبت الحرمة رواقها ، وأقامت الحسنة بسبب
الضريح المقدّس . أسواقها تُقبرى عني بها التعمُّ . وينصني المجد والكرام ؛
فلا أعدُّ من عمري إلا أياماً مقامي بها ، وسكنائي فيها ، تفرغاً إلى ما
أريده من دُنيا وآخرية . وعافية شاملة ، وجنّة عاجلة ؛ وصاحبي يقوم

العزم في شأني ويقعد ، ويقرب ثم يبعد ، ويستحشي إلى صحبتته ، ويجعني عمدة في وجهته ؛ فلا يجد في بقيته ، ولا مطردة الأمل قبله مسكة ، إلا ما كان من رأي وإشارة ، وإهداء نصيحة .

وراضني أخيراً على التماس عهدي ، واقتضاء حظي بالقدوم عليه ، أن جبر الله كسره ، ورد أمره مع ولده ، وانصرف إلى طبيته التي سمرت ليلة وحشته على صاحب المثلث الحفي ، بعد أهوال تشيب لها الذوائب ، وتذلّل لعدو الدين تهون عنده المصائب ، وقاني الله موافقها ، وكفاني محاربا . لم يزل يغبطني بها ، ويُقرّر غاية الله في الصون عنها .

وما راعني إلا كتاب المستولي على دولة المغرب عمر بن عبد الله بن علي رحمه الله ، وكانت تأكيدت بيني وبينه الصلبة ، وتوثقت من رعيه وبره العقدة بها ، يخبرني بما انتهى إليه أمره بغير ناطة ، ويرى ما عندي في زيارته والوصول إليه مع ولدي ؛ فعزمت على الوفاء بعهده ، وأسرعت إلى قصده ، بعد أن قررت عند المذكور وبين يدي سلطانه عزمي على تعجيل الأوبة ، وعملي على إسرار العودة ، وتركي الأهل والولد تحت جناح الحرمة ، والجوار المتريني الوافي بالذمة . وقدمت عليه بغير ناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت ، القاطع بالقوت ؛ وقد دالت الدولة في أمّة ليس فيها إلا مذنب بقول أو عمل ؛ والمال معدوم ، وبناء المثلث مهدوم ، والألقاب قد ذهبت رسومها ، والأحوال قد تغيرت صفاتها ، والدنيا قد اختلفت مألفاتها ، والخدام المتغلبون على الدولة قد سفكوا الدماء واتبعوا الحسائف وأطاعوا المطامع بحيث عادت الثورة ، فلولا دفاع الله كانت القضية . فشمرت لإصلاح القلوب وسد الحسائف ، وتأنيس الشارد وتأمين الخائف ، وإرضاء الجند وتوفير المال ، ومحاولة عدو الدين . وقد اقتضيت خطه بالسراح إلى أمد معلوم حل ؛ فنقلني إلى غيره ، واستدرجني بسواه ؛ وقد عادت مع

ذلك عود العافية ، وفُتِحَتْ على الأندلس أبواب الخير والخيرة ؛ فصورقت الموك ، واطشردت الفتوح ، ودرت المنوح ، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد ؛ فلا يسعه جحده ، ويعرفه من الكتب في الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته .

وفي كل آونة وساعة ، وأثناء كل تفرّد وخلوة ، بعد أن كبر الولد ، واستراح من هم الحرص الخلد ، أخطب نفسي ؛ فنقول لها : « يا مشؤومة ! أما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا الكل على ضعفك ، وأوسعت هذا الشغب في فكرك ، وعمرت هذه الخطوط حظ ربك ، وتعرضت لأن تسخطي الطالب المنوع بحبيته ؛ وتسخطي المعطي بما يري أنك قد منعت من الزيادة في عطية ؛ وتسخطي الأجنبي بالقبول على عدوه ، والميل إلى ضده ، وبالإعراض عن صديقه ؛ وتسخطي الجاني بإفناء العقوبة في جنائته ، والمجنسي عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه ؛ وتسخطي الجيش باختباره وعرضه ، ومنع المدفوع إليه في غير حقه ؛ وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية وأخذها بالإعداد لعدوها في الشدة ، من تحصين ثلثة ، وإعداد عدّة ، واختزان ماء أو قوت لشدة ؛ وتُعادين طلاب الولايات إذ محّا منها ربع عددهم ، وأنت مضطرة إلى مطل وعدّة ، وارتقاب مداولة ؛ وتُعادين الأهل والقرابة والولد بمنع الأيدي والعدل في الشهوات ، وسد أبواب الشفاعات ؛ وتُعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم ؛ وتُعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها ، ويضر بالدولة إمضاؤها ؛ وتُعادين ولد السلطان وحظيته ، فلكلّ منهم مطلب يختص به ، وطور ميثلك بعيد عن التهجّم فيه والافتيات على صاحب الدار ؛ وتُعادين السلطان بعدله في الشهوات ، والقيام دونه دون كثير من الأغراض ، ومخالفة أمره بحظيه بحسب الهوى من الخدام ، وتقريبه في باب إفساد الأموال ،

إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له والأمن من إرادته الحق الذي يجب له بعد أن علت السن وكبر الولد وتأثّل العزّ . »

وهذا كله بعض من كلّ ، وقليل من كثير ؛ فلا تجد عنه حجة ، ولا شيء عنه مَدْفَعَة . وصِرْتُ أَنْظُرُ إلى الوجوه ؛ فَأُلْحِ الشَّرَّ في نظرائها ، وأَعْتَبِرُ الكلمات ، فَأَتَبَيَّنُ الحسائف في لغاتها ؛ والصبغة في كلّ يوم تستحکم ، والشرُّ يتضاعف ، ونِعْمَةُ الْوَلَدِ تَطْلُقُ لسانَ الحسود ، وشيع الكلاب المُطِيفَة في تَهْيِجِ حسائف النمر الجائعة والأسود ؛ والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كلّ يومٍ ويلة يفتنون في الأطراء والمديح ، وتحسين القبيح ، والمحالّات في الغي ، والتقرّب بالسّعي ؛ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَتَنَاقَلُونَ الإشارات بالعيون ، والمُعَامَزَة بِالْجُفُون ، والمخاطبة بالغوز ؛ فإذا انصرفوا ، صرّف الله قلوبهم ؛ فقلّبوا الأمور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ، وتعلّلوا بالأحلام ، وقواطع الأحكام .

وَكُنْتُ وَصَلْتُ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَلِي وَرْدٌ مِنَ اللَّيْلِ ، ووظيفة من الذّكر ، وحظٌّ من الخير ، ضايقتني في ذلك كلّهُ فضول القول والعَمَل ؛ فهجرتُ السبحة ، وطلّقتُ الرّد ، وماطلتُ الفَرَضَ بوقته ، وعمّرتُ الزمان بما لا يعني عني من الله من شيء ؛ فلا متعة بالمطعم ولا اختلال الصحة ، ولا بالنساء لذهاب الشيبية وضيق زمان الراحة ، ولا باللباس لتبدل الكبرة ، ولا في اكتساب المال لضعف الأمل ؛ ولم أكن قطُّ أَكْسَبَ بِسَاعَةٍ ، وَلَا سَرَفْتُ إِلَيْهِ هِمَّةً ، وَلَا عَمِلْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا فِي الْوَطَنِ فَضْلًا يوصل إليهِ ، وصرتُ أسهر الليل ، وأتوقّع الشرّ ، وأقف للدنيا مَوْقِفَ الْمُتَوَقِّفِ في تلقّي السّلاح بمنّة وبسرة ، ولا حصول مع هذا كلّهُ إِلَّا على قوتٍ مكدود ، ولا يعوز في قرية ، ولا يفقد بين أُمَّة . وأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليَّ حبال العجز والكسل ، وسقوط الأمل ، وتوقّع الشرّ ، وفساد الفكر ، وجَمْعَ المطالب كلّها ، والآمال بأمرها ،

والغايات بأجمعها ، في حصول راحة ، وتمتّي خلوة ، وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمنٍ وخلوّ من شغب .

وصِرْتُ أَتَخَيَّلُ ذلك ، وأُمَثِّلُ الفوزَ والحصولَ عليه كما يتخيّل مجنون بني عامر الظفرَ بلبلى والانفراد بها ، من غيرَ نَظَرٍ لمهوى يردّي ، ولا سَبْعٍ يَعْتَدِي ، ولا وادٍ يُغْرِقُ ، ولا نارٍ تُحْرِقُ ، عَمَى المهوى ، واحتجاب النسي ، وتأميل السمي ؛ كَأَنَّ سَعَرَ الرَّاحَةِ رخيص ، ومَطْلَبَ الخلاص لا يعثر عليه تَخْصِص ، ولا يتعيّن بين يَدَيْهِ تَمْهِص . وسبحان الذي يقول : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . فَالْتَحَحْتُ على السلطان ، تارةً أَطْلُبُهُ بِإِجْازِ وَعْدِهِ ، والوفاء بعهده ، واقضاء مَضْمَنِ خَطِّهِ ، وتارةً بِالْعَمَلِ على اكتساب بُغْضِهِ ، والجفاء الذي يحلُّ عقدة اغتباطه ، ويذهب الحظُّ من باطنه ؛ بلغتُ في ذلك بالقول والعَمَلِ إلى ما لا يبلغه مُحْكِمٌ من عقله ، ولا مُحَافِظٌ على نفسه ، وهو يحل ذلك كلّهُ في جنب المظاهرة بي على أمره ، وعلمه بحلّي من الصيانة للملكه ، والنظر بعين الأبوة لأهله وولده ، إلى أن لم يَبْقَ بيني وبينه إِلَّا أَن يذهب القشر وينكأ القرح .

وثاب لي النظر بإزمام الفِراق عنه ، ومُصَانَعَتِهِ بين يدي ذلك بالتأني له والانحطاط في هواه ؛ وشرعتُ في عَقْدِ السّلم مع العدوِّ لِسِنِينَ ، وَرَتَّبْتُ الْأُمُورَ تَرْتِيبَ الْأَبَاءِ لِلْبَنِينَ ، وَرَجَوْتُ إِحْسَانَ اللَّهِ لِي « وَاللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » ؛ وَقُلْتُ : « أَحِجُّ نَفْسِي ، وَأَقْضِي فَرَضِي ، وَأُسَقِّئِ النَّاسَ بِغَيْرِي ، وَأَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُحْكِمًا مِنْ أَمْرِي ! » فَاقْتَضَيْتُ مِنَ الْمَوْئِلِ الْمُقَدَّسِ أَبِي فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ اتَّصَلَ بِي فَضْلُ دَوْلَتِهِ ، وَطَهَارَةُ نَشَأَتِهِ ، واعتدال طريقتها ، عَهْدًا مُخَلَّصًا مِنْ فِيهِ الْمُشَارَكَة فِي أَغْرَاضٍ مِنْ إِقَامَةِ ، نَحْتِ حَرَمَةٍ ، وَإِعَانَةٍ عَلَى حِجِّ وَزِيَارَةٍ ، وَمُبَالَغَةٍ فِي شَفَاعَةٍ أَوْ سَوِغٍ قَنُولِ

وتسمر الحاق ببلاده ، والحصول بجبل الفتح من إيلاته ، والجواز
في سنة غرة جمادى الأخيرة من سنة ٧٧٣ في أسطوله وتحت أقصى ما
يؤمن من يره ، ودارقت الأهل والمال والولد والجاة الذي بلغ
الأم لا الدنيا ثنية ، اعتاضها من المطلقة ، ولا خدمة نستأنفها عوَض
تلك انطرحه ، ولا لفرار أمام جناية ، ولا لفككة في مال جيبية ، ولا
لنفوت مَعْقِل لعدو الملة ، ولا لسفك دم يطلبني ببيعة ، ولا لحياة
في أهل ، ولا أسعى على ملك ، نبرأ إلى الله من ذلك كله ! إنما تلخص
قتصدي بعد تبخيله في الفرار إلى الراحة ، والتفادي من حمل الكلفة ،
والاشتغال بما يعني ؛ لكن في ظل العافية ، وتحت سحاب النعمة وذمة
الحرمة . نسأل الرقيب على ما في القلوب ، إن كنت قد سَأَبْتَنِي في ذلك
شائبة ، أن لا يُمتنعني بالبقية ، ولا يمين عليّ بحسن الخاتمة .

لكن لم يَحُلْ هذا كله من اقتيات على القدرة ، وغرور بالحول
والقوة ، وتحكمهم على الله في تحسين العاقبة ؛ فوقع فيه التقصير ما لم يفقد
فيه اللطف من رب العزة ، ولا عدمت إقالة العثرة وحسن الكفاية .
وكانت النية صرف الوجه إلى مدينة سلا حتى أبلغ النفس ريقها ،
وأخطب لأفكاره هدوؤها . ثم أمد اليد إلى ثمة الهجرة ، وأسرع في
الرحلة ؛ فاتصل بي ، وأنا بطنجة ، كتاب ولدي ، وقد استوحشوا ،
ورأبهم استيحاء السلطان ، وتوقعوا الإغراء بهم ، وتطرق الشر إليهم ؛
فصرفت وجهي إلى الباب العزيز في سبيل استخلاصهم ، وقدمت عليه
بتلبس في التاسع عشر لرجب من السنة . فتلقتني بما يليق بحسبه وشرف
مذهبه من إركاب الخاتمة ، ورفع الحجة ، ورعى الوسيلة ، ودنو الجلسة ،
وإجراء النعمة ، وبادر إلى طلب الأهل بإعمال بنانه ، بحسب ما رسمته
من العبارة ؛ وتلقى رسوله بمن فررت عنه ما يرق له ذو النفس الحرّة ،

ويؤثره مبتغي الوسيلة من إوسال العبرة ، واستفطاع الفرقة ، وتقرير ما
كان لي في قلبه من المحافظة والمودة ؛ واعترف ببراعتي في وطنه من
التبعة ، وصرف الأهل والولد قاضياً للحاجة ، مقدراً في الطريق
بنية الجراية .

وشرعت عند ذلك في الحركة إلى وجهتي الحجازية ؛ فعلق لي الوعد
بتوجيه الربعة ، والشروع فيما يخص ذلك من العزمة ؛ فأخذت في تقدير
الإقامة ، وانتظار ركوب الرحلة . وبلغ الخبر بهذا الاختصاص والاصطفاء ،
والمزية على الجلوس ، وإعمال الثواء بهذا الباب السامي العلاء ؛ فعجز منه
الصبر عن تحمل الغيرة ؛ وارتفع ، وحكم المسئلة ، وقطع بأنني بنيت في
الباب المريني على الخدمة . وكثرت عليه في جهتي كُتب السعاية ، بمن
جلا عن وطنه من القرابة ، وقرّر عنده مبالغة ولده فيه بالإذابة ؛ وأعمل
من لَدَيْهِ من الخدام الذين خلا لهم الجو مني ، وسرحت حجلهم بعد
رحيل صقري أقصى القدرة في إفساد حالي لَدَيْهِ بأنواع السعاية ، وفنون
النكايّة ، سداً يؤمّنهم من الرجعة ، ويَجِيرُهم من القبول والقية . فتأتى لهم
من ذلك ما خلص لي أجره ، وعظم لَدَيْهِم وزره ، لا بشهادة عدل
مقبول ولا ثبوت خطّ معروف ، إنما هي أَلَقِيّ رأسها الهوى وبرأها ،
مع براءة من لفظها ومعناها ، وموحدها ومثناها ، زور وحساد ،
وبضائع أسواق فساد .

واستبلغ المجهود في استفساد هذه الجهة التي انتقلت إليها بكل حيلة . فما
وجد السعي خلا ، ولا ألفت المكائد رَجَباً لَدَيْهَا ولا أهلاً ؛ فعاد
التشقي على النعم ، وإهانة الرّم ، وإحراق المصنّفات ، ومحو الحسنات ،
وتغيير الصدقات . وكنت ، لغروري بالزمان ، وثقتي منه بالأمان ، أظن
أن لا سبيل للدهر عليّ ، ولا تطرّق له إليّ ، وأن مفارقتي لمن بالأندلس
إنما هي مفارقة أب لولد ، وقلب لحلد ، وأن عقاري الموروث

والمكتسب جَارٍ تَجَرَّى الوقف الذي لا يُبدَّل ، وصريح الشريعة الذي لا يتأوَّل ، وأنَّ فوائده تلحق بي حيث كنتُ من المعمر ، فلا أُكَلِّف رزقاً ولا أعمل جهداً لغرور ؛ واستحكمتُ صيغته لمساعدة الأيتام ، والثقة برغي الزمام .

ثمَّ ذكُّ الجبل العاصم من الطوفان ، والممسك للأرض عند الرجفان . فكان موتُ المولى المرحوم أبي فارس الذي أويئنا إليه ، وعوئنا عليه ، ووئقنا بوعدِهِ ، وتمسكنا بعهده ؛ فانخرق الحجاب ، واستأسدت الذئاب ، واستنسرت البغاث والذباب ، وظنَّ أنَّها الداهية التي لا ترفع ، وأنَّ الوطن بعده إنَّما هو السراب البلقع ، وأنَّ وَلَدَ السلطان لا تتعده بيعة ، ولا تقوم له دولة ، ولا تستقيم لولده دعوة ، ولم يعلموا ما خبأ الله لفئته الإسلام من عباد خلف الذاهب ، ومَنار أبان بعد أفول البدر المذهب ، وأنَّ الله سبحانه سدَّ مسدَّه بالوزير الذي خلف العماد ، وصان الحرم والأولاد ، وحفظ البلاد والعباد ، وأقام الحجَّ والجهاد ، المعروف الحقَّ المشهور الجدَّ المتميِّز في حلبة الأمر العكويِّ بالسبق ، والحسام الذي فتح جبال الغرب وصحاري الشرق . ووقعتُ بينه وبين صاحبي المراسلة والمكاتبة ، والمُحاورَة والمُخاطبة ، ودسَّ الأغراء ، وتحاملت السفراء . ووصلت الوزير البوابة بخطِّه سالكة سبيل التلطُّف بكلِّ اعتبار ، معلِّقة رسوم الودِّ بأمر غير كبار ، مقررّاً أنَّ خطره مع مُداخلتهم إبَّاي لا يتصف بقرار ، ولا يتجاوز ذلك إلى تحكُّم باستقهار ، ولا جهل بما حرمة الباب المربنيِّ من علوِّ المقدار .

وعرض الوزيرُ ذلك عليَّ فسألته ، ومَحَضْتُ فيه نصحه ، واختَرْتُهُ رأياً ، وبذلتُ في أمسه سعيّاً . وقد كنتُ أرجو أن يرضى بي أرب ساعداً ، ولا اختجم عليَّ مُستَكبرهاً ؛ إنَّما غرضه انصرافي واشتغالي بشأني . فإمّا أن تُسافِرَ فيستريح من قربي ، وما تتوقَّع ظنونه من

أجبي ؛ أو أعمل على اللحاق به بعد قضاء وطري من حبي . وإمّا إن تضطرَّني الحاجة إلى استرفاده واستصلاحه ، ويضيق صدري ؛ فأرضى بتحكيمة . » وسألته أن يجمع بين الغرضين بانصرافي إلى سُكنى مدينة سَلا ، وأقسمتُ له على إثاري إيَّاه ، وعدم رضائي بسواه ؛ فجاءت عواصف الأنفاس العالية ، ورسختُ جبال الهمِّ السامية ، ووقع لما جئتُ به الإنكار ، وفي شأن فسادهِ الإيراد والإصدار ، وعظمتُ من تحمُّل ذلك الأنفة ، ولم ترُضْهُ الملكة المؤتفة ؛ وأقسم أن لا يقرَّ في دولة مَرينَ على الهزيمة لها بيد الحطيطة ، حتى تكون لغيرها تابعة ، وليسواها مُصانعة . وانصرف الرسول عن ظاهر مجاملة ، وعدة بإرفاد ومواصلة ، وإجراء عادة ، وإبداء في الجليل وإعادة ، إلّا أنَّ سَماسرة الفئنة ، وأعداء الدولة ، دسَّوا له أموراً من العمل على اجتياز مَنْ يطلب مَلِكُ الأندلس والعزمَ على إجازته ، وأنَّ الأمر فيه قد أبرم ، والتدبير قد أحكم ، من غير أن ينزل اللهُ بذلك سلطاناً ، أو يشغل به سِرّاً أو إعلاناً ؛ فأقدم إقدام المُستتميت ، وعاجل الألفة بالثبوت ، وانقاد في هوى غضبه ، وجنى على نفسه وعلى وطنه . ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلّا بالله !

هذا تقريرُ حالي ، في انتقالي وارتحالي ، الذي علَّقت به اليمين ، والدعاء والتأمين . فمن عذر فالله مثيبه ، ومن حمل بعدها ، فالله حسيبه ؛ فقد علم الصدق مَنْ يعلم السرَّ وأخفى ، ويقرب زلفى ، ويجزي الجزاء الأوفى ؛ فالدنيا أحلام ، والعمرُ منام ، وإن جرت الأقدار ، وراب الإيراد والإصدار ، وتعاور الحُنف والإبدار ، فالدارُ الآخرة هي الدار ! وكأني بسرح الحياة قد اجتوَّي ؛ وبساط الوجود قد طوَّي ، وعند الله القسطُ الذي لا يجوز ، والعدل الذي يرضى به البرّ والنجور !

ذكر التعريف بما أمكن

من ملوك النصارى بالاندلس على الاختصار

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بخبر الأندلس ، وكان كثيراً ما يروى فيه ذكر ملوك قشتالة ، كان من كماله أن نلعب ببذرة من ملوكهم ، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوق لذلك ، لا سيما الملوك ؛ فهي أبداً لأخبار الملوك متطلعة ، ولسباع أنبأها متشوقة . وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مخطوئته ، وهو الحكيم الشهير ، طيب دار قشتالة وأستاذ علمائها ، يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطي ، لما وصل إلينا في غرض الرئاسة عن سلطانه ؛ فقيّد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن ، وأستدرك ما أغفل ، إذ ليس بقادر في الغرض .

قال الحكيم : سألت أعزك الله وأدام كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة وقرع ملوكهم فأثبت لك ذلك بما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون الفتح قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فتقول :

ذكر في التاريخ المذكور أن الأرض المسماة الآن قرطون ، وفي الزمان القديم قانتطابرية كانت بأيدي ناس عظماء يُسمون دوقيش ؛ ونشأ بينهم نزاع وخلاف أوجب فراق أحد أولئك الرؤساء عنها ، واسمه بيلايه بن الدوق قافيلة ؛ وسكن بأرض أشطوريش ، وهي بين أرض ليون وغليسية . فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك ، في سنة ٩٢ من الهجرة ، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثم موسى بعده ، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس ، واتصل الفتح بأرض أشطوريش ، حيث كان بيلايه المتقدم

الذكر ، قام بيلايه لحماية الأرض ؛ واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال ؛ فحصى جهة أشطوريش ، ودافع عنها المسلمين . وعثت مدافعتة وحمايته قطر ليون وقطر برتقال ، واضطلع بذلك ، ورد عنه العرب ؛ وقد أنس بقتالهم وكثرت موافقائه إيّاهم . فأتق أهل تلك الجهات على تقديم ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه وبنيته ، وإن كان غريباً عن أرضه ؛ فكان ذلك سنة ٧٥٧ لتاريخ الصفر وبموافقة ٩٩ للهجرة . وهو أول من تسمى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب . ودام ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم مات وملك بعده ابن له يُسمى قافيلة ؛ وقادى ملكه عامين ؛ ثم قتلته دب تعرض له في الصيد ، ولم يحذره ؛ فأتى عليه . وولي الملك بعده صهر له من بنيته وأرضه اسمه دون ألفنش بن الدوق دون بطر ، من أهل قانتطابرية ، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أم بيلايه ، وأغاثته وخدمته ؛ فأكرمته بيلايه ، وزوجه ابنته . فلما هلك ، لم يوجد أولى به منه ؛ فملك في سنة ٧٧٢ ، بموافقة ١١٤ للهجرة . واتصلت مدته تسع عشرة سنة ؛ وكان يُسمى القاطوليقي لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم قاطوليقي .

ولما هلك ، ولي بعده ابنه المسمى فرويلة في سنة ٧٩١ للصفر ، وبموافقة ١٣٣ للهجرة ؛ وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وعقدت له البيعة بالأندلس تسع ذي الحجة من سنة ١٣٨ .

ولما هلك فرويلة ملك بعده أخوه أيرلييه ، واستولى على أرض أشطوريش التي منها أصله وأرض غليسية وأرض برتقال وبعض ليون . وكان ملكاً كبيراً ؛ وكانت ولايته سنة ٨٠٠ للصفر ، بموافقة ١٤٨ للهجرة ، ومدته ست سنين . ثم هلك . وولي بعده شيله أخوه ثاني سنين . ثم ولي

بعده أخوه 'دون ألفننش' بن 'فرؤيلة'، وتسمى قنشطه (ومعناه 'المالك' الصالح) لعفاف وصلح كان عليه عندهم ؛ واتصل ملكه إحدى وأربعين سنة ؛ وكان ابتداء أمره سنة ٨١٨ للصفرة ؛ وثر عليه عم له ، ابن جارية غير مشهورة ، اسمه 'موريفاطه' ؛ فخلعه وملك بعده خمس سنين . ثم ولي بعد هذا الخالع قريب له تغلب عليه اسمه 'برموده' ، كان أول أمره قساً أي عالماً فقيهاً في دينهم ؛ وملك ست سنين . ثم عاد الأمر إلى المخلوع 'ألفننش' بن 'فرؤيلة' مدة ، إلى تمام الإحدى والأربعين سنة المذكورة . ثم ملك بعده ، لما هلك ، رميره بن 'دون ألفننش' القاطوليقيته ، المتقدم الذكر قبل هذا ، اختياراً من الناس ، وذلك سنة ٨٦٥ للصفرة . ثم ولي بعده ابنه 'أردونيه' سنة ٨٦٥ ؛ وكانت مدته عشر سنين . ثم ملك بعده ابنه 'دون ألفننش' بن 'أردونيه' ؛ وتسمى ماغنه ، أي الملك الكبير ؛ وكانت مدته ستاً وأربعين سنة ؛ وولي 'نير الس' ، رحطم 'ملكته واتسعت مملكته ؛ وهو الذي نقل دار 'ملك أبيه' إلى 'ليون' ، وتسمى 'ملك ليون' . وكان ابتداء ملكه سنة ٨٧٥ ، بموافقة ٢٤٨ للهجرة .

ثم ولي بعده ابنه 'دون غرسيه' ؛ وكان ابتداء ملكه سنة ٩٢٤ للصفرة ، بموافقة سنة ٢٩٧ للهجرة ؛ ومدته ثمان سنين . ثم ملك بعده أخوه 'فرؤيلة' سنة ٩٣٢ ، بموافقة ٣٠٥ للهجرة ؛ وكانت مدته سنة واحدة وشهرين ؛ وأصابه مرض الجذام ؛ فلم يتأت معه قيامه بالملك . ولهذا العهد نشأ بجهة 'ليون' ، التي كان يحكم 'قشتالة' من قبل 'ملكها' ، شتات واختلاف ؛ أوجب اقتطاع البلاد القشتالية عن ملك 'ليون' ؛ فقدم أهلها على أنفسهم 'بشيس' . حسي جري عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عهد ملوك الطوائف ؛ وتغلب القضاة ، وسالموا ملك 'ليون' على أن يخدمه بثلاثمائة فارس متى احتاج ذلك ؛ فقبل ذلك منهم ، وقمع بطاعتهم . وكان أحدهما يسمى 'نونيه رجورة' ، والآخر 'لاين' قائله . ومن

'نونيه' رجورة تناسل ملوك 'قشتالة' و'ليون' الذين استقر الملك في عقيهم على عهد .

رجع الحديث للملك 'ليون' . ثم ملك بعد 'فرؤيلة' 'دون ألفننش' بن 'دون أردونيه' خمس سنين وثمانية أشهر ؛ ثم زهد ، وترهب ، وأصابه 'وسواس' ؛ فقتل بعد ذلك عن الملك لأخيه 'رميره' سنة ٩٣٣ ؛ وكانت مدة 'ملكه' عشرين سنة . وفي السنة الأولى من مدته ، قام بقشتالة داعياً إلى نفسه 'القمر' 'دون قران' 'غصالس' ، حفيد 'نونيه' رجورة أحد القاضيين المذكورين قبل .

رجع الحديث 'ليون' . ثم ملك بعد 'رميره' ، 'أردونيه' ابنه سنة ٩٥٨ ، بموافقة سنة ٣٣١ للهجرة ؛ فكانت مدته خمس سنين وستة أشهر . ثم ثار عليه وخلعه أخوه 'دون سانبه' سنة ٩٦٣ للصفرة ، بموافقة سنة ٣٣٦ للهجرة ؛ وكانت مدته إثني عشرة سنة .

وفي مدة سانبه هذا الثائر بأخيه ، خرجت قشتالة عن حكم صاحب 'ليون' 'جملة' ؛ واستقل 'القمر' المذكور 'قران' 'غصالس' بها ؛ ولم يبق فيها للملك 'ليون' طاعة . وكان سبب ذلك أن 'القمر' 'دون قران' 'غصالس' حدث بينه وبين سانبه سلطان 'نبارة' مفاتنة ؛ فغلبه 'القمر' وقتله . وملك بعده 'نبارة' ابنه 'دون غرسيه' ؛ وكانت بنت 'ملك نبارة' زوجاً لـ 'دون سانبه' صاحب 'ليون' ؛ وكانت تطالب 'القمر' بعداوة قتله لأبيها ، وهي مع ذلك تحادعه وتربيته الصداقة ؛ وكانت تعده بتزويج بنت أخيها 'غرسيه' صاحب 'نبارة' ولدي قتيله ، لتزول بينهم العداوة رأساً ؛ وداخلها زوجها 'ملك ليون' في استدعائه لحضور رأي كبير يستونه القوت ، تحضر فيه الملوك والأمراء لتقدير المصالحة الوقتية والأبدية ؛ ففعل ذلك ؛ ووعد 'القمر' بالوصول ؛ فكتبت المرأة لأخيها صاحب 'نبارة' أن يحاول أمره في طريقه ، ويؤنسه ، ويطلب

لقائه لعنه يتأتى فيه ثأره . فلما قضى القُمزُ حاجته من حضور القُرُتِ ، ورجع قافلاً إلى بُرْغَشْ بَلَدِهِ من عمالة قَشْتَالَة ، طلب منه صاحب نَبَارَة الاجتماع ؛ فوقع الاتفاق على أن يستصحب كلُّ واحدٍ منهما سبعة من الفُرسان بدون سلاح . وجاء القُمزُ بحال طمأنينة على بغلة ، وفُرسائه السبعة بين يديه ، حتى إذا قَرُبَ من مكان الوعد ، رأى صاحب نَبَارَة في خمسة وثلاثين فارساً يحملون السلاح ؛ فأيقنَ بالشرِّ ، وأعجلوه عن التحوُّل إلى الفُرس . فدخل جَنَّةً كانت بالموضع ، واعتصم ببرجٍ كان هنالك ؛ وداقَع هو وناسه عن أنفسهم ؛ فقاتله صاحب نَبَارَة قتالاً شديداً بقيَّة اليوم إلى نصف الليل . ثم اقتضى أمانته على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل ؛ ونزل ؛ فاحتمله صاحب نَبَارَة إلى نَاجِرَة ؛ فأكتبه ، وبقي عنده سنة ونصف سنة . ثم رغب منه سراح فُرسائه إلى قَشْتَالَة ؛ فسرَّحهم .

واتفق أن حلَّ بالموضع قُمزٌ معروفٌ من أرضٍ أخرى ؛ فطلب أن يزور القُمزَ الأسيرَ ، وأشفق لحاله ، ووعدته المشاركة الجميلة في أمره ؛ وطلب زيارة بنت صاحب نَبَارَة ، وهي التي كان القُمزُ الأسيرُ وعدَّ بتزويجها . وعقدَ من ذلك حديثاً حثتْ له بسببه ؛ فأخذ معها في شأنه ، وضمن لها ، إن خلصته من أسرِهِ ، أنه يحملها معه إلى قَشْتَالَة ، ويتزوجه ، ويعرف لها قدرَ إحسانها إليه .

وللنصارى في أثناء هذا أحاديثُ وأشعارُ ومعانٍ ترجع إلى شطارة العشاق وارتكابهم الأخطار . فتمَّ ما ذهبَت إليه من ذلك ، وذهب بها إلى قَشْتَالَة ، وتزوجه ، وعاد إلى مُلْكِهِ ، ووالى الحروب على صاحب نَبَارَة ، إلى أن أسره وانتصف منه ؛ وأقام في أسرِهِ ثلاثة أشهر . ثم تشفَّعت فيه بنته ؛ فأطلقه طَوْعاً . ثم طال الأمدُ ، واستدعى صاحب لِيُون القُمزَ مرةً أخرى لحضور قُرُتٍ آخرَ ؛ فوصل إليه ، وهذا على

عند المنصور محمد بن أبي عامر . وهم كلُّهم بين موافقته عن بلادهم لابن أبي عامر وبين تقيَّةٍ وسلِّم .

وقد كان القُمزُ غُضَّالِس صاحب قَشْتَالَة فسَدَ ما بينه وبين صاحب لِيُون ؛ فقبض عليه وأسرَهُ سنة ٩٧١ . ودبرت أيضاً زوجته بنت ملك نَبَارَة التي خلصته من الأسر الأول الحيلة في خلاصه من هذه ؛ فسرت من بُرْغَشْ في خمسمائة فارسٍ مختارة ، تطوي المراحل ليلاً ، إلى أن كانت على ثلاثة فراسخٍ من لِيُون ؛ وتوكت الفُرسان في غياضٍ وجبالٍ ، وأقبلت في زيِّ راهبةٍ تقصد الحجَّ لثنت ياقب . وأكرمَ السلطان صاحب لِيُون قدومها ، وتبرَّك بها ؛ فسألت منه أن تزور القُمزَ أسيرَهُ ، وتُسَافِرَ من الغدِّ إلى الحجِّ ؛ فأذن لها في ذلك ؛ فأطالت معه الحديث . ثم أمرته يخرج في زيتها مع أحد خَدَمَتِها لمُخَاطَبِ الحرس عنها ؛ وبقيت هي راقدةً في سرير القُمزِ كأنه لم يبرح . فلما حصل في ظاهر البلد ، وجد الحيلَ تنتظره بكلِّ فَرَسَخٍ ، إلى أن وصل بجبلٍ خيَّله . ولما تعرف صاحب لِيُون ذلك ، شقَّ عليه ؛ ثم لم يسعه إلا أن وجهه إليه زوجته هذه مُفَرَّجة الشدائد . وكان هذا القُمزُ فارساً كبيراً ، لا نظيرَ له ؛ فشمَّر بعد ذلك في حرب صاحب لِيُون ، وأضاقه ، وغم أرضه ، إلى أن اضطلع على أداء حقوقِ كانت للقُمزِ قبله ، والتسليم فيما بيده ؛ فاستقلَّ القُمزُ بأرض قَشْتَالَة مِّن حينئذٍ .

رجع الحديث إلى ملك لِيُون . ثم توفيَّ دون سَنَانِجِه ملك لِيُون . وولي بعده ولده رَمِيوَه ، وهو صبيٌّ صغيرٌ من خمس سنين ، وذلك في سنة ٩٧٥ ؛ وكانت مدته خمساً وعشرين سنة . وتولَّتْ تدبيرَ مُلْكِهِ والدته دونه طَرِيحَة وعمته دونه إلبيرة . وهلك القنْدُ دون فَرَّان غُضَّالِس أيضاً في زمانه سنة ٩٧٨ ؛ فكانت مدة القنْدِ فَرَّان غُضَّالِس نحواً من تسع وثلاثين سنة . ثم ثار عليه في غليسية دون بَرْمُودَه بنُ دون

أرذونيه وملكها . ولما مات دون رميره الذي تقدم صبياً ، ودبرته أمه وعنته ، خلص الملك لدون برموده بن دون أرذونيه ؛ وكان مبتدأ ملكه سنة ١٠٠٠ للصفر ، ومدة ملكه سبع عشرة سنة . وعلى برموده هذا ألح ابن أبي عامر بالغزوات ؛ وفي مدته ومدة من قبله ومن بعده قريباً منه ، كان سوق ذلك الجهاد المحظوظ .

ثم ملك بعد دون برموده ابنه دون ألفونش سنة ١٠١٧ للصفر ؛ وكانت مدته سبعاً وعشرين سنة . وملك بعده دون برموده ولدته سنة ١٠٤٤ لتاريخ الصفر ؛ وكانت مدته عشر سنين . وكان دون برموده هذا قد تزوج بنت قنديل قشتالة واسمها طريجة ؛ وبأبي خبره بعد . وعند هلاك دون برموده ، انتقل الملك لنسل القمزدون فرآن غنصالس حفيد القاضي الأول نونيه رجورة المتقدم الذكر .

ولما انتقل ملك ليون إلى حفيد نونيه رجورة القاضي بقشتالة ، بسبب البنت التي كانت زوجاً لبرموده ملك ليون وكونه لم يعقب ، فذكر عقبه من هذا الجد ، وهو الذي صار أصلاً وانقطع ما قبله ؛ فنقول : تولى القاضي الأول نونيه رجورة سنة واحدة ، وهي سنة ٧٣٢ ؛ ثم هلك ؛ فولي بعده ابنه غنصالس ثونس ؛ ثم تولى بعده ابنه القمزدون فرآن غنصالس ، المتقدم الذكر ، تسعاً وثلاثين سنة ؛ ثم تولى بعده القمزدون غرسية فراندس ؛ ثم تولى بعده ابنه دون سانجه . وكان لدون سانجه ابنتان إحداهما تسمى دونة طريجة ، تزوجت دون برموده صاحب ليون ، والثانية تسمى دونة إليبيرة ، تزوجت سانجه ملك نبارده ، وودد منه ابين كبيرهما دون غرسية ملك نبارده بعد أبيه ، والثاني دون فراندس الذي هو أول من تسمى ملك قشتالة . وكان لدون سانجه ولد من عشيقه غير مهورية اسمه دون رميره ، ملك أرض أرغون . فمن نسل دون فراندس

ثم ملوك قشتالة إلى الآن ؛ ومن نسل دون رميره هم ملوك أرغون . فلما توفي دون سانجه قمزدون قشتالة ، ولي بعده دون غرسية ابنه ؛ وكان ضعيف العقل ؛ اقتضى نظره التوجه إلى ليون ليتزوج بها أخت ملكها برموده ، وحمل معه صهره دون سانجه ملك نبارده ؛ فنزل صاحب نبارده بفحص ليون ، ونزل دون غرسية بداخل البلد ، وحدث بالبلد فتنة وهرج قتل فيه . وقيل إن قتلته بإشارة سلطان ليون . وقامت الحرب لأجل ذلك بين صاحب ليون وبين صاحب نبارده ؛ وقد انضفت إلى ملكه بعد قتل صهره قشتالة سنة ١٠٦٦ للصفر ؛ وكانت نحواً من ست عشرة سنة ؛ وقتل طائفة من الزعماء اتهمت بالتدبير على صهره ؛ واستضاف أرضهم إلى أرض قشتالة ؛ وهي المسماة ببلد ولید ، وسنطيمنش ، وما إليها ؛ فضخم ملكه . ثم تصالح مع صاحب ليون على أن يتزوج ابنه دون فراندس مع أخته ، وأن يسمى ملك قشتالة . وأعطاه أبوه جزءاً كبيراً من أرض نبارده ، وهي نابجرة وما إليها . فلما توفي أبوه ، تحرك ملك ليون لقتاله ، وأصرخ المذكور أخاه القائم بعد أبيه بملك نبارده ؛ فغلبا على صاحب ليون ، وهزماه ؛ وقتل في الحرب . فانصرف ملك ليون لدون فراندس بن دون سانجه المتقدم الذكر .

ثم قال الشيخ الحكيم : وإذا بلغنا إلى هذا الحد ، فلنذكر الآن ملوك قشتالة وليون ، ونجعل إلى ذات اليمين عدد الأولاد من عقب بلايه ، وإلى ذات اليسار عدد هم من عقب فراندس هذا المذكور . فنقول :

ملك دون فراندس ، صاحب نبارده وقشتالة وليون أربعين سنة وستة أشهر ؛ وكان ابتداء ملكه سنة ١٠٥٣ للصفر ؛ وقسم ملكه على أولاده الثلاثة ؛ فأعطى ملك قشتالة لدون سانجه ولده الأكبر ، وأعطى ملك ليون لدون ألفنش ، وأعطى ملك غليسية وبرنقال

لدون غربية . فلم توفي دون قرأته . ثم دون شأنه على أخويه . وأخذ منها الملك ، وأمرهما . فأمر دون غربية ، فقيده بالديد ، وسجنه في حصن نجرة ؛ فبقي بها نحواً من ثمان عشرة سنة . وأما أخوه 'دون ألفتش' ، فجعله 'مونيخاً' في موضع عبادة على رأس الزهاد ، مراقباً عليه بوضع يقال له 'سقفند' ؛ واحتال ، هرب منه ، ولحق بطليطلة . وبها يومئذ المأمون بن ذي النون ؛ فأواه ، وأجاره ، وسكن عنده ؛ وسكنه بطليطلة وإطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب ملك النصارى بها ؛ وأقام عند ابن ذي النون إلى أن قتل أخوه شأنه بتدبير أخيه أراكه ، إذ دخلت في قتله بعض فرسانه ، وقد خرج يتصيد ؛ فطارده صيداً ؛ وذلك الفارس ينفقه ؛ فلما انفرد به ، طعنه برمح كان له ، وقتله ؛ ورخص ؛ فلق بالاخت المذكورة بمدينة سمورة ؛ فاستجار بها . ووجهه عنه النصارى إلى طليطلة ؛ فولّوه عوضاً منه ؛ وذلك سنة ١١٠١ . ولما ملك ، أنفذ الأمر بقتل قاتل أخيه ، وقال ما معناه : « عمل جيد وعادة سوء ! »

ثم توفي في شهر يونيو سنة ١١٤٧ ؛ فلم يترك ولداً ؛ فولي الملك حفيده ولده قرزاند .

وقال الحكيم فيه : هذا الحفيد المسمى بألفتش هو الذي ملك طليطلة وما إليها . وكان ابتداء ملكه سنة ١١٤٧ للصفر . وكانت مدته ستاً وخمسين سنة . قال : وهو أول من تسمى إنبيردور ؛ ومعناه سلطان السلاطين ، إذ مهّد جيوانه ، وافتتح دار ملك النصارى القوط طليطلة ، واستخدم ملوك المسلمين بالأندلس .

قال ابن وقار : كان له سبعة من الملوك يخدمونه ، ولا يعصون أمره بين مسلمين ونصارى . وفي مدته خرجت جهة برثقال عن حكم قشتالة في أول أمره ، إذ كان صغيراً عند الولاية ؛ وكان جدّه دون

ألفتش قد زوّج بنتاً له مع أحد قرابته اسمه أنريق ، وأعطاه برثقال ، وسماه دوقاً . ثم ، لما هلك وولي بعده برثقال ابنه ، وجه إلى الباب ؛ فولّاه برثقال ، وثبّتها له ؛ فلم يقلده ألفتش صاحب قشتالة وليون على أن التهي به . فمن نسله ملوك برثقال إلى الآن . حسباً يأتي إن شاء الله .

قلت : وهذا ألفتش المعمر هو الذي طغى واستخوذ على ملوك المسلمين ، وضرب بين أمراء الطوائف ، إلى أن قبعه الله بلمنونة ، وهزمه هزيمة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين ، حسباً يأتي إن شاء الله .

قال ابن وقار فيه : ثم قسم ملكه قسمين ؛ فأعطى منك قشتالة ولده شأنه ؛ وتسمى باسم الملك في حياة أبيه خمس سنين ؛ وأعطى ملك ليون وغليسية ولده دون قرأته . ثم استمرت أيام دون شأنه بعد موت أبيه عاماً واحداً . ثم توفي سنة ١١٩٨ ؛ وترك ابناً صغيراً من أربع سنين اسمه دون ألفتش ؛ فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة . وهذا الصبي المعمر هو الذي جرّت عليه الهزيمة المعروفة بالأرك على يد يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي - رحمه الله - سنة ١٢٣٣ للصفر ، وفي شهر أغسطس . ثم دالت له الأيام ؛ فكانت له على الناصر بن المنصور هزيمة العقاب ، التي لم تستقل العثرة بعدها بالأندلس ؛ وذلك ثامن عشر من يوليو من سنة ١٢٥٠ للصفر . وكان هذا الملك الرومي بعيد الهمة ؛ لبس من بعد الهزيمة عليه ثياب الحزن ، وأقسم أن لا يزيلها حتى يأخذ ثأره . فلما أتيح له الظفر بالناصر بن المنصور ، رغب منه النصارى أن يرفع الحزن ؛ فقال : « وكيف وأنا لم أتصف ؛ إنما غلبت ابن من غلبني ! هضمتي في عنق الابن ، وهضمت الأب في عنقي ! لم تزلها عني غلبتي لغيره ! »

وكانت له ابنة اسمها برثقال ، زوّجها ابن عمّه دون ألفتش

مَلِكُ لِيُون ؛ فولدت له وَلَدَيْنِ أَكْبَرُهُمَا فَرَّانْدُهُ ، وَأَصْغَرُهُمَا دُونُ
أَلْفَنْشُ ؛ فَمَلِكُ فَرَّانْدُهُ بَعْدَهُ قَشْتَالَةُ وَلِيُون . وَكَانَ أَلْفَنْشُ
لِقَانَتِ مَلِيْنَةَ ؛ وَمَعْنَى الْإِقَانَتِ وَلَدُ السُّلْطَانِ . فَلَمَّا تَوَفَّيَ أَلْفَنْشُ ،
وَلِيَ ابْنُهُ دُونُ إِنْشَرِيْقَ ثَلَاثَ سِنِينَ ، أَوَّلُهَا سَنَةُ ١٢٥٠ . ثُمَّ هَلَكَ بِحَجَرٍ
أَصَابَ دِمَاعَهُ فِي لَعِبٍ مِنَ الصِّبْيَانِ عَامَ ١٢٥٣ ؛ فَرَجَعَ الْمُلْكُ لِأَخْتِهِ
مَلِكَةِ لِيُون ؛ فَأَعْطَتْهُ وَلَدَهَا فَرَّانْدُهُ . فَهَذَا فَرَّانْدُهُ مَلِكُ
قَشْتَالَةَ مِنْ أُمِّهِ وَمَلِكُ لِيُونِ مِنْ أَبِيهِ ؛ وَهُوَ الَّذِي ثَلَاثُ قُرْطُوبَةِ
وإِسْبِيلِيَّةٍ وَجِيَّانَ وَمُرُوسِيَّةٍ . وَحَسْبُكَ هَذَا الظُّهُورُ الَّذِي أَقَامَ الْبُرْهَانُ
عَلَى أَنَّ الدُّنْيَا لَا تَرَى عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا ! فَكَيْفَ اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَدَائِنُ الْعَظِيمَةُ
مِنْ بِلَادٍ وَعَمَلَاتٍ وَمَنَابِرٍ وَمَسَاجِدٍ وَأَعْيَانٍ وَفُرُوسَانٍ وَعُلَمَاءٍ وَأَعْلَامٍ !
« ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ! »
وَهُوَ الْمَسْئِيُّ بِالْأَحْوَالِ ؛ وَعَلَى عَهْدِهِ كَانَ قِيَامُ ابْنِ هُودٍ وَابْنِ تَصْرٍ وَغَيْرِهِمْ
مِمَّنْ قَدَّمَ ذِكْرَهُ . وَهَلْكَ بَعْدَ اسْتِخْلَاصِ إِسْبِيلِيَّةٍ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ كَهَنَةُ
لِلرُّومِ تَرْمِزُ ، فَقَوْلُ : « الْأَسْوَدُ الْأَحْوَالُ إِذَا أُذْخِلَ يَدُهُ فِي الزَّيْتِ
هَذَا ! » يَعْنُونَ إِذَا مَلِكُ إِسْبِيلِيَّةٍ مَعَدِنَ الزَّيْتِ . وَكَانَتْ مُدَّتُهُ خَمْسًا
وِثْلَاثِينَ سَنَةً ، وَابْتَدَأَ مُلْكُهُ مِنْ لَدُنْ ١٢٦٥ لِلصُّفْرِ .

وَوَلِيَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ دُونُ أَلْفَنْشُ سَنَةَ ١٢٩٠ لِلصُّفْرِ ؛ وَكَانَتْ مُدَّتُهُ
ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ . عَامَ الْوَلَدَةِ دُونُ عُمُرِهِ ، وَخَافَ مِنْ
أَنْ يَطْرُقَهُ الْمَوْتُ ؛ فَيَخْرُجُ الْمُلْكُ عَنْ عَقِبِهِ ؛ فَيَجْعَلُ الْمُلْكُ بَعْدَهُ حَفِيدَهُ
مِنْ بَنِيهِ ذِي الْعَرَفِ . ثُمَّ وَلِدَ لَهُ بَعْدَ هَذَا وَلَدُهُ السُّلْطَانُ دُونُ جَانْجِهْ ؛
فَلَمَّا كَبُرَ دُونُ جَانْجِهْ ، عَظُمَ عَلَيْهِ انْفِرَادُ ذِي الْعَرَفِ بِالْمُلْكِ دُونَهُ ؛
وَلَمْ يَسَعِ الْأَبَ حُلُّهُ ؛ فَشَرَّ عَنْ مُخَالَفَتِهِ لِأَبِيهِ وَاسْتِخْلَاصِ الْمُلْكِ بِالسِّيفِ ؛
فَجَلَعَ الْأَبَ ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ ، إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ بِيَدِهِ ، لِأَقْرُطِيَّةٍ وَأَحْوَاظِهَا ؛
وَاسْتَصْرَعَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ السُّلْطَانُ الْمُتْرَابِطُ أَبِي يَوْسُفَ بْنَ عَبْدِ الْحَقِّ ، وَلَاذًا

بِهِ ، وَرَهْنٌ عِنْدَهُ تَاجَهُ ذَخِيرَةُ النَّصَارَى الْمُسْتَقَرَّةُ بِدَارِ مَرِينِ ؛ وَلَقِيَهُ
بَصَخْرَةَ عَبَّادٍ مِنْ أَحْوَاظِ رُنْدَةَ ؛ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . وَيُقَالُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ،
لَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذَلِكَ ، طَلَبَ بِلِسَانِ الرُّنَاتِيَّةِ الْمَاءَ ؛ فَغَسَلَ بِهِ يَدَهُ مِنْ قَبْلِ
أَلْفَنْشُ أَوْ مُصَافَحَتِهِ .

وَالشَّيْءُ يُذَكَّرُ بِالشَّيْءِ . فَأُثْبِتُ حِكَايَةَ اتَّفَقَتْ لِي بِسَبَبِ ذَلِكَ ،
أَسْتَدْعِي بِهَا الدُّعَاءَ مِمَّنْ يَحْسُنُ عِنْدَهُ مَوْقِعُهُمَا . وَهِيَ أَنَّ الْيَهُودِيَّ الْحَكِيمَ
ابْنَ زَرَزَارَ ، عَلَى عَهْدِ مَلِكِ النَّصَارَى حَفِيدِ هَذَا أَلْفَنْشُ الْمَذْكُورِ ،
وَصَلَ إِلَيْنَا فِي حَوَاجَتِهِ ، وَدَخَلَ إِلَيَّ بِدَارِ سُكْنَانِي مُجَاوِرَ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيَّ
بِحَمْرَاءِ غَرْنَاطَةِ ، وَعِنْدِي الْقَاضِي الْيَوْمَ بَغْرَاطَةُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ،
وَبِيَدِهِ كِتَابٌ مِنْ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ السُّلْطَانِ
الْكَبِيرِ الْمُؤْتَى أَبِي الْحَسَنِ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ هَذَا قَدْ فَرَّ إِلَى صَاحِبِ قَشْتَالَةَ ،
وَاسْتَدْعَى مِنْ قَبْلِهِ الْمُلْكُ ؛ فَسَهَّلَ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ مَا شَاءَ ؛
وَرُبَّمَا وَصَلَهُ خِطَابُهُ بِمَا لَمْ يَقْنَعُهُ فِي إِطْرَافِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « مَوْلَايَ السُّلْطَانُ
دُونُ يَطْرُوهَ بِسَلَامٍ عَلَيْكَ ، وَيَقُولُ لَكَ : انْظُرْ مُخَاطَبَةَ هَذَا الشَّخْصِ !
وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَتَبْنَا مِنْ كِلَابِ بَابِهِ ، حَتَّى تَرَى خَسَارَةَ الْكِرَامَةِ فِيهِ ! »
فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ ، وَقَرَأْتُهُ ، وَقُلْتُ لَهُ : « أَبْلَغُهُ عَنِّي أَنَّ هَذَا
الْكَلَامَ مَا جَرَّكَ إِلَيْهِ إِلَّا خَلُوهُ بِأَبِيكَ مِنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ بِالْكِلَابِ
وَبِالْأَسْوَدِ ، وَبِئْسَ تَغْسِلُ الْأَيْدِي مِنْهُمْ إِذَا قَبِلُوهَا ؛ فَتَعْمَلُ مِنَ الْكَلْبِ الَّذِي
تَغْسِلُ الْيَدَ مِنْهُ وَمَنْ لَا . وَإِنَّ جَدَّ هَذَا الْوَلَدِ هُوَ الَّذِي قَبْلَ جَدِّكَ
يَدُهُ ، وَاسْتَدْعَى الْمَاءَ لِيَغْسِلَ يَدَهُ مِنْهُ بِمَحْضَرِ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَنِسْبَةُ
الْبَيْتِ إِلَيْكَ كَنِيَّةٌ . إِنْ إِلَى الْحَفِيدِ ! وَكَوْنُهُ جَاءَ إِلَى بِلَادِكَ لَيْسَ بِعَدْوٍ
عَلَيْهِ . وَإِنَّكَ مَعْرُوضٌ إِلَى السَّجْدِ إِلَيْهِ ؛ فَيُكَافِيكَ بِأَضْعَافٍ مِائَةِ مِائَتِهِ بِهِ ! »
فَقَامَ أَبُو الْحَسَنِ الْمُسْتَقْضَى يَبْكِي ، وَيَقْبِلُ يَدِي ، وَيَصِفُّنِي بِوَيْلَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ
مِمَّنْ حَضَرَنِي . وَبَوَّجَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ رَسُولًا ؛ فَقَصَّ عَلَى بَنِي مَرِينِ خَبِيرًا مِ

شاهداه مبي وسمعه ؛ وياخضرة اليوم بمن تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك لصا لوجهه !

رجع الحديث . ثم هك ألفندش . وولي الأمر بعده دون سأنجه ابنه سنة ١٣٢٢ للصفر ؛ وكانت مدته اثني عشرة سنة ؛ وهو الذي افتتح طريف . ونازل الجزيرة ؛ وكانت الوقعة بأسطوله . ثم هلك ، وولي بعده فراتنده ، وهو صبي صغير دون عشر سنين ، في الثامن والعشرين لإبريل العجسي من سنة ١٣٣٣ للصفر . وهو الذي نازل الجزيرة ، وأخذ جبل الفتح ؛ وكانت مدته سبع عشرة سنة . ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بالقة ، نازل القبذاق وهلك عليها . وولي بعده ابنه دون ألفندش في سابع ستنير عام ١٣٥٠ ، وسنه ثلاثة عشر شهراً ؛ وتقدم لتربيته واليابة عليه عمه دون بطر ؛ وهو الذي وقعت عليه وقعة المروج بظاهر غرناطة ؛ وسيقت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن بين الصاعد إلى الحراء لصق باب يعقوب ؛ وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته ، واحتيج إلى بناء البرج ؛ وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطُر إلى الكشف عن التابوت ؛ فألقي قد عفن ؛ واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ؛ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريد أساقفتهم . فلما أخرجت الرمة لتُنقل إلى التابوت ، ألقى بين الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الوقعة ، كانت سبباً للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبّلت ذلك السلاح الكريم ، وسألت الله بركة معلّم بها ، وأمرت برده بكان بنائه ، وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكايه الكفار إذا مروا به ، وتخليد الفخر للدين ما شاء الله . والله ينفع بالماجد الخالصة لوجهه الكريم !

ثم كبر ألفندش هذا ؛ فاستولى على ثغر بيرة عند فتنة الغراء بأندوش ؛ ثم على بلد أطيبة ، والحفرة المنسوبة إليها . وأوقع بالمسلمين الوقعة العظيمة بطريف . ثم نال قلعة تحصب على ستة فراسخ من الحضرة وملكها . ثم أملى الله له بشق عصى الأمة ، وما نال أمير المسلمين المرجو لنصرها من التمحيص بالقيروان ، واستبداد ولده عليه بمنك المغرب ؛ فانتهر الفرصة في الأندلس ، ليأس أهلها من نصرة الإسلام ؛ فتحرّك إلى إشبيلية ، ونازل جبل الفتح ، وشد حصاره إلى أن نزل اللطف الحفي بهلاكه عليه ، بعد ما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة ١٣٥٠ للصفر ، بموافقة محرّم من عام ٧٥١ ؛ فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة .

ونولى الأمر بعده ولده دون بطر . وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملته ؛ فأنهى على سلطان برجلونة إلى أن انتزع كثيراً من بلاده ، كدانية وقلعة أيوب ، وأربونة ، وغيرها ؛ ونازعه أخوه الملك ، وهو إنريق ، ابن أبيه من غشقة أولدها ولداً ، جملة لما شاء الله من شتات كلمتهم . وكرهت بطر النصرانية لكثرة الكلف واتصال الحركات والاستعانة بالمسلمين ؛ فخلع وفر إلى بلد أربونة من عمل صاحب الاغلطرة ، بعد أن انتهت دار ملكه بإشبيلية ، وعانت أيدي الرعية في خزائنه بجزأى من عينه . واستولى على البلاد أخوه إنريق ؛ فلقق بإشبيلية مستدعى من أهلها ؛ وأهطعت الأرض إلى طاعته . وأعان دون بطر ملك الجهة التي قصد ، وشتر لنصره ، وتحرك في جمع كثير من أهل تلك الأرض ؛ وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ، ووفور العدة ، والقتال من بعد الاستوحال ، ولزوم الأرض على الكريمة . وكان اللقاء بين الطائفتين بناجيرة من أحواز نبالدة ؛ فوقعت على إنريق الهزيمة المستأصلة ، وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شردمة قليلة ؛ وتلف كبارُه وخلصائه

وعُدَّده وأمواله .

وعاد أخوه بِطْرُه إلى مُلكه . ولم ينشب أن فرض على البلاد مَغْرَمًا يقضي به دون الطائفة التي أصرخت به ، إذ كان ذلك عن التزام أموال ؛ فخالفت عليه جملة من البلاد كقرطبة وما يجاورها ؛ واستعان عليهم بخلفائه من المسلمين . فكيف الله لذلك النصرِيَّ صَنعًا جيلًا ، قدُمَت اليهودُ بِمثله ؛ فنوزلت قرطبة ، وفتحت مدينة طاعة أخيه . ولما أخذ مخنقها ونهكها الجوع ، استغاث أهلها بدون بطْرُه ؛ فتحرَّك بن تلخس له من النصرانية وبجَدَدٍ من فرسان المسلمين ، قاصدًا إقلاعه عن طليطلة ؛ فهجم عليه أخوه قبل وصوله إليه ، وهو على غير أهبة ؛ فهزمه بظاهر حصن مُنتيل ، وأجَّاه إلى محصار به ، ونزله ، وأحاط به . وضاق بالصبر ذرع المحصور ؛ فصانع قومًا من مُخدَّام أخيه ، وتوثق منهم في تسبب خلاصه ، كائنًا أمره عن ناسه . فلما تحصَّل بأيديهم ، وجهوا لأخيه من أعلمه ؛ فبادر إليه ، وقتله في أخريات رَمَضان من سنة ٧٦٩ . واستولى إنشريق على مُلك قشتالة وليون ؛ وهو بها إلى الآن ، معبورُ بفتنة عظيمة وحروب دائمة ، هنىء المسلمون لها برد الحياة ، وجلت نِعَمُ الله لدينهم . والله المسؤول في صلة إلطافه للمسلمين ، وإجمال صنائعه للدين بفضله !

ونشير بعد هذا إلى نَسْل مُلوك بُرْتقال على سبيل الإلماع والإشارة ؛ فنقول :

أول من انفرد بِمُلك بُرْتقال ، واقتصه من ليون وقشتالة القمُرُ إنشريق الذي تزوج بنت ألفنش مُلك قشتالة وليون ؛ وقد نبه عليه . ثم ملك بعده ابنه ألفنش وتسمي دوقًا ، ثم بعد ذلك ملكًا ، بادى رُعاياهم بالعدل . ثم ملك بعده ألفنش بن دون سنانجه . ثم ولي بعده ابنه دون سنانجه ابن دون ألفنش ، وخليع عن الملك . ثم ملك عوضًا منه أخوه دون

ألفنش . ثم ملك بعده دونيش بن دون ألفنش . ثم ملك بعده دون ألفنش . يقول الحكيم : وهو الآن مُلك بأرض بُرْتقال . قلت : وهذا هو الذي أمدَّ صاحب قشتالة يومَ طريف بنفسه ؛ وكان مصافته بإزائنا أهل الأندلس ، وحملنا عليه ، وكدنا نقضه لولا أنهم جعلوا جيشًا وراءهم فاصلاً عن المَلِكَيْن ، يمدُّ من ظهر به اختلال وتضعُّع ؛ فبادر إلى عدوتنا فقواه وسبب له الظهور . ولما مات ، تولَّى الملك بعده ولده ؛ ولم تطل مدته ؛ فهلك ؛ فملك بعده ابن له فوق المحتلم ؛ وهو خنزير بُرِّي حاول صيده . ثم ملك بعده ابن له فوق المحتلم ؛ وهو ملك بُرْتقال الآن ؛ واسمه دون بطْرُه .

وإذ فرغنا منهم ، فنشير كذلك إلى ملوك أرغون وبرجلونة ؛ فنقول : أول من انفرد بها ، واقتطعها ، دون رَمِيْرُه ابن مُلك كنارة ، حسبًا نبه عليه قبل ؛ وهلك قتيلًا في حرب للمسلمين . وتولَّى بعده أخوه سنانجه ، ونازل مدينة وشقة من مُدُن الإسلام بشرق الأندلس ؛ فأصيب بسهم قضى عليه . وملك بعده ابنه دون بطْرُه . ثم ملك بعده أخوه دون ألفنش . ثم ولي بعد أخوهما دون رَمِيْرُه ؛ وكان مُونجًا ، أي صالحًا عابدًا . ولما هلك ، ملك بعده ابنته ، وصيرت الملك إلى زوجها دون رَمِيْرُه ؛ فملك أرغون لذلك . ثم هلك ؛ فولي بعده دون ألفنش قَمَزُ برجلونة . وملك بعده ابنه دون بطْرُه بن دون ألفنش . ثم ولي بعده دون جايِمَش ، وهو الذي ملك مدينة بلنسية من يدي أبي جَمِيل رَيَّان بن مرَدَنِيش وغيرها من الجهات . ثم ملك بعده ابنه دون بطْرُه . ثم ولي بعده ابنه دون ألفنش . ثم ملك بعده دون جايِمَش بن دون بطْرُه أخوه ؛ وهو الذي نازل المريَّة على عهد نصر من بني نصر ؛ كان شهير القوة والرأي والعزيمة . ثم ولي بعده ابنه ألفنش بن دون جايِمَش . وولي بعده دون بطْرُه بن دون ألفنش ؛

وَهُوَ مَا تَرْغُونَ فِي الْيَوْمِ . تَهَيَّ أَنْزِلْهُمْ .

وَقَدْ وَفَيْتُمْ بَعْضَ مَا أَرَدْنَا مِنْ هَذَا الْقِسْمِ ، وَسَامَحْنَا الْقَلَمَ فِيهِ ،
لَكُنْ لَوْطَنَ ، الْوَاقِعَ فِيهِ التَّارِيخُ ، وَطَنَنَا الَّذِي لَا نَعُذِرُ بِهِ فِي جَهْدِ
مَشْهُورٍ مِنْ أَحْدَاثِهِ ، وَلَمُتَعَارَفٍ مِنْ كَوَائِنِهِ ، مَعَ الْاِخْتِصَارِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ،
وَقَصْدِ الْإِذْعِ . وَبِتِلْوَةِ فِي الْقِسْمِ الثَّالثِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَغْرِبِ مِنَ لَدُنْ
أَحْوَازِ رَقَّةٍ إِلَى السُّوسِ الْأَقْصَى وَسَاوِلِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ . وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْإِعَانَةِ سُبْحَانَهُ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ! وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ
الْوَكِيلُ !

انتهى

القسم الثاني من

كتاب أعمال الأعلام ،

في من يبيع قَبْلَ الاحتلام ، من ملوك الإسلام ،

والحمد لله رب العالمين

٤

الفهرس

الفهرس الاول

في اسماء الرجال والنساء

أ

- | | |
|---|--|
| احمد بن حنين الداني ٥٦ | ابن الآبار أبو عبد الله ٢٧٣ |
| احمد بن الحسين بن قمي أبو القاسم ٢٤٨ ، ٢٥٢ | أبان بن عبد الله الأموي ٢٩ ، ٣٢ |
| احمد بن حنبل ٨٦ | ابراهيم بن أحمد بن الحداد ٥٠ |
| احمد بن خالد ٤٩ ، ٥٠ | ابراهيم بن احمد بن مفرج بن هيثم ٢٦٠ ، |
| احمد بن دراج القسطلتي أبو عمرو ١٢٣ ، | ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ |
| ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ | ابراهيم بن برّاز ٢٦٥ |
| احمد بن رشد ٢٥٢ ، ٢٥٣ | ابراهيم بن حجاج الاشيلي ٢٧ ، ٢٨ ، |
| احمد بن سعيد بن حزم ٣٨ ، ٨٠ ، ١٠٦ - | ٣٤ ، ٣٥ |
| ١٠٨ | ابراهيم بن أبي الحسن بن اشقيلولة أبو اسحاق |
| احمد بن سعيد بن محمد بن الحصار القرطي ٥٣ ، | ٢٨٧ ، ٢٩٠ |
| ٥٥ | ابراهيم بن عبد الله الزبيري القلالي ٤٩ |
| احمد بن سليمان بن محمد بن هود المقندر بالله | ابراهيم بن محمد الرحمن القيسي ٥٠ |
| ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ | ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن الشرقي ٥٣ |
| احمد بن عبادة ٤٩ | الاهري ٥٤ |
| احمد (بن عباس) بن أبي زكرياء الوزير ٢١٦ | الاجري ٥١ ، ٥٣ |
| احمد بن عبد الله الباجي الاشيلي ٥٤ | احمد بن ابراهيم بن أبي سفيان الغافقي ٥٥ |
| احمد بن عبد الله بن الحسن القرطي ٥٣ | احمد بن ايوب بن أبي الربيع ٥٦ |
| احمد بن عبد الله بن محمد بن عروس | احمد بن برد أبو حفص (كاتب الرسائل) |
| الموروري ٥٤ | ٩١ ، ٩٥ |
| احمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان ٤٤ ، | |
| ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٢٦ | |
| احمد بن عبد ربه (الشاعر) ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٥ | احمد بن بقي بن مخلد ٢٩ |
| احمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الكلاعي ٥٣ | احمد بن حجر الكثر ٢٤٨ |

أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن عاصم ٢٥٨ ،
 ٢٥٩
 أحمد بن عبد العزيز بن عيشون ١٩١
 أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٥٣
 أحمد بن علي بن أحمد أنباغاني ٥٣
 أحمد بن عمر بن عبد الله بن منظور ابن
 خفيف ٥٦
 أحمد بن عفيف القرطبي ٥٥
 أحمد بن عيسى بن المكرم النافقي ٥٥
 أحمد بن قرقان ٥٥
 أحمد بن محمد بن أحمد بن حدين ١٧٦ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
 ٢٦٣ ، ٢٦٤
 أحمد بن محمد ابن حكيم ابو عمر ٨٥
 أحمد بن محمد بن سليمان بن هود المستعين بالله
 ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٤
 أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي ٥٦
 أحمد بن محمد بن عبد الله بن قاسم ٢٠٨
 أحمد بن محمد بن عبد الله بن هاني ابن
 الباب ٥٢
 أحمد بن محمد القيشطيطي ٥٥
 أحمد بن محمد بن مكيال الرضاقي القرطبي ٥٥
 أحمد بن محمد بن ملحان ٢٦٤
 أحمد بن مسلمة بن حجاج ٣٥
 أحمد بن موسى ابو جعفر (الوزير) ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٤١
 أحمد بن هلال ٥٣
 أحمد بن يحيى بن أحمد العامي ابن اللثاق ٤٤
 أحمد بن يوسف بن إسحاق الاستنجي ٥٦
 أحمد بن يوسف بن الامام ٥١
 ابن الاخر ٤٤
 ابن أبي الاحوص ابو الحجاج ٢٩٩
 ادريس بن عبد الله ٢٩٧
 ادريس بن عبد الله بن ادريس ٥٢
 ادريس بن علي بن حمود ١٣١ ، ١٤٠ ،
 ١٤٣ ، ١٤٩
 ادريس المأمون الموحد ٢٧٩
 ادريس بن يحيى بن ادريس بن علي بن
 حمود ١٤٢
 ادريس بن يحيى بن علي بن حمود ١٤١
 اذفونش ١٢
 اذفونش بن فردلند ١٥٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٣٣٠
 اركاة ٣٣٠
 اردون بن اذفونش (ملك جليقة) ٢٠
 اردوني بن رمير ٣٢٤ ، ٣٢٥
 ارمقند ١١٥
 ابن اسباط - عبد الرحمن
 اسحاق ٥٨
 اسحاق بن عطاف ٢٧
 اسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي
 ١٤٢ ، ٢٣٧
 ابو اسحاق الاليري ٢٣١
 ابو اسحاق ابن أبي القاسم ابن الحكيم ٢٩٢
 اسلم بن عبد العزيز ٥٧
 اساعيل بن اسحاق ابن الطحان ٥٥
 اساعيل بن عباد الراسي ٥٦
 اساعيل بن عباد بن محمد بن عباد ١٥٦
 اساعيل بن عبد الرحمن بن دنون ١٧٧ ، ٢٠٥
 اساعيل بن فرج بن نصر أبو الوليد ٢٩٤ -
 ٢٩٥
 اساعيل بن محمد بن عباد ١٢٠ ، ١٣٧ ،
 ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٨
 اساعيل بن يوسف بن اساعيل بن فرج بن نصر
 ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
 ابن اشقيولة ابراهيم بن أبي الحسن ، ابو
 الحسن ، عبد الله بن ابراهيم ، علي بن

ابراهيم ، علي بن أبي محمد ، فرج بن أبي
 محمد ، محمد بن أبي محمد ، أبو محمد بن
 أبي الحسن ، يوسف بن أبي محمد
 اصبح بن الفرج بن الفارس الطائي ٥٢
 ابن الاصبح = عبد المهيمن بن مروان ،
 مروان بن عبد الملك
 أبو الاصبح (وزير المستعين ابن هود) ١٧٤
 الآصلي ٤٤
 ابن اضحى (قاضي غرناطة) ١٧٦ ، ٢٥٨
 اعتماد (جارية المتمد وأم ولد) ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٦٤
 ابن الاعرابي ٥١
 أفلح الصقلي ٢١١
 اقبال الدولة (لقب علي بن مجاهد) ٢٢٠
 البيرة (دولة) ٣٢٧ ، ٣٢٨
 الفنش بن اردوني ٣٢٤
 الفنش بن الفنش ٣٣٦
 الفنش بن ازريق ٣٣٦
 الفنش بن برمودة ٣٢٨
 الفنش بن بطر ٣٢٣
 الفنش بن بطر ٣٣٧
 الفنش بن جاش ٣٣٧
 الفنش بن شاذي ٣٣٧
 الفنش بن فراند ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 (وانظر ايضا اذفونش بن فردلند) ٣٣٢
 الفنش بن فراند ٣٣٤
 الفنش بن فرويلة ٣٢٤
 ابن الياس ٢٧
 امرؤ القيس ٤٥
 أمية بن محمد بن حمزة ٥٢
 أمية بن عبد الرحمن بن هشام العراقي ١٣٨ ،
 ١٣٩
 الامين ١٣٢
 ازريق ٣٣١

ازريق بن الفنش ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
 الانطاكي ٥٥
 الانقر - يحيى التجيبي
 ابن الانطاكي ٥١
 الانير = هاشم بن عبد العزيز
 ايريلي بن الفنش ٣٢٣
 ابن ائبن ٥٠
 ايوب بن حبيب اللخمي ٦
 ايوب بن عمر بن حفصون ٣٢
 أبو أيوب الفريشي ٨٥ ، ٨٦
 ابو أيوب (عم الحكم بن هشام) ١٥

ب

الباجي ٥٣
 الباجي - عبد الله بن محمد بن علي ، محمد بن
 أحمد بن عبد الله ، ابو الوليد
 باديس بن جوس بن ماكسن الصنهاجي ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠
 باديس بن منصور بن بلقين بن زيري ٢٢٧
 الباروني المزني ٣٠٠
 ابن الباكيس = سليمان بن أيوب
 ابن بجامة الاليري ٥٠
 البخاري ٢٧٦
 بدر (مولد عبد الرحمن الداخل) ٨
 ابن برجاء ابو الحكم ٢٤٩
 ابن برطال ابو جعفر ٢٩٩
 ابن بركة = محمد بن محمد
 ابن بركة = عبد الله بن محمد
 برمودة ٣٢٤
 برمودة بن اردوني ٣٢٨ ، ٣٢٩
 برمودة بن الفنش بن اردوني ٣٢٨
 برقالة ٣٣١

ابو بكر ابو عبد الله ٢٧٦

بن سمام ١٣٥، ١٩٠

النسفي أبو الاصم ٣٠٠

شر الصقلي ١٠٩

ابن شر ٥٤

سرى الفتي ١٠٤

شبر الفتي ١٠٤

ابن بطل (الثائر) ٢٠٩

ابن بطل - محمد بن زكريا

بطر' بن الفنش ٣٣٥، ٣٣٦

بطر' بن جاش ٣٣٧

بطر' بن شاحه ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧

ابن بكر ١١٧

ابن بكر ابو عبد الله ٢٩٩

أبو بكر بن اسحاق ابن السليم ٤٩

أبو بكر بن الحديدي ١٧٧، ١٧٩

١٨٢

أبو بكر الرقيمي ٢١٧

أبو بكر بن عبد العزيز ابن رويش

١٩٥، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٠٣

أبو بكر ابن غازي (الوزير) ٢١

أبو بكر ابن القوطية ٥٠

أبو بكر بن محمد ابن الحكيم ٣٤

أبو بكر بن مسعود ٢٩٩

أبو بكر بن يحيى ٢٧

بلايه بن فافيلة ٣٢٢، ٣٢٣

بلج بن بشر القشيري ١٥٣، ٢٥٢

بلقين بن باديس بن حنوس بن زيري

٢٣٠، ٢٣١

بلقين بن حنوس بن ماكن بن زيري ٢٣٠

بلقين بن يوسف بن زيري ٢٢٨

بليق الفتي ١٠٤

ابن البناء خلف

البياني ابو عبد الله ٣٠٠

ت

تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين

٢٤٧، ٢٤٨

ابن التاكثري ١٩٥، ٢٢٥

التجاني - محمد بن سعيد

التلساني ابو الحسن ٣٠٠

التلساني أبو الحسين ٢٧٦

تم بن بلقين بن باديس بن زيري

٢٣٤، ٢٣٦

ث

ثابت ٥٣

ثعلبة بن سلامة العاملي ٧

الثفري (القائد برسية) ٢٥٨

ثوابة بن سلمة الجذامي ٧

ج

ابن جابر أبو اسحاق ٣٠٠

ابن جابر ابو عبد الله ٢٩٩

جاقمه (ملك ارغون) ٢٧٣

جاشه بن الفنش ٣٣٢

جاشه (ملك برجلوة) ٣٣٧

جاشه ابن بطر' ٣٣٧

ابن جبير - عبد الله بن محمد

ابن جحاف = جعفر بن جحاف

ابن الجدة ابو الحسن ٢٤٢

ابن جريج = عبد الرحمن بن سعيد

ابن 'جزي' - يوسف بن عبد الرحمن

جعسوس (لقب القاضي علي بن الحسن) ٧٨

جعفر بن جحاف ابو محمد ١٨٢،

٢٠٣ - ٢٠٥

جعفر بن عثمان الصعفي ٤٠، ٤٢، ٤٤

٦٠، ٦١

جعفر بن علي ٤٢

جعفر بن علي ابن الاندلسي ٦٣، ٦٥

٢٣٧، ٢٧٧

جعفر بن عمر بن حفصون ٣٢، ٣٣

جعفر الفتي ١٣٨

ابن أبي جعفر (قاضي مرسية) ١٧٦

ابن الجفان ٢٧٦

ابن جهم ٥٢

جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم ١٣٨

١٣٩، ١٤٧، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦

٢٠٢، ٢٣٨

ابن جهور = جهور بن محمد، عبد الرحمن بن

محمد، عبد الملك بن محمد، محمد بن جهور،

أبو موسى

جوان ابن اذفونش ٢٩٥

جود (أم علي بن مجاهد) ٢١٩

ابن جودي = سعيد بن سليمان

جودر الصقلي ٦٠

ابن الجباب ابو الحسن ٣٠٠

ح

ابن الحاج ٢٩٩

ابن الحارث ٥٤

حباسة بن ماكن بن زيري ٢٢٩

حبسوس بن ماكن بن زيري الصنهاجي

١٢١، ١٣٦، ١٤٠، ٢٢٩

ابن حبس ابو بكر (الشاعر) ٢٥٩

ابن حجاج = هاشم بن يحيى

ابو الحجاج بن نصر ٢٩٢، ٢٩٣

ابن الحجام = محمد بن علي

ابن الحداد = ابراهيم بن أحمد

ابن الحداد ابو عبد الله ١٤٠

ابن الحديدي = أبو بكر، محمد بن يحيى

ابن سعيد

ابن 'حدير' ١٢٠

ابن 'حدير' = احمد بن محمد، موسى بن

مروان

ابن الحداد - محمد بن يحيى

ابن حذلم ابو عبد الله ٢٩٩

حذيفة بن الاحوص القيسي ٦

الحزب بن عبد الرحمن الثقفي ٦

ابن حريل = عبد الرحمن بن أحمد بن محمد

الحريري ٥٢

ابن حريش = الليث

ابن حزم ٥١، ٥٢، ٥٣

ابن حزم ابو محمد ١٤، ٢٦، ١٣٢

١٤٢، ١٩٤

ابن حزم ابو المغيرة ١٩٧

ابن حزم = أحمد بن سعيد

حسام الدولة (لقب عبد الملك بن رزين)

٢٠٥، ٢٠٦

حسام بن ضرار - ابو الخطار

الحسن ١٣٢

حسن بن احمد بن عبد الودود ٦٣، ٦٤

الحسن بن حي بن عبد الملك التجي ٥٣

الحسن بن سعد ٤٩

حسن بن علي بن حمود ١٤٠

الحسن بن القاسم بن حمود ١٣٣

حسن بن القاسم بن قنون ٦٦

حسن بن مجاهد العامري ٢٢١

حسن بن محمد بن ذكوان ٤٨

حسن بن يحيى بن علي بن حمود ١٤٠

ابن الحسن ٥٣

ابو الحسن ابن اشقيلولة ٢٨٧

ابو الحسن المريني ٢٩٨

حناء الشيرازية (أمّ المستكفي العباسي) ١٣٦
 ابن حسون = الحسين بن الحسين ، علي بن الحسين
 الحسين بن احمد بن الحسين بن قتيّ ٢٥١ ، ٢٥٢
 الحسين بن الحسين بن عبد الله بن حسون ابو الحكم ٢٥٥ ، ٢٥٤
 ابن الحشاء = أبو زيد
 ابن أخي حصاد (الناثر) ٢١٠
 الحصار = أحمد بن سعيد بن محمد
 حفص بن عمر بن حفصون ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤
 أبو حفص بن عبد المؤمن بن عليّ ٢٧١
 حكم بن بشر ٨٦
 حكم بن سعيد بن حكم الاموي ابو عمر ٢٧٧ ، ٢٧٦
 حكم بن سعيد الفزاري ١٣٨
 الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ١١٣ ، ١٢١
 الحكم بن عبد الرحمن الناصر المستنصر بالله ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ١٠٤ ، ١٥٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٧
 الحكم بن عبد الرحمن ٤٨
 حكم بن عكاشة ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨
 الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٥٩ ، ١٧٨
 ١٤ - ١٨
 ابن حكم = حكم بن سعيد ، سعيد
 ابن الحكيم أبو بكر بن ذي الوزارين ٣٠٠
 أبو زكرياء بن أبي القاسم
 حمد بن عمار الزاهد ٥٥
 حماس بن مروان ٤٩
 حمام بن أحمد بن عبد الله بن حمام ٥٥

ابن حمام = حمام بن أحمد
 ابن حمدان ٥٢
 ابن حمدين = أحمد بن محمد بن أحمد
 حمود بن غالية ٢٥٦
 حيّ بن يحيى اليحصي أبو الصباح ٨
 ابن حيّ = الحسن بن حيّ
 ابن حيان حيان ابن خلف ابو مروان ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧

خ

ابن خالد ٥١
 ابن خالد = عبد الرحمن بن أحمد بن نصر الخزاعي ٥١ ، ٥٢
 ابن خزر = محمد بن عليّ بن محمد خزرون الترنجاني ١٥٥ ، ٢٣٩
 خطاب بن مسلمة الايادي ٥١
 ابو الخطار حمام بن ضرار الكلي ٧
 ابن الخطيب (المؤلف) ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٦٤ ، ٢١٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ - ٣٣١ ، ٣٣٣ - ٣٣٤
 ابن خفاجة ابو اسحق ٥
 ابن خفيف = أحمد بن عمر بن عبد الله خلف بن البناء الامي ٥٥
 خلف بن حسين (أبو ابن حيان) ٧٠
 خلف بن سعيد بن أحمد الازدي ٥٦
 خلف بن عيسى بن سمد الخير بن أبي درهم ٥٤
 خلف الفقي ١٠٠

خلف بن مروان الصحري ٥٦
 خلف بن نجاح (القائد) ١٥٠ ، ١٥١
 ابن خميس ٢٥٤
 خبيل ابو الحسن الرئيس ٢٥٩
 خير بن شاكر ٢٧
 خيرة الصيقل العامري ٢٢٢ ، ٢٢٥
 ٢٢٦
 خيران الفتي العامري ١٠٤ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤
 ٢٠١ ، ٢١٠ - ٢١٦

د

الداني = احمد بن حسين
 ابن دحون = عبد الله بن يحيى
 ابن دحم ٥٠
 ابن دراج المظلي = أحمد
 ابن ابي درهم = خلف ابن عيسى
 ابن دُرّي ٩٨
 ابن دهلم ٥٥
 الدينوري ٥٠
 ابن رشيق ٥٢
 ابن رشيقي = عبد الرحمن الرصافي ابو عبد الله الشاعر ٢٦٦
 رضوان (مولاي بني نصر) ٣١١
 الرعيني ابو عبد الله ٢٩٩
 ابن رفاعه ٥٠
 ابن الرقيق ٩٤
 رمير بن اردونه ٣٢٥
 رمير بن الفنس بن بطر ٣٢٤
 رمير بن شانه ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧
 زميك ١٥٩ ، ١٦٤
 زميكية ١٥٩
 ابن الرميحي ٢٨٦
 ابن الرق (صاحب قلرية) ٢٥١
 ابن روبش = ابو بكر بن عبد العزيز ريّ قرحه (لقب رُدمير بن شانه) ٦٣ ، ٦٥
 ريم ٣٠٨
 ريموند ٣٣٧

ذ

ابو ذر ١٨٣
 ابن ذكوان = أحمد بن عبد الله ، حسن بن محمد ، محمد بن احمد ، محمد بن عبد الله الذُلفاء (أمّ المظفر عبد الملك بن ابي عامر) ١٠٩
 ذو النُرف ٣٣٢

ر

الراضي بن سعيد بن عباد ١٦٣

عبد الملك بن رزيق بن هديس بن حلف
٢٠٦، ٢٠٥
عبد الملك لعمري (حد بني عمر) ٥٩
عبد الملك بن عبد الرحمن بن معاوية الأموي
المعروف بالبنسي ١٦
عبد الملك بن عبد العزيز (قاضي بنسبة) ٢٥٦
عبد الملك بن قطن الفهري ٧٠٦
عبد الملك بن متيوه ١٧٧
عبد الملك بن محمد بن حمور ١٤٨، ١٤٩ -
١٥١
عبد الملك بن محمد بن أبي عامر المظفر ٧٠
١٧١، ٨٢، ٨٣، ٨٩، ٩٠
٩٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٩٣، ٢٢٧
عبد الملك بن مروان بن الحكم ٩، ٦
١٠، ٤٧، ٣٠٨
عبد الملك بن منذر ٥٧
عبد الملك بن هذيل التميمي ٤٩
عبد المهيمن بن مروان بن الأصم ٥٥
عبد المؤمن بن علي الموحدي ٢٥١، ٢٥٤
٢٥٦، ٢٦٥، ٢٦٩
عبد الوهاب (الثائر) ٢٧
ابن عبد الوهاب أبو عبد الله ٢٩٩
عبدون بن خزرون الرنداجي ١٢٢
٢٣٨، ٢٣٩
ابن عبدون أبو محمد الوزير الشاعر ١٨٦ -
١٨٨
عبيد الله بن الوليد القطبي ٤٩
ابن عبيدة أبو بكر ٢٩٩
عتاب بن مروان بن عتاب ٥١
ابن عتاب أبو عبد الله ٥٧
عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق المسكزي ٢١
عثمان بن سعيد اللخمي الشذوني ٥١
عثمان بن عفان ١٠، ٢٢٨
عثمان بن أبي العلى ٢٩٦

عثمان بن أبي سعة الخثعمي ٦
ابن عجب - عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد
ابن العربي أبو عبد الله ٣٠٠
ابن عروس - أحمد بن عبد الله بن محمد
عريب (المؤرخ) ٢٠
ابن العريف أبو العباس ٢٤٩
ابن العريف أبو عبد الله ٢٩٩
عز الدولة (لقب أحمد بن محمد بن عبد الله
ابن قاسم) ٢٠٨
ابن عزوز أبو القمهر (الثائر) ٢٤٨
عزير ٥٨
العزير بن اسحق بن محمد بن عبد الله البرزالي
٢٣٧، ٢٣٨
عزير بن أبي مروان بن خطاب ٢٧٤ - ٢٧٥
عزير بن يوسف بن سعد بن مردنيس أبو
سلطان ٢٧٢
ابن عسقلجة - عمر
عطاف اللخمي ١٥٢، ١٥٣
ابن عفيف ٤٩
ابن عفيف = أحمد
عقبة بن الحجاج السلوي ٦
ابن عشاكة = حكم بن عكاشة
العكبي ٢٣
الملاء بن مغيث الجذامي ٩
ابن علقمة - محمد بن الحاج بن عبد الرحمن
علي بن إبراهيم بن أبي الحسن ابن اشقيولة
٢٨٧
علي بن أحمد (الفقيه) ٧٧
علي بن الحاج (القائد المراتبي) ١٧٣،
١٧٥
علي بن الحسن الملقب بجمسوس ٧٨، ٧٩
٨٠
علي بن الحسين بن عبد الله ابن حسون ٢٥٥
علي بن حمود الادريسي الحنفي ١١٩، ١٢١

١٢٧، ١٢٨ - ١٢٩، ١٣٠، ١٤٠
١٤٢
علي بن أبي طالب ١٣٢
علي بن علي بن نصر ١٦
علي بن عيسى بن ميمون ٢٤٨
علي بن كاشة ١٦
علي بن محمد الدهمري ١٧١، ٢١٩
٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢
علي بن أبي محمد بن أبي الحسن ابن اشقيولة
٢٨١
علي بن يوسف بن تاشفين ١٧٤، ١٧٥
٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢
عماد الدولة (لقب سالم بن يوسف بن هود)
٢٨٠
عماد الدولة (لقب عبد الملك بن أحمد بن هود)
١٧٤
ابن عمار = محمد بن عمار
عمر بن حفص بن جعفر المدعو بابن حفصون
٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١ -
٣٤، ١١٦
عمر (الخليفة) ١٠
عمر بن عباد الرعي ٥٤
عمر بن عبد الله بن علي ٣١٤
عمر بن عبد ربه الماعفري ٤٥
عمر بن عبد العزيز ١٢، ١٤٤
عمر بن عسقلجة ٧٨
عمر بن محمد بن إبراهيم ابن الرافعي الابري
٥١
عمر بن محمد بن عبد الله ابن الأفطس المتوكل
١٨٠، ١٨٤ - ١٨٦
عمر بن محي البطوئي ٢٨٨، ٢٨٩
عمر بن مضمهر الهثولي ٢٧
أبو عمر بن عبد الله بن عبد البر النميري ٥٠
أبو عمر بن عبد الرحمن القرداجي ٥٧

أبو نمر الفتوي (والي قرطه) ٢٥٣
عميرة بن الفضل ١٩٤
ابن عميرة أبو المطرف ٢٧٣، ٢٧٥،
٢٧٦
ابن عذ ٢٤٩
أبو عذ (السلطان المري) ٣٠٥، ٣٠٦
عذر المقدام ١٣٤
عنيسة بن سحيم الكلبي ٦
الغنحي أبو عبد الله ٣٠٠
ابن عون الله ٩٣
عياض أبو الفضل (القاضي) ٤٤، ٤٩، ٥٧
ابن عياض (الأمير) ٢٤٨
ابن عياض (الثائر بمرسية) ١٧٦، ٢٦٠
عيسى بن أبي بكر بن مزين أبو الأصم ٢٠٩
عيسى بن سعيد (الكاتب) ٧٥
عيسى بن عذرة الاندراشي ٣٠٠
عيسى بن الملاء التدميري ٥٢، ٥٣
ابن عيسى ٥٢
ابن أبي العيش أبو الحسن ٢٩٩
ابن عيشون = أحمد بن عبد العزيز
غ
غالب (منوك الحكم) ٤٢، ٦١، ٦٢،
٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧٧
غالب بن عبد الله بن تمام الماعفري ٥١
غالب بن يوسف بن سعد بن مردنيس أبو
المظفر ٢٧٢
ابن غالب (شيخ البيازين بفراطنة) ٣٠٠
غانم بن محمد بن سعد بن مردنيس ٢٧١
ابن غانم أبو طالب
ابن غانية = حو، عبد الله بن حو، يحيى
ابن غران = يحيى
غرسية بن الفش بن اوردونيه ٣٢٤

ص

ابن صاحب الصلاة أبو عبد الله ٢٦٥
صاعد بن الحسن البغدادي أبو الملا ٦٨
٩٤، ٧٢

صالح ٥٨
صبح (زوجة الحكم المستنصر وأم هشام المؤيد)

٦١، ٦٠، ٥٩، ٤٢
سمود بن داود بن دهاش ٥٦
ابن الصفار = يونس بن عبد الله
ابن صفوان أبو جعفر ٣٠٠
صلاح الدين ٢٠
الصميل بن حاتم ٧
ابن الصنّاع أبو عبد الله ٣٠٠
الصوّاف ٥٢
ابن الصيرفي ١٨٩، ١٦٥، ١٥٧

ض

الضبي = زيادة الله

ط

طارق بن زياد ٣٢٣، ٥٩، ٦
طالوت (الفقيه) ١٥
ابن طالوت (الكاتب) ٢٣٥، ١٩٥
ابن طاهر أبو عبد الله (صاحب مرسية)
٢٥٧، ٢٠٣، ٢٠٢ - ٢٠١، ١٦٠
ابن الطحان = اسحاق بن اسحق
طرسوس المجوسي ١١٠
الطرسوتي أبو عبد الله ٣٠٠
طرفة الفقي ١٠٤
طرمجة (دونة) ٣٢٧، ٣٢٨

ابن طفيل أبو بكر ٢٦٤

طلحة بن علي البطولي ٢٨٨

طلحة بن يوسف بن سميد بن مردنيش ٢٧٢
الطنجالي أبو بكر ٣٠٠
الطوسي ٥١

ظ

الظافر بن المعتد ١٥١
الظافر (لقب عبد الرحمن بن هشام بن عبد
الجبار) ١٣٤
الظافر (لقب عبد الملك بن محمد بن جهور)
١٤٩
الظافر (لقب المعتد الاول) ١٥٧

ع

عاج (الجارية) ٢٤، ٢٥
ابن عاصم أبو عبد الله ٣٠٠
ابن عاصم = أحمد بن عبد الرحمن بن علي
العاصي بن عبد الله بن محمد الاموي ٢٩
ابن أبي العاصي أبو اسحق ٢٩٩
ابن أبي العافية الحضرمي ٣٠٠
العالي بالله (لقب ادريس بن يحيى بن علي بن
حمود) ١٤١
عبد الله القرشي التميمي القرطبي ٥٦
عبد الله بن البّاد ١٠٢
عبد الله بن محمد بن أزهر بن جبير
الاستحي ٥١
عبد الله بن محمد الصابوني المعروف بابن برله ٥٠
عبد الله بن محمد بن أبي عامر ٧٥
عبد الله بن محمد بن عبد البر التميمي ٥٠
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الامير الاموي
٣٤، ٣٢، ٣١، ٢٩، ٢٨ - ٢٦

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن اسد
الجبني ٥٤

عبد الله بن محمد بن علي ابن رفاعة الباجي ٥١
عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الافطس ١٨٢ -
١٨٣

عبد الله بن مروان ٩٩

عبد الله بن يحيى بن دحون ٥٥

ابو عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر ١٦

ابو عبد الله بن عمر الحجاب ٣٠٥

ابن عبد البر ٢١٨

ابن عبد البر التميمي = عبد الله ، ابو عمر

عبد الجليل بن وهب ٢٤٦

عبد الحميد بن منثور ٢٠٩

ابن عبد ربه = أحمد ، عمر

عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج الاشيلي ٣٥

عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد ابن عجب ٥٣

عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن حريش ٥٤

عبد الرحمن بن احمد بن نصر بن خالد ٥٥

عبد الرحمن بن اسباط ٢٤٥

عبد الرحمن بن جريش ٢٤

عبد الرحمن بن حبيب (أمير أفريقية) ٨

عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن

الامير الاموي ١٨ - ٢٠

عبد الرحمن بن دنون ١٧٧

عبد الرحمن بن رشيقي ١٦٠، ٢٠١

٢٥٧، ٢١٠

عبد الرحمن بن سعيد بن جرج ٥٥

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر

الاموي ٥٧

عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الاموي ٢٩

عبد الرحمن بن عبيد الله النافقي ٦

عبد الرحمن بن عمر بن حفصون ٣٢، ٣٣

عبد الرحمن بن مثنوي ١٧٧

عبد الرحمن بن محمد بن جهور ١٤٩، ١٥٠

عبد الرحمن بن أبي عامر المدعو بشنجون ٦٦،
٧١، ٧٣، ٨٢، ٨٩ - ٩٨، ١٠٩

١١١، ١١٢، ١٩٣
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لدين الله
٢٨ - ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٥ - ٤١، ٤٦

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد

الرحمن الناصر الملقب بالمرتضى ١٣٠

١٣١، ١٣٨، ٢٢٩

عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ٤٨

عبد الرحمن بن محمد بن يحيى بن صاعد ٥٢

عبد الرحمن بن مختار القرطبي ٥٧

عبد الرحمن بن مروان الجليقي ٢١، ٢٧

عبد الرحمن بن المشاط الزعيني ٥٣

عبد الرحمن بن معاوية الاموي الداخل ٦، ٧ -

١١، ٢٩، ٣٢٣

عبد الرحمن بن هارون ابن القنازعي ٥٤

عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ١٣٤ -

١٣٥

عبد الرحمن بن يعقوب النصور الموحد ٢٧٢

ابن عبد الرؤوف = محمد بن هشام

ابن عبد الصمد (شاعر المعتد) ١٦٥ - ١٧٠

عبد العزيز بن أفلح ٢٢٦

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر

النصور ٩٤، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٤ -

١٩٥، ١٩٦، ٢١٧

عبد العزيز (بن محمد) البكري ٢١٠

عبد العزيز بن مروان ٥٠

عبد العزيز أبو فارس (السلطان المريني) ٨٠

عبد العزيز بن موسى بن نصير ٦

عبد الكريم بن عبد الواحد بن ميث ١٢، ١٩

عبد الملك بن أحمد بن محمد بن هود ١٧٣،

١٧٤، ١٧٥

عبد الملك بن ادريس الجزيري ٧١، ٧٢

عبد الملك بن أبي الجواد ٢٧

غرسية بن شاذي ٦٣، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٣٢٥، ٣٢٩
غرسية بن فرّانديس ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠
الغشتي (المقدّم) ٢٧٩
غنصالي نونس ٣٢٨
ابن غومس (القومس) ٨٠، ٩٧، ٩٨

ق

أبو فارس عبد العزيز (السلطان المريني)
٣١٨، ٣١٧
قافيلة بن بلايه ٣٢٣
قائق الصقلي ٤٨، ٦٠
الفتح (صاحب القلائد) ١٦٠، ١٨٥، ١٩١، ٢٠٦
فتح الله بن يحيى ١٤٢
ابن فحلون ٥٢
ابن الفخار = محمد بن عمر
ابن الفخار أبو عبد الله ٣٠٠
ابن الفرّاء = محمد بن القاسم
ابن فراس ٦٤
فرّان غنصالس ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨
فرّانده الاحول ٣٣٢
فرّانده بن الفشت ٣٣٢
فرّانده بن شاذي ٣٢٨، ٤٢٩، ٣٣٤
ابن الفرج (الوزير) ١٧٩
فرج بن كنانة ١٢
فرج بن أبي محمد بن أبي الحسن ابن أشقيلة
٢٨٧، ٢٨٨
فرذلد (ملك افريجة) ٢٣
فرذلد (أبو شاذي وجدّ اذفونش) ٢٤٣
ابن الفرزي ٤٠
ابن فرّاس = البّاس
فرويلة بن الفشت ٣٢٣

فرويلة بن الفشت بن اوردونه ٣٢٥
الفرّشي الرّندي ٣٠٠
الفضل بن عمر بن محمد بن الاطلس ١٨٦
ابن فطيس = عبد الرحمن بن محمد بن عيسى
ابن الفقيه الفرّاطي ابو عبد الله ٣٠٠
ابن فهد = محمد بن عبدون بن محمد
ابن أبي الفياض ١٧، ٧٧، ١٩٣
ابن فهد = أبو محمد

ق

القاضي أبو الحسن ٥٦
ابن القابلة = محمد بن يحيى
قاسم بن أصبغ ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣
القاسم بن حمود ١١٩، ١٢١، ١٢٧
١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣
١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٥٣، ١٩٥
القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الاموي ٢٦
القاسم بن محمد بن محمد بن القاسم بن حمود
١٤٢
قاسم (ابو أمّ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد
الله بن قاسم) ٢٠٨
قاسم بن حمود المرواني ٩٥
أبو القاسم بن الحسن بن يوسف الحسني ٣٠٠
٣٠٥
أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي ٢٢٨
أبو القاسم مختار ٥٥
أبو القاسم المقرئ ٨٥
قاسطه ٣٢٤
القالموليقة ٣٢٣
ابن القبري = محمد بن وهب
القبلي = عبيد الله بن الوليد
القرشي ابو عليّ ٣٠٠

ابن قرمان أحمد
القرّاز = حكم بن سعيد
قسططين الميث ٣٧
ابن قسيّ ١٧٦
ابن قسيّ = أحمد بن الحسين، الحسين بن أحمد
ابن القطن ١٥٤

ابن قطن ٥٣

ابن قنّب أبو جعفر ٢٩٩
ابن القينة = سعيد بن يوسف
ابن القنازعي = عبد الرحمن بن هارون
ابن القوطية ٥٤
ابن القوطية = ابو بكر
القيطاطي ٢٩٩
قيس بن يوسف بن اساعيل بن نصر ٣٠٧
القيطاطي = أحمد بن محمد

ك

الكلامي = أحمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم
ابن كاشة أبو الحسن ٢٩٥
الكنبطور ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥
كوثر الفتي ١٠٤
الكوكب (اسم بن عبد الرحمن الداخل) ٨

ل

لاين قابله ٣٢٤
لبّ بن سليمان بن محمد بن هود ١٧١
ابن اللّباب = أحمد بن محمد بن عبد الله
ابن لبابة ٤٩، ٥١، ٥٧
ابن اللّباقي = أحمد ابن يحيى
ابن لبون أبو عيسى ٢٠٩
لبب الفتي ١٠٠، ١٠١، ١٠٢
ليبد بن عبد الله ٢٤٨

اللوشي أبو عبد الله ٣٠٠
اللوشي (القائد) ٢٥٥
الليث بن حريش ٥٥
ليلي ٤٥

م

ابن المارغزا (الكاتب) ٧٨
الماسي (الكثر على الموحدين) ٢٥١
ماغنه ٣٢٤
ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي ٢٢٨، ٢٢٩
مالك بن أنس ١٥، ٥٧
مالك بن محمد بن عبّاد ١٦٤
المأمون العباسي ١٦٢
المأمون (لقب عبد الرحمن بن أبي عامر) ٩٠
المأمون (لقب القاسم بن حمود) ١٣٠
المأمون (لقب يحيى بن اساعيد بن دنون)
١٧٧، ١٧٨
المأمون بن المتمدن بن عبّاد ١٥٩، ١٦٣
مبارك العامري ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦
المتأيد بالله (لقب أحمد بن محمد بن ملحان)
٢٦٤
المتني ١٢٣، ١٨٤
المتوكل على الله (لقب عمر بن محمد بن عبد الله
ابن الأظفس) ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦
المتوكل على الله (لقب محمد بن يوسف بن
هود) ٢٧٨
المتوكل (لقب يحيى حفيد المأمون ابن دنون)
٢٠٢
ابن متهو = عبد الرحمن، عبد الملك
مجاهد العامري أبو الجيش ١٩٠، ١٩٢
١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٣١٧، ٣٢٠

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صمداح
التجبي ١٨٩
محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني
٣٣٣
محمد بن عبد العزيز بن يحيى ٥٠
محمد بن عبد الملك بن محمد بن أبي عامر المعتصم
٨٨ ، ١٩٣ - ١٩٥
محمد بن عدون بن محمد بن فهد ٥٧
محمد بن عبيد الله بن الوليد المظبي ٢٢٠
محمد بن المراق ١٣٤ ، ١٣٦
محمد بن عزيز بن يوسف بن سعد بن مردنيس
٢٧٢ ، ٢٨٠
محمد بن علي بن أحمد الرئيس العروس
٢٩٢
محمد بن عيسى بن الحجام ٢٤٨
محمد بن علي بن محمد بن خزر المفراوي
٨٦ ، ٨٧
محمد بن عمار الوزير ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢
١٩١ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٥٧
محمد بن عمر (من أصحاب ابن قسي) ٢٤٩
محمد بن عمر البكري القاضي ٦٨
محمد بن عمر بن الفخار ٥٤
محمد بن عيسى (قاضي سبتة) ١٢١
محمد بن عيسى بن حسين بن سيد الدار ٥٢
محمد بن عيسى المرتلي ٥٤
محمد بن القاسم بن حمود ١٣٣ ، ١٤٢
١٤٣ ، ١٥٦
محمد بن القاسم بن القراء ٥٤
محمد بن محمد بن بركة الصابوني ٥٣
محمد بن أبي محمد بن أبي الحسن ابن اشقيولة
٢٨٧ ، ٢٨٩
محمد بن محمد بن القاسم بن حمود ١٤٢
محمد بن مرتين الفائد ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٨
محمد بن مرشد ٩٨

محمد بن معن بن صمداح التجبي المعتصم بالله
١٩٠ - ١٩٢ ، ٢٣١
محمد بن المغيرة ١١٠
محمد بن مغيرة بن عبد الملك الاشيلي ٥٦
محمد بن المنذر (الثائر) ٢٤٨ ، ٢٤٩
٢٥٢
محمد بن موسى بن عدرون ٧٧
محمد بن ميمون (صاحب الاسطول) ٢٥٦
محمد بن نوح الدمري ١٤٢ ، ١٥٥
٢٣٩
محمد بن هاني الشاعر ٢
محمد بن هشام بن عبد الجبار ٩٧ ، ٩٨
١٠٣ ، ١٠٩ - ١١٤ ، ١١٥ - ١١٦
١١٨ ، ١٢٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢
٣٠٨
محمد بن هشام بن عبد الرؤوف الانصاري ٥٥
محمد بن وادع بن محمد القرطي ٥٢
محمد بن وهب التجبي ابن القبري ٥٣
محمد بن الوليد بن أبي عامر ٥٩
محمد بن يقي بن زرب ٤٩
محمد بن يحيى بن زكرياء التميمي ٥٠
محمد بن يحيى بن سعيد ابن الحديدي ٥٢
محمد بن يحيى ابن القابنة ٢٥٠
محمد بن يحيى بن محمد بن الحداد ٥٥ ، ٥٦
محمد بن يعيش بن منذر الاسدي ٥٤
محمد بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر
٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢
محمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر الغالب
٢٨٧ ، ٢٨٨ - ٢٩١
محمد بن يوسف بن حمود التوكل ١٧٦
٢٧٧ - ٢٨٦ ، ٢٩٢
أبو محمد بن أبان الاموي ٥٦
أبو محمد بن أبي الحسن بن اشقيولة ٢٨٧
أبو محمد بن أبي حفص الموحد ٢٦١

محمد بن زكرياء بن لوطال ٤٩
محمد بن سعيد بن مردنيس ٢٥٩ - ٢٦٢
٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
محمد بن سعيد لجان ٩٩ - ١٠٢
محمد بن سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد
الرحمن لناصر ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦
١٩٦
محمد بن سليمان بن محمد بن حمود ١٧١
محمد بن شراحيل الباسي ٥٢
محمد بن عائشة (الفائد المرابطي) ١٨٢
٢٠٤
محمد بن عباد بن محمد بن عباد المعتصم ١٥١
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ - ١٦٥ ، ١٨٤
١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٤٤
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧
محمد بن عبد الله البرزالي ١٣٧ ، ١٤٠
١٥٥ ، ٢٣٦ - ٢٣٧
محمد بن عبد الله ابن ذكوان ٤٩
محمد بن عبد الله ابن شبة الاشيلي ٥١
محمد بن عبد الله بن عامر ابن أبي عامر =
النصور ابن أبي عامر
محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمين ٥٢
محمد بن عبد الله بن القاسم الاستجي ٥١
محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري ٢٠٨
محمد بن عبد الله بن محمد بن الأفطس ١٤٣
١٥٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣ - ١٨٤
محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
الاموي ٢٩
محمد بن عبد الله بن محمد القاضي المعروف بابن
أبي جعفر ٢٥٨
محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الامير الاموي
٢٠ - ٢٤ ، ٣١
محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن
الناصر ١٣٤ ، ١٣٥ - ١٣٦

٢٢٦ ، ٢٣١
بن أبي محمد أبو محمد الارحوي ٣٠٠
محمد بن عيسى التجبي ٢٢٦
بن المعروف ابو عبد الله ٣٠٠
ابن المعروف ابو علي ٣٠٠
محمد بن ابراهيم بن حجاج ٣٥
محمد بن أحمد بن سليمان بن حمود المرقس ١٦٠
١٧٢ ، ١٧٦
محمد بن أحمد بن عبد الله الباجي ٥٦
محمد بن أحمد بن عبد الله بن ذكوان ٥٦
محمد بن أحمد الحروق ٢٩٦
محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن قاسم
٢٠٨
محمد بن أحمد بن محمد بن قادم بن زيد
القرطي ٥٢
محمد بن ادريس بن علي بن حمود ١٤١
محمد بن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود
١٤٢ ، ١٤٣
محمد بن اسحاق ابن السليم ٤٨
محمد بن اسماعيل بن عباد أبو القاسم القاضي
١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ -
١٥٥
محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر
٣٠٨ - ٣٠٩
محمد بن اسماعيل المقرطي ١٠٢
محمد بن أضحي ٢٧
محمد بن بشير ١٤٦
محمد بن جهور بن محمد بن جهور ١٤٨ -
١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١
محمد بن الحاج بن عبد الرحمن بن علقه ٥٠
محمد بن حسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي
٥٢
محمد بن حزنون بن عدون ٢٣٩ ، ٢٤٠
محمد بن أبي دهم ٥٤

أبو محمد بن الشاف ٥٥
أبو محمد بن فهد الفرطبي ٥٦
محمود (أمير الدائرة) ١٣٤
مختار بن عبد الرحمن الفرطبي ٥٧
مخلد بن كيداد ٢٢٨
مذافع بن يوسف بن سعيد بن مردنيس ٢٧٢
ابن الم رابط أبو بكر ٣٠٠
المرتضى (لقب سليمان بن عبد الرحمن) ١٣٤
المرتضى (لقب عبد الرحمن بن محمد بن عبد
الملك بن عبد الرحمن الناصر) ١٣٠
ابن مرتين = محمد بن مرتين
ابن مرج الكحل أبو عبد الله ٢٧٨
ابن مردنيس = زيان بن مدافع ، سبع بن
يوسف ، طلحة بن يوسف ، سعد ، عامر
ابن يوسف ، عزيز بن يوسف ، غالب بن
يوسف ، غاثم بن محمد ، محمد بن سعد ،
محمد بن عزيز ، مدافع بن يوسف ، هلال
ابن محمد ، يوسف بن سعد
مروان بن الحكم ٤٧
مروان بن عبد الملك ٥٥
مروان بن محمد الجعدي ٧
المرواني القاضي ٥٢
بنت المروزية (أمّ المستكفي العبّاسي) ١٣٦
ابن مزين الدابر ٢٤٨
ابن مزين — عيسى بن أبي بكر ، موسى بن أبي
بكر
المستعلي (لقب القاسم بن محمد بن محمد بن القاسم
ابن حمود) ١٤٢
المستعلي (لقب محمد بن إدريس بن يحيى بن علي
ابن حمود) ١٤٢
المستعين (لقب أحمد بن محمد بن سليمان بن
هود) ١٧٢
المستعين (لقب سليمان بن الحكم) ١١٣
المستعين (لقب سليمان بن محمد بن هود) ١٧٠ المعافي ٤٩

المستكفي (لقب محمد بن عبد الرحمن بن عبد
الله بن عبد الرحمن الناصر) ١٣٥
المستكفي العبّاسي ١٣٦
ابن مسنة = سعيد
المستنصر العبّاسي أبو جعفر ٢٨٥ ، ٢٨٢
المستنصر الموحدي ٢٧٢
المستنصر (لقب حسن بن علي بن حمود) ١٤٠
المستنصر (لقب الحكم بن عبد الرحمن الناصر)
٤١
ابن مسعدة أبو عثمان ٢٩٩
ابن مسعود ٥٠
مسلة بن عبد الملك بن مروان ٧
مسلة بن محمد بن مسلة ٥١ ، ٥٣
ابن المشاط ٥٢
ابن المشاط = عبد الرحمن
المصحفي = جعفر بن عثمان
ابن مطرف ٥١
ابن المطرف التجيبي ١٧٠
المطرف بن عبد الله بن محمد الأموي ٢٨ ،
٢٩
مطروح بن سليمان الأعرابي ١١
مظفر العامري ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥
مظفر ، لقي ١٠٤
المظفر (لقب باديس بن جبتوس بن زيري)
٢٣٠
المظفر (لقب عبد الله بن بلقين بن باديس)
٢٣٣
المظفر (لقب عبد الملك بن محمد بن أبي عامر)
٨٣
المظفر (لقب عيسى بن أبي بكر بن مزين)
٢٠٩
المظفر (لقب محمد بن عبد الله بن الألفطس)
١٨٣
المعافي ٤٩

معاوية بن هشام الأموي ٩
المعتز (لقب هشام بن محمد بن عبد الملك)
١٣٩
المعتصم (لقب محمد بن معن بن صادح التجيبي)
١٩٠
المنعص (لقب عبيد بن محمد بن عبيد) ١٥٥
المعتلي (لقب يحيى بن علي بن حمود) ١٣٣
المنعم (لقب محمد بن عبيد بن محمد بن عبيد)
١٥٦
المعري ١٨٤
المعز بن أساعيل الشيعي ٢٢٨
المعز بن باديس ٢٢٩
معز الدولة بن محمد بن معن بن صادح التجيبي
١٩١ ، ١٩٢
ابن معمر السعوي ٢١٨
معن بن عبد العزيز بن صادح التجيبي أبو
الاحوص ٦٣ ، ٦٤ ، ١٨٩
المعطي = محمد بن عبيد الله بن الوليد
ابن معيث = عبد الكريم بن عبد الواحد
مفرج ههك ٢٦٣
ابن مفرز ٢٧٦
مقاتل (صاحب طرطوشة) ١٧١
ابن مقبل = أبو الوليد
المقتدر (لقب أحمد بن سليمان بن هود) ١٧١
المقري = أبو عمرو ٢١٨
ابن المكرم النافقي = أحمد بن عيسى ، سعيد
ابن عيسى
ابن الكوي ٥٤
ابن مكبال = أحمد بن محمد
ابن الملاح = سعيد بن عبد الملك
ابن مناح = أحمد بن محمد
المنتصر (لقب عيسى بن بلقين بن باديس) ٢٣٦
ابن منثور = عبد الحميد

منذر بن اسحاق بن السليم ٤٩
منذر بن سعيد البلوطي ٣٩
المنذر بن سليمان بن محمد بن هود ١٧١
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الأمير الأموي
٢٣ - ٢٥ ، ٢٦ ، ٣١
منذر بن يحيى التجيبي ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٨٩
١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦
ابن المنذر الوزير ٣٤
المنصور (لقب عبد الملك بن محمد بن جهور)
١٤٩
المنصور محمد بن أبي عامر ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٨
٥٩ - ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦
٩٨ ، ٩٩ - ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١
١١٢ ، ١١٧ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨
١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٢
المنصور العبّاسي أبو جعفر ٥ ، ٩ ، ١٥٦ ،
٣٠٨
المنصور بن عمر بن الألفطس ١٨٦
المنصور بن الناصر بن علفاس ١٩١
ابن منظور أبو بكر ٢٩٩
ابن منظور أبو عمر ٢٩٩
المهدي ابن تومرت ٢٤٧ ، ٢٤٩
المهدي (لقب أحمد بن الحسين بن قسي)
٢٤٩
المهدي (لقب محمد بن إدريس بن علي بن
حمود) ١٤١
المهدي (لقب محمد بن هشام بن عبد الجبار)
١٠٩
المهلب بن أحمد بن أبي صفرة التميمي ٥٦
ابن مهلب الكاتب ٢٢٥
ابن مهلب أبو عبد الله ٢٨٦
ابن أبي الموت ٥١
المؤمن (لقب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن
أبي عامر) ١٩٥

ابن المؤيد بن المردى ابو احسن ٣٠٠
 مورثة ص ٣٢٠
 موسى بن ابي بكر بن مزين ٢٠٩
 موسى بن عزرون ٧٨
 موسى بن مروان بن الحدي ٢١١
 موسى بن مصر ٣٢٢، ٥٩
 ابو موسى بن ابي الحزم بن جهور المرشدي ٥٣
 الموقف . لقب محمد بن مري ٢٢٠
 مؤمنة بنت العال بالله ٢٨٧
 الميزاني ١٠٤
 ابن ميمون - عبي بن عيسى ، محمد

ن

النابلي ابو علي ٥٠
 الناصر (لقب باديس بن حبوس بن زيري)
 ٢٣٠
 الناصر (لقب عبد الله بن بلقين بن باديس)
 ٢٣٣
 الناصر (لقب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله)
 ٢٨
 الناصر (لقب عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر)
 ٩٠
 الناصر (لقب علي بن حمود) ١٢٨
 الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد
 المؤمن ٣٣١، ٢٧٠، ٢٦٩
 ابن نبيل = يحيى بن عمر
 نجاء الملوي ابو الفوز ١٤١
 نجاء الفتى ١٠٤
 النحاس ٥١
 نصر الفتى ١٠٤
 نصر بن محمد بن نصر ٣٣٧، ٣٣٤، ٢٩٤
 ابو نصر بن يحيى الحيصي ٢١٠
 نظام الدولة بن احمد بن محمد بن قاسم ٢٠٨

هلال بن محمد بن سعد بن مردنيس ٢٧١
 ابو هلال - يوسف
 ابن الهادي ١١١
 ابن هشك = ابراهيم بن احمد ، مفرج
 ابن الهناء ابو القاسم المالقي ٣٠٠
 الهيثم بن عبيد الكلبي ٦

و

واثق الفتى ١٠٤
 الوادياني ابو الفرج ٢٩٩
 واضح الصقلي ٤٨، ١٠٤، ١١٢، ١١٤
 ابن واهد = يحيى بن عبد الرحمن
 الوحدي ابو محمد ٢٥٥
 ابن وداعة ١١٨
 ابن الورد ٥١، ٥٤
 ابن وزير (الناظر) ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
 ٢٥١
 ابن وزير (جد المؤلف) ١٥
 ابن وضاح ١٢، ٥٧
 ابن وقار = يوسف
 الوليد بن عبد الملك بن مروان الاموي ٦
 ٤٢، ٣٢٢
 ابو الوليد البافجي ٥٧
 ابو الوليد بن مقبل ٥٦
 وهب ٥٠
 وهب بن محمد بن عمود الاموي ٥٣
 وهب بن مسرة ٥١، ٥٢
 ابن وهب = عبد الجليل
 الوهي (الناظر) ٢٤٨

ي

ياقوب ٦٧
 يحيى بن احمد الحيصي ٢١٠
 يحيى بن اسماعيل بن دنون المؤمن ١٤٩
 ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩
 ١٧٧ - ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٩٦
 ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٣٠
 يحيى النجبي الانقر ٢٧
 يحيى التراس ١٠١
 يحيى بن حسن بن علي بن حمود ١٤٠
 يحيى بن سلامة الكلبي ٦
 يحيى بن عبد الله الليثي ٥٧
 يحيى بن عبد الرحمن بن واهد ٤٩
 يحيى بن علي بن حمود ١٢٧، ١٣١، ١٣٢
 ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٠، ١٥٥
 يحيى بن علي (ملك الزاب) ٤٢
 يحيى بن عمر بن حسين ابن نبيل ٥٥
 يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق
 ٢٩٦
 يحيى بن غانية ٢٥٣، ٢٥٤
 يحيى بن غران ٢٠٩
 يحيى بن محمد بن عبد الله بن الافطس ١٨٤
 يحيى بن محمد بن زرب ٤٨
 يحيى (ابو منذر بن يحيى) ١٩٦
 يحيى بن منذر بن يحيى ١٧٠، ٢٠٠
 يحيى بن واسنو الامير ١٩١
 يحيى حفيد يحيى بن اسماعيل بن دنون ١٧٩ -
 ١٨٠، ٢٠٣، ٢٠٤
 يحيى بن يحيى الراوية ١٥
 ابو يحيى بن احمد بن صادق النجبي ١٨٩
 ١٩٠
 ابو يحيى بن ابي بكر بن مسعود المحاري ٢٩٩

الفهرس الثاني

في اسماء الاماكن

٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥	ابدة Ubeda ٢٩٣ ، ٢٧٢ ، ٢٦١
أشر Iznajar ٢٢٩	أربونة Narbonne ٣٣٥ ، ١٢
أشطوريش Asturias ٣٢٣ ، ٣٢٢	الارض الكبيرة Europe ٢١٩ ، ٦٧
آصلا Arzila ١١٩ ، ٤٢	أرغون Aragon ٢٩٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢
أطية Teba ٢٩٣ ، ٣٣٥	٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨
أغرناطة = غرناطة	الارك Alarcos ٣٣١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
أغمات ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ١٦٥ ، ١٦٤	أركش Arcos ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ١٤٢
افراغة Fraga ٢٥٩	أرملاط Guadimellato ٩٨ ، ٨٩
افرانسية France ٧٤	١١٣
افريقية ٢٢٨ ، ٨٩ ، ٦٥ ، ٣٢ ، ٨	أرنيط Arnedo ١٧٤
٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٠	أريولة Orihuela ٢١١ ، ١٩٤ ، ١٩٣
اقريطش Crête ١٦	٣٣٥ ، ٢٥٨
أقليج Uclés ١٣٦	استجة Ecija ٧٦ ، ٣٢ ، ٢٨ ، ٢٢
آلة Alava ٢١ ، ١٩	٢٦١ ، ٢٥٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٠
البيرة Elvira ٣١ ، ٣٠ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ٨	أستركة Astorga ٦٩ ، ١٢
١٤٠ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ٥٦ ، ٣٢	أسطبة Estepa ٢٨
٢٢٨ ، ٢١٢ ، ١٥٥	آسفي Safi ٢٧٩
أم سلمة (ريش) بقرطبة ١٠٣	الاسكندرية Alexandrie ١٦
انتقيرة Antequera ٢٨٨ ، ٢٥٥	أشبونة Lisbonne ٢٩٣ ، ٢٠
أنتيشة Atienza ٢٩٣ ، ٦٥ ، ٦٣ ، ٦٢	سبيلية Séville ٣٢ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٠
انجش ٣٤	٣٤ ، ٥٩ ، ١٢٠ ، ١٠٠ ، ١٢٩
اندراس Andarax ٣٣٥ ، ٢٩٦	١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢
أندوجر Andujar ٢٥٣	١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤
أنتيشة El Puig de Cebolla ٢٧٢	١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤
ايليا El Padron ٦٧	١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤
باب الدة بقرطبة ١١٩	٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١
باب موسى بالرية ١٩٢	٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

٣٣١ ، ٢٥٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥	يدير الدمري ٧٠
٢٧٢ ، ٢٧١	ابن يربوع السبي ١٢١
١٧١	يعقوب الحواري ٦٧
١٧٦ ، ٢٥٩	يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المنصور ٣٣١ ، ٢٦٩
٨٠٧	أبو يعقوب السلطان المريني ٢٩١
٢٧١ ، ٢٦٩	ابن يعلى الزناتي ٩٧
٢٨٧	يعيش بن محمد بن يعيش ٥٦
٥٤	عين الفقى ١٠٤
٢٣٠ ، ٣٣١	عين الدولة (لقب محمد بن عبد الله بن قاسم) ٢٠٨
٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٠	يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر ٣٠٨ ، ٣٠٦ - ٣٠٤
٣٣٠ ، ٣٣٢	يوسف بن يثت بن أبي عبدة ١٤٧
٣٣٦ ، ٣٣١	يوسف البطروجي (الثائر) ٢٤٨
٢٨٨ ، ٣٣٢	يوسف بن تاشفين ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣
٥٥	١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٣
	٢٠٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢

مكتبة جامعة القاهرة

١٢٢ ١٢٥ ١٥٦ ١٥٩ ١٢٤٦ ٢٩٧ ٣٠٩ ٣٣٣
 ٢٨٠ ٢٨٩ ٢٩٣ ٢٩٥ ٣٠٢ ١٠٣ الروض المحدث , روض (بقرطبة
 ٣٠٥ ٣٣٢ روضة Rueda ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦
 ١٩٨ جزيرة شقر Alora ٢٧٢ ٢٦٢
 جلّة (قرية) ٢٤٥
 جاليفة Galice ١٢ ١٨ ٢٠ ٢٣
 ٣٤ ٦٠ ٩٨ ١٧٨
 جنجلة Chondrila ٢٧٢
 الجوزة (قرية) ٢٥٠
 جيّات Jaen ١١ ٢٣ ٢٧ ١١٩
 ١٦٣ ١٧٦ ١٩٣ ٢٠٩ ٢٢٨
 ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣٤ ٣٥٩ ٢٦١
 ٢٧٨ ٢٩٣ ٣٣٢
 الحامة Alnama ٦٠
 الحجاز ١٢٨
 حمام الاليري (روض) بقرطبة ١٠٣
 الحمراء Alhambra بقرطبة ٢٩٦ ٣٠٦
 ٣٣٣ ٣٣٤
 حصن الاندلس Séville ٩
 حوانيت الريحاني (روض) بقرطبة ١٠٣
 الحريقة ٨٧
 خليدة ٣٤
 الخندق Alhandega ٣٧
 الخندق بقرطبة ١٠٣ ١١٦
 دار الصناعة بالمرية ١٩٢
 دانية Denia ١٧١ ١٩٢ ١٩٣
 ١٩٥ ٢١٧ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١
 ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٩٣ ٣٣٥
 دمشق Damas ٤٢
 دوير Duero ٦٧
 رباط الفتح Rabat ٢٨٠
 الرصافة بقرطبة ١٠ ١٤٧
 الرقاين (روض) بقرطبة ١٠٣
 رُندة Ronda ٣٤ ١٦٣ ٢٩١

٢٢٥ ٢٢٦ ٢٥٦ ٢٦٠ ٢٧١
 ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٩٣ ٣٣٧
 بنلوثة Camperlune ٦٩ ٧٢ ٨٧
 لبنت Alpuente ١٢١ ١٣٨
 الليّازين Alcaizin بقرطبة ٣٠٠
 بيسة Baeza ٢١٦ ٢٦١ ٢٩٣
 بيت المقدس Jerusalem ٦٧
 تآكر'ثا ٢٣٨
 تاهرت ٢٢
 تدوير ٨ ١٠٠ ٢١١ ٢٤٧
 تطيلة Tudéle ١٧١ ١٧٤ ١٧٦
 تلسان ٢٩٧ ٣١٨
 تونس ٣٨ ٢٧٢ ٢٧٤ ٢٧٥
 ٢٧٧ ٢٨٦
 الثغر الادنى ٢٠٥
 الثغر الاعلى ٦١ ٦٢ ٨٠ ٨٢
 ١١٣ ١١٨ ١٣٠ ١٣٦ ١٧٠
 ١٩٣ ٢٠٥ ٢٠٩
 الثغر الجوفي ١٨٣ ٢٤٣
 الجامع (روض) بقرطبة ١٠٣
 جبل طارق Gibraltar ٦
 جبل العمون Gibraleon ١٥٥ ٢١٠
 ٢٩٣
 جبل الفتح Gibraltar ٦ ٢٦٥ ٢٦٦
 ٢٩٧ ٣٠٤ ٣١٨ ٣٣٤ ٣٣٥
 جريبر'و ٦٩
 جريسيو (فج) ١٩
 الجزائر الشرقية Iles Baléares ٢١٧
 ٢١٨
 جزائر بني مزغنا Alger ٣٧ ١٩١
 ١٩٢ ٢٧٧
 جزر موقع نهر اشيلية ١٥٠
 الجزيرة الخضراء Algeciras ٣١ ٥٩
 ١١٩ ١٢١ ١٢٨ ١٤١ ١٤٢
 ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٥٦ ٢٦٠ ٢٧١
 ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٩٣ ٣٣٧
 باجة Baza ٢١ ٢٥١ ٢٩٣
 باغو Bago ٢١ ٢٥٢
 بشترا Berastro ٢٥ ٢٨ ٣٠ ٣١
 ٣٢ ٣٣ ٣٤ ١١٦ ١١٩ ١٢٣
 بجاج (حصن) ٢٩٤
 بجاية Bougie ٢٢٠
 البحر الزقاق Déroit de Gibraltar ١١٥
 ٢٨٩ ٢٩١
 البحر الشامي Méd terranée
 البحر المحيط Atlantique ٤ ٦٧ ٣٣٨
 البحيرة (بمراكش) ٢٦
 بربشترا Barbastro ١٧١
 برتغال Portugal ٦٧ ١٨٣ ٣٢٣
 ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٦ ٣٣٧
 برجولة Barcelone ٨٧ ٩٩ ٢٤١
 ٢٦٤ ٢٦٢ ٣٣٥ ٣٣٧
 برغش Purgos ٣٢٦ ٣٢٧
 برقة ٣٣٨
 بسطة Baza ٧٦ ٢٣٠ ٢٦٤
 البصرة (بالمغرب) ٤٣
 بطرنة Paterna ١٩٥
 بطليوس Badajoz ٢١ ٢٧ ١٤٢
 ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦ ٢٤٦ ٢٤٨
 ٢٥٣ ٢٩٣
 بغداد ٢٠ ٥٢ ٢٧٢ ٢٧٩ ٢٨٠
 بلاط منبث (روض) بقرطبة ١٠٣ ١٠٦
 بلاي Polei ٢٥ ٢٨ ٣١ ٣٢
 بلدة Belda ٣٣
 بلمة Palma del Rio ١٦٣
 بلنسية Valence ١٥٨ ١٧٥ ١٧٩
 ١٨٢ ١٩٠ ١٩٥ ٢٠١ ٢٠٢
 ٢٠٣ ٢٠٤ ٢١٧ ٢٢٢

الفهرس الثالث

في أسماء القبائل والعشائر والاجناس

مردنیش (بنو) ۲۷۴ - ۲۵۹
مروان (بنو) ۹۰ ، ۹۳ ، ۹۵ ، ۹۶ ، ۱۰۹
المريدون ۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۲۵۰
مريـن (بنو) ۶۸
مسلمة (بنو) ۱۸۲ - ۱۸۳
المعاهدون ۱۵ ، ۱۸ ، ۳۳
مفراوة ۶۶ ، ۱۱۹
مكتاسة ۱۸۲
الموحدون ۲۵۱ ، ۲۵۲ ، ۲۵۴ ، ۲۵۵ ، ۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۲۶۳ ، ۲۶۴ ، ۲۶۵ - ۲۶۷
۳۷۷
هايل (بنو) ۲۷
هاتم (بنو) ۱۲۸
هود (بنو) ۱۷۰ الخ
يحيى (بنو) ۲۱۰
يفرن (بنو) ۱۱۹ ، ۲۳۸
البنات ۳۶

الجابسية ٢٣٧
الادارسة ١٢٨، ٣، ٣٧، ٤٢، ١٢٨
ارنيان (بنو) ٢٤٠، ٢٣٨
ازداجة ٢٤٣، ١١٩، ٦٦
اشقبولة (بنو) ٢٩١ - ٢٨٧
الاعيطرة ٣٣٥
الافرنجة ١٩٦، ٢٣، ١٢
الافطس (بنو) ١٨٢
الالاميون ٢١٩
الانقليش ٢٠
الانكثير ٢٠
البربر والبرابرة ٧، ٣٦، ٦٣، ٧٠،
٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦،
١١٢ - ١٢٠، ١٢٧ - ١٣٥، ١٣٧،
١٤١، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٣،
١٥٥، ١٥٦، ١٧٦، ١٧٧، ٢٠٥،
٢١١، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٦،
٢٣٨
برزال (بنو) ١١٩، ١٣٧، ٢٣٦،
٢٣٧
برغواطة ١٤١، ٢٤٣
البشكنش والبشكيش ١٢، ٦٣
نجيب ١٨٢، ١٨٩
الترك ٣٠، ٣٦
الجزيريون ٢٤٣

الفهرس الرابع

في أسماء الكتب الواقعة في هذا الجزء

« الإحاطة » لابن الخطيب ٣٠٦ . ٣١٠	الخطيب ٣٦
« أخبار الدولة العائرية » لابن حيّان ٩٨	« رسائل اخوان الصفا » ٢٤٩
« الإنشاف » لابن المنذر ٥١	« ربحانة الكتب » لابن الخطيب ٣٠٦
« البضة الكبرى » لابن حيّان ١٥١	« طبقات القضاة » للخشي ٣٨
« تأريخ » ابن خميس ٢٥٤	« فلائذ العقيان » للفتح ١٦٠ . ١٨٥٠
« تأريخ الميزاني » ١٠٤	٢٠١ . ٢٠٦
« التمهيد والاستذكار » لابي الوليد الباجي ٥٧	« اللوحة البدوية » لابن الخطيب ٣٠٦
« توجيه حديث الموطأ » (كتاب في) ٥٢	« الماخز الطيبة ، في المفاخر الخطيبية » لابن الخطيب ٣١٠
« خلع الرسن . في التعريف بأحوال أبي الحنّ » لابن الخطيب ٨٠	« المتين » لابن حيّان ٨٤ . ١٢٧٠
« خلع النملتين » لأبي القاسم بن قسيّ ٢٤٩	« المدارك » لأبي الفضل عياض ٥٧
« الدلائل » (مختصر) لابن عبد ربه ٥٤	« المدونة » ٥٠
« الذخيرة » لابن بسمّام ٥٩	« المطمح » للفتح ٢٠٢
« ذكريات » عبد الله بن بلقيس بن زيري ١٩٨	« المظفرى » للمظفر ابن الأنطس ١٨٣
« رسالة الفلك ، في سياسة الملك » لابن	« المغرب » ١٨٩
	« المغرب » ٢٠٠
	« الموطأ » (شرح على) لابن الختاء ٥٥

NOTE BIBLIOGRAPHIQUE

I. — Le **Kitâb A'mâl al-a'lâm** fait l'objet d'une mention des auteurs maggribins suivants :

al-Makkarî, **Nath at-tîb**, éd. du Caire, 1302-04 H., IV, p. 244 ;

al-Makkarî, **Azhâr ar-riyâd**, éd. de Tunis, 1322 H., I, p. 177 ;

al-lfrânî, **Nuzhat al-hâdî**, éd. Houdas, Paris 1888, p. 259 ;

al-Kattânî, **Salwat al-anfâs**, éd. de Fès, 1310 H., III, p. 189 ;

an-Nâsirî, **Kitâb al-istiksâ'**, éd. du Caire, 1312 H., II, p. 133 .

II. — Description des manuscrits :

Sur le ms. de la Bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn, cf. A. Bel et 'Abd al-Haiy al-Kattânî, **Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El-Qarouiyîne à Fès**, Fès, 1918, p. 101 (no 1286) .

Sur le ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger (no 1617) et la copie faite pour Codera, cf. F. Codera, **Mision historica en Argelia y Tunez**, Madrid, 1892, p. 155 sqq., 177-178 ; E. Fagnan, dans la **Revue Africaine**, 1890, XXXIV, p. 259-292 ; le même, **Catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothèque-Musée d'Alger**, Paris, 1893, p. 449 .

Sur le ms. de la Bibliothèque de l'Académie d'Histoire de Madrid, cf. F. Codera, op. cit.

Sur les mss. de la Bibliothèque de la grande-mosquée az-Zaitûna à Tunis, cf. M. Roy, **Extrait du catalogue des manuscrits... de la Grande Mosquée de Tunis**, vol. I, Tunis, 1900, no 4936 et no 4937 .

III. — Editions et traductions partielles :

1o Chapitres sur Mujâhid de Dénia et son fils Ikbâl ad-dawla (présente édition, pp. 217-222), dans F. Codera, **Mochéhid, conquistador de Cerdana** (**Centenario Nichele Amari**, Palerme, 1910, vol. II, pp. 130-133) .

2o Liste des chapitres ; chapitres sur les 'Ubaidides et les Zirides d'Ifrikiya ; chapitres sur l'histoire de la Sicile, dans H. H. Abdul-

Wahab, **Contribution à l'histoire de l'Afrique du Nord et de la Sicile** (ibid., vol. II, pp. 427-482) .

3o Chapitres sur les révoltés de l'Algarve à la fin de la dynastie almoravide (présente édition, pp. 248-252), dans David Lopes, **Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano**, Lisbonne, 1911, pp. 130-137 .

4o Chapitre sur les rois chrétiens d'Espagne (présente édition, pp. 322-338), dans M. M. Antuna, **Una version arabe compendiada de la « Estoria de Espana » de Alfonso el Sabio (Al-Andalus, vol. I, 1933, Madrid-Grenade, pp. 105-154) ; cf. mon compte-rendu dans Hespéris, tome XVIII, 1934, p. 102 .**

IV. — Cf. aussi Brockelmann, G.A.L., II, p. 262 (4) ; A. Prieto Vives, **Los Reyes de taifas**, Madrid, 1926 .

Le **Kitâb A'mâl al-a'lâm** n'est pas cité dans l'article consacré à Ibn al-Khatîb par C. F. Seybold, dans l'**Encyclopédie de l'Islam**, vol. II, p. 421 .

de composition du Kitâb A'mâl al-a'lâm, dont le titre lui-même explique le but que se proposait Ibn al-Khatib en l'écrivant : pour le dédier à ses protecteurs, le sultan et son vizir régent, il désirait consacrer un ouvrage à la relation des règnes de tous les princes musulmans qui avaient reçu l'investiture avant d'avoir atteint l'âge de puberté. Ce n'était évidemment là qu'un artifice et un prétexte. Ce cadre historique étroit fut tout de suite rompu par Ibn al-Khatib, qui se mit à l'œuvre pour grouper les éléments d'une grande histoire musulmane universelle, peut-être une sorte de pendant de celle de son contemporain Ibn Khaldûn, et dans laquelle le Maghrib et l'Espagne devaient certainement tenir la place la plus considérable.

*
* *

On pourra trouver dans la contribution de M. H. H. Abdul-Wahhab au Centenario de Michele Amari le détail des titres de chapitres de la première partie du Kitâb A'mâl al-a'lâm, consacrée à l'Orient, et de la troisième, consacrée à l'Afrique du Nord et à la Sicile. Cette dernière partie semble bien être demeurée inachevée : la dynastie almohade est loin d'y occuper la place qu'elle mérite, et l'histoire des Mérinides, des 'Abdalwâdides et des Hafsides n'y est même pas abordée. Tout y décèle, comme l'a très bien fait remarquer M. H. H. Abdul-Wahhab, la hâte de l'auteur, qui aurait rédigé l'une des parties de son livre, sinon l'ensemble, dans l'espace de quarante jours à peine, si l'on en croit du moins une indication portée sur un manuscrit.

Il n'en est pas de même de la seconde partie, qui traite de l'histoire de l'Espagne musulmane et forme l'essentiel de tout l'ouvrage. On s'en aperçoit au premier examen du contenu. Si Ibn al-Khatib passe assez rapidement, en suivant d'ailleurs d'assez près le Kitâb al-Bayân al-mughrib d'Ibn 'Idârî al-Marrâkuchî, sur les événements d'Espagne antérieurs au X^eme siècle de J.-C., l'histoire postérieure est au contraire le plus souvent traitée avec une abondance et une précision auxquelles les chroniques publiées jusqu'ici ne nous avaient pas encore habitués.

Il y a d'ailleurs longtemps que l'importance de la partie espagnole du Kitâb A'mâl al-a'lâm avait été soulignée. Dès 1892, l'orientaliste F. Codera la signala au monde savant et forma le souhait qu'une édition en fût publiée. C'est ce vœu que nous

nous sommes attaché à réaliser, le jour où il nous a été possible d'utiliser le manuscrit qui se trouve à la bibliothèque de la grande-mosquée d'al-Karawîyîn à Fès, et qui est sans conteste le meilleur de ceux dont on dispose actuellement. Il nous a été en effet facile de nous rendre compte que tous les manuscrits connus de l'histoire d'Ibn al-Khatib (mss. d'al-Karawîyîn, d'Alger, de Tunis et de Madrid) appartiennent à la même famille et qu'ils présentent les mêmes lacunes, y compris l'arrêt brusque du récit marqué dans la présente édition à la page 286. L'abondance relative des copies n'a dans ces conditions pas rendu très aisé l'établissement d'un texte, qui, trop souvent, est d'une extrême concision et est rédigé dans une langue très littéraire, qui n'est point celle de la plupart des chroniqueurs occidentaux.

*
* *

Nous nous félicitons de l'initiative du Dar al-Makchouf de Beyrouth de publier une édition nouvelle du Kitâb A'mâl al-a'lâm, bien plus soignée que la précédente, qui est depuis longtemps épuisée, et pourvue des voyelles essentielles.

INTRODUCTION

Le Kitâb A'mâl al-a'lâm fi-man bûyi'a kabl al-ihtilâm min mulûk al-Islâm, dont une grande partie, relative à l'histoire de l'Espagne musulmane, fait l'objet de la présente édition, est l'un des derniers en date parmi les nombreux ouvrages que composa, au cours de sa vie mouvementée, le célèbre homme d'État et littérateur grenadin du XIV^e siècle, Lisân ad-dîn Muhammad Ibn al-Khatîb. Plusieurs orientalistes, F. Codera, E. Fagnan, H. H. Abdul-Wahhab, et, en dernier lieu, M. M. Antuna, qui ont décrit ce livre ou en ont publié des extraits, ont tour à tour indiqué dans quelles circonstances il fut composé. On se bornera, en renvoyant à leurs travaux, à rappeler brièvement ces circonstances.

Après avoir, pendant plusieurs années, joué un rôle considérable à la cour nasrite de Grenade auprès du sultan Muhammad V, dont il était le premier ministre, Ibn al-Khatîb dut, en 773 (1371), s'exiler d'Espagne à la suite d'accusations portées contre lui par ses détracteurs et passer au Magrib, où il se réfugia, à Tlemcen, auprès du sultan mérinide Abû Fâris 'Abdal-'Azîz. Celui-ci lui fit le meilleur accueil et refusa de le livrer au gouvernement de Grenade, comme ce dernier le pressait de le faire. Mais Abû Fâris mourut l'année suivante (774 — 1372), et son fils Abû Zaiyân Muhammad as-Sa'îd, qui n'avait pas quatre ans, fut proclamé à sa place. Ibn al-Khatîb fit alors tous ses efforts pour se concilier les bonnes grâces du régent du royaume mérinide, le vizir Abû Bakr Ibn Ghâzî. Effectivement, pendant le court règne du prince-entant, Ibn al-Khatîb jouit d'une entière immunité. Mais lorsque bientôt Abû Zaiyân fut déposé et qu'Abû 'Abbas al-Mustansir fut proclamé à sa place (776 — 1374), le malheureux exilé fut en proie, non sans raison, aux plus vives inquiétudes. On sait les conditions lamentables dans lesquelles, après avoir été emprisonné à Fès, il y fut étranglé une nuit par les émissaires de l'un de ses ennemis personnels les plus acharnés à sa perte.

C'est dans le court intervalle qui sépare la proclamation du petit souverain mérinide Abû Zaiyân et sa déposition, c'est-à-dire entre 774 et 776 (1372-1374), que se place exactement la date

LISAN AD-DIN IBN AL-KHATIB

HISTOIRE
DE
L'ESPAGNE MUSULMANE

(KITAB A'MAL AL-A'LAM)

TEXTE ARABE

PUBLIÉ AVEC INTRODUCTION ET INDEX

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne
Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques
de l'Université de Paris

DAR AL-MAKCHOUF

BEYROUTH

1956